
رواية
2.3.2022
هاروكي موراكامي
يوميّات طائر الزّنبرك
III
تَرجمة: أحمَد حسن المعيني
دار الآداب

هاروكي موراكامي

يوميَّات طائر الزنبرك

III

ترجمها عن الإنجليزيَّة: أحمد حسن المعيني

رواية

دار الآداب ـ بيروت

يوميَّات طائر الزنبرك

III

يوميّاتُ طائر الزنبرك III

هاروكي موراكامي / روائي ياباني

الطبعة الأولى عام 2021
NEJIMAKIDORI KURONIKURU

ISBN 978-9953-89-722-6

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com








daraladab.com

صيّادُ الطيور

تشرين الأوّل/ أكتوبر 1984 م إلى كانون الأوّل/ ديسمبر 1985 م

1

طائرُ الزنبرك في الشتاء

مضتْ أيّامي على حالها من دون تغيير، من نهاية ذلك الصيف الغريب وحتى مَقْدِمِ الشتاء. يتصرَّمُ كلُّ يومٍ من دون حادثٍ جديد، ثم ينتهي مثلما ابتدأ. تساقطَ المطرُ كثيرًا في أيلول/سبتمبر، لكنَّ تشرين الأوَّل/أكتوبر لم يكتملْ إلَّا وقد تخلَّلتْه عدَّةُ أيَّامٍ يتفصَّدُ فيها العَرَق. هكذا، لم يكن هناك ما يُفرِّقُ بين يومٍ وآخَرِ إلَّا حالةَ الجوّ. أمَّا أنا، فقد بذلتُ جَهدي في التركيز علىَ ما أراهُ حقيقيًّا ومُفيدًا. كنتُ أذهبُ إلى المسبح العموميّ كلَّ يومٍ تقريبًا، وأمشي، وأعِدُّ لنفسي الوجبات الثلاث.

غير أنِّي كنتُ بين الحين والآخر أشعرُ بطعنة الوحدة. الماءُ الذي أشربه، والهواءُ الذي أتنفَّسه، أحسُّ به مثل إبرٍ طويلةٍ تنغرز في جسدي. صفحاتُ الكتاب الذي أقرأه تبدو وميضَ أمواسٍ حادَّةٍ تهدِّدني. كانت تتناهى إلى مسامعي جذورُ الوحدة وهي

تنتشرُ زاحفةً إلى داخلي حين يسكت العالمُ عند الرابعة فجرًا.

*

غير أنَّ ثمَّة أشخاصًا قليلين أبَوْا أن يتركوني وحيدًا. بعث إليَّ أشخاصٌ من أسرة كوميكو رسائلَ يقولون فيها إنَّه لا يمكن أنْ تبقى كوميكو مُعلَّقةً هكذا، وينبغي عليَّ أنْ أوافق على إجراءات الطلاق. يقولون إنَّ هذا سوف يُنهي جميع المشكلات. كانوا في رسائلهم الأولى يتحدَّثون بنبرةٍ رسميَّة، يحاولون أنْ يضغطوا عليَّ، فلمَّا امتنعتُ عن الإجابة لجأوا إلى التهديد، ثم انتهَوا إلى نبرة الالتماس. وكلُّ الرسائل كانت تصبُّ في الموضوع ذاته.

في نهاية الأمر، هاتفني والدُ كوميكو. قلت له: «لم أقل إنَّني لن أوافق على الطلاق أبدًا. كلُّ ما في الأمر أنِّي أودُّ أنْ ألتقي كوميكو وأتحدَّثَ إليها، على انفراد. فإنْ اقتنعتُ بأنَّ هذا ما تريدُه فعلًا، فسوف أمنحُها إيَّاه. أمَّا غيرُ ذلك فلن أوافقَ عليه».

استدرتُ صوب نافذة المطبخ، ونظرتُ إلى السماء المدْلهِمَّة بالمطر وهي تمتدُّ على خطِّ الأفق. ظلَّ المطرُ ينهمرُ أربعة أيَّامٍ متتاليةٍ فوق هذا العالم الأسود المبتلّ.

قلتُ له: «قبل الزواج، تحدَّثنا أنا وكوميكو وناقشنا كلَّ شيء. فإنْ كنتُ سأطلِّقها، لا بدَّ من أن نناقش الأمر أيضًا».

لكنَّه ظلَّ يُعيدُ ويزيد في كلامه من دون أن يصل إلى شيء، من دون أن يصل إلى نتيجةٍ مفيدةٍ على الأقلّ.

*

ظلَّتْ لديَّ أسئلةٌ لا إجابات لها. فهل كانت كوميكو تريدُ

الطلاق فعلًا؟ وهل طلبتْ من أبويْها أنْ يُقنعاني بذلك؟ قال لي والدُها وأخوها نوبورو واتايا: «تقول كوميكو إنَّها لا تريدُ أن تراك». ربَّما لم يكن هذا كلُّه كذبًا. صحيحٌ أنَّ مِن عادة والدَي كوميكو تفسيرَ الأمور على النحو الذي يرتضيانه، لكنَّهما لا يختلقان الأشياء. كانا في الحقيقة شخصَيْن واقعيَّيْن، سواءٌ أكانَ هذا أمرًا محمودًا أم مرذولًا. إذنْ إنْ كان ما قاله والدُها صحيحًا، فهل كان أبواها «يتستَّران» عليها؟

لكنَّ هذا يبدو ضربًا من المستحيل. فكوميكو منذ طفولتها لم يكن الحبُّ واحدًا من العواطف التي تكنُّها لأبويْها وأخيها. لقد جاهدتْ سنواتٍ طوال كي تستقلَّ عنهم. قد تكونُ اختارتْ أن تهجرني فعلًا بعد أنْ اتَّخذتْ عشيقًا. وأنا إنْ رفضتُ تصديقَ ما قالتْه في رسالتها، إلَّا أنَّني أُدركُ أنَّه ليس مستحيلًا. لكنَّ الذي لا يمكنُ أن أصدِّقه هو أن تهجرني كوميكو فتذهبَ مباشرةً إليهم، أو إلى مكانٍ كانوا قد جهَّزوه لها، وأنَّها تفوِّضهم للتواصل معي.

كانت حَيرتي تزدادُ كلَّما فكَّرتُ في الأمر. ثمَّة احتمالٌ بأنَّ كوميكو تعرَّضتْ لانهيارٍ عاطفيٍّ ولم تعد قادرةً على الصمود بمفردها. واحتمالٌ آخر بأنَّها مُجبرةٌ على ما تفعله. هكذا، قضيتُ عدَّة أيَّام أُرتِّبُ الحقائق والكلمات والذكريات، إلى أنْ سلَّمتُ أمري وتوقَّفتُ عن التفكير. فالتخمينُ لم يوصلني إلى نتيجة.

*

كان الخريفُ يدنو من نهايته، بينما الشتاءُ يتربَّص من قريب. فعلتُ ما كنتُ أفعله كلَّ خريف؛ فكَنَستُ الأوراقَ المتساقطة في الحديقة ووضعتُها في أكياسٍ بلاستيكيَّة. ثم نصبتُ السلّمَ وأزلتُ

الأوراق من المزاريب. لم تكن ثمَّة أشجارٌ في حديقة بيتي الصغيرة، لكنَّ الريحَ كانت تعصفُ بأوراق الأشجار من حدائق الجيران. لم أستثقلْ هذا العمل، وكان الوقتُ يمضي بينما أرقُبُ الأوراق الذاوية وهي تسبحُ في شمس الظهيرة. هناك في حديقة جارنا الأيمن شجرةٌ كبيرة أثمرتْ توتًا أحمر، فظلَّتْ الطيورُ تحطُّ عليها وتزقزق، كأنَّها في سِجال. كانت طيورًا ملوَّنة، تغريدُها حادٌّ قصيرٌ يجرحُ الهواء.

فكَّرتُ في الطريقة المثلى لتخزين ملابس كوميكو الصيفيَّة. كان في وسعي أنْ أتخلَّص منها كما قالت، لكنَّني تذكَّرتُ مقدار الرعاية التي كانت تُحيط بها ملابسها، هذا إلى جانب أنِّي لستُ مضطرًّا إلى التخلُّص منها. فالمكانُ ليس ضيِّقًا على أيِّ حال. قرَّرتُ أن أتركها في مكانها.

لكنَّني كلَّما فتحتُ خزانة الملابس باغَتَني غيابُ كوميكو. كانت الفساتينُ المعلَّقة أشبهَ بقشرة كائنٍ حيٍّ كان موجودًا هنا. كنتُ أعرف تمامًا كيف تبدو كوميكو بتلك الملابس، وأحتفظُ بذكرياتٍ مقرونةٍ ببعضها. ألفيتُ نفسي جالسًا على طرف السرير، أُحدِّقُ في صفوف الفساتين والبلوزات والتنانير، فأفقدُ إحساسي بالوقت ولا أدري كم مكثتُ هناك. عشر دقائق، أو ساعة!

أحيانًا كنتُ أُحدِّقُ في فستانٍ من الفساتين فأتصوَّرُ رجلًا لا أعرفه يُساعدُ كوميكو في خلعه. كانت يداه تنزعُ الفستان عنها، ثم تبدأِ تنزعُ ما تحته من ملابس داخليَّة. تتحرَّكُ يداهُ فوق نهديْها، ثم تباعدُ فخذيْها. كنتُ أُبصرُ النهدَيْن والفخذَيْن في نعومتها البيضاء، بينما تتحرَّكُ فوقها راحتاه. لم أكن أريدُ أن أفكِّر في هذه

الأشياء، لكنِّي لم أملك من الأمر شيئًا. لعلَّها كانت تحدثُ في الواقع، وينبغي عليَّ أن أعتاد هذه الصُوَر. لم يكن بمقدوري أن أزيح الواقع.

كنتُ بين الحين والآخر أستذكرُ الليلة التي ضاجعتُ فيها كريتا كانو، غير أنَّ الذكرى لم تكن واضحة. حضنتُها في تلك الليلة وأولجتُ فيها عدَّة مرَّات. هذه حقيقةٌ لا يمكنُ إنكارها. لكنَّ شعوري باليقين بدأ يتلاشى كلَّما انقضى أسبوعٌ إثر أسبوع. فلمْ أستطع أن أستعيدَ صورًا واضحةً لجسدها، أو للكيفيَّة التي تداخلَ فيها جسدانا. بل إنَّ ذكريات ما فعلتُه معها سابقًا في عقلي (خارج الواقع) كانت أشدّ وضوحًا من ذكريات تلك الليلة. كانت صورتُها وهي تعتليني بفستان كوميكو الأزرق في غرفة الفندق الغريبة تزاورني مرارًا وتكرارًا، في وضوحٍ يثيرُ الدهشة.

*

في أوائل تشرين الأوَّل/ أكتوبر تُوفِّي عمُّ نوبورو واتايا، ذاك الذي كان نائبًا في البرلمان عن محافظة نيغاتا. فقد أُصيبَ بسكتةٍ قلبيَّةٍ بُعيد منتصف الليل وهو على فراش المرض في المستشفى، وتُوفِّي عند الفجر على الرَّغم من محاولات الأطبَّاء لإنعاشه. كانت وفاتُه متوقَّعةً بالطبع منذ وقتٍ طويل، وكانت الانتخاباتُ على الأبواب، لذلك لم يُضيِّع مناصروه وقتًا؛ فشرعوا ينفِّذون خطَّتَهم كي يرثَ نوبورو واتايا مقعدَ عمِّه في البرلمان. كانت لدى العمّ الراحل قاعدةٌ شعبيَّةٌ صلبةٌ من المحافظين، ما يعني أنَّ فوزَ نوبورو واتايا كان مؤكَّدًا لا محالة، إلَّا إنْ حدثَ أمرٌ جللٌ ليسَ في الحسبان.

قرأتُ الخبرَ في الصحيفة حين كنتُ في المكتبة العامَّة، وأوَّلُ ما خطر في بالي حينها هو أنَّ عائلةَ واتايا ستكون منشغلةً جدًّا من الآن فصاعدًا. سيكون طلاقُ كوميكو إذًا آخرَ ما يفكِّرون فيه.

*

العلامةُ الزرقاءُ المسودَّة التي كانت على وجهي لم تصغرْ، ولم تكبرْ. لم تسبِّبْ لي وجَعًا أو حمًّى. بل إنَّني بدأتُ أنساها مع الوقت، وكففتُ عن محاولة إخفائها بارتداء النظّارات الشمسيَّة أو القبّعات الكبيرة. لكنَّني كنتُ أتذكَّرها كلَّما خرجتُ أتسوَّق؛ إذْ يبدأُ الناس في التحديق فيَّ أو يشيحون بأبصارهم، ومع ذلك لم تعدْ هذه التصرُّفاتُ تُزعجني. ففي كلّ الأحوال لم تكن هذه العلامةُ تضرُّ أحدًا. كنتُ أتفحَّصُها كلّ صباحٍ حين أغسلُ وجهي وأحلق، لكنِّي لم ألحظْ أيّ تغيّرٍ عليها. لا في اللون، ولا في الشكل، ولا في الحجم.

أمَّا الأشخاصُ الذين أبدَوا قلقَهم من هذه العلامة المفاجئة فكانوا أربعةً على وجه التحديد: صاحبَ المغسلة الواقعة عند المحطَّة، والحلَّاقَ، والشابَّ الذي يعمل في محلِّ الكحول، وأمينةَ المكتبة العامَّة. فكلَّما سألني أحدٌ منهم عن العلامة أبديتُ شيئًا من الضيق، وقلتُ: «مجرَّد حادثٍ بسيط». فيردُّون بتعليقٍ يوحي باعتذارهم عن ذكر العلامة.

كنتُ أشعرُ أنَّني أبتعدُ عن نفسي بمرور الأيَّام. فإذا ما نظرتُ إلى يدي برهةً شعرتُ كأنِّي أخترقُها ببصري. لم أكنْ أتحدَّثُ إلى أحدٍ تقريبًا. لم يتَّصلْ بي أحدٌ أو يبعثْ إليَّ رسالة. كلُّ ما جاءني

في البريد فواتيرُ ورسائلُ إعلانيَّة، أغلبُها كُتَيِّبات ماركاتٍ عالميَّةٍ لكوميكو، فيها صورُ فساتين وبلوزات وتنانير تناسب فصل الربيع. كان الشتاءُ قارسًا، لكنِّني كنتُ أنسى تشغيل المدفأة أحيانًا، فلم أكنْ متأكِّدًا ما إذا كان البردُ حقيقيًّا أم هو مجرَّد شعورٍ داخليّ. كنتُ لا أشغِّلُ التدفئةَ إلَّا حين يقنعني مقياسُ الحرارة بأنَّ الجوّ باردٌ فعلًا. ومع ذلك، لم يذهب البردُ الذي في داخلي.

*

بعثتُ رسالةً إلى الملازم ماميا، وصفتُ له فيها ما حدث لي إجمالًا. قدْ تُحرجهُ رسالتي هذه، لكنَّني لم أجد شخصًا آخر أُكاتبه. افتتحتُ رسالتي بهذا التبرير نفسَه، ثم أخبرتهُ أنَّ كوميكو هجرتْني في اليوم نفسه الذي زارني فيه، وأنَّها كانت على علاقةٍ جنسيَّةٍ برجلٍ آخر منذ أشهر، وأنِّي قضيتُ ما يقربُ من ثلاثة أيَّامٍ في قاع بئرٍ كي أفكِّر، وأنِّي أعيش الآن وحيدًا، وأنَّ التذكارَ الذي تركه السيِّد هوندا لي لم يكن سوى صندوق وسكي فارغ.

فردَّ الملازمُ ماميا على رسالتي بعد أسبوع.

لا أُخفيك أنَّك كنتَ تشغلُ فِكري على نحوٍ غريبٍ منذ أنْ التقيْنا. فقد غادرتُ منزلك وأنا أشعرُ أنَّه ينبغي لنا التحدُّث أكثر، وأن «نُفصح عن دواخلنا» كما يُقال. لذلك كنتُ أشعر بشيءٍ من الندم لأنَّنا لم نفعل ذلك، فلسوء الحظّ طرأتْ بعضُ المشاغل استدعتْ عودتي إلى هيروشيما في تلك الليلة. وعليه، فقد أسعدتْني رسالتُك أيَّما سعادة. يساورني شعورٌ بأنَّ السيِّد هوندا كان يقصدُ أنْ يعرِّفنا إلى بعضنا بعضًا. لعلَّه كان يرى بأنَّ من

المفيد لي أن ألتقيك، ومن المفيد لك أن تلتقيني. لعلَّ مسألة التذكارات لم تكن سوى ذريعةٍ كي ألتقيك. وهذا ما قد يفسِّرُ موضوع الصندوق الفارغ. قد تكونُ زيارتي هي التذكار الذي يقصده.

أدهشني فعلًا أنَّك قضيتَ بعض الوقت في قاع البئر، فأنا ما زلتُ أشعرُ بانجذابٍ قويٍّ إلى الآبار. قد يتصوَّرُ المرءُ أنَّني بعد الحادثةِ التي مررتُ بها لن أفكِّر أبدًا في رؤية بئرٍ أخرى، لكنَّ العكسَ هو الصحيح. فإلى يومنا هذا كلَّما رأيتُ بئرًا لم أستطع أن أمنع نفسي من النظر فيها. فإنْ ألفيْتُها جافَّةً، شعرتُ برغبةٍ قويَّةٍ في النزول إلى قاعها. لعلِّي ما أزال أرجو أن أجدَ شيئًا هناك، أي أنَّني إذا ما نزلتُ إلى قاع البئر وانتظرتُ، فقد يكون من المحتمل أن أجد شيئًا. لستُ أتوقَّع أن تُعاد إليَّ حياتي طبعًا؛ فلم أعدْ أرجو شيئًا كهذا وأنا في هذه السنّ. ما أرجو أن أعثر عليه حقًّا هو معنى الحياة التي فقدتُها. ما الذي انتزعَها منِّي، ولماذا؟ أريد أن أعرف الجواب. الجوابَ الأكيد. لهذا، فأنا على استعدادٍ لتحمُّل ضياعٍ أشدّ وأعمقَ ممَّا أنا فيه، في مقابل الحصول على هذا الجواب. نعم، سوف أقبل بهذا العبء راضيًا مهما طالت السنواتُ التي بَقِيتْ من عمري.

لقد آلمني أنَّ زوجتك هجرتْكَ، لكنَّه أمرٌ لا أستطيع أن أُقدِّم فيه أيّ نصيحة. عشتُ فترةً طويلةً جدًّا محرومًا من الحبّ والأسْرة، فلستُ مؤهَّلًا للحديث في هذه الشؤون. لكنَّ رأيي هو أنَّه إذا ما كانت لديك أدنى رغبةٍ في انتظار عودتها قليلًا، فعليكَ أن تواصل الانتظار. هذا رأيي على أيِّ حال. أُدركُ تمامًا صعوبةَ

العيش وحيدًا في المكان الذي هجركَ منه شخصٌ ما، ولكنْ لا يوجد في هذا العالمِ أقسى من الوحشةِ التي تشعرُ بها إنْ لم يكن لديك ما ترجو حدوثَه.

أودّ أن أزور طوكيو قريبًا وألتقيك مرَّةً أخرى إنْ لم يكن لديك مانع، ولكنْ لسوء الحظّ لديَّ مشكلةٌ في ساقي، وقد يستغرقُ علاجُها بعضَ الوقت. أرجو أن تعتني بنفسك، وكُنْ بخير.

كنتُ في بعض الأحيان أتسلَّقُ الجدارَ وأشقُّ طريقي في الزقاق الملتوي إلى بيت مياواكي الخالي، فأقفُ هناك بمعطفي الطويل ووشاحٍ ألفُّه إلى حدِّ ذقني، ثم أخطو فوق عشب الشتاء الميِّت. كانتْ ثمَّة سحبٌ من ريحٍ شتويَّةٍ متجمِّدةٍ تصفِّر على أسلاك الكهرباء من فوقي. لقد دُكَّ المنزلُ بأكمله، وأُحيطَ الفِناءُ بسورٍ من الألواح. كنتُ أستطيع النظرَ إلى الداخل من فجوات السور، غير أنَّه لم يكن هناك ما يمكن رؤيته. فلا منزلَ، ولا أحجارَ أرصفةٍ، ولا بئرَ، ولا أشجارَ، ولا هوائيّ تلفازٍ، ولا تمثالَ طائر. لم يبقَ شيءٌ سوى رقعةٍ سوداء من أرضٍ باردة، تنحشرُ فيها خطوطُ جرَّارٍ وبضع لُفَيْفاتٍ من العشب. من الصعب أن يصدِّقَ المرءُ أنَّ بئرًا عميقةً كانت هنا في هذا الفناء، وأنِّي نزلتُ إلى قاعها.

اتَّكأتُ على السور وأخذتُ أنظرُ إلى منزل مايو كاساهارا، إلى المكان الذي كانتْ فيه غرفتُها في الطابق الثاني. لكنَّها لم تعد هنا، ولن تخرجَ كي تقول لي: «مرحبًا، سيِّد طائر الزنبرك».

*

ذات عصرٍ قارسٍ في منتصف شباط/فبراير، زرتُ مكتبَ العقارات الذي أخبرني خالي عنه، مكتب «سيتاغايا داييتشي». فكان أوّلَ من رأيتُ هناك موظّفةُ استقبالٍ في منتصف العمر. كانت هناك عدّة طاولاتٍ قرب المدخل، غير أنَّ المقاعد فارغة، وكأنَّ جميع السماسرة قد خرجوا في مواعيد عمل. ثمّة مدفأةٌ بالغاز تشعّ احمرارًا في منتصف الغرفة. وعلى أريكةٍ في ردهةٍ صغيرةٍ في الخلف يجلسُ رجلٌ عجوزٌ ضئيلُ الجسم، يكادُ يختفي خلف الصحيفة التي يقرأها. سألتُ الموظّفة عن السيّد إيتشيكاوا، فقال العجوزُ وهو ينظرُ صوبي: «أنا إيتشيكاوا. أيّ خدمة؟»

عرّفتُه بنفسي وذكرتُ له أنّني أسكنُ في بيتٍ من البيوت التي يملكها خالي.

فقال العجوزُ وهو يضع الصحيفة جانبًا: «آه، نعم. إذن فأنتَ ابنُ أخت السيّد تسوروتا!». ثم طوى نظّارةَ القراءة التي كان يرتديها، وأخذَ يتفحّصُني من رأسي حتى قدميّ. لا أدري أيّ انطباع تركتُه فيه. «تفضّل، تفضّل. هل تريد كوب شاي؟»

قلتُ له أنْ لا داعي لذلك، لكنّه إمّا لم يسمعْني أو تجاهلَ رفضي. فطلبَ من الموظّفة أن تعدّ الشاي. وما لبثتْ أنْ أحضرتْه إلينا، لكنّنا لمّا جلسنا قبالةَ بعضنا بعضًا نشربُ الشاي انطفأتْ المدفأةُ فاشتدّ البردُ في الغرفة. كانت هناك خريطةٌ تفصيليّةٌ على الجدار توضّح جميعَ المنازل في المنطقة، مع بعض العلامات التي أضافها شخصٌ ما بالقلم هنا وهناك. وإلى جانب الخريطة تقويمٌ عليه لوحةُ البرج الشهيرة لڤان غوخ. كان تقويمًا من تلك التي توزّعها البنوك لعملائها.

سألني العجوزُ بعد أن ارتشف من شايه: «لم أر خالكَ منذ فترةٍ طويلة. كيف حالُه؟»

«بخير. مشغولٌ كعادته. أنا أيضًا لا أراه كثيرًا».

«يُسعدني أنّه بخير. لا أدري كم سنةً مضتْ منذ آخر لقاءٍ بيننا. على الأقلِّ تبدو لي سنوات». ثم أخرج من جيب معطفه سيجارةً، وبعد تصويبٍ دقيقٍ استطاع أن يشعل عود ثقابٍ بسرعةٍ بالغة. «أنا الذي وجدتُ له المنزل، وظللتُ أُديره له فترةً طويلة. على أيِّ حال، يسعدني أنَّ لديه ما يشغله».

يبدو أنَّه لا يوجدُ لدى العجوز إتشيكاوا ما يشغله. قلتُ في نفسي لا بدَّ من أن يكون شبه متقاعد، يتردَّدُ إلى المكتب بين فترةٍ وأخرى كي يطمئنّ على عملائه القدامى.

«وما أخبارُ المنزل؟ مرتاحٌ فيه؟»

«نعم».

فهزَّ العجوزُ رأسه، وقال: «ممتاز. إنَّه منزلٌ جميل. قد يكونُ صغيرًا، لكنَّ موقعَه مميَّز. لطالما كان طالعُ هذا البيت خيرًا على من يسكنون فيه. ماذا عنك؟»

«أحوالي ليست سيِّئة». ثم قلتُ لنفسي إنَّني حيٌّ أُرزقُ على الأقلِّ. «ولكنْ لديَّ موضوعٌ آخر أريدُ أن أسألك عنه. يقولُ خالي إنَّك أعلمُ الناس بهذه المنطقة».

ضحك العجوزُ، وقال: «أعرفها حقّ المعرفة. قضيتُ ما يقربُ من أربعين عامًا أعملُ في عقاراتها».

«الموضوعُ الذي أريد أن أسألك عنه هو منزل مياواكي،

خلفَ منزلنا. لقد هدموه كما تعلم».

فقال العجوزُ وهو يزمُّ شفتيْه كأنَّه يبحثُ في أدراج ذاكرته: «نعم، أعرف. باعوا المنزل في آب/أغسطس الماضي. أخيرًا، تمكَّنوا من تسوية أمر القرض والملكيَّة والمشكلات القانونيَّة، فعرضوه في السوق. اشتراهُ أحد المضاربين على أنْ يهدمَ البيت ويبيع الأرض. البيوتُ التي تظلُّ خاليةً فترةً طويلة لا تُباع بسهولةٍ مهما كانت ممتازة. وبطبيعة الحال، الذي اشتراه غريبٌ عن هذا المكان؛ فأهلُ المنطقة لا يمكن أنْ يقرَبوا ذلك المنزل. هل سمعتَ القصص التي تُروى عنه؟»

«نعم سمعتُ. من خالي».

«إذن فأنتَ تعرف ما أقصده. كان بإمكاننا أن نشتري البيت ثم نبيعُه لشخصٍ لا يعرفُ عنه شيئًا، لكنَّنا لا نحبُّ التعامل بهذه الطريقة. المكسبُ الذي يأتي من ورائها يخلِّفُ مذاقًا كريهًا في الفم».

أومأتُ له موافقًا. «ومن الذي اشتراه إذن؟»

عقد العجوزُ حاجبيْه، ثم أخبرني باسم شركةٍ عقاريَّةٍ معروفة. «لعلَّهم لم يسألوا عن المكان، وانتهزوا الفرصة بالنظر إلى سعر الأرض وموقعها، فظنُّوا أنَّها ستدرُّ عليهم ربحًا سريعًا. لكنَّ الأمر لن يكون سهلًا».

«لم يتمكَّنوا من بيعه بعد؟»

فقال العجوزُ وهو يشبكُ ذراعيْه: «كادوا أنْ يُتمُّوا الصفقةَ بضع مرَّات، لكنَّهم لم ينجحوا. الأراضي غاليةُ الثمن، ولذلك

يتوخَّى الناسُ الحرصَ حين يختارون أرضًا. وحين يبدأون في السؤال عن مكانٍ ما، يسمعون قصصًا كثيرة، وفي حالتنا هذه، كانت كلُّ القصص سيِّئة. لذلك يصعبُ أن يشتري هذه الأرضَ إنسانٌ عاديٌّ بعد أن يسمع تلك القصص. وأغلبُ الناس الذين يعيشون هنا يعرفونها».

«كم السعر؟»

«السعر؟»

«أقصدُ سعرَ الأرض التي كان فيها منزل مياواكي».

رمقني العجوزُ إتشيكاوا على نحوٍ يشي بأنَّني أثرتُ فضوله.

«همم. مساحةُ الأرض تبلغ حوالى ثلاثة آلاف وخمسمئة قدم مربَّع. لا تصل إلى مئة تسوبو [وحدة قياس يابانيَّة]. سعرُ السوقَ الآن مليون ونصف يِن للتسوبو الواحد. الأرض تُعدّ من الفئة الأولى، في موقعٍ رائع يطلُّ على الجنوب. يمكنُ أن يصلَ سعرها بسهولةٍ إلى مليونٍ ونصف المليون، على الرَّغم من ركود السوق. المسألةُ قد تحتاجُ إلى صبرٍ قليل، لكنَّ البائعَ سيحصلُ على السعر الذي يريدُه، في الأوضاع العاديَّة. لكنَّ الأمور ليست عاديَّةً في حالة أرض مياواكي. السعرُ لن يرتفع أبدًا، وإنَّما سينزل. بل لقد نزل فعلًا؛ ووصل الآن مليون ين للتسوبو، ومع قليلٍ من التفاوض، يمكنك أن تشتري الأرض كلّها بمئة مليون ين».

«برأيكَ هل سينزل السعرُ أكثر؟»

هزَّ رأسَه بحدَّة. «طبعًا سينزل. سيصلُ إلى تسعمئة ألف للتسوبو بسهولة. وهذا هو السعر الذي اشتروا به الأرض أصلًا. لذلك فهم قلقون الآن. سيُسعدهم طبعًا أنْ يبيعوا الأرض بسعر

التكلفة. ولا أدري ما إذا كانوا مستعدِّين لقبول سعرٍ أقلَّ من ذلك. قد يقبلون الخسارة إن كانوا في ضائقةٍ ماليَّة، وإلَّا فبإمكانهم أنْ ينتظروا. لا أعلمُ ما يدورُ داخلَ الشركة، لكنَّ ما أعرفه هو أنَّهم نادمون على شراء الأرض. هذه الأرضُ ورطة».
ثم نفضَ رماد سيجارته في المنفضة.

سألتُه: «في فِناء ذلك البيت بئرٌ، أليس كذلك؟ هل تعرف شيئًا عنها؟»

«هممم. نعم صحيح. بئرٌ عميقة. لكنّي أظنّ أنّهم ردموها. كانت جافَّةً على أيِّ حال، ولا فائدةَ منها».

«هل تعرف متى جفَّت؟»

نظر العجوزُ إلى السقف برهةً، وهو يشبكُ ذراعيْه على صدره. «كان ذلك منذ زمنٍ طويل. لا أذكر، لكنَّني متأكِّدٌ أنَّني سمعتُ عن وجود ماءٍ فيها قبل الحرب. إذن لا بدَّ من أنَّها نضبتْ بعد الحرب. لكنْ لا أعرفُ متى تحديدًا. الأكيدُ أنَّها كانت جافَّةً حين انتقلتْ الممثِّلةُ إلى المنزل. دار حديثٌ طويلٌ عن ردم البئر أو تركها على حالها، ثم لم يحدث شيء. أعتقد أنَّ الأمر كان مضيعةً للجهد والوقت».

«لكنَّ البئر في بيت كاساهارا على الجانب المقابل ما يزال فيها ماء. ماءٌ عذب كما سمعت».

«ربَّما، ربَّما. الآبارُ في تلك المنطقة كانت دائمًا تحتوي على ماءٍ طيِّب المذاق. للأمر علاقةٌ بالتربة. فأوردةُ الماء حسَّاسةٌ كما تعلم. ليس غريبًا أن تجدَ ماءً في مكانٍ ما بينما لا يوجد أيّ ماءٍ بالقرب منه. هل ثمَّة شيءٌ يثير اهتمامك بتلك البئر؟»

«بصراحة، أريدُ أن أشتري الأرض».

رفع العجوزُ عينيْه وحدَّق فيَّ. ثم أخذ كوب الشاي وارتشف منه رشفةً من دون صوت. «تريد أن تشتري تلك الأرض؟» أجبتُه بإيماءةٍ واحدة.

أخرج العجوزُ سيجارةً أخرى من علبته وأخذ ينقر بها على سطح الطاولة. لكنَّه لم يُشعلْها، وإنَّما تركها بين أصابعه. مرَّر لسانَه على شفتيْه، وقال: «دعني أُذكِّرك بأنَّ المكانَ فيه مشكلاتٌ كثيرة. كلُّ الذين سكنوا فيه انتهوا إلى مصيرٍ تعيس. كلُّهم بلا استثناء. هل تُدرك هذا؟ لا يوجد مكسبٌ في هذه الأرض مهما قلَّ سعرُها. ومع ذلك تريدها؟»

«نعم، ما زلتُ أريدُها، على الرَّغم ممَّا أعرفه عنها. ولكنْ دعني أوضِّح شيئًا. أنا لا أملكُ ما يكفي من المال لشراء الأرض، مهما نزل سعرُها. لكنِّي أنوي تجميع المبلغ، وإنْ استغرقَ الأمرُ منِّي بعض الوقت. لذلك أودّ منك أن تُطلعَني على أيِّ مستجدَّاتٍ بخصوص الأرض. هل أعتمد عليك في معرفة تغيّرات السعر أو ما إذا ظهر شخصٌ يريد شراءها؟»

ظلَّ العجوزُ ينظر إلى سيجارته برهةً، وهو غارقٌ في أفكاره. ثم تنحنحَ وسعل. «لا تقلقْ، لديك ما يكفي من الوقت، فلن تُباع هذه الأرض قريبًا. أضمنُ لك ذلك. لن تُباع إلَّا إذا تنازلوا عن الربح فيها، ولنْ يحدثَ هذا قريبًا. خذ الوقت الذي تحتاج إليه لتجميع المبلغ. إنْ كنتَ فعلًا تريدُ الأرض».

أعطيتُه رقم هاتفي، فدوَّنه في دفترٍ أسودَ مبقَّعٍ بالعَرَق. وبعد أنْ أعاد الدفتر إلى جيب معطفه، نظر برهةً في عينيَّ ثم إلى

العلامة التي على خدِّي.

*

انقضى شهرُ شباط/فبراير، فلمَّا انتصفَ شهر آذار/مارس بدأ البردُ القارسُ ينحسر. أخذت الريحُ الدافئةُ تهبُّ من الجنوب، والبراعمُ تتفتَّحُ فوق الأشجار، ثم ظهرتْ طيورٌ جديدةٌ في الحديقة. بدأتُ أقضي وقتيَ في الأيَّام الدافئة جالسًا في الشرفة أنظرُ إلى الحديقة. وذات مساءٍ، جاءني اتِّصالٌ من السيِّد إتشيكاوا. قال إنَّ أرض مياواكي ما تزال معروضةً للبيع، وقد انخفض سعرُها. «قلتُ لكَ إنَّها لن تُباع قريبًا». ثم أضاف بنبرةٍ لا تخلو من الزهو: «لا تقلقْ، من الآن فصاعدًا سيستمرُّ السعر في النزول. كيف هي الأوضاع عندك؟ هل بدأ المبلغ يتجمَّع؟»

*

عند الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم، كنتُ أغسل وجهي، فلاحظتُ أنَّ العلامة بدأتْ تُصدر حرارة. فلمَّا وضعتُ إصبعي عليها، أحسستُ بدفءٍ لم أعهدْهُ فيها من قبل. اللونُ نفسُه بدا أشدّ ممَّا كان، مائلًا إلى الأرجوانيّ. انكتمَ نَفَسي، فأخذتُ أحدِّقُ في المرآة وقتًا طويلًا، طويلًا بما يكفي لكي أرى وجهيَ شيئًا آخر، لستُ صاحبَه. كانتْ العلامةُ تحاول أن تُخبرني بشيءٍ ما. بل إنَّها كانت تريدُ شيئًا منِّي. ظللتُ أنظرُ إلى نفسي في المرآة، وظلَّتْ نفسيَ تلك تنظرُ إليَّ أيضًا، في صمت. **لا بدَّ من أنْ آخذ تلك البئر. مهما كلَّف الأمر، لا بدَّ من أن آخذ تلك البئر.** هذا ما خلصتُ إليه.

2
الاستيقاظُ من السُّبات
*
بطاقةٌ أخرى
*
ليس للمال اسم

كنتُ أرغبُ في امتلاك الأرض، لكنَّ الرغبة وحدَها لم تكنْ تكفي بطبيعة الحال. والمبلغُ الذي كنتُ أستطيع أن أُدبِّره آنذاك يكاد يكون صفرًا. صحيحٌ أنَّني كنتُ أحتفظ ببعض المال الذي ورثتُه عن أمِّي، لكنَّه سوف يتبخَّر عمَّا قريبٍ تحت أنواء المعيشة. لم تكن لديَّ وظيفةٌ، ولا أملاكٌ أرهنُها. ولا يوجدُ أيّ مصرفٍ في العالم يقرضُ شخصًا مثلي من باب الطيبة والإحسان. لم يبق إلَّا أنْ أجد طريقةً سحريَّةً للحصول على

المال من الهواء. وفي أقرب وقتٍ ممكن.

مشيتُ ذات صباحٍ إلى المحطَّة واشتريتُ عشر بطاقات يانصيب مُسَلْسَلة الأرقامَ من فئة الخمسين مليون ين. فلمَّا عدتُ إلى البيت دبَّستُها في جدار المطبخ، وصرتُ أنظر إليها كلّ يوم. كنتُ في بعض الأحيان أقضي ساعةً كاملةً على الكرسيّ أرمقُها، وكأنّي أنتظر أن تخرجَ منها شيفرةٌ سرِّيَّةٌ لا يراها أحدٌ غيري. وبعد أيَّام من الانتظار والتحديق في البطاقات، باغتَني خاطرٌ مفاجئ: **لَن أفوز باليانصيب أبدًا.**

أدركتُ هذا من دون أدنى شكّ. لم يكنْ من الوارد أن تُحَلّ الأمورُ بهذه السهولة، بشراء بضع بطاقات يانصيب وانتظار الفَرَج. لا بدَّ من الحصول على المال بمجهودي. لذا، مزَّقتُ البطاقات وألقيتُ بها في سلَّة المهملات، ثم وقفتُ أمام مرآة المغسلة وأنا أتأمَّل. قلتُ لنفسي في المرآة: «لا بدَّ من طريقة». لم يأتني أيّ ردٍّ بطبيعة الحال.

*

فلمَّا تعبتُ من مَحبَسي هذا مع أفكاري، بدأتُ أمشي في الجوار. ظللتُ أجولُ هكذا لا ألوي على شيءٍ ثلاثة أيَّامٍ أو أربعة، وحين مللتُ من الحيّ ركبتُ القطار إلى شنجوكو. ساورتْني الرغبةُ في الذهاب إلى وسط المدينة حين عبرتُ المحطَّة. خطر لي أنَّ تغيير المكان يساعد على التفكير في بعض الأحيان. وخطر لي أيضًا أنَّني لم أركب قطارًا منذ فترةٍ طويلة جدًّا. وبالفعل، حين وضعتُ النقود في جهاز التذاكر شعرتُ

بذلك التوتُّر الذي يشعرُ به من يفعل شيئًا لم يألفْه. منذ متى لم أمشِ في شوارع المدينة؟ ربَّما منذ أنْ تبعتُ ذلك الرجل صاحب علبة القيثارة. أيْ قبلَ أكثر من ستَّة أشهر.

وجدتُ منظرَ الزحام في محطَّة شنجوكو جارفًا، فانحبَسَتْ أنفاسي، وتسارعتْ نبضاتُ قلبي، مع أنَّها لم تكن ساعة الذروة! لقيتُ صعوبةً بادئ الأمر في المرور بين هذه الحشود. الحقيقةُ أنَّه لم يكن زحامًا بقدر ما كان تيَّارًا هائجًا، كالسيل الذي يهدُّ المنازل ويجرفُها. مشيتُ بضع دقائق ثم شعرتُ بالحاجة إلى تهدئة أعصابي. دخلتُ مقهى يواجه الشارع واتَّخذتُ مقعدًا عند الواجهة الزجاجيَّة. لم يكن المقهى مكتظًّا في هذه الساعة المتأخِّرة من الصباح. طلبتُ كوبًا من الشوكولاته، وبدأتُ أنظر ساهمًا إلى المارَّة.

كنتُ شاردَ الذهن لا أحفلُ بمرور الوقت. قد تكون انقضتْ خمس عشرة دقيقة، أو عشرون، ثم أدركتُ أنَّ عينيَّ كانتا تلاحقان كلّ سيَّارة مرسيدس بنز، وكلّ جاغوار، وكلّ پورشه تزحفُ في ذلك الشارع المزدحم. كانت السيَّاراتُ تلمع بحدَّةٍ شديدةٍ تحت ضوء الشمس بعد ليلةٍ ماطرة، كأنَّما ترمزُ إلى شيء. كانت ناصعةً تمامًا. قلت في نفسي: **هؤلاء يملكون المال**. كان خاطرًا لم أعرفه من قبل. نظرتُ إلى انعكاس وجهي في الزجاج وهززتُ رأسي. هذه أوَّل مرَّةٍ في حياتي أشعرُ فيها بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى المال.

فلمَّا بدأ الناسُ يتوافدون على المقهى وقت الغداء، قرَّرتُ أن أتمشَّى. لم يكن لديَّ هدفٌ سوى أن أمشي في المدينة التي

لم أرها منذ فترةٍ طويلة. مشيتُ من شارعٍ إلى آخر، من دون فكرةٍ في رأسي إلَّا أنْ أتجنَّب الاصطدام بالعابرين نحوي. كنتُ أستدير يمنةً أو يسرةً أو أمشي قُدمًا، وفقًا لتغيُّر إشارات المرور، أو عفو الخاطر. وضعتُ يديَّ في جيبيّ، وركَّزتُ في حركة المشي نفسها، من الشوارع الصغيرة ومحالِّها التي تصطفُّ على جوانبها، إلى الأزقَّةِ الخلفيَّة ومحالِّ البورنو المزخرفة، إلى الشوارع المزدحمة ودور السينما، إلى الحيِّ الهادئ وضريح الشِنتو، عوْدًا إلى الشوارع الصغيرة. كان عصرًا دافئًا؛ فنصفُ الناس تقريبًا تركوا معاطفهم في البيوت أو في مكان العمل. ومن وقتٍ إلى آخر، تهبّ نسمةٌ لطيفة. سرعان ما أدركتُ أنِّي أقفُ في مكانٍ مألوف. نظرتُ إلى البلاطات من تحتي، والتمثال الصغير، والبناية الزجاجيَّة السامقة. كنتُ واقفًا في منتصف ساحةٍ صغيرةٍ عند بنايةٍ طويلة، هي نفسها التي كنتُ فيها في الصيف الماضي كي أنظر في وجوه المارَّة، وفقًا لنصيحة خالي. كنتُ قد قضيتُ أحد عشر يومًا أزور هذا المكان، انتهتْ بملاحقتي لصاحب علبة القيثارة إلى بنايته الغريبة، حيث اعتدى عليَّ بالمضرب. هكذا إذن، كنتُ أهيم على وجهي في شنجوكو، فوصلتُ من دون أن أدري إلى المكان نفسه.

اشتريتُ لنفسي قهوةً ودونت من محلّ «دنكن دونتس» كما كنتُ أفعل سابقًا، وأخذتهما معي إلى المقعد في الساحة. جلستُ هناك أطالع وجوه المارَّة، فهدأتْ نَفْسي. لا أدري لماذا كان الأمر ممتعًا، كما لو أنَّني قد وجدتُ كُوَّةً في جدار؛ بحيث لا يراني الناس وأنا أراقبهم. مضتْ فترةٌ طويلة لم أنظر فيها إلى

وجوه الناس هكذا. أدركتُ أيضًا أنَّ الأمر لا يتعلَّق بالوجوه فقط، بل إنَّني في الواقع لم أنظر إلى أيِّ شيءٍ في الشهور الستَّة الماضية. جلستُ منتصبًا على المقعد، وهيَّأتُ نفسي للنظر إلى الأشياء. فنظرتُ إلى الناس، والمباني العالية، ونظرتُ إلى السماء الربيعيَّة التي تفرَّقتْ فيها السحب، ونظرتُ إلى اللافتات الإعلانيَّة، ثم التقطتُ صحيفةً بقربي ونظرتُ فيها. ها قد بدأت الألوانُ تعودُ تدريجيًا مع حلول المساء.

*

في صباح اليوم التالي، ركبتُ القطار إلى شنجوكو مرَّةً أخرى، وجلستُ على المقعد نفسه ونظرتُ إلى وجوه المارَّة. ثم تناولتُ الدونت والقهوة مجدَّدًا، وركبتُ القطار عائدًا إلى البيت قبل ساعة الذروة المسائيَّة. أعددتُ لنفسي عشاءً، وشربتُ بيرة، واستمعتُ إلى الموسيقى على الإذاعة. ثم في اليوم التالي، فعلتُ الأشياء نفسها. ولم يحدثْ شيءٌ في ذلك اليوم أيضًا. لم أكتشف شيئًا جديدًا، ولا حللتُ لغزًا، ولا وجدتُ أجوبة. مع ذلك، فقد خامرني شعورٌ غامض بأنِّي كنتُ أقترب تدريجيًا من شيءٍ ما. كنتُ أستشعرُ هذه الحركة، هذا الاقترابَ المتزايد، كلَّما نظرتُ إلى نفسي في المرآة عند المغسلة. كانت علامتي تزداد حرارةً، ولونُها يزداد وضوحًا. قلتُ لنفسي: **علامتي حيَّة**. حيَّةٌ مثلي تمامًا.

كرَّرتُ ذلك الجدول يومًا بعد يوم، كما فعلتُ في الصيف الماضي؛ أركبُ القطار إلى شنجوكو بُعَيْد العاشرة صباحًا، وأجلسُ على مقعد الساحة عند البناية الطويلة، وأنظرُ إلى المارَّة

طوال اليوم من دون أن أشغل رأسي بأيِّ تفكير. وبين الفينة والأخرى، تبتعدُ الأصواتُ الحقيقيَّةُ عنِّي وتبهت، ويصبحُ كلُّ ما أسمعه خريرَ ماءٍ هادئ. خطرتْ في بالي مالطا كانو، فقد تحدَّثتْ من قبل عن الاستماع إلى صوت الماء. كان الماءُ موضوعَها الرئيس. لكنِّي لم أتذكَّر ما قالتْه مالطا كانو عن صوت الماء. ولا حتى استطعتُ أنْ أتذكَّر وجهها. كلُّ ما استطعتُ أن أستعيدَه هو تلك القبَّعةَ الحمراء الكبيرة. تُرى لماذا كانت ترتدي تلك القبَّعة الحمراء طوال الوقت؟

لكنَّ الأصوات عادتْ إليَّ شيئًا فشيئًا، فعدتُ من جديدٍ إلى التحديق في وجوه المارَّة.

*

في عصر اليوم الثامن من زياراتي إلى المدينة، تحدَّثت امرأةٌ إليَّ. لَحْظَتَها كنتُ أنظرُ في الاتِّجاه الآخر، وفي يدي كوبُ قهوةٍ فارغ. قالت: «لو سمحت». استدرتُ ورفعتُ عينيَّ إلى وجه المرأة الواقفة أمامي. كانت المرأة نفسها التي لقيتُها الصيف الماضي، الوحيدة التي تحدَّثتْ معي طوال الوقت الذي قضيتُه في الساحة. لم يخطر في بالي قطّ أنَّنا قد نلتقي مرَّةً أخرى، لكنَّها حين كلَّمتني بدا الأمرُ كما لو أنَّه النهايةُ الطبيعيَّة لتدفُّقٍ رائعٍ في الأحداث.

كانت متأنِّقةً في ملبسها مثل المرَّة السابقة، متأنِّقةً من حيث جودةِ ملابسها، والتنسيق بينها. كانت ترتدي نظَّارةً شمسيَّة بإطارِ ظهرِ السلحفاة، ومعطفًا أزرق مبطَّن الكتفَيْن، وتنُّورةً حمراء. أمَّا

بلوزتها فكانت حريريَّة، وعلى ياقة المعطف دبُوس زينةٍ ينمُّ عن ذوقٍ رفيع. حذاؤها الأحمر ذو الكعب العالي بسيطٌ في تصميمه، لكنَّ سعره بالتأكيد يكفي مصروف معيشتي عدَّة أشهر. في المقابل، كانت ملابسي باليةً، كالعادة. كنتُ أرتدي سترةً رياضيَّةً اشتريتُها حين التحقتُ بالكلِّيَّة، وقميصًا رماديًّا واسع الرقبة، وبنطال جينز مهترئًا، وحذاءً رياضيًّا أبيض لم يعد يُعرف لونُه الحقيقيّ.

وعلى الرَّغم من هذا الفارق إلَّا أنَّها جلستْ إلى جانبي، ووضعتْ ساقًا فوق الأخرى، ثم أخرجتْ علبة سجائر رفيعةٍ من حقيبتها من دون أن تتفوَّه بكلمة. عرضتْ عليَّ سيجارةً كما فعلتْ في الصيف الماضي، فاعتذرتُ مرَّةً أخرى. وضعتْ سيجارةً بين شفتيْها وأشعلتْها بولَّاعةٍ ذهبيَّةٍ طويلةٍ رفيعة. ثم خلعتْ نظَّارتها، ووضعتْها في جيب معطفها، وحدَّقتْ في عينيَّ كأنَّها تبحثُ عن عملةٍ نقديَّةٍ سقطتْ منها في بركةٍ صغيرة. حدَّقتُ أنا أيضًا في عينيْها. كانت عيناها غريبتَيْن، عميقتَيْن جدًّا، لكنَّهما خاليتان من أيِّ تعبير.

ضيَّقتْ عينيْها قليلًا، وقالت: «ها قد عدتَ إذن».

فأومأتُ لها.

رأيتُ الدخان يتصاعدُ من طرف سيجارتها الرفيعة، ثم ينزاحُ مع الريح. عادت تنظرُ إلى المشهد من حولنا، وكأنَّها تتأكَّدُ بعينيْها مِن الذي كنتُ أنظر إليه. لم يبدُ أنَّها وجدت شيئًا يُثيرُ اهتمامها، فعادتْ تنظرُ إليَّ. بدأتْ بالنظر مطوَّلًا إلى العلامة، ثم

إلى عينيّ، ثم أنفي، ثم فمي، ثم عادتْ إلى علامتي ثانيةً. شعرتُ بأنَّها كانت تريدُ أنْ تتفحَّصني مثل كلبٍ معروض، فتُباعدُ ما بين شفتيّ كي تتفحَّصَ أسناني، وتنظرُ في أذنيّ، وما إلى ذلك ممَّا يفعلونه.

قلتُ لها: «أظنّ أنّي في حاجةٍ إلى بعض المال الآن».

سكتتْ قليلًا ثم قالت: «كم؟»

«تكفيني ثمانية ملايين يِن».

رفعتْ عينيْها إلى السماء وكأنَّها تحسِب: لو أخذتُ هذا المبلغ من هناك، ونقلتُ شيئًا من هنا. في أثناء ذلك، شرعتُ أتفحَّص مكياجها. كانت ظلالُ عينيْها باهتةً، مثل ظلال فكرة، ورموشُها مفتولةً قليلًا، وكأنّها ترمزُ إلى شيءٍ ما.

قالت وهي تلوي شفتيْها قليلًا: «ليس مبلغًا هيِّنًا».

«نعم، بالنسبة إليَّ هو مبلغٌ هائل».

رمتْ سيجارتها ولم تدخِّن إلَّا ثلثَها، ثم سحقتْها جيِّدًا بكعب حذائها. بعدها أخرجتْ حافظةَ بطاقاتٍ جلديَّةٍ من حقيبتها، ووضعتْ بطاقةً في يدي.

«تعال إلى هذا العنوان عند الرابعة عصرًا بالضبط غدًا».

لم يكن على البطاقة شيءٌ سوى العنوان، وهو عنوان بنايةٍ في حيٍّ أكاساكا الثريّ. لا يوجد اسمٌ على البطاقة. قلَّبتُها، فوجدتُ الوجه الخلفيّ فارغًا. قرَّبتُ البطاقةَ من أنفي، فلم أجد أيّ رائحة. مجرَّد بطاقةٍ بيضاء عاديَّة.

سألتُها: «بلا اسم؟»

ابتسمتْ لي للمرَّة الأولى، وهزَّتْ رأسَها قليلًا من جانبٍ إلى آخر. «أعتقد أنَّ ما تريده هو المال. فهل للمال اسم؟»

هززتُ رأسي مثلها. ليس للمال اسمٌ طبعًا. لا يصبح المالُ مالًا إنْ كان له اسم؛ فالذي يمنح المال معناه الحقيقيّ هو انعدامُ اسمه، وقابليَّته الهائلة للتبادل.

نهضتْ وقالت: «إذن يمكنك المجيء عند الساعة الرابعة؟»

«إنْ جئتُ، فهل تُعطيني المال؟»

فقالتْ وعلى أطراف عينيْها ابتسامةٌ تشبه ما يخلِّفه الريحُ على الرمال: «مَن يدري؟». نظرتْ حولها مرَّةً أخرى، ثم عدَّلتْ تنُّورتها بمسحةٍ روتينيَّةٍ بيدها.

بعدها اختفتْ بخطواتٍ سريعةٍ في الزحام. فنظرتُ إلى السيجارة التي سحقتْها، وأحمرُ الشفاه على طرفها. ذكَّرني اللونُ الأحمر بقبَّعة مالطا كانو.

إن كان ثمَّةَ شيءٌ يطمئنني، فهو أنِّي لا أملك ما أخسره. ربَّما.

3
ما حدثَ ليلًا

سمع الصبيُّ الصوتَ الحادَّ بعد منتصف الليل. استيقظ، ومدَّ يده يُشعلُ المصباح. وما إنْ أشعلهُ حتى جلس على السرير ينظرُ في الغرفة. كانت ساعةُ الحائط توشك على الثانية صباحًا. لم يخطر في بال الصبيّ ما يمكن أن يحدث في العالم في وقتٍ كهذا.

ثم جاء الصوتُ مرَّةً أخرى، من الخارج عبر النافذة. كان واثقًا من ذلك. كان الصوتُ أشبه بلفِّ زنبركٍ هائل. من تُراه يلفُّ زنبركًا في هذا الوقت؟ لا، لحظة. كان الصوتُ يشبهُ لفَّ الزنبرك، لكنَّه لم يكنْ بالفعل زنبركًا. كان صوتَ طائر. حملَ الصبيُّ كرسيًّا إلى النافذة وصعدَ فوقه، ثم سحبَ الستائرَ وفتحَ النافذةَ شيئًا يسيرًا. يتوسَّطُ السماءَ قمرٌ كبيرٌ أبيض، بدرُ أواخرِ الخريف يكسو الفِناءَ بنوره. كانت الأشجارُ تبدو مختلفةً جدًّا عن

شكلها في ضوء النهار. لم تكنْ تحملُ شيئًا من أُلْفَتها المعتادة. فتلكَ شجرةُ السنديان تكادُ تبدو منزعجةً وهي ترتعشُ مع نَسَمات الهواء، فتُصدرُ صريرًا مزعجًا. أمَّا أحجارُ الحديقة فكانتْ أكثرَ بياضًا ونعومةً وهي تُحدِّقُ في السماء جامدةً، مثل وجوه الموتى.

بدا أنَّ صوتَ الطائر يأتي من شجرة الصنوبر. اشرأبَّ الصبيُّ ونظرَ عاليًا، لكنَّ أغصانَ الصنوبر الكبيرةَ كانت تُخفي الطائر. كان يريدُ أن يرى كيف يبدو هذا الطائر. أراد أنْ يحفظ لونَه وشكله كي يبحثَ عنه غدًا في الموسوعة المصوَّرة. لم يبقَ شيءٌ من النوم فيه على إثر هذه الرغبة القويَّة في المعرفة. فقد كانتْ متعتُه الكبرى أنْ يبحث في موسوعته عن الطيور والأسماك والحيوانات الأخرى. كانت مجلَّداتها الكبيرةُ مصفوفةً على رفٍّ واحد في غرفته. صحيحٌ أنَّه لم يدخل المدرسة الإبتدائيَّة بعد، لكنَّه يُحسن القراءة.

لفَّ الطائرُ زنبركه عدَّة مرَّاتٍ متتالية، ثم سكت. فتساءلَ الصبيُّ ما إذا كان أحدٌ غيرَه قد سمع الطائر. هل سمعه والداه؟ جدَّته؟ إن لم يسمعوه فسوف يُخبرهم بأمره في الصباح. طائرٌ له صوتٌ يشبه لفّ الزنبرك، كان في شجرة الصنوبر البارحة عند الثانية صباحًا. تمنَّى لو كان بمقدوره أن يرى لمحةً من الطائر! عندها سيستطيع أن يخبرهم باسمه.

لكنَّ الطائرَ لم يغرِّدْ ثانيةً، وحلَّ عليه صمتٌ كصمت الأحجار وهو هناك بين أغصان الصنوبرة يستحمُّ بنور القمر. وما لبثَتْ أنْ هبَّتْ ريحٌ باردةٌ في الغرفة، كما لو أنَّها نذير. ارتعشَ الصبيُّ، وأغلقَ النافذة. كان يُدركُ أنَّ هذا الطائرَ مختلف؛ فليس

عصفورًا أو حمامةً تَظهرُ للناس من دون تردُّد. كان قد قرأ في الموسوعة أنَّ معظم الطيور الليليَّة حذرةٌ ومخادعة. ربَّما كان الطائر يعرفُ أنَّ الصبيَّ يبحثُ عنه، لذلك لن يظهر أبدًا ما دام الصبيُّ ينتظرُ ظهوره. تساءل الصبيُّ ما إذا كان يجدرُ به الذهاب إلى الحمَّام. فهذا يعني أنْ يمشي في الممرِّ المظلم الطويل. لا. قرَّر أن يعودَ إلى سريره. لم تكنْ حاجتُه إلى الحمَّام شديدة، وفي وسعه أنْ ينتظر الصباح.

أطفأ الأنوارَ وأغمض عينيْه، لكنَّ تفكيرَه في الطائر حرمه من النوم. كان نورُ القمر يتسرَّبُ من تحت الستائر كأنَّه مدعوٌّ للحضور. فلمَّا صاح طائرُ الزنبرك مرَّةً أخرى، هبَّ الصبيُّ من فراشه. لم يُشعلْ الأنوارَ هذه المرَّة، وإنَّما ارتدى سترةً خفيفة فوق منامته، ووقف على الكرسيّ عند النافذة. فتح الستارةَ قدرًا ضئيلًا، وأخذ ينظرُ إلى شجرة الصنوبر. هكذا لن يلاحظَ الطائرُ وجودَه.

*

لكنَّ ما رآه الصبيُّ هذه المرَّة كان طيفًا لرجُلَيْن. حبسَ أنفاسَه. انحنى الرجُلان مثل ظلَّيْن أسوديْن أسفل الصنوبرة. كان كلاهما يرتدي ملابس داكنة، وأحدُهما يعتمرُ قبَّعةً ذات حوافّ. تساءل الصبيّ عمَّا يفعله هذان الغريبان في حديقة بيته في منتصف الليل. ولماذا لم ينبح الكلب؟ ربَّما ينبغي له أن يُخبر والديْه فورًا، لكنَّ فضوله أبقاه عند النافذة. كان يريدُ أن يرى ما يفعله الرجُلان.

وعندها، من دون أيِّ إنذارٍ، صاح طائر الزنبرك مرَّةً أخرى. هكذا أخذ يُطلقُ صريرَه الطويل مرَّةً تلو الأخرى في عتمة الليل. ولكنْ بدا أنَّ الرجلَيْن لم يلاحظا. لم يتزحزحْ الرجُلان ولم ينظرا للأعلى. ظلَّا جاثيَيْن تحت الشجرة، متواجهَيْن. بدا أنَّهما يتناقشان في أمرٍ ما، في نبرةٍ خفيضة، لكنَّ الصبيّ لم يستطعْ أنْ يتبيَّنَ الوجهَيْن بسبب الأغصان التي تحجبُ نورَ القمر. وما لبثَ الرجُلان أنْ نهضا في اللحظة نفسها. كان هناك فارقٌ في الطول بينهما يصلُ إلى عشرين سنتيمترًا. كلاهما رفيع، والأطول منهما (ذلك الذي يعتمرُ قبَّعة) كان يرتدي معطفًا طويلًا. أمَّا القصيرُ، فكان يرتدي ثيابًا أضيق.

اقتربَ القصير من شجرة الصنوبر ووقفَ عندها، ينظرُ إلى أغصانها. وبعد برهةٍ، بدأ يربِّت على جذعها ويمسكه بيديْه كأنَّما يتفحَّصه، ثم وثبَ عليه فجأة. بعدها، من دون أيّ مجهودٍ يُذكر (أو هكذا بدا للصبيّ)، أخذ يتسلَّقُ الشجرةَ مثل لاعب سيرك. كان الصبيُّ يعرفُ هذه الشجرة وكأنَّها صديقٌ حميم، ويعرفُ أنَّ تسلُّقَها لم يكنْ أمرًا يسيرًا. كان الجذعُ ناعمًا زلقًا، ولا يوجدُ شيءٌ يمكنُ التشبُّثُ به إلَّا إذا وصلتَ عاليًا جدًّا. ولكنْ لماذا كان الرجلُ يتسلَّقُ الشجرة في منتصف الليل؟ هل كان يحاولُ الإمساكَ بطائر الزنبرك؟

أمَّا الرجل الطويل، فوقف عند جذع الشجرة ينظرُ إلى الأعلى. سرعان ما اختفى الرجلُ القصير. كانت الأغصان تخفْخف من وقتٍ إلى آخر، ما يعني أنَّه كان ما يزال يتسلَّق الشجرة. لا بدَّ من أنَّ طائر الزنبرك سيُلاحظ اقترابه ويطير بعيدًا.

قد يكون الرجل ماهرًا في تسلُّق الأشجار، لكنَّ طائر الزنبرك لن يكون صيدًا سهلًا. رجا الشابُّ في نفسه أنْ يستطيع إلقاءَ نظرةٍ على طائر الزنبرك قبل أنْ يهرب. حبسَ أنفاسه، في انتظار صوت الرفرفة. لكنَّ الرفرفةَ لم تأتِ، ولا أيُّ صيحةٍ أخرى.

*

مرَّ وقتٌ طويلٌ جدًّا من دون صوتٍ أو حركة. كلُّ شيءٍ سابحٍ في نور القمر الأبيض الكاذب، بينما الفِناءُ يبدو مثل قاع بحرٍ مبتلٍّ رُفع الماء عنه. أخذ الصبيُّ يُحدِّقُ في الصنوبرة والرجل الطويل، بينما هو مأخوذٌ لا يقوى على الحركة. لم يكنْ في استطاعته أن يُحوِّل عينيْه عمَّا يراه وإنْ حاول. تضبَّب الزجاجُ بأنفاسه. لا بدَّ من أنَّ الجوّ كان باردًا في الخارج. ظلّ الرجلُ الطويل واقفًا ينظرُ إلى الأعلى، واضعًا يديْه على خاصرتيْه، من دون أنْ يتحرَّك، كما لو أنَّه قد تجمَّد في مكانه. خطر للصبيِّ أنَّه كان قلقًا على صاحبه، ينتظر أنْ ينجزَ مهمَّته وينزل من شجرة الصنوبر. ليس من المستغرب أن يكونَ الرجل قلقًا؛ فقد كان الصبيُّ يعلمُ أنَّ النزول من الشجرة أصعبُ من تسلُّقها. وفجأةً، مشى الرجل مبتعدًا في عتمة الليل، كما لو أنَّه تخلَّى عن الأمر برمَّته!

شعر الصبيُّ بأنّه الوحيد الذي تُرك هناك. فالرجلُ القصيرُ اختفى في الصنوبرة، والطويلُ ذهب. أمَّا طائر الزنبرك فظلَّ محافظًا على صمته. لم يدرِ الصبيُّ هل يوقظُ والدَه أم لا، لكنَّه كان يعرف أنَّ والده لن يصدِّق ما يقوله. «بالتأكيد كان مجرَّد حلم من أحلامك». والواقعُ، أنَّ الصبيَّ كان كثيرَ الأحلام، وكثيرًا ما

كان يخلط بين الحلم والواقع، لكنَّه لم يأبه بما يقوله الآخرون. كان الحدثُ حقيقيًا. طائر الزنبرك والرجُلان. كلُّ ما في الأمر أنَّهم اختفوا فجأةً. لعلَّ والده يصدِّقه إنْ هو أحسن الشرح.

ثم أدرك الصبيُّ أنَّ الرجل القصير كان يُشبه أباه كثيرًا. كان أقصر من والده بالتأكيد، لكنَّ الشبه بينهما يكاد يصل إلى حدِّ التطابق في هيئة الجسم والحركات. ولكنْ لا، والدُه لا يستطيع أنْ يتسلَّق شجرة. لم يكن رشيقًا أو قويًّا. وكلَّما فكَّر في الأمر ازدادتْ حَيرته.

عاد الرجلُ الطويل إلى جذع الشجرة، ومعه شيءٌ في يديْه: مجرفةٌ وكيسٌ قماشيٌّ كبير. وضع الكيس أرضًا وبدأ يحفرُ قرب جذور الشجرة. ثم أصدرتْ المجرفةُ صوتًا حادًّا عند ارتطامها بالأرض. قال الصبيُّ في نفسه لا بدَّ من أنْ يستيقظ الجميعُ الآن. كان صوتًا واضحًا قويًّا!

غير أنَّه لم يستيقظ أحد، وواصل الرجلُ حَفْرَه من دون توقُّف، وبدا غير قلقٍ من أنْ يسمعه أحد. وبالنظر إلى الطريقة التي كان يستخدمُ بها المجرفة، بدا أنَّه أقوى بكثيرٍ ممَّا يبدو، على الرَّغم من طوله ونحافته. كان يعمل من دون كلل، ومن دون أن يضيِّع شيئًا من جهده. فلمَّا وصل إلى حجم الحفرة الذي أراده، أسند المجرفة على الشجرة ووقف ينظر إلى الأسفل. الغريبُ أنَّه لم ينظرْ للأعلى طوال هذا الوقت، كما لو أنَّه نسي صاحبه الذي تسلَّق الشجرة. بدا أنَّ كلّ ما يهمُّه الآن هو الحفرة. بدأ القلق يساور الصبيّ. لو كان مكانه لشعر بالقلق على ذلك الرجل الذي صعد.

أدرك الصبيُّ من كومة التراب أنَّ الحفرة لم تكن عميقة، إذْ ربَّما تصل إلى ما فوق ركبته. وبدا الرجل راضيًا بحجم الحفرة وشكلها. فمال إلى الكيس وأخرج منه شيئًا أسود ملفوفًا بقماش. وبالنظر إلى الطريقة التي كان الرجل يمسكه بها، بدا أنَّه شيءٌ ليِّنٌ ناعم. فهل كان الرجل على وشك أنْ يدفن جثَّةً في تلك الحفرة؟ تسارعتْ نبضات الصبيّ حين خطرتْ هذه الفكرة في باله، لكنَّ الذي كان في القماشة لا يزيد عن حجم قطَّة. وإنْ كان بشرًا، فلن يكون سوى طفلٍ رضيع. ولكنْ لماذا يدفنُ شيئًا كهذا **في فِناء بيتنا؟** ازدرد الصبيُّ ما تجمَّع من لعابٍ في فمه، وارتعبَ من صوت ابتلاعه. ربَّما كان الصوت عاليًا بما يكفي لكي يسمعه الرجل.

عندها، صاح طائر الزنبرك وكأنَّ الصوت قد أثاره، فلفَّ زنبركًا أكبر بكثير جدًّا ممَّا سبق.

فلمَّا سمع الصبيُّ تلك الصيحة شعر بفطرته أنَّ شيئًا مهمًّا على وشك أنْ يحدث. عضَّ شفتَيْه وبدأ يحكُّ ذراعَيْه من دون وعي. ثم شعر أنَّه ما كان ينبغي له أن يرى شيئًا من هذا. لكنَّ الأوان قد فات، ومن المستحيل أنْ يُبعد عينَيْه الآن عن المشهد الواقع أمامه. باعدَ شفتَيْه وضغط أنفه على زجاج النافذة، فقد أصابه الشللُ من هَول هذه المشاهد الغريبة التي كانت تحدثُ في فِناء بيته. لم يعد يرجو أنْ يصحوَ أحدٌ من أسرته. **لن يستيقظَ أحدٌ، مهما علتْ الأصواتُ هنا. أنا الحيُّ الوحيدُ الذي أستطيع أن أسمعها. هكذا هو الأمر منذ البداية.**

انحنى الرجلُ الطويل، ووضع ذلك الشيء الملفوف بالقماش

الأسود بعنايةٍ فائقة في قاع الحفرة. ثم انتصب واقفًا، وأخذ يُحدِّق فيه. لم يستطعْ الصبيّ أنْ يتبيَّن النظرة التي علتْ وجه الرجل تحت حافَّة قبَّعته، ولكنْ بدا أنَّه اكتسى تعبيرًا كئيبًا حزينًا. نعم، هي جثَّةٌ بالتأكيد. هكذا خطر في بال الصبيّ. وما لبث الرجل أنْ وصل إلى قرار، فرفع المجرفة وبدأ يردم الحفرة. فلمَّا انتهى، أخذ يدكُّ التراب تحت قدميْه ويسوِّيه. بعد ذلك، وضع المجرفة على جذع الشجرة، وحمل الكيس القماشيّ في يده وابتعد بخطواتٍ بطيئة. لم ينظر إلى الوراءِ مرَّة. ولم ينظرْ إلى الشجرة من فوقه. وطائرُ الزنبرك لم يصدرْ أيّ صوتٍ آخر.

استدار الصبيُّ كي ينظر إلى ساعة الحائط. ضيَّق عينَيْه في العتمة، فاستطاع بصعوبةٍ أنْ يعرف الوقت: الساعة الثانية والنصف صباحًا. ظلَّ يرقبُ الصنوبرة عشر دقائق أخرى من خلال فتحة الستارة، تحسُّبًا لشيءٍ قد يتحرَّك هناك، غير أنَّ نعاسًا شديدًا بدأ يجتاحه، وكأنَّ غطاءً حديديًّا ثقيلًا كان يجثم على رأسه. كان يريد أنْ يعرف ما سيحدث للرجل القصير وطائر الزنبرك، لكنَّه لم يعد يستطيع أنْ يُبقيَ عينَيْه مفتوحتَيْن. حاول جاهدًا أنْ يخلع السترة قبل أنْ يفقد وعيَه، ثم انسلَّ تحت البطَّانيَّة وغاب في نومٍ عميق.

4

شراءُ حذاءٍ جديد

*

الشيءُ الذي عاد إلى البيت

مشيتُ من محطَّة المترو في أكاساكا عبر شارعٍ مفعمٍ بالحياة، تصطفُّ المطاعمُ والحانات على جانبيْه، متَّجهًا إلى البناية الواقعة أعلى منحدرٍ صغير. كانت بنايةً عاديَّة المنظر، لا هي جديدةٌ ولا قديمة، لا كبيرةٌ ولا صغيرة، لا أنيقةٌ ولا مُتداعية. في الطابق الأرضيّ منها شركةُ سفريَّات تعرض في واجهتها الزجاجيَّة ملصقَيْن لجزيرة ميكونوس وعربات الكيبل في سان فرانسِسكو. غير أنَّ الملصقَيْن قد بهت لونهما لطول عهدهما في الواجهة. كان هناك ثلاثة موظَّفين يعملون بجدٍّ داخل الشركة، يتحدَّثون على الهاتف أو يطبعون شيئًا على الحاسوب. تظاهرتُ

بالتفرُّج على الملصقَين، فأخذتُ أنظر إلى المشهد داخل الشركة كي يمرَّ الوقتُ في انتظار الساعة الرابعة. لسببٍ لا أعرفه، بدا وكأنَّ بيني وبين ميكونوس وسان فرانسِسكو سنواتٍ ضوئيَّة.

كلَّما أمعنتُ النظر في هذه البناية أدركتُ كم هي عاديَّة، كما لو أنَّها شُيِّدت بتصميمٍ أوَّليّ بالقلم الرصاص من النوع الذي قد يرسمه أيّ طفلٍ صغيرٍ لو طُلب منه، أو كما لو أنَّها شُيِّدت عن قصدٍ هكذا كي لا تلفت النظر. وعلى الرَّغم من أنِّي كنت دقيقًا في تتبُّع العناوين وأنا أبحث عن هذا المكان، إلَّا أنَّها لفرط بساطتها كدتُ أتجاوزها من دون أنْ ألاحظها. فمدخلُها الأماميّ كان متواريًا قرب باب شركة السفريَّات. نظرتُ إلى لوحات الأسماء، فبدا لي أنَّ معظم مكاتب البناية قد استأجرتْها شركاتٌ صغيرة، مثل مكاتب المحاماة والمهندسين المعماريِّين وشركات الاستيراد وأطبَّاء الأسنان. كنتُ أرى انعكاس وجهي في عدَّة لوحات منها لفرط لمعانها، لكنَّ لوحة المكتب رقم (602) كان قد ذهب لونُها لطول عهدها. لا بدَّ من أنَّه قد مضى على المرأة وقتٌ طويل في هذا المكتب. كُتب على اللوحة: «أكاساكا لتصميم الأزياء». هدأتْ هواجسي حين أدركتُ أنَّ اللوحة قديمة.

كان هناك بابٌ زجاجيٌّ مقفلٌ بين البهو والمصعد. ضغطتُ على جرس المكتب رقم (602) ونظرتُ حولي باحثًا عن الكاميرا التي افترضتُ أنْ تنقل صورتي إلى شاشة مراقبةٍ في الداخل. ثمَّة جهازٌ صغير يُشبه الكاميرا في زاوية سقف البهو. وما لبث أنْ علا أزيزٌ وفُتح الباب، فدخلتُ.

دلفتُ إلى المصعد البسيط تمامًا في شكله، وصعدتُ إلى

الطابق السادس، وبعد لحظاتِ حيرةٍ في الممرِّ البسيط تمامًا وجدتُ باب المكتب (602). تأكَّدتُ أوَّلًا من وجود اسم «أكاساكا لتصميم الأزياء» على الباب، ثم قرعتُ الجرس مرَّةً واحدة.

فتح الباب شابٌّ رشيقٌ قصير الشعر بملامح متناسقة. ربَّما كان أوسمَ رجلٍ رأيته في حياتي. لكنَّ ملابسه هي التي لفتت نظري أكثر من ملامحه. كان يرتدي قميصًا شديد البياض، وربطة عنقٍ خضراء داكنة بتشكيلٍ رفيع الذوق. لم تكنْ ربطةُ العنق أنيقةً فحسب، بل كانتْ مربوطةً في عقدةٍ رائعة؛ فكلّ لفَّةٍ وثَنْيَةٍ تُشبه ما يمكن أن يراه المرء في مجلَّة أزياء رجَّاليَّة. لا يمكنني أنْ أصل إلى هذا المستوى أبدًا في عَقدِ ربطة العنق، ووجدتُ نفسي من دون شعورٍ أتساءل كيف فعلها. هل هي مهارةٌ اكتسبَها أم أنَّه ورث الدقَّةَ والانضباط؟ كان بنطالُه رماديًّا داكنًا، وحذاؤه بنِّيًّا منبسطًا بشرَّابات. كان كلُّ شيءٍ فيه يبدو جديدًا، كما لو أنَّه ارتداه لأوَّل مرَّةٍ منذ دقائق.

كان أقصرَ منِّي. ارتسمتْ على شفتيْه ملامحُ ابتسامة، وكأنَّه سمع لتوِّه نكتةً فابتسم لها. ليستْ نكتةً بذيئة، بل من تلك النكات التي قد يحكيها في العهود السابقة وزيرُ خارجيَّةٍ لوليّ العهد في حفلةٍ ما، فيضحك الحضورُ ضحكةً متأدِّبة نصف مكتومة. بدأتُ في التعريف بنفسي، لكنَّه هزَّ رأسه هزَّةً خفيفة مشيرًا إلى أنَّه لا داعي لقول شيء. دعاني إلى الدخول بإشارةٍ من يده، ثم ألقى نظرةً سريعة على الممرِّ قبل أنْ يغلق الباب، ولم يقل شيئًا. نظر إليَّ وقد ضيَّق عينَيْه كأنَّما يعتذر عن عدم قدرته على الكلام كي لا

يوقظَ النمر الأسود النائم بجانبه. طبعًا لا أقصدُ أنَّه كان هناك نمرٌ أسود نائم بجانبه، لكنَّ تصرُّفه كان يوحي بذلك.

كنتُ واقفًا في غرفة انتظارٍ بها مقعدٌ وأريكة جلديَّة تبدو مريحة، ومشجبٌ خشبيّ للمعاطف، ومصباح. على الجدار البعيد بابٌ واحد يبدو أنَّه يفضي إلى الغرفة المجاورة. وإلى جانب الباب طاولةٌ خشبيَّة بسيطة عليها حاسوبٌ كبير. أمَّا المنضدة التي أمام الأريكة فكانت صغيرةً تكاد لا تتَّسع لدليل الهاتف. الأرض مغطَّاةٌ بسجَّاد أخضر فاتح. تنبعثُ موسيقى جوزِف هايدن بصوتٍ خفيض من سمَّاعاتٍ مخفيَّة في مكانٍ ما. وعلى الجدار ملصقاتٌ جميلة لأزهارٍ وطيور. تُعرفُ من النظرة الأولى أنَّ هذه الغرفة متقنة الترتيب. وهناك رفوفٌ على الجدار عليها نماذج أقمشةٍ ومجلَّات أزياء. لم يكن أثاثُ المكتب باذخًا أو جديدًا، لكنَّه يبعث في النفس ارتياح المنظر المألوف.

قادني الشابُّ إلى الأريكة، ثم ذهب إلى الطاولة وجلس في مواجهتي. فتحَ راحتيْه باتِّجاهي مُشيرًا إليَّ بأنْ أنتظر قليلًا. فاكتفى بابتسامةٍ بسيطة عوضَ أنْ يقول: «المعذرة، أرجو ألَّا يزعجك الانتظار قليلًا»، واكتفى برفع إصبعه بدلًا من قول: «لن تنتظر طويلًا». هكذا بدا أنَّه يستطيع قول ما يريده من دون كلام. فأومأتُ له إيماءةً بسيطة بمعنى: «لا بأس»، إذْ بدا لي من غير اللائق أنْ أتحدَّث في وجوده.

بعد ذلك، تناول كتابًا من جانب الحاسوب كأنَّه يمسك بشيءٍ مكسور، وفَتَحه في الصفحة التي توقَّف عندها. كان كتابًا كبيرًا أسود اللون منزوع الغلاف، لذلك لم أستطع أن أتبيَّن

عنوانه. ومنذ اللحظة التي فتح فيها الكتاب تبيَّن أنَّ تركيزه قد تحوَّل بالكامل إلى الكتاب وحده، فبدا أنَّه نسي وجودي. كنتُ أودّ لو أقرأ شيئًا أنا أيضًا، كي أزجي الوقت، ولكنْ لا يوجد ما أقرأه. وضعتُ ساقًا فوق ساق، وارتحت في جلستي، وأخذت أنصت إلى موسيقى هايدن (مع أنِّي لم أستطع الجزم بأنَّه هايدن). كانت موسيقى جميلة، لكنَّها من ذلك النوع الذي يذوب في الهواء فور انبعاثه. على طاولة الشابّ هاتفٌ أسود، وحاوية أقلام رصاص، وتقويم، إلى جانب الحاسوب طبعًا.

كنتُ أرتدي الثياب نفسها التي ارتديْتها في اليوم السابق. السترةَ الرياضيَّة، والقميص، والجينز الأزرق، والحذاء الرياضيّ. كنتُ قد أخذت ما وجدته أمامي قبل الخروج من البيت. لكنَّ حذائي بدا قذرًا مهترئًا في هذه الغرفة المرتَّبة الأنيقة، وفي وجود هذا الشابّ الوسيم المهندم. بل بالأحرى كان قذرًا ومهترئًا **بالفعل**، فقد تحلَّل كعبُه، وتغيَّر لونه، وامتلأ أعلاه بالثقوب. عانى هذا الحذاء كثيرًا وتحمَّل الكثير. كنتُ أرتديه كلّ يوم في العام الماضي، فتسلَّقتُ الجدار به مرَّاتٍ لا حصر لها، ووطئتُ به على براز كلب عدَّة مرَّات في الزقاق، ونزلتُ به إلى قاع البئر. لا عجب إذن أنْ يكون قذرًا. ومنذ أنْ تركتُ وظيفتي لم يخطر في بالي قطّ أن أفكِّر في الحذاء الذي أرتديه. حين تفحَّصته الآن غمرني الشعور بالوحدة والهجران. قلتُ لنفسي حان الوقت لكي أشتري حذاءً جديدًا. منظرُ حذائي مروِّع.

وما لبثتْ أنْ انتهت معزوفة هايدن، نهايةً مفاجئة ومضطربة. وبعد وقفةٍ قصيرة، بدأتْ تنبعث أنغام عزفٍ قيثاريّ لباخ (مع أنِّي

لا أستطيع الجزم بأنَّه باخ). رحتُ أضع ساقًا فوق الأخرى مرَّةً تلو المرَّة. رنَّ الهاتف. وضع الشابُّ قصاصة ورقٍ في الصفحة التي توقَّف عندها، ووضع الكتاب على الطاولة، ثم التقط السمَّاعة، وأومأ إيماءةً صغيرة. كان ينظر إلى التقويم على مكتبه، ثم وضع علامةً عليه بقلم رصاص. بعد ذلك، قرَّب السمَّاعة من سطح المكتب وقرع الطاولة مرَّتيْن، كما لو أنَّه يقرع بابًا. وبعدها أغلق الخطّ. لم تستمرّ المكالمةُ أكثر من عشرين ثانية، لم يقل خلالها هذا الشابُّ كلمةً واحدة. بل إنَّني لم أسمع صوته منذ أنْ دخلت. هل كان أبكم؟ كان يسمعُ بالتأكيد، فقد ردَّ على الهاتف واستمع إلى ما كان يقوله الشخص الآخر.

أخذ ينظر إلى الهاتف برهةً وكأنَّه يفكِّر. ثم نهض من دون صوت، ومشى في اتِّجاهي، وجلس إلى جانبي. بعدها، وضع يديْه على ركبتيْه في تناظمٍ مُتقَن. كانت يداه رفيعتَيْن رقيقتَيْن، مثل ما قد يتوقَّعه المرء من النظر إلى وجهه. ثمَّة تجاعيد حول مفاصل أصابعه. لا توجد أصابع من دون تجاعيد؛ فهي تحتاج إلى بعض التجاعيد على الأقلِّ كي تتحرَّك وتنثني. لكنَّ تجاعيد أصابعه لم تكن كثيرة. كانت في الحدِّ الضروريّ الأدنى. كنتُ أنظر إلى يديْه باستراق النظر قدر الإمكان. قلتُ في نفسي لا بدَّ من أن يكون ابنَ المرأة. فأصابعهُ تشبه أصابعها. ولمَّا دخلتْ هذه الفكرةُ في رأسي بدأتُ ألاحظ تشابهاتٍ أخرى بينهما: الأنفَ الصغير الحادّ، وصفاء العينَيْن. وبدأتْ ترتسمُ على شفتيْه الابتسامةُ اللطيفة مرَّةً أخرى، تظهرُ وتختفي على نحوٍ طبيعيّ جدًّا، مثل كهفٍ شاطئيّ تحت رحمة الأمواج. ثم ما لبثَ أنْ نهض على

قدميْه، بالرشاقة نفسها التي جلس بها، وقالت شفتاه بصمت: «من هنا، لو سمحت». وعلى الرَّغم من غياب الصوت إلَّا أنَّني عرفتُ تمامًا ما كان يريد قوله. وقفتُ وتبعتُه، ففَتح الباب وقادني إلى الداخل.

خلف الباب مطبخٌ صغير ومغسلة، ثم غرفةٌ أخرى تُشبه غرفة الانتظار التي كنتُ فيها لكنَّها أصغر. فيها أريكةٌ جلديَّة قديمة أيضًا ونافذةٌ تشبه نافذة الغرفة الأخرى. سجَّاد الأرضيَّة كان باللون نفسه أيضًا. وفي منتصف الغرفة منضدة عملٍ كبيرة، عليها مقصَّات وأدوات وأقلام رصاص وكتب تصميم مصفوفة بترتيبٍ دقيق. هناك أيضًا مانيكانان صغيران. أمَّا النافذةُ فعليها ستارتان، إحداهما قماشيَّة والأخرى من الدانتيل، وكلتاهما مسدلةٌ تمامًا. كانت الغرفة معتمةً بعض الشيء، فقد أُطفأتْ أنوارُ السقف، فبدا المكانُ أشبه بنهارٍ غائم. قرب الأريكة مصباحٌ أُطفئت إحدى أنواره. وأمام الأريكة طاولةٌ صغيرة عليها مزهريَّة زجاجيَّة بها زنابق. كانت الأزهار جديدة، وكأنَّها قُطفت قبل لحظات، والماء في المزهريَّة صافٍ. لا يُسمع صوتُ الموسيقى في هذه الغرفة، والجدران خاليةٌ من أيّ صورٍ أو ساعات.

أومأ لي الشابّ صمتًا مرَّةً أخرى، يقصدُ هذه المرَّة أنْ أجلس على الأريكة. وما إنْ جلستُ على الأريكة حتى أخرج شيئًا يُشبه نظَّارات السباحة من جيب بنطاله ووضعه أمام عينيّ. كانت **بالفعل** نظَّارة سباحة، مصنوعةً من المطَّاط والبلاستيك، تمامًا كالتي أستخدمها حين أذهب إلى حمَّام السباحة. ولكنْ لا أدري لماذا أحضَرَها هنا!

ثم قال: «لا تَخَف». إنْ شئنا الدقَّة، فهو لم «يقل» شيئًا. كلُّ ما فعله هو أنْ حرَّك شفتَيْه وأصابعه قليلًا، لكنَّني استطعتُ أنْ أفهم ما كان يقوله. فأومأتُ له.

«من فضلك البس هذه. لا تنزعها. ولا تحرِّكها. مفهوم؟»

أومأتُ ثانية.

«لنْ أؤذيك أبدًا. ستكون بخير، لا تقلق».

أومأتُ.

خطا الشابُّ إلى خلف الأريكة ووضع النظَّارة فوق عينيَّ، ثم شدَّ حزامها حول رأسي وضَبَط مكان العينَيْن. الفرقُ الوحيد بين هذه النظَّارة والتي كنتُ أستخدمها هو أنّني لا أستطيع أن أرى شيئًا بهذه النظَّارة. فقد طُلِيَت العدستان البلاستيكيَّتان بطبقةٍ سميكة. لفَّني ظلامٌ تامّ، مع أنَّه مُصطنع. لم أكن أرى شيئًا، ولا أتبيَّن الضوء الآتي من المصباح. تملَّكَني شعورٌ بأنِّي أنا أيضًا طُليتُ بطبقةٍ سميكة من شيءٍ ما.

وضع الشابُّ يديْه على كتفيّ كأنَّه يطمئِنُني. كانت أصابعه رقيقةً رفيعة، لكنَّها لم تكن هشَّةً على الإطلاق. كان بها حضورٌ قويّ يوحي بأنَّها أصابع عازفٍ ترتاح على مفاتيح البيانو. من أصابعه، استشعرتُ حُسْن طويَّته، أو شيئًا من ذلك. كانت أصابعه تقول: «ستكون بخير. لا تقلق». فأومأتُ. ثم غادر الغرفة. في الظلام، كنتُ أسمع وقع خطواته تبتعد، ثم صوتَ بابٍ يُفتح، ثم يُغلق.

*

بقيتُ جالسًا في الوضع نفسه بعد أن غادر الشابّ الغرفة. كان ثمَّة شيءٌ غريب في تلك العتمة. كان العجزُ عن رؤية الأشياء هو نفسه الذي خبرتُه سابقًا في البئر، غير أنَّ هذه العتمة بها شيءٌ مختلف. فلا يوجد لها اتِّجاهٌ أو عمق، ولا وزنٌ أو ملمس. كانت أقرب إلى العدم منها إلى العتمة. لقد أُخذ بصري موقَّتًا. شعرتُ بتيبُّسٍ في عضلاتي، وجفافٍ في فمي. ما الذي سيحدث لي؟ ثم تذكَّرتُ لمسة أصابع الشابّ. **لا تقلق**. ولا أدري ما الذي جعلني أشعر بأنَّه يمكنني تصديق «كلامه».

كانت الغرفة ساكنةً تمامًا، حتى إنِّي حين حبستُ أنفاسي غمرني إحساسٌ بأنَّ العالم قد توقَّف، وأنَّ الماء سوف يبتلع كلّ شيءٍ مع الوقت، فيغرق في أعماقٍ لانهائيَّة. لكنَّ العالم كان ما يزال يتحرَّك كما يبدو. وما لبثتْ أنْ فتحتْ الباب امرأةٌ وخطتْ بهدوءٍ إلى الغرفة.

عرفتُ أنَّها امرأةٌ من رائحة عطرها. لم يكن عطرًا يمكن أنْ يستخدمه الرجال. ولعلَّه كان عطرًا غالي الثمن. حاولتُ أن أتذكَّر هذه الرائحة، لكنِّي لم أستطع الجزم. فحين حُرمت من بصري وجدتُ أنَّ حاسَّة الشمّ عندي قد اختلَّت. لا يوجد شيءٌ أكيد سوى أنَّ العطر الذي أشمّه كان مختلفًا عن عطر المرأة الأنيقة التي قابلتها ودَعتْني إلى هنا. كنتُ أسمع حفيف ملابس المرأة وهي تمشي في الغرفة ثم تجلس إلى يميني. كانت جلستُها على الأريكة خفيفة، فأدركتُ أنَّها امرأة ضئيلة.

أخذتْ تُحدِّق بي، فكنتُ أحسّ بعينيْها مركّزتَيْن على وجهي. أدركتُ أنَّ بإمكان المرء أن يحسّ حين ينظر إليه أحدٌ ما، وإنْ لم

يكن يرى شيئًا. لم تتحرَّك المرأة، وواصلتْ تحديقها فيَّ فترةً طويلة. أحسستُ بأنفاسها البطيئة، لكنَّني لم أسمعها. ظللتُ على وضعي السابق، لم ألتفتْ. فجأةً، أحسستُ بحرارةٍ بسيطة في العلامة التي على وجهي. ولعلَّ لونَها كان أوضح من المعتاد. أخيرًا، مدَّت المرأةُ يدها ووضعت أطراف أصابعها على العلامة، بحرصٍ شديد كما لو أنَّها تتفحَّص شيئًا ثمينًا، رقيقًا. ثم بدأتْ تمسِّدها.

لم أعرف كيف أتصرَّف، أو ما الذي كان متوقَّعًا منِّي أنْ أفعله. فإحساسي بالواقع كان بعيدًا جدًّا. شعرتُ بانفصالٍ غريب، كما لو أنَّني كنتُ أحاول القفز من سيَّارةٍ إلى أخرى تتحرَّك بسرعةٍ أكبر. كنتُ موجودًا في المسافة الفارغة بينهما، في بيتٍ خالٍ. لقد أصبحتُ بيتًا خاليًا، مثل بيت مياواكي. جاءت هذه المرأة إلى البيت الخالي، ولسببٍ غير معلوم بدأتْ تمرِّر يديْها على جدرانه وأعمدته. لا أدري ما كان غرضها، لكنَّني إذْ كنتُ بيتًا خاليًا (ولا شيء أكثر) لم أستطع أن أفعل شيئًا (ولم أكن في حاجةٍ إلى أن أفعل شيئًا). وما إنْ خطرتْ هذه الفكرة في بالي حتى استطعتُ أنْ أرتاح قليلًا.

لم تقل المرأةُ شيئًا، وران على الغرفة صمتٌ مطبق فيما عدا حفيف ملابسها. كانت المرأة تُمرِّر أطراف أصابعها على بشرتي كما لو أنَّها تحاول أنْ تقرأ نصًّا مخبوءًا منقوشًا هناك منذ آلاف السنين.

وأخيرًا، توقَّفتْ عن تمسيد العلامة. وقفتْ، وجاءتْ من خلفي، وبدأت الآن تستخدم لسانها، لا أصابعها. لعقتْ علامتي،

مثلما فعلتْ مايو كاساهارا في الصيف الماضي. غير أنَّ طريقتها كانت أكثر نضجًا بكثيرٍ من طريقة مايو كاساهارا. كان لسانُها يتحرَّك ويَثبتُ على بشرتي بمهارةٍ أكبر بكثير. تُراوح بين درجة ضغطها على بشرتي، وحركاتها، وزواياها، فكانت تتذوَّق علامتي وتمصّها وتثيرها. ثم أحسستُ بنبضٍ تحت حزامي. لم أكن أريد أنْ أنتصب. لا معنى لذلك أبدًا. لكنَّني لم أستطع أن أقاوم.

حاولتُ أن أضع صورتي فوق صورة البيت الخالي. تخيَّلتُ نفسي عمودًا، أو جدارًا، أو سقفًا، أو أرضيَّةً، أو سطحًا، أو نافذةً، أو بابًا، أو حجرًا. شعرتُ حينها أنَّ هذا هو أكثر شيء منطقيّ يمكنني أن أفعله.

أُغمضُ عينيّ وأنفصلُ عن جسدي، أنفصلُ عن حذائي القذر، ونظّارتي الغريبة، وانتصابي السخيف. الانفصالُ عن الجسد ليس صعبًا. بل إنَّه يريحني، ويمنحني القدرة على نبذ الضيق الذي أشعر به. أنا حديقةٌ تخنقها الأعشاب، طائرٌ حجريّ لا يطير، بئرٌ جافَّة. أعرف أنَّ هناك امرأةً في داخل البيت الخالي الذي هو أنا. لا أستطيع رؤيتها، لكنَّ هذا لا يُزعجني. لئنْ كانت تبحث عن شيءٍ في الداخل، فلِمَ لا أعطيها إيَّاه؟

مرورُ الوقت يزداد غموضًا على غموض. فمن بين أنواع الوقت المتوافرة لديَّ لا أعود أعرف أيُّها أستخدم. يعودُ وعيي إلى جسدي شيئًا فشيئًا، فتخرجُ المرأة. تخرج من الغرفة بالهدوء الذي دخلتْ به. بحفيف ملابسها. برائحة عطرها. بصوت الباب ينفتح، ثم يُغلق. ما يزال شيءٌ من وعيي **هناك** كبيتٍ خالٍ. وفي الوقت نفسه، ما أزال **هنا**، على هذه الأريكة بصفتي أنا. أسأل نفسي:

ماذا أفعل الآن؟ لا أستطيع تحديد أيُّهما هو الواقع. شيئًا فشيئًا، يبدو أنَّ كلمة «هنا» تنفصم إلى قسميْن في داخلي. أنا **هنا**، لكنَّني أيضًا **هنا**. وكِلَا الأمريْن يبدو حقيقيًّا بالنسبة إليَّ. هكذا أغمسُ نفسي في هذا الانفصال الغريب وأنا جالسٌ على الأريكة.

*

سرعان ما فُتح البابُ ودخل شخصٌ إلى الغرفة. عرفتُ من وقع الخطوات أنَّه الشابّ. جاء خلفي ونزع النظَّارة. كانت الغرفة معتمة، فلا ضوء فيها سوى من ذلك المصباح. فركتُ عينيَّ، كي تتكيَّفا مع عالم الواقع. كان الشابُّ يرتدي بذلة. لونها رماديٌّ مع مسحة لونٍ أخضر، فكانت متناسبة جدًّا مع لون ربطة عنقه. أخذَني من ذراعي بابتسامةٍ خفيفة، وساعدني على النهوض، ثم اقتادني إلى بابٍ خلفيّ. فتح الباب فإذا هو دورة مياه، فيها مرحاض، وخلفه مكانٌ للاستحمام. كان المرحاض مغطًّى، فجلس عليه الشابُّ وهو يفتح رشَّاش الماء. انتظرَ إلى أنْ بدأ الماءُ الساخن ينهمر، ثم أشار لي بأنْ أستحمّ. أخرجَ صابونةً جديدة، فتحها وناولني إيَّاها. ثم خرج من الحمَّام وأغلق الباب. لم أفهم لماذا ينبغي عليَّ أن أستحمّ!

أدركتُ أخيرًا أنَّني كنتُ أنزع ملابسي. وصلتُ إلى ملابسي الداخليَّة. خطوتُ إلى رشَّاش الماء الساخن وغسلت نفسي بالصابونة الخضراء الجديدة. نظَّفتُ المنيّ الذي علق بشعر عانتي. ثم خرجتُ من أسفل الرشَّاش وجفَّفتُ نفسي بمنشفةٍ كبيرة. وجدتُ إلى جانب المنشفة ملابس داخليَّة من ماركة «كالڤن كلاين»، جديدةً ما تزال في تغليفها، وعلى مقاسي. لعلَّهم رتَّبوا

الأمر لكي أقذف في ملابسي. نظرتُ إلى نفسي في المرآة برهة، لكنَّ عقلي لم يكن يعمل جيِّدًا. ألقيتُ بسروالي الداخليّ المتَّسخ في سلَّة المهملات، وارتديت الملابس الجديدة. ثم ارتديتُ بنطالي الجينز وقميصي، وجَوربيّ وحذائي القذر، ثم سترتي الرياضيَّة. وخرجتُ من الحمَّام.

كان الشابُّ في انتظاري، فاقتادني إلى غرفة الانتظار الأولى.

كانت الغرفة مثلما تركتُها. الكتابُ المفتوح نفسه على المكتب، والحاسوبُ إلى جانبه. تنبعث موسيقى كلاسيكيَّةٌ من السمَّاعات. طلب منِّي الشابّ أنْ أجلس على الأريكة وأحضرَ لي كأس ماءٍ بارد. شربتُ نصف الكأس. قلت: «يبدو أنَّني متعب». كان صوتي مختلفًا. ولم أكن أريد أنْ أقول شيئًا كهذا. خرجت الكلمات هكذا، من دون إرادةٍ منِّي. مع أنَّ الصوت كان صوتي.

أومأ الشابّ. وأخرج مظروفًا أبيض اللون من جيب معطفه الداخليّ، ودسَّه في جيب سترتي الداخليّ. ثم أومأ ثانية. نظرتُ عبر النافذة، فرأيتُ السماء داكنة، والشارع مضاءً بلافتات النيون، والأنوار القادمة من نوافذ البنايات، ومصابيح الشوارع، وأضواء السيَّارات. لم أعد أحتمل فكرة البقاء في هذه الغرفة. وقفتُ من دون أن أقول شيئًا، وخطوتُ إلى الباب ففتحتُه، وخرجت. كان الشابّ ينظر إليَّ من مكانه عند المكتب، لكنَّه بقيَ صامتًا كعادته، ولم يحاول أن يمنعني من الخروج.

❋

كانت محطَّةُ أكاساكا متسوكي مكتظَّةً جدًّا في طريق عودتي. ولم أكن في مزاجٍ يقبل الهواء الفاسد في داخل المترو، فقرَّرتُ أن أمشي قدر استطاعتي. مشيتُ من أمام قصر استقبال الضيوف الأجانب حتى محطَّة يوتسويا. ثم مشيتُ قبالة ساحة شنجوكو، ودخلتُ حانةً صغيرة غير مزدحمة وطلبتُ كأس بيرة. ومع أوَّل جرعةٍ، أدركتُ كم كنت جائعًا، فطلبتُ وجبةً خفيفة. نظرتُ في ساعتي فإذا هي تشير إلى السابعة تقريبًا. لكنَّني حين فكَّرتُ في الأمر وجدتُ أنَّ الوقت لم يكن يهمّني.

بعد وقت، لاحظتُ وجود شيءٍ في جيب سترتي الداخليّ. كنتُ قد نسيتُ أمر المظروف الذي وضعه الشابّ قبل أن أخرج. كان مجرَّد مظروفٍ أبيض عاديّ، لكنَّني حين أمسكتُ به أدركتُ أنَّه أثقل ممَّا يبدو. الأدهى من ذلك أنَّ وزنه كان غريبًا، كما لو أنَّ بداخله شيءٌ يحبس أنفاسه. بعد لحظة تردُّد، مزَّقت طَرَف المظروف لأعرف ما في داخله، وكان لا بدَّ من أن أفعل ذلك عاجلًا أم آجلًا. وجدتُ في داخله رزمةُ أوراقٍ نقديَّة مرتَّبة من فئة عشرة آلاف ينٍ. كانت أوراقًا جديدة، لا يشوبها أيّ تجعيد. لم تكن تبدو حقيقيَّةً لفرط ما هي جديدة، مع أنَّه ما من سببٍ يجعلني أفترض أنَّها ليست حقيقيَّة. كان مجموعها عشرين ورقة. عددتُها مرَّةً أخرى لكي أتأكَّد. العدد صحيح تمامًا: عشرون ورقة. مئتا ألف ين.

أعدتُ النقود إلى المظروف، ووضعت المظروف في جيبي. ثم التقطتُ الشوكة من الطاولة، وبدأتُ أُحدِّق فيها من دون سبب. أوَّلُ ما خطر في بالي أنَّني سوف أستخدم المال لأشتري

حذاءً جديدًا. هذا ما كنتُ في أمسِّ الحاجة إليه. دفعتُ فاتورتي وعدتُ إلى ساحة شنجوكو، إذ يوجد قربها محلُّ أحذيةٍ كبير. اخترتُ حذاءً رياضيًّا عاديًّا أزرق اللون، وأخبرت البائع مقاسي من دون أنْ أسأل عن السعر. سوف أرتديه فورًا في طريقي إلى البيت إنْ كان مناسبًا. أخذ البائعُ (الذي قد يكون صاحبَ المحلّ) يُدخلُ الخيوط في ثقوب الحذاء، وسألني: «ماذا أفعل بحذائك القديم؟» فقلتُ له أنْ يُلقيه في سلَّة القمامة إنْ شاء، ثم راجعتُ نفسي وقلتُ له سآخذه معي.

رسمَ ليَ ابتسامةً سريعة، ثم قال وكأنَّه يلمِّح إلى أنَّه معتادٌ على رؤية الأحذية القذرة: «الحذاء القديم قد يفيد أحيانًا، وإنْ كان مهترئًا». بعدها، وضع الحذاء القديم في علبة الحذاء الجديد، ووضع العلبة في كيس. رأيت الحذاء القديم في العلبة الجديدة كأنَّه جثَّة حيوانٍ صغير. دفعتُ ثمن الحذاء بواحدةٍ من الأوراق النقديَّة الجديدة، فأعاد إليَّ البائع «فكَّةً» من أوراقٍ غير جديدة من فئة الألف ين. حملتُ الكيس وركبتُ قطار أوداكيو وعدت إلى البيت. في القطار، تشبَّثتُ بالحزام بين زحام العائدين إلى بيوتهم، ورحتُ أفكِّر في الملابس الجديدة التي كنت أرتديها. سروالي الداخليّ، والقميص، والحذاء.

*

فلمَّا وصلتُ إلى البيت جلستُ إلى طاولة المطبخ كالعادة، أشرب البيرة وأستمع إلى الموسيقى عبر الإذاعة. ثم خطرتْ لي رغبةُ التحدُّث إلى شخصٍ ما. ربَّما عن أحوال الجوّ، ربَّما عن الحماقات السياسيَّة. لا يهمّ. كنتُ أريد أن أتحدَّث إلى أحدٍ

وحسب. لكنَّني لم أستطع أن أفكِّر في أيِّ شخصٍ يمكنني التحدُّث إليه. حتى القطّ لم يكن معي.

*

في صباح اليوم التالي، تفحَّصتُ العلامة كعادتي وأنا أحْلق. لم ألحظ أيّ تغييرٍ عليها. جلستُ في الشرفة، ولأوَّل مرَّةٍ منذ وقتٍ طويل، قضيتُ النهار هناك أنظر إلى الحديقة. كان صباحًا جميلًا، وعصرًا جميلًا. كانت أوراق الشجر ترفرف مع نسمات الربيع.

أخرجتُ من جيب سترتي المظروف الذي يحتوي على التسع عشرة ورقة من فئة العشرة آلاف ين، ووضعته في دُرج المكتب. ما زلتُ أشعر بثقله الغريب في يدي. ثمَّة معنى لهذا الثقل، لكنَّني لم أستوعبه. أدركتُ فجأةً أنَّه يُذكِّرني بشيءٍ ما. ما فعلتُه ذكَّرني بشيءٍ ما. حملقتُ في المظروف وهو في الدرج، وحاولتُ أن أتذكَّر ذلك الشيء، لكنِّي لم أستطع.

أغلقتُ الدرج وذهبت إلى المطبخ، وأعددتُ لنفسي كوب شاي. وقفتُ هناك عند المغسلة أشرب الشاي، فتذكَّرتُ الشيء. ما فعلتُه البارحة كان يُشبه ما كانت تفعله كريتا كانو وهي عاهرة. أنْ تذهب إلى مكانٍ محدَّد، وتضاجع شخصًا لا تعرفه، وتقبض أجرك. صحيحٌ أنِّي لم أضاجع المرأة (بل قذفتُ في ملابسي وحسب)، لكنَّ الأمر سيَّان. فبسببٍ من حاجتي إلى مبلغٍ من المال عرضتُ جسدي لشخصٍ ما في مقابل الحصول عليه. أخذتُ أُفكِّر في هذا وأنا أشرب الشاي. تناهى من بعيدٍ نباحُ

كلب. وبعدها، سمعتُ صوت طائرة. لكنَّ أفكاري كانت مشتَّتة. خرجتُ مرَّةً أخرى إلى الشرفة ونظرت إلى الحديقة وهي محفوفةٌ بضوء العصر. فلمَّا ضجرتُ من ذلك نظرتُ إلى راحتَي يدي. أصبحت أنا عاهرًا! من كان يتخيَّل أنَّني سأبيع جسدي من أجل المال؟ أو أنَّ أوَّل ما أشتريه سيكون حذاءً جديدًا؟

كنتُ أريد أن أتنفَّس هواءً طبيعيًّا، فقرَّرت الخروج للتبضُّع. مشيتُ في الشارع، بحذائي الجديد. شعرتُ كما لو أنَّ هذا الحذاء قد غيَّرني إلى كائنٍ جديد، مختلفٍ عمَّا كنتُ عليه سابقًا. حتى الشارع ووجوه الناس بدتْ مختلفةً هي الأخرى. في السوبرماركت أخذتُ خضروات وبيضًا وحليبًا وسمكًا وحبوب قهوة، ودفعتُ ثمنها بالفكَّة التي أخذتها من محلِّ الأحذية في الليلة السابقة. كنتُ أريد أن أُخبر المحاسِبة ذات الوجه المستدير أنَّني جنيتُ هذا المال من بيع جسدي. جنيتُ مئتي ألف يِن. مئتي ألف ين! لو أنَّني أهلكتُ نفسي في العمل في شركة المحاماة وعملتُ ساعاتٍ إضافيَّة كلّ يومٍ مدَّة شهر كامل، فلن أجني إلَّا مئةً وخمسين ألفًا أو أكثر قليلًا. هذا ما كنتُ أريد أن أقوله لها. لكنَّني لم أقل شيئًا بالطبع. ناولتُها النقود وحملتُ أغراضي في كيسٍ ورقيٍّ.

ثمَّة شيءٌ أكيد كان يحدث. الأشياء بدأتْ تتحرَّك. قلتُ هذا لنفسي وأنا في طريق عودتي إلى البيت حاملًا كيس الأغراض. وكلّ ما ينبغي عليَّ فعله الآن هو أن أتشبَّث جيِّدًا كي لا أقع أرضًا. فإنْ فعلتُ ذلك قد أصل في نهاية المطاف إلى مكانٍ ما.. إلى مكانٍ مختلف عن مكاني الآن، على الأقلّ.

لم يكن إحساسي كاذبًا. فحين وصلتُ إلى البيت وجدتُ القطّ هناك في استقبالي. ما إنْ فتحتُ الباب حتى أطلق مواءً عاليًا وكأنَّه كان ينتظرني طوال اليوم. جاء نحوي مباشرةً بطرف ذيله المائل. نوبورو واتايا، بعد غياب ما يقرب من سنة. وضعتُ كيس الأغراض أرضًا، والتقفتُه بذراعيَّ.

5
مكانٌ يمكنك أن تُخمِّنه لو أمعنت في التفكير (مايو كاساهارا تتحدَّث: 1)

مرحبًا سيِّد طائر الزنبرك

لا بدَّ من أنَّك تتصوَّرني الآن في صفٍّ دراسيٍّ في مكانٍ ما، وأمامي كتابٌ مدرسيّ مفتوح، مثل أيّ تلميذٍ في مدرسة. طبعًا، فقد أخبرتك في آخر لقاءٍ بيننا أنَّني ذاهبةٌ إلى «مدرسةٍ أخرى»، فمن الطبيعيّ أن يخطر هذا في بالك. في الحقيقة، ذهبتُ فعلًا إلى مدرسةٍ أخرى، مدرسةٍ داخليَّة للبنات، بعيدةٍ، بعيدةٍ جدًّا، وفاخرة، فيها غرفٌ كبيرةٌ نظيفة مثل غرف الفنادق، وكافيتيريا يمكنك أن تختار فيها ما تشاء من الطعام، وملاعب تنس جديدة لامعة، وحمَّام سباحة. من الطبيعيّ أن تكون غالية، فهي مدرسةٌ لبنات الأثرياء. هذه هي المشكلة. بنات الأثرياء. لك أن تتخيَّل

المكان إذن. مدرسةٌ حقيقيَّةٌ رفيعة المستوى في الريف بين الجبال. كانت مُحاطةً بجدارٍ عالٍ عليه أسلاكٌ شائكة، وفيها بوَّابةٌ حديديَّة ضخمة لا يستطيع حتى كبير الوحوش «غودزيلا» أن يقتحمها، وهناك حرَّاسٌ على مدار الساعة يناوبون عليها مثل الروبوتات. مهمَّتهم منع الذين في الداخل مِن الخروج، أكثر مِن منع مَن في الخارج مِن الدخول.

سوف تسألني الآن: «فلماذا تذهبين إلى مكانٍ كريهٍ كهذا ما دمتِ تعرفين أنَّه كريه؟» معك حقّ، ولكنْ لم يكن لديَّ خيار. كلّ ما أردته هو الخروج من البيت، ولكنْ بعد كلّ المشكلات التي تسبَّبتُ فيها، كانت هذه هي المدرسة الوحيدة التي «تكرَّمت» بقبول انتقالي إليها. لذلك قرَّرتُ أن أمضي في الأمر. لكنَّها كانت فعلًا كريهة! يستخدم الناس كلمة «كابوسيَّة»، لكنَّها أسوأ من ذلك. أصابتني كوابيس فعلًا في هذا المكان، طوال الوقت، فأصحو من نومي مبلَّلةً بالعَرَق، لكنَّني كنتُ أرجو مع ذلك لو أنَّ الأحلام استمرَّت، لأنَّ الكوابيس كانت أفضل بكثيرٍ من الواقع في ذلك المكان. لا أدري إنْ كنتَ قد فهمت ما أقصده، سيِّد طائر الزنبرك. لا أدري ما إذا جرَّبتَ من قبل أن تكون في حفرةٍ كهذه.

وهكذا، بقيتُ في هذا الفندق/ السجن/ المدرسة الريفيَّة الرفيعة فصلًا دراسيًّا واحدًا. فلمَّا عدتُ إلى البيت في عطلة الربيع، أخبرتُ والديَّ أنَّني سأنتحر لو أجبراني على العودة إلى تلك المدرسة. سأحشرُ ثلاث سدَّادات في حلقي وأشرب ماءً كثيرًا. سأُقطِّع معصميّ. سأقفز على رأسي من سطح المدرسة.

وكنتُ أقصد ما أقوله. لم أكن أمزح. صحيحٌ أنَّ خيال والديَّ محدودٌ، أشبه بخيال ضفدعٍ صغير، لكنَّهما كانا يعلمان جيِّدًا (من تجاربَ سابقة) أنَّني حين أقول أشياءَ كهذه لا تكون مجرَّد تهديداتٍ فارغة.

على أيِّ حال، لم أعد مرَّةً أخرى إلى تلك المدرسة. بقيتُ في المنزل في آذار/ مارس ونيسان/ إبريل، أقرأ وأشاهد التلفاز، أو أزجي الوقت في كسلٍ خارج البيت. كنتُ أفكِّر في رؤيتك مئة مرَّةٍ في اليوم. أردتُ أن أعبر الزقاق وأقفز من السور ثم أجلس معك طويلًا نتحدَّث. لكنَّ الأمر لم يكن بهذه السهولة. إن فعلتُ ذلك سأُعيد شريط الأحداث التي وقعتْ في الصيف. لذا، كنتُ أكتفي بمشاهدة الزقاق من غرفتي وأتساءل: ماذا يفعل سيِّد طائر الزنبرك الآن؟ الربيع يبسط حضوره شيئًا فشيئًا على العالم كلِّه بهدوء، والسيِّد طائر الزنبرك حاضرٌ فيه أيضًا، ولكنْ تُرى ما الذي يحدث الآن في حياته؟ هل عادت كوميكو؟ وما أخبار المرأتيْن الغريبتيْن مالطا كانو وكريتا كانو؟ وهل عاد القطُّ نوبورو واتايا؟ هل اختفت العلامة من وجه سيِّد طائر الزنبرك...؟

بعد شهرٍ من حياتي بهذه الطريقة، لم أعد أحتمل. لا أعرف كيف حدث هذا أو متى، لكنَّ الحيّ بالنسبة إليَّ أصبح الآن «عالم سيِّد طائر الزنبرك»، وحين أكون فيه لا أكون شيئًا سوى «أنا داخل عالم سيِّد طائر الزنبرك». لا أقول هذا على سبيل المجاز. ليس ذنبك بالطبع، ولكن مع ذلك... من أجل هذا، كان عليَّ أن أجد المكان الذي يخصُّني.

فكَّرتُ في الأمر، وفكَّرت، وفكَّرت، وفي النهاية جاءتني

الفكرة عن المكان الذي ينبغي عليَّ الذهاب إليه.

(أُغشِّشك): هو مكانٌ يمكنك أن تخمِّنه لو أمعنت في التفكير. ستستطيع أنْ تتخيَّل المكان الذي أنا فيه لو حاولت. ليس مدرسةً، وليس فندقًا، وليس مستشفى، وليس سجنًا، وليس بيتًا. هو مكانٌ خاصٌ بعيد جدًّا. إنَّه... سرّ. حتى الآن على الأقلِّ.

لقد عدتُ إلى الجبال مرَّةً أخرى، في مكانٍ آخر محاطٍ بسور (ولكن ليس سورًا ضخمًا)، وتوجد بوَّابةٌ وحارسٌ عجوز لطيف يحرسها، ولكنْ يمكنك الدخول والخروج في أيِّ وقت. هي أرضٌ شاسعة، لها غاباتها الصغيرة وبِرْكَتُها، وإنْ ذهبتَ تتمشَّى فيها عند طلوع الشمس سترى الكثير من الحيوانات. أُسود، وحُمُر وحشيَّة، و... لا لا، أمزح. ولكنْ يمكنك أن ترى حيواناتٍ لطيفةً صغيرة مثل حيوان الغُرَير وطائر التُّدْرُّج. ثمَّة سكنٌ داخليّ هنا، وهو المكان الذي أعيش فيه.

أكتب هذه الرسالة في غرفةٍ ضئيلة على طاولةٍ ضئيلة قرب سريرٍ ضئيل بجوار أرفف كتبٍ ضئيلة إلى جانب خزانة ملابس ضئيلة، وكلّها خاليةٌ من أدنى زخرفة، وكلّها مصمَّمة لتلبية الاحتياجات الدنيا. على الطاولة مصباح، وكوب شاي، وقرطاسيَّة لكتابة هذه الرسالة، وقاموس. بصراحة، لا أكاد أستخدم القاموس أبدًا. أنا لا أحبّ القواميس. لا أحبّ شكلها، ولا أحبّ ما يُكتب فيها. فكلَّما استخدمتُ قاموسًا، عبَستُ وقلتُ في نفسي: وما حاجة الناس إلى معرفة هذا؟ أمثالي لا يتآلفون مع القواميس. فمثلًا لو أنَّني بحثتُ عن كلمة «انتقال»، يقول

القاموس: «عبورٌ من حالةٍ إلى أخرى». فأقول في نفسي: آها، وما المهمّ في ذلك؟ لا يهمّني ذلك في شيء. وهكذا، كلَّما رأيتُ قاموسًا على طاولتي شعرتُ بأنَّني أنظر إلى كلبٍ غريب يلفظ برازه في حديقة بيتنا. ولكنْ على أيِّ حال، اشتريتُ قاموسًا لأنَّني قلتُ في نفسي ربَّما أحتاج إلى البحث عن كلمةٍ وأنا أكتب لك رسالةً يا سيِّد طائر الزنبرك.

كما أنَّ لديَّ دزّينة أقلام رصاص، كلّها مبريَّة ومصفوفة. جديدة. اشتريتها لتوّي من محلّ القرطاسيَّات، خصِّيصًا لكي أكتب هذه الرسالة (ولا أقصد أنْ أمُنَّ عليك. لكنَّ أقلام الرصاص الجديدة المبريَّة جميلة، أليس كذلك؟). لديَّ أيضًا منفضةٌ وسجائر وأعواد ثقاب. لا أدخِّن كثيرًا كالسابق، لكنَّني أدخِّن بين فترةٍ وأخرى لتعديل مزاجي (الآن مثلًا). هذا كلُّ ما على طاولتي. الطاولة تواجه نافذة، وعلى النافذة ستائر. الستائر مزخرفة بأزهارٍ صغيرة. لم أخترها، بل جاءت مع النافذة. تصميمُ الأزهار هذا هو الشيء الوحيد الذي لا يبدو بسيطًا هنا. إنَّها غرفةٌ مثاليَّة لفتاةٍ مراهقة. .أو ربَّما لا. بالأحرى هي زنزانةٌ نموذجيَّة مصمَّمة للمساجين من غير أصحاب السوابق. لديَّ جهاز موسيقى على الرفّ (جهازي الكبير، هل تتذكَّره سيِّد طائر الزنبرك؟)، وأستمع الآن إلى بروس سبرنغستين. نحن في عصر يوم الأحد، والجميع في الخارج يتنزَّهون ويمرحون، لذلك لا يوجد أحدٌ ينزعج إنْ رفعتُ صوت الموسيقى.

الشيءُ الوحيد الذي أفعله على سبيل الترفيه هذه الأيَّام هو الذهاب إلى البلدة القريبة في العطلة الأسبوعيَّة لأشتري أشرطة

الكاسيت. (أكاد لا أشتري كتبًا أبدًا. فإنْ أردتُ أن أقرأ شيئًا، يمكنني أنْ أحصل عليه في مكتبتنا الصغيرة). تربطني علاقةٌ ودِّيَّة بالفتاة التي تسكن في الغرفة المجاورة. اشترتْ سيَّارةً مستعملة، لذلك حين أودّ الذهاب إلى البلدة أذهب معها. تخيَّل أنَّني بدأتُ أتعلَّم السياقة. توجد مساحةٌ مفتوحة كبيرة هنا، ويمكنني أن أتدرَّب كما أشاء. لا أملك رخصةً بعد، لكنَّني سائقةٌ ماهرة.

لكي أكون صريحةً معك، الذهابُ إلى البلدة ليس ممتعًا، باستثناء شراء أشرطة الموسيقى. يقول الجميع إنَّهم لا بدَّ من أنْ يخرجوا مرَّةً كلّ أسبوع، وإلَّا أُصيبوا بالجنون، لكنَّني أجد راحتي في الجلوس هنا حين يذهب الجميع وأستمع إلى الموسيقى كما أشاء. ذهبتُ ذات مرَّةٍ في ما يُشبه الموعد الغراميّ المزدوج مع صديقتي بالسيَّارة. قلتُ في نفسي أُجرِّب. صديقتي مِن هذه المنطقة، لذلك تعرف أُناسًا كثيرين. الولدُ الذي واعدني كان شابًّا لطيفًا، يدرس في كلِّيَّة، لكنَّني لم أحسم أمري بعد. ما زالت الأشياء بالنسبة إليَّ غير واضحة. تبدو كما لو أنَّها هناك بعيدًا مصفوفةٌ مثل الدمى في كشك لعبة الرماية، وثمَّة ستائر شفَّافة معلَّقة بيني وبين الدمى.

بصراحة، حين كنتُ ألتقيك في الصيف الماضي يا سيِّد طائر الزنبرك، حين كنَّا نجلس إلى طاولة المطبخ نتحدَّث ونشرب البيرة.. وهكذا، كنتُ أقول لنفسي ماذا سأفعل لو أنَّ سيِّد طائر الزنبرك طرحني أرضًا على حين فجأةً وحاول أنْ يغتصبني؟ لم أكن أعرف كيف سأتصرَّف. طبعًا، كنتُ سأقاوم وأقول «لا يا سيِّد طائر الزنبرك، لا!» لكنَّني كنتُ سأفكِّر أيضًا في أنَّه يتوجَّب

عليَّ أن أشرح لك لماذا هذا الفعل خطأ ولماذا لا يجدر بك أن تفعله، وكلَّما فكَّرت أكثر ازدادت حَيرتي، فأظلّ أفكِّر إلى أن تنتهي أنتَ من اغتصابي، ربَّما. كان قلبي يرجف بقوَّةٍ حين أفكِّر في هذا، وأقول في نفسي إنَّني أظلمك. أراهن أنَّه لم يخطر في بالك قطّ أنَّ هذه الأفكار تراودني. هل تعتبرني حمقاء؟ ربَّما نعم. أقصد أنَّ الفكرة حمقاء. ولكنْ في ذلك الوقت، كنتُ جادَّةً جدًّا في هذا الأمر. وأعتقد أنَّ هذا هو السبب الذي دعاني إلى سحب السلّم من البئر ووضع الغطاء حين كنتَ أنت في داخلها. كنتُ أحاول أن أحشرك في مكانٍ مغلق. وبهذا، لا يكون هناك سيِّد طائر الزنبرك، ولن تراودني تلك الأفكار المزعجة.

لكنَّني أعتذر. أعرف أنَّه ما كان ينبغي لي أن أفعل ذلك بك (أو بأيِّ أحد). لكنَّني في بعض الأحيان لا أتحكَّم في نفسي. أعرف تمامًا ما أفعله، لكنَّني لا أستطيع أن أتوقَّف. هذه نقطة ضعفي الكبرى.

لا أعتقد بأنَّك سوف تغتصبني سيِّد طائر الزنبرك. أعرف ذلك الآن، بطريقةٍ ما. لا أقول إنَّك لن تفعل ذلك أبدًا أبدًا (أقصد أنَّه لا أحد يعرف المستقبل)، ولكنْ ربَّما على الأقلِّ لن تفعلها لكي تثير حَيرتي. لا أعرف كيف أُعبِّر عن الفكرة، ولكنْ هكذا أشعر على أيّ حال.

كفى حديثًا عن الاغتصاب.

على أيِّ حال، على الرَّغم من أنِّي قد أخرج في موعدٍ مع شابّ، إلَّا أنَّني لن أستطيع التركيز عاطفيًّا. قد أبتسم وأتحدَّث

إليه، لكنَّ عقلي سيكون هائمًا في مكانٍ آخر، مثل بالونةٍ بلا خيط. سأظلّ أقفز بأفكاري من شيءٍ إلى آخر. لا أدري، أعتقد أنَّني أودّ البقاء وحدي فترةً أطول. وأريد أن تسرح أفكاري كما تشاء. بهذا المعنى إذن أعتقد أنَّني ما أزال «في الطريق إلى التعافي».

سأبعثُ لك رسالةً أخرى قريبًا. في المرَّة القادمة ربَّما أستطيع أن أُسهب أكثر في أشياءَ كثيرة.

ملحوظة: حاول أن تخمِّن مكاني وما أفعله هنا قبل أنْ تصلكَ الرسالة التالية.

6

جوزة الطيب والقرفة

كان القطّ مغطًّى من أنفه حتى طرف ذيْله بلُفيفاتٍ من الطين الجافّ، وشعرُه ملتصقٌ في كراتٍ صغيرة، كما لو أنَّه كان يتقلَّب فوق قطعة أرضٍ متَّسخة فترةً طويلة. هَرهَر القطُّ فرَحًا وأنا ألتقطه وأتفحَّصه. لعلَّه ضَمُر قليلًا، لكنَّه لم يختلف كثيرًا عن شكله حين رأيتُه آخر مرَّة، لا في وجهه ولا جسده ولا شعره. كانت عيْناه صافيتَيْن، ولم يكن مُصابًا بأيِّ جروح. الحقيقةُ أنَّه لم يبدُ مثل قطٍّ مرّ عامٌ على غيابه، بل بدا كأنَّه عاد إلى البيت بعد ليلةٍ من التسكُّع.

أطعمتُه في الشرفة صحنًا من شرائح السمك النهريّ كنتُ قد اشتريْتها من السوبرماركت. من الواضح أنَّه يتضوَّر جوعًا، فقد أخذ يلتهم الشرائح بسرعةٍ ثم يغصّ بها ويبصق أجزاء منها مرَّةً أخرى في الصحن. وجدتُ صحن مائه تحت المغسلة، فملأتُه

بالماء حتى آخره، فلم يكد يترك منه شيئًا. بعد ذلك، بدأ يلعق شعره، ثم كأنَّه تذكَّر وجودي فجأةً، فقفز إلى حِجري، والتوى ثم نام.

نام القطّ واضعًا أقدامه تحت جسمه، ووجهُه مدفونٌ في ذيله. كان يهرهر بصوتٍ عالٍ في بادئ الأمر، ثم بهدوء، إلى أنْ وصل إلى حالةٍ من النوم الهادئ الصامت، حين أرخى جميع دفاعاته. كنتُ أجلس في بقعةٍ مشمسة في الشرفة أُربِّت عليه بخفَّةٍ كي لا أوقظه. لم يخطر في بالي ملمسُه الناعم الدافئ منذ وقتٍ طويل جدًّا. أشياءُ كثيرة حدثت لي حتى إنِّي نسيتُ اختفاء القطّ. لكنَّني حين أمسكت بهذا الكائن الناعم الصغير في حجري ورأيته ينام وهو واثقٌ بي كلّ الثقة، شعرتُ بدفءٍ يسري في صدري. وضعتُ يدي على صدر القطّ وأحسستُ بنبض قلبه. كان النبضُ سريعًا خافتًا، لكنَّ قلبه كقلبي كان يدقّ ثواني الوقت المخصَّص لجسمه الصغير.

تُرى أين كان هذا القطّ طوال السنة الماضية؟ ماذا كان يفعل؟ ولماذا اختار أن يعود الآن فجأةً؟ وأين آثار الزمن الذي راح منه؟ ليتني كنتُ أستطيع أن أسأله هذه الأسئلة. ليته يستطيع أن يُجيب!

أحضرتُ وسادةً قديمة ووضعتُ القطّ فوقها. كان مرتخيًا كأنَّه كومةُ ملابس للغسيل. حين حملته، انفتحتْ عيْناه قليلًا، وفتح فمه، لكنَّه لم يُصدر أيّ صوت. ارتاح على الوسادة، وتثاءب، ثم عاد إلى النوم. فلمَّا اطمأننتُ إلى نومه عدتُ إلى المطبخ لأصفّ الأغراض التي اشتريْتها. وضعتُ التوفو

والخضروات والسمك في أماكنها في الثلّاجة، ثم ألقيت نظرةً على الشرفة مرَّةً أخرى. كان القطّ ما يزال نائمًا على الوضع نفسه. كنّا نُسمِّيه دائمًا نوبورو واتايا، لأنَّ نظرة عينيْه كانت تشبه نظرة شقيق كوميكو، لكنَّها كانت مزحةً لا أكثر، ولم يكن اسم القطّ الحقيقيّ. الحقيقةُ أنَّنا احتفظنا بالقطّ ستّ سنواتٍ من دون أن نُطلق عليه اسمًا.

لكنَّ اسم نوبورو واتايا لم يكن ينفع اسمًا لقطّ، حتى من باب المزاح؛ فقد أصبح نوبورو واتايا الحقيقيّ شخصيَّةً طاغية الحضور في السنوات الستّ الماضية، لا سيَّما الآن وقد انتُخب عضوًا في البرلمان. لذلك لم يعد من الممكن أن نُثقل كاهل القطّ بهذا الاسم. وما دام في هذا البيت فلا بدَّ من أن نُعطيه اسمًا. والأفضل أن نعجِّل في ذلك. ينبغي أن يكون اسمه بسيطًا، واقعيًّا، ملموسًا، شيئًا يمكن أن تراه بعينيْك وتلمسه بيديْك، شيئًا يزيح ذكرى اسم نوبورو واتايا ومعناه.

أحضرتُ الصحن الذي أكل منه القطّ. بدا الصحن نظيفًا، كأنَّه مغسولٌ ممسوح. لا بدَّ من أنَّ القطّ استمتع بوجبته. من حسن الحظّ أنَّني اشتريت سمك الماكِريل في هذا الوقت الذي اختار فيه القطّ أن يعود. شعرتُ بأنَّ هذا فألٌ حسن لنا نحن الاثنيْن، أنا والقطّ. نعم إذن، سأُسمِّيه ماكِريل. أخذتُ أدعكه من خلف أذنيْه، وبشَّرته بهذا التغيير: «لم تعد نوبورو واتايا. من الآن فصاعدًا سيكون اسمك ماكِريل». كنتُ أريد أن أصرخ بذلك للدنيا كلّها.

جلستُ في الشرفة إلى جانب القطّ ماكريل، أقرأ كتابًا إلى

أن بدأ الغروب. أمَّا القطّ فكان يغطّ في نومٍ عميق كأنَّما فقد وعيه؛ فأنفاسُه الهادئة كانت مثل خوارٍ بعيد، يرتفع جسمه ويهبط مع صوت أنفاسه. كنتُ أمدّ يدي بين الحين والآخر كي ألمس دفأه وأتأكَّد من وجوده. كم كان شعورًا رائعًا! أمدّ يدي وألمس شيئًا، أشعر بشيءٍ دافئ. لقد افتقدتُ هذه التجربة منذ فترة.

*

كان ماكريل ما يزال موجودًا هناك في الصباح التالي. لم يختفِ. حين استيقظتُ وجدته نائمًا إلى جواري، على جنبه، مادًّا ساقيْه. لا بدَّ من أنَّه استيقظ في الليل ونظَّف نفسه بلسانه، فقد اختفت كرات الشعر والطين. كان يبدو كما كان تقريبًا. فلطالما كان لديه شعرٌ جميل. أمسكتُ به بعض الوقت، ثم أطعمته وغيَّرت ماءه. بعد ذلك، ابتعدتُ عنه وحاولتُ أن أناديه باسمه: «ماكريل». في المحاولة الثالثة، استدار نحوي وأطلق مواء قصيرًا.

والآن، حان الوقت كي أبدأ أنا يومي. لقد عاد القطّ، وعليَّ أن أمضي أيضًا. أخذتُ حمّامًا، وكويْتُ قميصًا نظيفًا، ثم ارتديت بنطالًا قطنيًّا وحذائي الجديد. كانت السماء ضبابيَّةً مدلهمَّة، لكنَّ الجوّ لم يكنْ باردًا. قرَّرتُ أن أرتدي سترةً من دون معطف. ثم ركبتُ القطار إلى شنجوكو كالعادة، وعبرت من ممرٍّ المحطَّة إلى ساحة المخرج الغربيّ، واتَّخذتُ مكاني في المقعد المعتاد.

*

ظهرت المرأةُ بُعَيْد الساعة الثالثة. لم تبدُ مندهشةً من رؤيتي، ولم أُبْدِ دهشةً من اقترابها نحوي. كان لقاؤنا طبيعيًّا تمامًا. لم نتبادل التحايا، وكأنَّ اللقاء كان مرتَّبًا. رفعتُ وجهي، فنظرتْ إليَّ برعشةٍ في شفتيْها.

كانت ترتدي بلوزةً قطنيَّة برتقاليَّة اللون، وتنُّورةً ضيِّقة بلون الزبرجد، وقرطَيْن ذهبيَّيْن صغيرَيْن. جلستْ إلى جانبي، وكالعادة أخرجتْ علبة سجائر رفيعةً من حقيبتها. وضعتْ سيجارةً بين شفتَيْها وأشعلتْها بولَّاعةٍ ذهبيَّة رفيعة. يبدو أنَّها تعلَّمت من التجارب السابقة فلم تعرض عليَّ سيجارة. وبعد أن نفثت الدخان مرَّتيْن أو ثلاث، في جوٍّ من التفكير العميق، أسقطتْ سيجارتها على الأرض كما لو أنَّها تختبر حالة الجاذبيَّة. بعدها، ربَّتت على ركبتي وقالت: «تعال معي»، ثم نهضتْ. سحقتُ سيجارتها بحذائي ثم تبعتُها. رفعتْ يدها لتوقف سيَّارة أجرة، وقفزتْ فيها، فركبتُ إلى جانبها. بعدها، قالت للسائق عنوانًا في أوياما، ثم لم تقل شيئًا إلى أن شقَّت سيَّارةُ الأجرة طريقها في الزحام إلى ساحة أوياما. كنتُ أشاهد مناظر طوكيو وهي تمرّ من النافذة. هناك عدَّة مبانٍ جديدة لم أرها من قبل. أخرجت المرأةُ دفترًا من حقيبتها وكتبتْ فيه شيئًا بقلمٍ ذهبيٍّ صغير. ثم نظرتْ في ساعتها كأنَّها تتأكَّد من شيءٍ ما. كانت الساعة موضوعةً في سوارٍ ذهبيٍّ. بدا لي أنَّ جميع اكسسواراتها مصنوعةٌ من الذهب. أم أنَّها كانت تتحوَّل إلى ذهبٍ فور أن تلمسها!!

أخذتْني إلى بوتيك في شارع أوموتي ساندو يبيع ملابس الماركات العالميَّة. فاختارتْ بذلتَيْن لي، كلتاهما مصنوعةٌ من

قماشٍ رقيق؛ إحداهما رماديَّة مزرقَّة، والأخرى رماديَّة داكنة. لم تكن بذلاتٍ من النوع الذي قد أرتديه في شركة المحاماة. فحتى ملمسها يبدو غالي الثمن. لم تُقدِّم لي أيّ تفسير، ولم أطلب أنا شيئًا. كنتُ أفعل ما تقوله لي وحسب. ذكَّرني هذا بعدَّة أفلام من تلك التي تُسمَّى أفلامًا فنِّيَّة، كنتُ قد رأيتها في الكلِّيَّة. فهذه الأفلام لا تشرح أبدًا ما يحدث. تُرفض التفسيرات بوصفها نوعًا من الشرّ الذي لا يمكن إلَّا أن يدمِّر «واقعيَّة» الأفلام. كانت هذه بلا شكّ طريقةً واحدة للتفكير، طريقةً للنظر إلى الأشياء، لكنَّني رأيتُ أنَّه من الغريب أن أدخل في عالمٍ كهذا بوصفي إنسانًا حقيقيًّا حيًّا.

كان قوامي متوسِّطًا، لذلك لم تكن هناك حاجةٌ إلى تعديل البذلتيْن باستثناء تعديلاتٍ طفيفة في الكمَّيْن والساقَيْن. اختارت المرأة ثلاثة قمصانٍ وثلاث ربطات عنق مناسبة لكلِّ قميص، وحزامَيْن، وستَّة جوارب. دفعت الثمن ببطاقةٍ ائتمانيَّة، وطلبتْ منهم أن يوصلوا الأغراض إلى منزلي. يبدو أنَّ لديها صورةً واضحة في عقلها للشكل الذي ينبغي أن أظهر عليه، فلم تستغرق وقتًا طويلًا في اختيار الملابس. لو أنَّني كنتُ أختار ممحاةً جديدة لقضيتُ وقتًا أطول! ولكنْ عليَّ الاعتراف بأنَّ ذوقها رفيعٌ ومدهش في اختيار الملابس. فالقمصان وربطات العنق التي اختارتها عشوائيًّا (في الظاهر) كانت متناسقةً تمام التناسق، كما لو أنَّها اختارتها مسبقًا بعد تأمُّلٍ طويل. كما أنَّ هذه التشكيلات التي اختارتها لم تكن اعتياديَّةً أبدًا.

بعد ذلك، أخذتْني إلى محلِّ أحذيةٍ واشترت لي حذاءً جديدًا

يناسب البذلتيْن. حتى في اختيار الحذاء لم تستغرق أيّ وقت. ودفعتْ أيضًا ببطاقةٍ ائتمانيَّة، وطلبتْ منهم أنْ يوصلوا الحذاء إلى بيتي. لم تكن هناك حاجةٌ إلى توصيل حذاء، ولكنْ يبدو أنَّ هذه هي طريقتها في التسوُّق: تختار الأشياء بسرعة، وتدفع بالبطاقة الائتمانيَّة، ثم تطلب توصيلها.

بعد ذلك، ذهبنا إلى صانع ساعات، وكرَّرنا العمليَّة نفسها. اشترتْ لي ساعةً أنيقة جميلة بحزامٍ يُشبه ظهر التمساح، يناسب البذلتيْن أيضًا، ولم تستغرق أيّ وقتٍ في اختيارها. كان سعرها ما بين خمسين إلى ستِّين ألف يِن. كنتُ آنذاك ألبس ساعةً بلاستيكيَّة رخيصة، ولكن من الواضح أنَّها لم تكن تروقها. لم تطلب توصيل الساعة على الأقلّ، وإنَّما طلبت منهم أن يغلِّفوها، ثم ناولتْني إيَّاها من دون أن تقول شيئًا.

بعد ذلك، أخذتْني إلى صالون حلاقةٍ للجنسَيْن. كان المحلّ مثل قاعة تدريبٍ على الرقص، بأرضيَّاته الخشبيَّة اللامعة، والمرايا التي تُغطِّي الجدران. كان هناك خمسة عشر كرسيًّا، والموظَّفون يروحون ويغدون في كلِّ مكانٍ بمقصَّاتهم وفراشي الشعر وغير ذلك. ثمَّة نباتاتٌ في أصصٍ موضوعةٍ في عدَّة أماكن على الأرض، في حين تنبعثُ من سمَّاعتَي «بوز» سوداوَيْن في السقف أصواتٌ خافتة لمعزوفات كِيث جارِت على البيانو. اقتادوني إلى أحد الكراسي مباشرةً. لا بدَّ من أنَّ المرأة قد حجزتْ لي موعدًا من قبل حين كانت في واحدٍ من المحالّ التي زرناها. قدَّمتْ للرجل النحيل الذي سيقصّ شعري تعليماتٍ مفصَّلة. من الواضح أنَّه يعرفها من قبل. كان يردّ على كلامها

وهو ينظر إلى وجهي في المرآة نظرةً توحي بأنَّه ينظر إلى صحنٍ مليءٍ بأعواد الكرفس يُراد منه أن يأكله. كان وجهُه يُشبه وجه [الأديب الروسيّ] سولجِنِتسِن في شبابه. قالت له المرأة: «سأعود حين تنتهي»، وغادرتْ الصالون بخطواتٍ سريعة.

لم يكنْ الرجلُ يتحدَّث كثيرًا وهو يقصّ شعري. فلمَّا حان وقت غسل رأسي بالشامبو، قال لي: «من هنا لو سمحت». وحين كَنَس قصاصات الشعر، قال لي: «المعذرة». كنتُ حين يبتعدُ أمدّ يدي من تحت القماش وألمس العلامة على خدِّي الأيمن. كانت هذه أوَّل مرَّة أراها في مرآةٍ أخرى غير مرآة بيتي. وهذه المرايا الكبيرة كانت تعكس صور أشخاصٍ كثر، وصورتي من بينهم. على وجهي تلك العلامةُ الزرقاء. لم تبدُ العلامةُ قبيحةً أو متَّسخة. كانت جزءًا منِّي وحسب، شيئًا ينبغي عليَّ أن أتقبَّله. كنتُ أشعر بالناس ينظرون إليها من حينٍ إلى آخر، إذْ ينظرون إلى انعكاسها في المرآة. لكنَّني لم أستطع أن أعرف من الذي ينظر إليها؛ فقد كانت هناك صورٌ كثيرة في المرآة. كنتُ أشعر فقط بأنَّ أعينهم مصوَّبةٌ إلى العلامة.

استغرق قصّ شعري نصف ساعة. كان شعري يطول أكثر فأكثر منذ أنْ تركتُ وظيفتي، فعاد قصيرًا مرَّةً أخرى. انتقلتُ إلى أحد الكراسي الموضوعة عند الجدار، وجلستُ أستمع إلى الموسيقى وأقرأ مجلَّةً لم تكن تهمّني على الإطلاق، إلى أن عادت المرأة. بدتْ راضيةً عن قَصَّة شعري. أخرجتْ من حقيبتها ورقةً بعشرة آلاف ين، ودفعتْ الفاتورة، ثم قادتني لنخرج. وما إنْ خرجنا حتى وقفتْ وتفحَّصتني من رأسي حتى قدميّ، مثلما

كنتُ قد تفحَّصت القطّ، وكأنَّها تريد أن تتأكَّد ما إذا كانت نَسِيَتْ شيئًا كان ينبغي أن تفعله. لا شيء كما يبدو. ثم ألقتْ نظرةً على ساعتها الذهبيَّة وأطلقتْ ما يُشبه التنهيدة. كانت الساعةُ تقترب من السابعة مساءً.

قالت: «هيَّا نتعشَّى. جائع؟»

كنتُ قد تناولتُ على الفطور قطعةَ خبزٍ محمَّص، وعلى الغداء كعكة دونت. قلت: «ربَّما».

أخذتْني إلى مطعمٍ إيطاليّ قريب. بدا أنَّهم يعرفونها هناك. فمن دون كلمةٍ أخذونا إلى طاولةٍ هادئة في الخلف. وما إنْ جلستُ قبالتها، حتى أمرتْني أنْ أُخرجَ كلّ ما في جيوب بنطالي، وأضعه على الطاولة. فعلتُ ما أُمرتُ به، من دون أن أتفوَّه بكلمة. لا أعرف لماذا بدا لي أنَّ واقعي قد غادرني، وأنَّه الآن يجول بالقرب منِّي. قلتُ في نفسي أرجو أن يجدني. لم يكن هناك شيءٌ مميَّز في جيوبي: مفاتيح، ومنديل، ومحفظة. نظرتُ إليها من دون أيِّ اهتمام، ثم التقطت المحفظة ونظرتْ داخلها. كان بها حوالى خمسة آلاف ونصف ين، وبطاقة هاتف، وبطاقة البنك، وبطاقة المسبح العموميّ، ولا شيء غيرها. لا شيء غير عاديّ. لا شيء يُغري أحدًا بأن يشمّه أو يقيسه أو يهزّه أو يغمره في الماء أو يرفعه أمام الضوء. أعادت إليَّ المحفظة من دون أيِّ تغييرٍ في تعابير وجهها.

ثم قالت: «أريدك أن تخرج غدًا وتشتري دزِّينة مناديل، ومحفظةً جديدة، وميداليَّة مفاتيح. متأكِّدةٌ من أنَّك تستطيع

اختيارها بنفسك. صحيح، متى كانت آخر مرَّةٍ اشتريت فيها ملابس داخليَّة جديدة؟»

فكَّرتُ لحظةً، لكنِّي لم أستطع أن أتذكَّر. قلتُ لها: «لا أذكر. كان ذلك منذ فترة، أعتقد. لكنَّني مهووسٌ بالنظافة، وبالنسبة إلى رجلٍ يعيش بمفرده فإنَّني ماهرٌ جدًّا في غسيل الملـ ـ».

«لا يهمّ. أريدك أن تشتري دزِّينةً من الصديريَّات والكلاسين».

أومأتُ من دون كلمة.

«أحضرْ لي الفاتورة. أنا سأدفع. واحرص على أن تشتري أفضل ما عندهم. سأدفع فواتير الغسيل أيضًا. لا تلبس قميصًا أكثر من مرَّةٍ واحدة قبل أن تُرسله إلى المغسلة. اتَّفقنا؟»

أومأتُ ثانيةً. سيكون صاحبُ المغسلة قرب المحطَّة سعيدًا بذلك. قلتُ: «ولكن...» وحاولتُ أن أستطرد بعد حرف الاستدراك هذا إلى جملةٍ كاملة: «ولكنْ لماذا تفعلين كلَّ هذا؟ تشترين لي ملابس جديدة، وتدفعين لقصِّ شعري وغسيل ملابسي؟»

لم تُجبني، بل أخرجتْ سيجارةً ووضعتْها في فمها. فجأةً، ظهر نادلٌ طويل القامة عاديّ الملامح، وأشعل سيجارتها بطريقةٍ مُتقنة مدروسة. أشعل عود الثقاب بصوتٍ جافٍّ نظيف، ذلك الصوت الذي يُثير شهيَّتك. فلمَّا انتهى وَضَع أمامنا قائمة الطعام. لكنَّها لم تكلِّف نفسها النظر إلى القائمة، وقالت للنادل أن يتجاهل طبق اليوم. «أحضر لي سلطةً ولفافة خبز، وسمكًا أبيض

اللحم. بضع قطرات من التوابل على السلطة، لا أكثر، مع رشَّة فلفل. وكأس ماءٍ فوَّار، من دون ثلج». لم أرغب في النظر في القائمة، فقلت: «وأنا أيضًا». انحنى النادل وابتعد. كان واقعي ما يزال يجاهد كي يجِدَني، كما يبدو.

قلتُ وأنا أحاول أن أستخرج منها تفسيرًا: «أسألُ من باب الفضول لا أكثر. لا أقصد أن أنتقدك وقد اشتريتِ لي كلّ هذه الأشياء، ولكنْ هل هناك جدوى فعلًا من كلّ هذا الوقت والجهد والمال؟»

لم تردّ.

قلتُ ثانية: «يراودني الفضول وحسب».

لا جواب. كانت مشغولةً جدًّا بالنظر إلى لوحةٍ زيتيَّة معلَّقة على الجدار، فلم تُجبني. كانت صورةً لما افترضتُ أنَّه منظرٌ طبيعيٌّ في إيطاليا، بشجرة صنوبر مقلَّمة، وعدَّة منازل ريفيَّة محمرَّة تصطفُّ فوق التلال. كانت المنازلُ جميعها صغيرةً، لكنَّها تسرّ الناظر إليها. تساءلتُ عن طبيعة الناس الذين يسكنون هذه المنازل. ربَّما يكونون أشخاصًا طبيعيِّين يحيون حياةً طبيعيَّة. لا أحد منهم قابل امرأةً غامضة لا يعرف من أين جاءته تشتري له بذلةً وساعةً وحذاء. لا أحد منهم مضطرٌّ إلى حساب المبلغ الهائل الذي يحتاج إليه لكي يمتلك بئرًا جافَّة. شعرتُ بطعنة حسدٍ للناس الذين يعيشون في عالمٍ طبيعيٍّ. الحسدُ ليس عاطفةً مألوفةً عندي، لكنَّ اللوحة أثارت فيَّ هذا الإحساس بدرجةٍ فاجأتني. ليتني أستطيع الدخول في هذه اللوحة الآن، فورًا! ليتني أستطيع

الدخول في واحدٍ من هذه المنازل وأستمتع بكأس نبيذٍ، ثم آوي إلى فراشي من دون أن أفكِّر في شيء!

ما لبث النادلُ أن عاد، ووضع كأسيْن من المياه الغازيَّة أمام المرأة وأمامي. ثم سحقت المرأةُ سيجارتها في المنفضة.

قالت: «لماذا لا تسألني عن شيءٍ آخر؟»

وبينما كنتُ أفكِّر في سؤالٍ آخر، ارتشفتْ هي رشفةً من الماء.

«هل الشابّ الذي في المكتب في أكاساكا ابنك؟»

أجابت بلا تردُّد: «طبعًا».

«لا يتكلَّم؟»

فأومأتْ. «كان قليل الكلام أصلًا، ثم في سنِّ السادسة توقَّف عن الكلام فجأةً. توقَّف عن استخدام صوته بأيِّ طريقةٍ كانت».

«هل مِن سبب؟»

تجاهلتْ سؤالي. فحاولتُ أن أفكِّر في سؤالٍ آخر. «إنْ كان لا يتكلَّم، فكيف يستطيع أن يُدير شؤون المكتب؟»

قطَّبتْ حاجبيْها قليلًا. لم تتجاهل سؤالي، لكنَّها لم تكن تريد أن تُجيب.

«أراهن على أنَّكِ اخترتِ كلّ الملابس التي كان يرتديها، من رأسه حتى قدميْه. كما فعلتِ معي».

«لا أحبّ أن أرى الناس يخطئون في ارتداء ملابسهم. هذا

كلّ ما في الأمر. هو شيءٌ لا أستطيع، **لا أستطيع** أن أحتمله. أريد الناس الذين هم حولي على الأقلِّ أن يكونوا أنيقين قدر الإمكان. أريد أن يكونَ كلّ شيءٍ فيهم صحيحًا، سواء أكان ظاهرًا أم غير ظاهر».

قلتُ في استظراف: «في هذه الحالة لن تروقكِ زائدتي الدوديَّة إذن».

سَألتْني وهي تنظر إليَّ مباشرةً بتعبير جادٍّ تمامًا: «هل لديك مشكلة في شكل زائدتك الدوديَّة؟» فندمتُ على النُكتة.

«لا مشكلة حاليًّا. لم أكن أقصد شيئًا، كان مجرَّد مثال».

ظلَّ تعبيرها المتسائلُ على وجهها. ربَّما كانت تفكِّر في زائدتي.

«على أيِّ حال، أحبّ أن يظهر الناس من حولي بمظهرٍ لائق، وإنْ اضطررتُ إلى تحمُّل النفقات. هذا كلّ ما في الأمر. فلا تقلق. أفعلُ ذلك من أجل نفسي؛ فأنا أشعر بنفورٍ يكادُ يكون اشمئزازًا حسِّيًّا من الملابس غير المرتَّبة».

«تقصدين مثل العازف الذي لا يطيق النشاز؟»

«شيئًا كهذا».

«وهل تشترين الملابس لكلِّ من هم حولك؟»

«أظنّ ذلك. عمومًا، لا يوجد أشخاص كثيرون من حولي. قد لا تعجبني ملابس الناس، لكنَّني لا أستطيع أن أشتري ملابس لكلِّ الناس».

«لكلِّ شيءٍ حدود».

«بالضبط».

*

وصلت السَلَطة، وأكلنا. مثلما قالت المرأة بالضبط؛ لم يكنْ في طَبَق السَلَطة أكثر من بضع قطراتٍ من التوابل. قطرات يمكنك أن تعدّها على أصابع اليد الواحدة.

«هل ثمَّة شيءٌ آخر تودّ أن تسألني عنه؟»

«أودّ أن أعرف اسمك. أحتاج إلى اسمٍ أستخدمه لمخاطبتك».

صمتتْ لحظاتٍ وهي تقضم فِجلة. ثم قطَّبتْ حاجبَيْها كما لو أنَّها ذاقت شيئًا مُرًّا بالخطأ. «وما الضرورةُ لأنْ تستخدم اسمي؟ لن ترسل لي أيّ رسائل بالتأكيد. الأسماء غير مهمَّة».

«ماذا لو احتجت إلى أن أنبِّهك على شيءٍ مثلًا؟ لا بدَّ من أن أعرف اسمك».

وضعتْ شوكتها على الصحن ومسحتْ فمها بمنديل. «فهمتُ قصدك. لم يخطر هذا في بالي. نعم معك حقّ. في حالةٍ كهذه سوف تحتاج إلى اسمي».

جلستْ هناك تفكِّر طويلًا. فشرعتُ أتناول طعامي بينما هي تفكِّر.

«حسنٌ. تحتاجُ إلى اسمٍ مناسب كي تستخدمه في حالات مثل تنبيهي على شيء، صحيح؟»

«بلى، هذا ما أقصده».

«إذن لا ضرورة لأن يكون اسمي الحقيقيّ، أليس كذلك؟»

فأومأتُ لها.

«اسم.. اسم.. تُرى أيُّ اسمٍ سيكون الأفضل؟»

«اسمٌ بسيط، يسهل نطقه. وإن كان بالإمكان، شيءٌ ملموس، حقيقيّ، شيءٌ يمكن لمسه ورؤيته. وهكذا، سيكون من السهل تذكُّره».

«مثل؟»

«مثلًا، سمَّيْتُ قطّي ماكريل. أطلقتُ عليه هذا الاسم بالأمس».

قالتْ بصوتٍ عال وكأنَّها تُجرِّب وقع الكلمة. «ماكريل». ثم أخذتْ تُحدِّق في المملحة ومرشَّة الفلفل على الطاولة، إلى أنْ رفعتْ وجهها نحوي وقالت: «جَوزة الطِيب».

«جوزة الطيب؟»

«هذا ما خطر في بالي الآن. يمكنك أن تناديني بهذا الاسم، إن لم يكن لديك مانع».

«لا، لا مانع أبدًا. وماذا أسمِّي ابنك؟»

«قرفة».

فقلتُ مردِّدًا الأغنية المعروفة: «Parsley, sage, rosemary and thyme».[1]

---

(1) أغنية معروفة في السِّتِّينيَّات للفنَّانَيْن سايمن وغارفنكل. يُشير تورو أوكادا إلى هذه الأغنية بسبب إحالة عنوانها على بعض مقادير الطعام. (المترجم).

«جوزةُ الطيب أكاساكا، وقرفة أكاساكا. ليس سيِّئًا، أليس كذلك؟»

جوزة الطيب أكاساكا، وقرفة أكاساكا. ألن تُصعق مايو كاساهارا حين تعلم أنَّني تعرَّفت إلى أُناسٍ كهؤلاء! «بربِّك يا سيِّد طائر الزنبرك، لِمَ لا تتعرَّف إلى أشخاصٍ طبيعيِّين؟» نعم، معكِ حقّ يا مايو كاساهارا. لكنَّه سؤالٌ لا أملك له إجابة.

فقلتُ لها: «بالمناسبة، التقيتُ العام الماضي امرأتَيْن، اسم الأولى مالطا كانو، والأخرى كريتا كانو. ونتيجةً لهذا اللقاء حصلتْ لي أشياءُ غريبة. لم أعد أرى أيًّا منهما».

أومأتْ لي جوزة الطيب من دون أن تقول شيئًا.

«اختفتا فجأة، مثل الندى في صباحٍ صيفيٍّ». أو مثل نجمٍ عند بزوغ الفجر.

أخذتْ بالشوكة شيئًا يشبه الهندباء وقرَّبته من فمها، ثم فجأةً كما لو أنَّها تذكَّرت وعدًا قطعتْه على نفسها، أنزلت يدها وتناولتْ جرعة ماء.

«أوَلَا تريد أن تسأل عن المال؟ المال الذي حصلتَ عليه قبل أمس؟ أم أنَّني مُخطئة؟»

«لا لستِ مخطئة. أريد فعلًا أن أعرف».

«لا مانع عندي. لكنَّها قد تكون حكايةً طويلة».

«حكايةً تنتهي مع وصول طبق الحلويات؟»

فقالت جوزة الطيب أكاساكا: «ربَّما لا».

7
لغزُ بيت الشنْق

سيتاغايا، طوكيو: لغز بيت الشنْق

من اشترى الأرضَ المنحوسة بعد انتحار الأسرة؟ ما الذي يحدث في هذا الحيّ الأنيق؟

[من مجلَّة الأسبوعيَّة، 7 تشرين الأوَّل / أكتوبر]

-

في منطقة ـ بسيتاغايا قطعةُ أرضٍ يُطلق عليها الأهالي اسم «بيت الشنق». تقع الأرض في حيٍّ سكنيٍّ هادئ، وتبلغ مساحتها 3500 مترٍ مربَّع، وتُعدّ أرضًا من الفئة الأولى تُطلُّ على الجنوب، في موقعٍ مثاليٍّ لبناء منزل. لكنَّ العارفين ببواطن الأمور يتَّفقون على أمرٍ واحد، وهو أنَّهم لن يأخذوا هذه الأرض حتى وإنْ

مُنحتْ لهم مجّانًا. والسببُ في ذلك بسيط؛ فكلُّ الذين سكنوا هذا البيت انتهوا إلى مصيرٍ مروِّع. وقد كشفتْ تحقيقاتنا عن أنَّه منذ بداية «عصر شوا» في عام 1926 م، انتحر ما لا يقلّ عن سبعة ملّاكٍ لهذه الأرض، ومعظمهم انتحر شنقًا أو اختناقًا.

[تفاصيل الانتحار محذوفة هنا]

شركة وهميَّة تشتري الأرض المنحوسة

شهدتْ أرض سيتاغايا سلسلةً من الأحداث المأساويَّة التي يصعب أنْ تكون من باب الصدفة، كان آخرَها مقتلُ ـ انتحار أسرة كوجيرو مياواكي (الواضح في الصورة). وكان مياواكي هذا صاحبَ سلسلة المطاعم المعروفة «روفتَب غرِل»، ومقرّها الرئيس في شارع غينزا. باع مياواكي مطاعمه كلّها، وأعلن إفلاسه قبل عاميْن إثر تراكم الديون عليه، لكنَّه ظلَّ ملاحَقًا من عدَّة دائنين لهم ارتباطاتٌ بمنظَّمات إجراميَّة. وأخيرًا في كانون الثاني / يناير الماضي، استخدم مياواكي حزامه في خنق ابنته يوكي (14 عامًا) أثناء نومها في غرفةٍ فندقيَّة في مدينة تاكاماتسو، ثم شنق هو وزوجته نفسيْهما بحبالٍ أحضراها معهما لهذا الغرض. أمَّا ابنتهما الكبرى (وقد كانت طالبة جامعيَّة آنذاك) فما تزال مفقودة.

حين اشترى مياواكي الأرض في نيسان / إبريل 1972 م، كان يعرف شائعات النحس المحيطة بها، لكنَّه استهزأ بها على أساس أنَّها «مصادفات لا أكثر». وبعد أن اشترى الأرض، هدم

البيت الذي كان خاليًا فترةً طويلة، وسوَّى الأرض. وزيادةً في الاطمئنان، استدعى مياواكي كاهنًا شنتويًا كي يطرد أيّ أرواحٍ شرِّيرة قد تكون موجودة في المكان، ثم أقام بيته الجديد في طابقيْن. عاشت الأسرةُ حياةً هادئة بعد ذلك، ويُجمع الجيران على أنَّ منزل مياواكي بدا متناغمًا، وأنَّ البنتيْن ذكيَّتان سعيدتان. لكنَّ أقدار الأسرة اتَّخذتْ منعطفًا مأساويًا مفاجئًا بعد عشر سنوات.

خسر مياواكي البيت الذي رهنه في خريف 1983 م، لكنَّ الدائنين اختلفوا حول جدول التسديد، فظلَّ البيتُ معلَّقًا إلى أنْ تدخَّلت المحكمةُ في الصيف الماضي وقضتْ بتسويةٍ عُرضت الأرضُ على إثرها للبيع في السوق. في بادئ الأمر، اشترت الأرضَ شركةٌ عقاريَّة كبيرة في طوكيو (شركة --- للأراضي والمباني) بسعرٍ أقلّ بكثيرٍ من قيمة السوق. ومضت الشركةُ في هدم بيت مياواكي وحاولتْ أن تبيع الأرض. وبما أنَّ العقار يقع في مكانٍ مميَّز في سيتاغايا فقد جذب اهتمامًا كبيرًا، لكنَّ المشترين كانوا يلغون الصفقة ما إنْ يسمعوا عن النحس المرتبط بهذه الأرض. يقول السيِّد «م» رئيس قسم المبيعات في شركة --- للأراضي والمباني:

«سمعنا طبعًا عن تلك القصص المأساويَّة، لكنَّ الأرض في موقعٍ ممتاز، والجميع يلهثون الآن خلف أرضٍ بهذه المواصفات، فقلنا لو أنَّنا خفَّضنا السعر قليلًا سوف تُباع. كنَّا متفائِلين. لكنَّ الأرض لم تتحرَّك قطّ منذ أن عرضناها للبيع. لم يكن الناس يأبهون بالسعر، إذْ كانوا يتراجعون فور أنْ يسمعوا تلك القصص.

وما زاد الطين بلَّة انتحارُ أسرة مياواكي المسكينة في كانون الثاني / يناير الماضي، إذْ كانت وسائل الإعلام تذكر هذه الأرض في تغطياتها. بصراحة، أُسقط في أيدينا، ولم نعرف ماذا نفعل بالأرض».

غير أنَّ الأرض بِيعت أخيرًا في شهر نيسان / إبريل الماضي. يقول السيِّد «م»: «من فضلك، لا تسألني عن المشتري أو سعر البيع»، لذلك يصعب علينا الحصول على التفاصيل؛ ولكنْ وفقًا لمصدرنا السرِّيّ، فإنَّ شركة --- للأراضي والمباني اضطُرَّت إلى التنازل عن الأرض مقابل سعرٍ أقلّ من سعرها. فمن الأفضل أن يتقبَّلوا خسارةً معقولةً بدلًا من الاستمرار في دفع الفوائد البنكيَّة لأرضٍ لا تُباع. يقول السيِّد «م»: «الذين اشتروا الأرض يعرفون كلَّ شيءٍ عنها. نحن لا نخدع عملاءنا. شرحنا لهم كلّ شيء، واشتروا الأرض وهم يعرفون تاريخها بالكامل».

وهذا يقودنا إلى السؤال عن الشخص الذي قد يشتري أرضًا منحوسةً كهذه. وتبيَّنَ من تحرِّياتنا أنَّ الكشف عن ملابسات الأمر أصعب ممَّا توقّعنا. فوفقًا لدائرة تسجيل الأراضي، كان المشتري شركةً تُدعى «أكاساكا للأبحاث» لها فروع في ميناتو، وتزعم أنَّها متخصِّصة في «الاستشارات والبحوث الاقتصاديَّة». أمَّا غرضها من شراء هذه الأرض فهو «بناء مبنى سكنيّ للشركة». شُيِّد «مبنى الشركة» فعلًا في فصل الربيع الحالي، غير أنَّ الشركة نفسها لا تعدو أن تكون شركةً «على الورق». فقد زُرنا العنوان المذكور في الوثائق في أكاساكا ـ 2 كوم، لكنَّنا لم نجد سوى لوحةٍ صغيرة باسم «أكاساكا للبحوث» على باب شقَّةٍ في بنايةٍ صغيرة، وحين

قرعنا الجرس لم يردّ علينا أحد.

*

أجواءٌ سرِّيَّة وإجراءات أمنيَّة مشدَّدة

حاليًّا، يُحاط «بيت مياواكي السابق» بسورٍ عالٍ، أعلى من أيِّ سورٍ في الحيّ. فقد شيَّدوا سورًا حديديًّا ضخمًا أسود اللون كي لا يستطيع أحدٌ أن يتلصَّص على الداخل (انظر الصورة)، ونصبوا كاميرا مراقبة على عمود البوَّابة. قرعنا الجرس، ولكن لم يجبنا أحد. يقول الجيران إنَّهم رأوا البوَّابة الإلكترونيَّة تُفتح، ورأوا سيَّارة مرسيدس سوداء معتَّمة النوافذ من فئة (SEL 500) تدخل وتخرج عدَّة مرَّاتٍ في اليوم الواحد. لكنَّهم لم يروا أيّ أحدٍ آخر يدخل أو يخرج، ولم يسمعوا أيّ أصواتٍ من الداخل.

بدأ البناءُ في شهر أيَّار / مايو، لكنَّه كان يَحدثُ دائمًا خلف الأسوار العالية، لذلك لم يكن الجيران يعرفون شكل المنزل. هذا وقد شُيِّد المنزل بسرعةٍ مذهلة، خلال شهريْن ونصف الشهر لا أكثر. يقول صاحب مطعمٍ كان يوصلُ وجبات الغداء إلى موقع البناء: «المبنى نفسه كان دائمًا مخبوءًا خلف حاجزٍ قماشيّ، لذلك لا يمكنني أن أصفه بدقَّة. لكنَّه لم يكن منزلًا كبيرًا. كان من طابقٍ واحد، وبسيطًا جدًّا مثل صندوقٍ إسمنتيّ. أتذكَّر أنَّني قلتُ في نفسي لعلَّهم يبنون شيئًا يشبه الملجأ من الغارات الجوِّيَّة. فلم يكن مثل المنازل العاديَّة التي يسكنها أشخاصٌ عاديُّون. مبنى صغير جدًّا ولا يحتوي على نوافذ كافية. لكنَّه لم يكن مبنى شركةٍ

أيضًا. وبعد ذلك، زُرعت أشجارٌ مذهلة في المكان كلّه. أظنّ أنَّ الفِناء وحدَه كان مكلفًا».

حاولنا التواصل مع جميع شركات تصميم الحدائق والمناظر في طوكيو، حتى وصلنا إلى شركةٍ عرفنا أنَّها عَمِلت على «مسكن مياواكي السابق»، لكنَّ صاحب الشركة لم يعرف شيئًا عن الجهة التي طلبت العمل. فشركةُ الإنشاءات هي التي تواصلت معهم وزوَّدتهم بمخطَّط الحديقة، مع بياناتٍ واضحةٍ مكتوبةٍ للتزويد بمجموعةٍ من الأشجار الكبيرة الجميلة. يقول: «كان السعر الذي طلبناه مرتفعًا، لكنَّهم قبلوه ولم يجادلوا». قال لنا أيضًا إنَّهم حين كانوا يعملون في الحديقة، كانت هناك شركةُ آبارٍ تحفر بئرًا عميقةً في الفناء.

«نصبوا سِقالاتٍ في إحدى زوايا الحديقة كي يُخرجوا التراب. وقد استطعتُ أنْ أنظر جيِّدًا في ما كانوا يفعلونه، لأنَّني كنتُ أغرس شجرة كاكي بالقرب منهم. كانوا في الواقع يحفرون بئرًا قديمةً مردومة. كانت ما تزال تحتفظ بتجويفها الإسطوانيّ الإسمنتيّ. فبدا لي أنَّهم أمام مهمَّةٍ سهلة؛ لأنَّ الردم لم يمض عليه وقتٌ طويل. لكنَّ الغريب هو أنَّهم لم يستخرجوا ماءً من البئر. أقصد أنَّ البئر كانت جافَّةً من الأساس، وكانوا يُعيدونها إلى حالتها الأصليَّة، فلم يكن هناك أملٌ في أنْ يجدوا ماء. كان الأمر غريبًا، وكأنَّ لديهم غرضًا محدَّدًا لفعل ذلك».

لسوء الحظّ، لم نستطع الوصول إلى الشركة التي حفرت البئر، لكنَّنا عرفنا أنَّ سيَّارة المرسيدس تابعةٌ لشركة تأجيرٍ كبيرة في حيٍّ تشيودا، وأنَّ السيَّارة كانت مؤجَّرة لمدَّة سنةٍ بدءًا من تمُّوز

/ يوليو الماضي لشركةٍ في حيِّ ميناتو. لم تكشف لنا شركةُ التأجير عن هويَّة العميل الذي استأجر السيَّارة، ولكنْ بالحكم من مسار الأحداث يبدو لنا من شبه المؤكَّد أنَّ العميل كان شركة «أكاساكا للأبحاث». تجدرُ الإشارة إلى أنَّ الكلفة التقديريَّة السنويَّة لاستئجار سيَّارة مرسيدس من فئة (SEL 500) تبلغ --- ين. هذا وتقدِّمُ الشركةُ سائقًا مع كلِّ سيّارة، لكنَّنا لم نستطع أنْ نحدِّد ما إذا كان هناك سائقٌ مع هذه السيَّارة تحديدًا.

لم يكن أهلُ الحيّ راغبين في الحديث عن «بيت الشنق»؛ فسكَّان الحيّ من النوع الذي لا يميل إلى الاختلاط. وربَّما معظم الناس هنا لا يريدون أن يكون لهم شأنٌ بهذا البيت. يقول أحد السكَّان، واسمه السيِّد «أ»:

«حين جاؤوا أوَّل مرَّةٍ، كنتُ منتبهًا جدًّا وحاولتُ أنْ أتبيَّنهم، لكنَّني متأكِّدٌ من أنَّهم ليسوا أعضاء عصابةٍ أو تنظيم سياسيّ؛ فعددُ الداخلين والخارجين قليلٌ جدًّا. الأمر محيِّر. وصحيحٌ أنَّهم يتَّخذون إجراءاتٍ أمنيَّةً مشدَّدة، لكنَّ الأمر لا يزعجني، ولا أظنّ أنَّه يزعج أيًّا من الجيران. الوضع هكذا أفضل بكثيرٍ من وجود البيت الخالي وما يرتبط به من شائعاتٍ غريبة».

مع هذا، ما زلنا نودّ أن نعرف المالك الجديد لهذه الأرض، وغرضَه من شرائها. وهكذا، يزدادُ اللغز غموضًا على غموض.

8
في قاع البئر

أنْزِل في السلّم الحديديّ المثبَّت إلى جانب البئر، وحين أصلُ إلى ظلمة القاع أتحسَّسُ المضرب الذي أتركه هناك دائمًا مُسْنَدًا على الجدار. هو المضرب الذي أحضرته معي من دون وعيٍ بعد أنْ تبِعتُ صاحب علبة القيثارة. ملمسُ المضرب القديم المحمَّل بالذكرى في عتمة البئر يملأني بحسٍّ غريبٍ من الطمأنينة، ويساعدني على التركيز أيضًا.

وحين أجدُ المضرب أُمسك قبضته بقوَّة، مثل لاعب بيسبول يستعدّ لاستقبال الكرة، فأؤكِّد لنفسي أنَّ هذا مضربي أنا. ثم أنتقلُ إلى التأكُّد من أنَّه لم يحدثْ أيٌّ تغييرٍ في هذه العتمة التي لا يُرى فيها أيّ شي. أصيخُ السمع لأيِّ أصواتٍ جديدة. أعبِّئ صدري بالهواء، وأحكُّ الأرضيَّة بباطن حذائي. أتفحَّصُ صلابة الجدران بطرَف المضرب. تلك طقوسٌ أقصد بها أنْ أُهدِّئ

نفسي. قاعُ البئر مثل قاع البحر؛ فالأشياءُ هنا ساكنةٌ تمامًا، تحافظ على شكلها الأصليّ، كما لو أنَّها لا تتبدَّل من يومٍ إلى آخر وهي تحت هذا الضغط الهائل.

قرصٌ من الضوء يحوم من فوقي: السماء مساءً. أرفعُ رأسي ناظرًا إليها، فأفكِّر في ذلك العالم، عالم المساء في تشرين الأوَّل / أكتوبر. «الناس» يُديرون شؤون حياتهم. تحت ذلك الضوء الخريفيّ الباهت، يمشون في الشوارع، أو يتبضَّعون، أو يعدُّون العشاء، أو يركبون القطارات إلى منازلهم. يفكِّرون في أنفسهم (إنْ كانوا يفكِّرون أصلًا) بأنَّ هذه الأشياء واضحةٌ لا تستحقّ التفكير كما كنتُ أفعل (أو لا أفعل). هؤلاء هم «الناس» الذين يصعب تعريفهم، وكنتُ أنا بلا اسمٍ بينهم. يعيشون تحت هذا الضوء، يَقبَلون بعضهم بعضًا ويُقبَلون، وسواء استمرَّ هذا الضوءُ إلى الأبد أم انتهى في لحظة، فلا بدَّ من أنَّ هناك نوعًا من القرب يشعرون به حين يكسوهم الضوء. أمّا أنا، فلم أعد واحدًا منهم. ها هم هناك في الأعلى، على وجه الأرض، وأنا هنا في قاع البئر. هم يملكون الضوء، وأنا في طور فقدانه. أشعر أحيانًا أنَّني ربَّما لن أجد طريق العودة أبدًا إلى ذلك العالم، وربَّما لن أستطيع أبدًا أن أشعر بكسوة الضوء وطمأنينته، وربَّما لن أستطيع أن أحضن مرَّةً أخرى قطِّي الناعم بين ذراعيّ. بعدها، أشعر بألمٍ خَدِرٍ في صدري، كما لو أنَّ شيئًا هناك يُعتصر إلى أن يموت.

لكنِّي حين أحفر الأرض الناعمة في قاع البئر بباطن حذائي، تزدادُ المشاهد التي على سطح الأرض بعدًا فوق بعد. ينحسرُ الإحساس بالواقع شيئًا فشيئًا، فتغطِّيني حميميَّةُ البئر بدلًا من ذلك

الواقع. هنا في الأسفل دفء البئر، وصمتُها، فيما تداعبني تُربتها الناعمة. يتلاشى الألم من داخلي مثل الدوائر فوق سطح الماء. هكذا يتقبّلني المكانُ، وأتقبّله. أُحكم قبضتي على المضرب. أُغمض عينيَّ ثم أفتحهما ثانيةً، وأُحدِّق في الأعلى.

أسحبُ الحبل كي أُغلق غطاء البئر، باستخدام بكرةٍ صَنَعها لي الشابُ الذكيّ قرفة. العتمةُ الآن كاملة. رأس البئر موصدةٌ تمامًا، واختفى الضوءُ كلّه. حتى صوت الريح العابر لم يعد بالإمكان أن أسمعه. أصبح الانفصالُ بيني وبين «الناس» انفصالًا كاملًا. لا يوجد عندي حتى مصباح. ما أفعله أشبه باعترافٍ بالإيمان. أريد أن «يَرَوا» أنَّني أحاول تقبُّل العتمة بأكملها.

أجلسُ على الأرض، وأُسند ظهري إلى الجدار الإسمنتيّ، وأقبض على المضرب وهو بين ركبتيَّ، ثم أغمضُ عينيَّ وأُنصت لصوت قلبي. بطبيعة الحال، لستُ مضطرًّا إلى إغماض عينيَّ في هذه العتمة، لكنَّني أغمضهما على أيِّ حال. فإغماض العينيْن مهمٌّ في حدِّ ذاته، سواء أكنتُ في عتمةٍ أم لا. آخذُ عدَّة أنفاسٍ عميقة، وأسمح لجسدي بأنْ يتآلف مع هذه المساحة الأسطوانيَّة المعتمة. الرائحة هنا كعهدها، والإحساس بالهواء على بشرتي هو نفسه. كانت البئر مردومةً تمامًا بعض الوقت، لكنَّ الهواء ما يزال كسابق عهده. رائحته تبدو كما شممتُها أوّل مرَّة، بعفونته وآثار الرطوبة. لا مواسمَ تتغيَّرُ هنا. الزمن نفسُه غيرُ موجود.

*

دائمًا ما أرتدي حذائي الرياضيّ القديم وساعتي البلاستيكيَّة،

تلك التي جئتُ بها أوّل مرَّةٍ حين نزلتُ في البئر. ذلك أنَّ هذه الأشياء تبعث في نفسي الطمأنينة، كالمضرب تمامًا. أتفقَّدها كي أرى في الظلام ما إذا كانت ما تزال ملتصقةً بجسدي. كي أتأكَّد من أنَّني لستُ منفصلًا عن جسدي. أفتح عينيَّ، ثم أغمضهما بعد برهةٍ كي أجعلَ ضغط الظلام في داخلي متوافقًا مع ضغط الظلام من حولي. يمرُّ الوقت. وكالعادة، سرعان ما أفقدُ القدرة على التمييز بين الظلمتيْن. لا يعودُ بإمكاني أنْ أُحدِّد ما إذا كانت عيناي مفتوحتَيْن أو مغمضتَيْن. تبدأ العلامةُ تسخنُ فوق خدِّي. فأعرف أنَّ لونها الأرجوانيّ يزداد وضوحًا.

في هاتيْن الظلمتَيْن المتداخلتَيْن، أركِّز على علامتي، وأفكِّر في الغرفة. أحاول أن أنفصل عن نفسي، كما أفعل حين أكون مع المرأة. أحاولُ أن أخرج من جسدي الأخرق الجاثم هنا في الظلام. أنا الآن بيتٌ خالٍ، بئرٌ مهجورة. أحاول أن أخرج، أن أغيِّر السيَّارة، أن أقفز من واقعٍ إلى آخر يتحرَّك بسرعةٍ أكبر، فيما أُحكم قبضتي على المضرب.

والآن، لا يفصلني عن الغرفة الغريبة إلَّا هذا الجدار. يُفترض أن أكون قادرًا على العبور في الجدار. يُفترض أن أستطيع فعل ذلك بقوَّتي، وبقوَّة هذه الظلمة العميقة.

فإنْ حبستُ أنفاسي وركَّزت أمكنني أن أرى ما في داخل الغرفة. أنا لستُ هناك، لكنَّني أنظر إلى الموجود في داخلها. هذا جناح الفندق. الغرفة (208). ستائر سميكةٌ تغطِّي النوافذ. الغرفة معتمة. مزهريَّةٌ تحوي باقةَ أزهارٍ ضخمة، تعبِّئ الهواء بعطرها. مصباحٌ كبير إلى جوار المدخل، لكنَّ أنواره بيضاء وميِّتة

مثل قمر الصباح. مع ذلك، فإنْ حدَّقتُ بقوَّةٍ يمكنني أن أتبيَّن أشكال الأشياء في لمحة الضوء الذي يتسرَّب إلى الغرفة، مثلما تعتاد العيونُ الظلامَ في قاعة السينما. على الطاولة الصغيرة في منتصف الغرفة زجاجةٌ شبه ممتلئة من «كتي سارك». دلو الثلج به قطع ثلج كُسِّرت لتوِّها (بالحكم من صلابة أطرافها). ويبدو أنَّ شخصًا أعدّ وسكي بالثلج في الكأس التي كانت هناك. ثمَّة صينيَّةٌ كأنَّها حوضٌ باردٌ ساكن فوق سطح الطاولة. لا توجد طريقةٌ لمعرفة الوقت. قد يكون الوقت صباحًا، أو مساء، أو في منتصف الليل. أو قد يكون هذا المكانُ معدومَ الزمن. في الجهة الخلفيَّة من الجناح امرأةٌ مستلقيةٌ على السرير. أسمعها تتحرَّك بين الشراشف. لصوتِ الثلج في كأسها رنينٌ بديع. وهناك حبوبُ لقاحٍ صغيرة جدًّا، معلَّقةٌ في الهواء ترتجف من الصوت، مثل كائناتٍ حيَّة. وكلُّ موجةِ صوتٍ تمرّ عبر الهواء تبعثُ في حبوب اللقاح حياةً مفاجئة. العتمة الشاحبة تفتح نفسها لحبوب اللقاح، والحبوب تزيدُ من كثافة العتمة حين تدخلها. تُقرِّبُ المرأةُ كأس الوسكي من شفتيْها، وتسمح لبضع قطراتٍ أن تعبر حلقها، ثم تحاول أن تتحدَّث إليَّ. غرفة النوم مظلمة، ولا أستطيع أن أرى شيئًا سوى حركة أطيافٍ شاحبة. لكنَّها تريد أن تقول شيئًا. أنتظرها كي تتحدَّث. أنتظر أن أسمع كلامها. ها هي هناك.

*

أنظر إلى الغرفة من الأعلى، مثل طائرٍ وهميٍّ يحومُ في سماءٍ وهميَّة. أكبِّر المنظرَ، وأعود إلى الوراء، فأنظر نظرةً كلِّيَّة، ثم أعود فأركِّز في التفاصيل. لكلِّ تفصيلٍ أهمِّيَّةٌ كبيرة بالطبع.

أتفحَّص كلّ تفصيلٍ على حدة، فأتفقَّد شكلَه ولونه وقوامه. ليس ثمَّة ارتباطٌ بين التفصيل والآخر، ولا دفء. كلّ ما أفعله في ذلك الوقت جردٌ لتفاصيل الأشياء. مع ذلك، فإنَّ الأمر يستحقّ المحاولة. فالواقع المترابط يتشكَّل شيئًا فشيئًا، مثل الحرارة والشعلة التي تنبعث من فَرْك حَجَريْن في نهاية المطاف. يحصل الأمر بالطريقة نفسها التي تُنتجُها أصواتٌ مبعثرةٌ مقطعًا صوتيًا، من أصل تكرارٍ رتيبٍ لا معنى له في أوَّل الأمر.

أحسّ بنموٍّ هذا الارتباط الضعيف في أبعد أعماق الظلام. نعم، هذا هو. المكان هادئٌ جدًّا هنا، و«هم» حتى الآن لم يلاحظوا وجودي. أحسّ بالجدار الذي يفصلني عن ذلك المكان يذوب، يتحوَّل إلى هلام. أحبس أنفاسي. **الآن!**

ولكنْ، في اللحظة التي أخطو فيها نحو الجدار، يعلو قرعٌ حادّ، كما لو أنَّهم يعرفون ما أحاول أن أفعله. شخصٌ يقرع الباب بقوَّة. القرعُ نفسه الذي سمعته من قبل. قويّ، حازم، وكأنَّ شخصًا يحاول أن يحفر مسمارًا في الجدار. دائمًا بالوتيرة نفسها. قرعتان، ثم سكتة، ثم قرعتان. تلهث المرأة. وحبوب اللقاح السابحة في الهواء ترجف، فيما يترنَّح الظلام بقوَّة. ذلك الصوتُ يُغلق المعبر الذي كان قد بدأ يتشكَّل أخيرًا من أجلي.

يحدث هذا كلّ مرَّة.

*

أجد نفسي في جسدي مرَّةً أخرى، جالسًا في قاع البئر، وظهري مسندٌ إلى الجدار، ويداي تقبضان على المضرب.

الإحساس بالعالم في «هذا الجانب» يعود إلى يديَّ رويدًا رويدًا، مثل الصورة التي يتدرَّج وضوحُها في الكاميرا. أحسّ برطوبة العرق على راحتيَّ. قلبي يخفق بقوَّةٍ في حلقي. أذناي تحتفظان بصوت ذلك القرع القاسي، وما أزال أسمع الدوران البطيء لمقبض الباب في الظلام. أحدٌ ما (أو شيءٌ ما) في الخارج يفتح الباب، ويستعدّ للدخول، ولكنْ في تلك اللحظة نفسها تتبخَّر كلّ الصور. يعود الجدار صلبًا كما كان، ويُقذف بي مرَّةً أخرى في هذا الجانب.

في العتمة، أنقر الجدار بطرف المضرب. هو نفسه الجدار الإسمنتيّ البارد. تُغلِّفني هذه الأسطوانة الإسمنتيَّة. أقول لنفسي كدتُ أفعلها هذه المرَّة. إنَّني أقترب. أكيد. سيأتي الوقت الذي أعبر فيه هذا الحاجز وأصل إلى «الداخل». سوف أنسلّ إلى الغرفة، وأقف هناك مستعدًّا حين يأتي قرع الباب. ولكنْ متى سيأتي ذلك الوقت؟ وكم بقي لي من وقت؟

لكنَّني في الوقت نفسه خائفٌ من أن يحدث ذلك فعلًا. فحينها سيكون عليَّ أن أواجه الذي هناك.

أظلّ ملتفًّا حول نفسي في الظلام. عليَّ أن أُهدِّئ نبضات قلبي. عليَّ أن أنزع يديَّ عن ذلك المضرب. سوف أحتاج إلى المزيد من الوقت، والقوَّة، قبل أن أتمكَّن من النهوض على قدميَّ فوق أرضيَّة البئر، والصعود على السلّم الحديديّ إلى السطح.

9

الهجوم على حديقة الحيوان (أو المذبحة الطائشة)

حكتْ لي جوزةُ الطيب أكاساكا قصَّةَ النمور والفهود والذئاب والدببة التي أطلق عليها الجنودُ النار في عصرٍ شديد الحرارة من شهر آب / أغسطس 1945 م. كانت تسرد القصَّة بترتيبٍ ووضوح، مثل فيلمٍ وثائقيّ يُعرض على شاشةٍ ناصعة البياض. لم تترك تفصيلًا مبهمًا، مع أنَّها لم تشهد الحدث. ففي ذلك الوقت، كانت تقفُ على ظهر سفينةٍ تحمل لاجئين من منشوريا إلى اليابان. أمَّا الحدث الذي شهدتْه فعلًا فكان ظهور غوَّاصةٍ أميركيَّة.

كانت قد خرجتْ هي والأطفالُ الآخرون من عنابر السفينة التي لم يكن بالإمكان تحمُّل الحرارة فيها، واتَّجهوا إلى ظهر

السفينة كي يقفوا عند حاجزها يستمتعون بالنسمات العليلة التي تعبر فوق البحر الهادئ الساكن. وفجأة، ظهرتْ أمامهم غوَّاصةٌ على السطح، كأنَّها طَرَفٌ من بقيَّة حلم. فأوَّل ما شقّ الماء منها كان الهوائيّ ومنارةُ الإشارة اللاسلكيَّة والناظور. بعد ذلك، ظهر برجُ القيادة يمخر عباب البحر. وأخيرًا، ظهرت الكتلة الحديديَّة كلّها، عاريةً رشيقةً يتقطَّر منها الماء وهي تحت الشمس الحارقة. وعلى الرَّغم من أنَّ الشكل الذي أمامها لم يكن إلَّا شكل غوَّاصة، إلَّا أنَّها بدت لها مثل نوعٍ من الرمز، أو المجاز الذي يستعصي على الفهم.

مضت الغوَّاصة تمخر في توازٍ مع السفينة برهةً، وكأنَّها تطارد فريستها، ثم انفتحتْ كُوَّةٌ، فصعد على ظهر الغواصة شخصٌ، ثم آخر، ثم آخر، يمشون في بطءٍ شديد. وهناك من برج القيادة، أخذ الضبَّاط يتفحَّصون السفينة بكلِّ تفاصيلها من مناظير هائلة تلتمع عدساتُها بين الفينة والأخرى تحت ضوء الشمس. كانت السفينة ممتلئةً بمواطنين عائدين إلى اليابان، متوجِّهين إلى ميناء ساسيبو. معظمهم نساء وأطفال، من عائلات المسؤولين اليابانيين في حكومة مانشوكو الصُوريَّة، وعائلات كبار الموظَّفين في سكَّة حديد جنوب منشوريا (المملوكة لليابان). كانوا هاربين إلى وطنهم من الفوضى التي سوف تحلّ بعد الهزيمة الوشيكة لليابان في الحرب. لقد فضَّلوا الفرار من الفظائع المحتومة حتى وإنْ أدَّى ذلك إلى المخاطرة بتعريض أنفسهم لهجوم غوَّاصةٍ أميركيَّة في عرض البحر. حتى الآن على الأقلّ.

*

كان ضبَّاط الغوَّاصة يريدون التأكُّد من أنَّ سفينة النقل هذه غير مسلَّحة أو مزوَّدة بفرقةٍ عسكريَّة بحريَّة. لم يكن لديهم ما يخشونه؛ فالأميركان كانوا قد تحصَّلوا على سيطرةٍ جوِّيَّة كاملة أيضًا بعد سقوط أوكيناوا، ولم تكد تبقى أيّ طائراتٍ مقاتلة على أرض اليابان. لا حاجة إلى الذعر إذن، فقد كان الوقت في صالحهم. صاح ضابط صفٍّ يلقي بعض الأوامر، فراح ثلاثة بحَّارةٍ يلفُّون الأذرع التي تدير المدفع، إلى أن وجَّهوه نحو السفينة. فيما فتح اثنان آخران كوَّةً خلفيَّة وحملوا منها قذائف ثقيلةً لتلقيم المدفع. وعلاوة على ذلك، كانت جماعةٌ أخرى تلقِّم مدفعًا رشَّاشًا نصَّبوه على جزءٍ مرتفع من سطح الغوَّاصة، قرب برج القيادة. كان كلّ هؤلاء الرجال يرتدون خوذات عسكريَّة، مع أنَّ قلَّةً منهم كانوا عراة الصدر، ونصفُهم تقريبًا يرتدون سراويل قصيرة. فلو حدَّقتْ جوزةُ الطيب فيهم جيِّدًا لأمكنها أن ترى وشومًا واضحة على أذرعهم. لو حدَّقت جيِّدًا، لأمكنها أن ترى أشياء كثيرة.

كان مدفع السطح والمدفع الرشَّاش كلَّ ما تملكه الغوَّاصة من قوَّةٍ ناريَّة، لكنَّها كانت كافيةً جدًّا لإغراق هذه السفينة القديمة المهترئة، التي أُعيد تجهيزها من سفينة شحنٍ إلى سفينة نقل. كانت الغوَّاصة تحمل بالطبع عددًا محدودًا من القذائف الطوربيديَّة، غير أنَّه لا بدَّ من الحفاظ عليها للمواجهات مع السفن المسلَّحة، هذا إنْ افترضنا أنَّه بقيت هناك سفنٌ مسلَّحة في اليابان. كانت هذه هي القاعدة الأساسيَّة.

تشبَّثتْ جوزة الطيب بحاجز السفينة، وأخذت تراقب ماسورة

المدفع السوداء تتوجَّه صوبها. ها هو الماء يتقاطر منها بعد أن كانت جافَّةً تحت شمس الصيف. لم تَرَ جوزةُ الطيب في حياتها مدفعًا ضخمًا كهذا. صحيح أنَّها كانت ترى مدافع عسكريَّة تابعةً للجيش اليابانيّ في شينجينغ، ولكنْ لا يوجد مجالٌ للمقارنة بينها وبين مدفع الغوَّاصة هذا. بعد ذلك، صوَّبت الغوَّاصةُ مصباحَ إشارةٍ نحو السفينة: **توقَّف. سنبدأ الهجوم. عليكم إجلاء كافَّة الركاب على قوارب النجاة فورًا.** (بطبيعة الحال لم تستطع جوزة الطيب أن تقرأ الإشارة، لكنَّها فهمتها لاحقًا). في أتون الفوضى التي خلّفَتْها الحربُ لم يُنجز إلَّا القدرُ الأدنى من تحويل سفينة الشحن هذه إلى سفينة نقل (وفقًا لأوامر الجيش)، لذلك لم تكن هناك قوارب نجاة كافية. في الواقع، لم يكن هناك سوى قاربَيْن صغيرَيْن لا يكفيان لأكثر من خمسمئة شخصٍ على ظهر السفينة. هذا ولم تكن هناك أيّ سترات نجاةٍ أو عوَّامات.

ظلَّتْ جوزة الطيب ممسكةً بالحاجز تحبس أنفاسها وهي تحدِّق مشدوهةً من هذه الغوَّاصة المنسابة. كانت ناصعةً كما لو أنَّها مصنوعةٌ لتوِّها، لا يشوبها أيّ صدأ. نظرتْ فرأتْ الأرقام البيضاء على برج القيادة، وهوائيّ اللاسلكيّ يدور فوقه. رأت الضابط بشعره البنِّيّ والنظَّارة الداكنة. قالت في نفسها لقد صَعَدتْ هذه الغوَّاصة من قعر المحيط لكي تقتلنا كلّنا. ولكنْ ما الغريب في ذلك! يمكن أن يحدث هذا في أيِّ وقت. **لا شأن للحرب بهذا، إذْ يمكن أن يحدث لأيِّ أحدٍ وفي أيِّ مكان.** يظنّ الجميع أنَّ هذا يحدث بسبب الحرب، لكنَّه ليس صحيحًا. الحربُ مجرَّد **شيءٍ من الأشياء التي يمكن أن تحدث.**

كانت جوزةُ الطيب في مواجهة الغوَّاصة ومدفعها الضخم، بيد أنَّه لم يساورها أيّ خوف. كانت أمّها تصيح بها، لكنَّ الكلمات كانت خاليةً من أيِّ معنى. ثم شعرتْ بشيءٍ يمسك بمعصمَيْها ويشدّهما. لكنَّ يدَيْها ظلَّتا قابضتَيْن على الحاجز. شيئًا فشيئًا بدأتْ جَلَبة الأصوات من حولها تبتعد، كما لو أنَّ شخصًا يخفض صوت المذياع. قالت في نفسها أشعر بنعاسٍ شديد. نعاسٍ شديد. تُرى لماذا أشعر بالنعاس هكذا؟ أغمضتْ عينَيْها، ثم أسرع وعيُها مبتعدًا، وترك سطح السفينة خلفه بعيدًا.

*

كانت جوزة الطيب تشاهد الجنود اليابانيِّين وهم يعيثون في حديقة الحيوان، يُطلقون النار على أيِّ حيوانٍ قد يهاجم البشر. أصدر الضابطُ أوامره، فانطلقتْ رصاصاتُ البنادق تشقّ جلد نمرٍ وتمزِّق أحشاءه. كانت سماء الصيف زرقاء، وصيحات السيكادات تنهمرُ من الأشجار المحيطة مثل غيثٍ مفاجئ.

لم ينطق الجنود بكلمة. كان الدم قد غاب من وجوههم التي سفعتْها الشمس، فغدَوا مثل صورٍ مرسومةٍ على قوارير أثريَّة. في غضون أيَّامٍ (أو أسبوعٍ على الأكثر)، ستصل القوَّة الرئيسة من مركز القيادة السوفييتيِّ للشرق الأقصى إلى شينجينغ. ولم يكن هناك من سبيلٍ إلى إيقافها. فمنذ أن بدأت الحربُ، استُهلكت قوَّات النخبة والمعدَّات الوافرة في جيش كوانتونغ من أجل دعم الجبهة الجنوبيَّة الآخذة في الاتِّساع. وهكذا، أصبح معظم هذه القوَّات والمعدّات إمَّا في قاع البحر أو متعفِّنًا في أعماق الغابة. راحت الدبَّابات، والمدافع المضادَّة للدبَّابات. ولم يبقَ من

مركبات نقل الجنود سوى القليل جدًّا، أمَّا التي تعطَّلت فلا توجد قطع غيارٍ لها. صحيح أنَّه يمكن للتعبئة العامَّة أن توفِّر عددًا كبيرًا من القوَّات، إلَّا أنَّ الجيش لم يعد يملك ما يكفي حتى من البنادق القديمة لتسليح هذه القوَّات، ولم يعد يملك ما يكفي من الذخيرة. وهكذا، تحوَّل جيش كوانتونغ العظيم، أو «حصن الشمال» كما كان يُطلق عليه، إلى نمرٍ من ورق. في الوقت ذاته، كانت الوحدات السوڤييتيَّة الآليَّة التي سحقت الجيش الألمانيّ تكمل عمليَّة انتقالها عبر السكك الحديديَّة إلى جبهة الشرق الأقصى، مشفوعةً بكثيرٍ من المعدَّات والمعنويَّات العالية، كان انهيار مانشوكو وشيكًا.

كان الجميع يعرف هذه الحقيقة، وأوَّلهم قيادة جيش كوانتونغ. لذلك، فقد نقلوا قوَّتهم الرئيسة إلى المؤخِّرة، فتخلُّوا بذلك فعليًّا عن المعاقل الحدوديَّة الصغيرة والمزارعين اليابانيِّين المدنيِّين. وهؤلاء المزارعون العزَّل ذَبَحهم الجيشُ السوڤييتيّ الذي كان يتقدَّم بسرعةٍ كبيرةٍ ليقبض على الأسرى. وهكذا، فضَّلتْ كثيرٌ من النساء أن ينتحرنَ جماعيًّا خشية الاغتصاب. أمَّا من كانوا في الحاميات الحدوديَّة فقد حبسوا أنفسهم في الخندق الإسمنتيّ المُسمَّى «حصن العصور» وقاوموا مقاومةً شديدة، لكنَّ القوَّة الناريَّة السوڤييتيَّة قضتْ عليهم في غياب الدعم. رتَّب عددٌ من أركان الحرب وضبَّاطٍ كبار آخرين لأنفسهم «نقلًا» إلى المقرِّ الجديد في تونغوا قرب الحدود الكوريَّة، أمَّا الأمبراطور الصوريّ هنري پويي وأسرته فقد تركوا كلّ ممتلكاتهم وفرُّوا من العاصمة بقطارٍ خاصّ. هذا، وقد فرَّ معظم المجنَّدين الصينيِّين المكلَّفين

بالدفاع عن العاصمة فور أن سمعوا بالغزو السوڤييتيّ، أو دبَّروا تمرُّدًا وأطلقوا النار على ضبَّاطهم اليابانيِّين. لم يرغبوا في التضحية بحياتهم من أجل اليابان في صراعٍ مع تلك القوَّات السوڤييتيَّة المتفوِّقة.

على إثر هذه التطوُّرات غير المترابطة، أصبحت عاصمة مانشوكو شينجينغ (التي بنَتْها الدولةُ اليابانية الحديثة في الصحراء وعلَّقت سمعتها عليها) متروكةً في فراغٍ سياسيٍّ غريب، ما حدا بكبار المسؤولين الصينيِّين في مانشوكو إلى القول بفتح المدينة واستسلامها من دون مقاومةٍ لتجنُّب الفوضى وسفك الدماء، غير أنَّ جيش كوانتونغ رفض ذلك.

كان الجنودُ المرسَلون إلى حديقة الحيوان قد استسلموا لأقدارهم، فقد افترضوا أنَّهم سيلقون حتفهم في غضون أيَّامٍ في مواجهة الجيش السوڤييتيّ (في الواقع، بعد نزع سلاحهم سوف يُرسلون إلى معسكرات العمل، وثلاثة منهم سوف يموتون في مناجم الفحم في سيبيريا). وكلّ ما كان في وسعهم هو الدعاء بأنْ لا يموتوا ميتةً مؤلمة. لم يكن أحدٌ منهم يودّ أن تسحقه دبَّابة، أو يحترق في خندقٍ بقذيفة لهب، أو يموت ميتةً بطيئة برصاصةٍ في البطن. كان الأفضل أن تكون الرصاصةُ في القلب أو الرأس. ولكنْ قبل ذلك كلّه عليهم الآن أن يقتلوا حيوانات الحديقة.

*

كانت الأوامر تقضي باستخدام السمّ قدر الإمكان في قتل

الحيوانات، وذلك للحفاظ على ما تبقَّى من رصاص. هكذا، جاءت الأوامر للملازم الشابّ المسؤول عن العمليَّة من رئيسه، وقال له إنَّ حديقة الحيوان كانت قد زُوِّدت بما يكفي من السمّ. فأخذ الملازم ثمانية رجالٍ مسلَّحين بالكامل إلى الحديقة التي تبعد عن مقرِّ القيادة عشرين دقيقةً على الأقدام. كانت البوَّابة مغلقةً منذ الغزو السوفييتيّ، وهناك جنديَّان يحرسان المدخل، وكلٌّ منهما مسلَّحٌ ببندقيَّةٍ ذات رمح. أشهرَ الملازمُ الأمرَ العسكريّ للحارسَيْن، وقاد رجاله إلى الداخل.

أكَّد مديرُ الحديقة أنَّه تلقَّى أوامر بـ «تصفية» الحيوانات الأكثر شراسةً في حالة الطوارئ، وأنْ يستخدم السمّ، غير أنَّ شحنة السمّ لم تصل. فأُسقط في يد الملازم. كان في الواقع مُحاسِبًا يعمل في مكتب صرف الرواتب، ولم يؤمر في حياته بأن يقود فصيلًا من الجنود، إلى أنْ سحبوه من مكتبه لهذه المهمَّة. اضطُرَّ إلى التفتيش في أدراجه بحثًا عن مسدَّسه الذي ظلَّ سنواتٍ من دون استخدام، فلم يكن حتى متأكِّدًا من أنَّه ما يزال يعمل.

نظر إليه مدير الحديقة نظرةً لا تخلو من إشفاق، وهو يكبره بعدَّة سنوات: «هكذا هي البيروقراطيَّة الحكوميَّة أيُّها الملازم. حين تحتاج إلى شيءٍ لا تجده أبدًا».

ولتوضيح الأمر أكثر، استدعى المدير كبير الجرَّاحين البيطريِّين، فقال هذا للملازم إنَّه لم يبق في الحديقة إلَّا قدرٌ ضئيلٌ جدًّا من السمّ لا يكفي حتى لقتل حصان. كان هذا الجرَّاح رجلًا طويل القامة وسيمًا، على خدِّه الأيمن علامةٌ زرقاء مسودَّة تُشبه في حجمها وشكلها راحة يد مولودٍ صغير. حين رآها الملازم،

قال في نفسه لا بدَّ من أنَّها موجودةٌ على خدِّه منذ الولادة.

اتَّصل الملازم بقيادة الجيش من مكتب المدير كي يتلقَّى تعليماتٍ جديدة، لكنَّ قيادة جيش كوانتونغ كانت تمرّ بحالة ارتباكٍ شديد منذ أن عبر الجيش السوفييتيّ الحدود قبل بضعة أيَّام، ومعظمُ الضبَّاط الكبار اختفوا. أمَّا القلَّة الذين تبقُّوا فكانوا مشغولين جدًّا، إمَّا يحرقون أكوامًا من المستندات في الفِناء أو يقودون القوّات إلى طرف البلدة كي يحفروا خنادق ضدَّ الدبَّابات. أمَّا الرائد الذي أعطى الأوامر للملازم فلم يكن أحدٌ يعرف مكانه، واضطُرَّ الملازم إلى البحث عن المسؤول عن السموم. من يا تُرى المسؤول في جيش كوانتنوغ عن السموم؟ وهكذا، حُوِّلت مكالمته من مكتبٍ إلى آخر، إلى أن ردَّ عليه عقيدٌ من الدائرة الطبِّيَّة، فصاح فيه: «أيُّها الأحمق ابن العاهرة! الدولةُ بأكملها تغرق وأنت تسألني عن حديقة حيوان! فلتذهب إلى الجحيم».

قال الملازم في نفسه صحيح، فلتذهب إلى الجحيم. هكذا، أغلق الخطّ بنظرةٍ حزينة، وقرَّر أن ينسى موضوع السمّ. أمامه الآن خياران اثنان؛ فإمَّا أن يترك مسألة قتل الحيوانات ويخرج بجنوده، أو يستخدم الرصاص لتنفيذ المهمَّة. في الحالتيْن خرقٌ للأوامر، لكنَّه قرَّر في نهاية الأمر أن يختار الرصاص. فقد يخفِّضون رتبته العسكريَّة لأنَّه بدَّد ذخيرةً ثمينة، لكنَّه على الأقلِّ سيكون قد حقَّق الهدف في «تصفية» الحيوانات الخطيرة. أمَّا إنْ تركها فقد يواجه محاكمةً عسكريَّة بتهمة عصيان الأوامر. من غير المرجَّح أن تكون هناك أيّ محاكماتٍ عسكريَّة في هذه المرحلة من الحرب، ولكنْ تبقى الأوامر هي الأوامر. وطالما كان هناك

جيش، فلا بدَّ من تنفيذ الأوامر.

كان الملازم يقول في نفسه بكلِّ صدقٍ إنَّه يفضِّل ألَّا يقتل أيّ حيوان. لكنَّ طعام الحيوانات كان على وشك أن ينفد، ومعظم الحيوانات (لا سيَّما الكبيرة منها) كانت تُعاني من جوعٍ مزمن. إنْ تركها فسوف تسوء أحوالها، أو على أقلِّ تقديرٍ لن تتحسَّن. ربَّما يكون إطلاق الرصاص عليها هو الخيار الأسهل لها. ميتةٌ سريعة. أمَّا إذا هربت الحيوانات الجائعة إلى شوارع المدينة إبَّان المعارك أو القصف الجوِّي، فسوف تقع كارثة لا محالة.

كان قد طُلب من المدير تجهيز قائمة بالحيوانات «الواجب تصفيتها في حال الطوارئ»، فقدَّمها للملازم مع خريطةٍ للحديقة، وطلب من البيطريّ ذي العلامة وعاملَيْن صينيَّيْن أن يرافقا فرقة الإعدام. ألقى الملازم نظرةً على القائمة، وارتاح حين وجدها أقصر ممَّا توقَّع. غير أنَّه من بين الحيوانات المدرجة في القائمة فيلان هنديَّان. قطَّب الملازم جبينه، وقال في نفسه: فيلان؟ وكيف يمكننا بحقِّ السماء أن نقتل فيلَيْن؟

وفقًا لمخطَّط الحديقة، فقد كانت النمور أوَّل الحيوانات التي ينبغي تصفيتها. الفيلان سيكونان في النهاية على أيِّ حال. تقول اللوحة الموضوعة عند قفص النمور إنّه جرى اصطياد النمرَيْن في منشوريا في جبال خنجان الكبرى. حدَّد الملازم أربعة رجالٍ لكلِّ نمر، وأوصاهم بالتصويب ناحية القلب (مع أنَّه لم يكن يعرف أين يوجد قلب النمر بالضبط). قال في نفسه على الأقلِّ رصاصة واحدة ستصيب الهدف. وحين سحب ثمانية رجالٍ صمّام الأمان في بنادقهم، وأدخلوا خرطوشة الرصاص، تغيَّر المناخ كلّه في

المكان على إثر تلك القرقعة المشؤومة. نهض النمران حين سماع الصوت، وحدَّقا في الجنود عبر القضبان ثم أطلقا هريرًا قويًا. زيادةً في الاحتياط، أخرج الملازم مسدَّسه الآليّ وسحب صمَّام الأمان. ثم تنحنح في محاولةٍ لتهدئة أعصابه. قال في نفسه هذا أمرٌ بسيط. يفعل الجميع مثل هذه الأشياء دائمًا.

جثا الجنود وصوَّبوا أسلحتهم، فلمَّا أصدر الملازمُ الأمر ضغطوا الزناد. اهتزَّت أكتافهم، وفرغتْ عقولهم لحظةً من أثر الطلقات كما لو أنَّها نُفضت. تردَّد صوتُ الرصاص في الحديقة المهجورة، يرتدّ صداه من مبنى إلى مبنى، ومن جدارٍ إلى جدار، فينسلّ بين الأشجار، ويعبر فوق أسطح الماء، مثل طعنةٍ في قلب سامعه، كصوت رعدٍ من بعيد. حبست الحيوانات أنفاسها، وحتى السيكادات توقَّفتْ عن الصياح. ظلَّ المكان هادئًا بلا أيِّ صوتٍ فترةً طويلة بعد انقطاع الصدى. قفز النمران في الهواء وكأنَّ ماردًا ضربهما بعصا كبيرة، ثم سقطا على الأرض سقطةً مدوِّية، يبصقان الدم ويتلوَّيان من شدَّة الألم. غير أنَّ الجنود لم ينجحوا في القضاء على النمرَيْن برشقةٍ واحدة. فلمَّا أفاق النمران، سحب الجنود صمَّام الأمان مرَّةً أخرى، وأخرجوا الخراطيش الفارغة، وصوَّبوا السلاح ثانيةً.

*

أمر الملازم أحد جنوده بالدخول إلى القفص للتأكُّد من موت النمرَيْن. كانا يبدوان ميِّتَيْن فعلًا، فالعيْنان مغمضتان والأسنان مكشوفة، والحركة معدومة. ولكنْ كان من المهمِّ التأكُّد على أيِّ حال. فتح البيطريّ القفص، وخطا الجنديّ الشابّ (كان قد بلغ

العشرين لتوِّه) إلى داخل القفص خائفًا، وهو يلوِّح برمحه أمامه. كان المشهد غريبًا، ولكنْ لم يضحك أحد. بكعب حذائه ركل أحد النمرَيْن ركلةً خفيفةً في عجيزته، فلم تصدر عن النمر أيّ حركة. أعاد الكرَّة، ولكنْ أقوى قليلًا. لقد مات النمر من دون شكّ. وبالمثل، كان النمر الآخر ساكنًا بلا حراك (كانت في الواقع أنثى). لم يزر هذا الجنديّ الشابّ حديقة حيوان في حياته، ولم يسبق له أن رأى نمرًا حقيقيًّا. وهذا جزءٌ من السبب في أنَّه لم يكد يصدِّق أنَّهم نجحوا في قتل نمرٍ حقيقيٍّ حيّ. كان يشعر بأنَّه جُرَّ إلى مكانٍ لا علاقة له به، وأُجبر على فعل شيءٍ لا علاقة له به. وقف الشابّ في محيطٍ من الدم الأسود، يُحدِّق في الجثَّتَيْن دائخًا. كانا يبدوان في موتهما أكبرَ حجمًا. فسأل نفسه في حيرة: لماذا يبدوان أكبر؟

كانت أرضيَّة القفص الإسمنتيَّة مشبَّعةً برائحة بول النمرَيْن، فاختلطتْ برائحة الدم الدافئة. كان الدم ما يزال ينبجس من ثقوبٍ مزَّقت جسدَيْهما، فتشكَّلتْ بركةٌ سوداء لزجة عند قدمَي الجنديّ. فجأةً أحسَّ بأنَّ البندقيَّة التي في يده ثقيلة، باردة. كان يريد أن يُلقي بها، وينحني فيُفرغ ما في جوفه على الأرض. كم سيرتاح! لكنَّ الاستفراغ لم يكن خيارًا متاحًا، وإلَّا فسوف يوسعه قائدُ الفرقة ضربًا. (بالطبع لم يكن الجنديّ يعلمُ أنَّه سيموت بعد سبعة عشر شهرًا حين يهشِّم حارسٌ سوفييتيّ رأسه بمجرفةٍ في منجمٍ قرب إيركوتسك). مَسَحَ العرق الذي تفصَّد من جبينه بظاهر معصمه. كانت خوذته تزداد ثقلًا فوق رأسه. وفجأةً، بدأتْ حشرةُ سيكادا تصيح، ثم تبعتْها أخرى، كما لو أنَّ الحياة عادت إليها

أخيرًا. وسرعان ما انضمَّت إليها صيحاتُ طائر. كانت صيحاتٍ مميَّزة، تشبه لفَّة الزنبرك: **كرييك، كرييك**. كان هذا الشابّ قد انتقل مع والديْه بحرًا إلى الصين من قريةٍ جبليَّةٍ في «هوكايدو» حين كان في سنِّ الثانية عشرة، وهناك أخذوا يحرثون التربة في قريةٍ حدوديَّةٍ في «بيئان» إلى السنة الماضية حين استُدعي للتجنيد. لذلك، فقد كان يعرف جميع طيور منشوريا، لكنَّه لم يسمع قطّ طائرًا يصيح هكذا. لعلَّه كان طائرًا مستوردًا من أرضٍ بعيدة، يصيح في قفصه في مكانٍ ما هنا في الحديقة. لكنَّ الصوت بدا وكأنَّه يأتي من أغصان شجرةٍ قريبة. استدار وضيَّق عينيْه باتِّجاه الصوت، لكنَّه لم يَرَ شيئًا. كانت هناك شجرة دَرْدار ضخمةٌ ذات أوراقٍ وارفة، تسدل ظلّها البارد على الأرض.

نظر إلى الملازم، كأنَّه ينتظر التعليمات، فأومأ له الملازم أن يخرج من القفص، ثم بسط خريطة الحديقة أمامه مرَّةً أخرى. قال في نفسه: انتهى أمر النمور. بعد ذلك نتَّجه إلى الفهود، وربَّما الذئاب بعدها. لدينا الدببة أيضًا. وسوف نفكِّر في أمر الفيلَيْن حين ننتهي من الحيوانات الأخرى. وفجأةً، أدرك حرارة الجوّ. فقال لرجاله: «خذوا استراحة. اشربوا ماء». شرب الجنود من مطَّاراتهم، ثم علَّقوا بنادقهم على أكتفاهم واتَّخذوا أماكنهم، وتقدَّموا نحو قفص الفهود. وهناك في أعلى الشجرة، ما يزال الطائر الغريب وصيحته اللحوحة، يلفّ الزنبرك. تبقَّعتْ قمصان الرجال سوادًا لفرط العرق، في صدور قمصانهم وظهورها. حين اصطفَّ الجنود المسلَّحون، تردَّدتْ أصداء القرقعات المعدنيَّة جوفاءَ في الحديقة المهجورة. من بعيد، كانت القرود المتشبِّثة في

قضبان الأقفاص تشقّ الهواء بصرخات النذير، ترسل تحذيراتٍ محمومةً إلى باقي الحيوانات الأخرى في الحديقة، فانضمّت هذه بدورها إلى الجوقة، كلًّا على طريقته. فرفعتْ الذئاب عواءها باتِّجاه السماء، وصفَّقت الطيور بأجنحتها عاليًا، فيما أخذت بعض الحيوانات الكبيرة تدقّ أجسادها في القفص كأنَّها تهدِّد. سحابةٌ صغيرة ظهرتْ فجأةً، وتشكَّلت في السماء مثل قبضة، فتوارت الشمسُ خلفها بعض الوقت. في عصر ذلك اليوم من آب / أغسطس، كان الجميع (من بشرٍ، وحيوانات) يفكِّرون في الموت. اليوم يقتل الرجالُ الحيوانات. وغدًا تقتل القوَّات السوڤييتيَّة الرجال. ربَّما.

*

كنَّا نجلس قبالة بعضنا بعضًا دائمًا على الطاولة نفسها في المطعم نفسه، نتحدَّث. كانت زبونةً دائمة هناك، وكانت هي التي تدفع الحساب دائمًا بالطبع. الجزء الخلفيّ من المطعم كان مقسَّمًا إلى حجَيْراتٍ خاصَّة، فلا يمكن لمن يجلس على الطاولة أن يسمع ما يدور في الطاولة الأخرى. ولأنَّ المطعم يَقبل حجزًا واحدًا كلّ مساء، فقد كان بإمكاننا أن نجلس ونتحدَّث كما نشاء إلى وقت الإغلاق، من دون أيِّ مقاطعةٍ من أحد، بما في ذلك النُدل الذين لا يأتون إلَّا لإحضار صحنٍ أو رفع آخر. كانت دائمًا ما تطلب زجاجةً من نبيذ البرغندي من نوعيَّةٍ معيَّنة، ودائمًا ما تُبقي نصف الزجاجة.

سألتُها وقد رفعتُ عينيّ عن صحني: «طائر يلفّ زنبركًا؟»

فقالت جوزة الطيب تردِّد سؤالي: «طائر يلفّ زنبركًا؟» ثم لفَّت شفتَيْها قليلًا، وتابعتْ: «لا أفهم ما تقوله. ماذا تقصد؟»

«أولم تقولي لتوِّك شيئًا عن طائر يلفّ زنبركًا؟»

هزَّت رأسها ببطء. «همم. لا أذكر الآن. لا أظنّ أنِّي ذكرتُ أيّ طائر».

أدركتُ أنَّه لا فائدة من السؤال. كانت دائمًا تقصّ حكاياتها على هذا النحو. ولمْ أسألها عن العلامة أيضًا.

سألتُها: «إذن وُلدتِ في منشوريا؟»

هزَّت رأسها ثانية. «وُلدت في يوكوهاما. أخذني والداي إلى منشوريا حين كنت في الثالثة من عمري. كان أبي يعمل مدرِّسًا في كلِّيَّةٍ للطبِّ البيطريّ، ولكنْ حين أراد المسؤولون في مدينة شينجينغ شخصًا من اليابان كي يعمل كبيرًا للجرَّاحين البيطريِّين في حديقة الحيوان الجديدة التي كانوا بصدد إنشائها، تطوَّع لأخذ هذه الوظيفة. لم تكن والدتي تريد أن تترك الحياة المستقرَّة في اليابان وتذهب إلى آخر العالم، لكنَّ والدي أصرّ. لعلَّه كان يريد أن يختبر قدراته في مكانٍ أكبر وأكثر انفتاحًا من اليابان. كنتُ صغيرةً جدًّا، فلم أهتمّ، لكنَّني استمتعتُ جدًّا بالحياة في الحديقة. كانت حياةً رائعة. كانت رائحةُ والدي دائمًا رائحةَ الحيوانات، إذ تختلطُ روائح الحيوانات كلّها في رائحةٍ واحدة، فتكون مختلفة كلّ يوم، وكأنَّك تخلط المقادير في عطرٍ ما. كنتُ أقفز في حِجره حين يعود إلى البيت، وأطلب منه أن يجلس في مكانه ريثما أتشمَّمه.

«لكنَّ الحرب اتَّخذتْ منعطفًا سيِّئًا بعد ذلك، وكانت حياتنا

معرَّضةً للخطر. لذلك، قرّر والدي أن يُعيدني أنا وأمّي إلى اليابان قبل فوات الأوان. وهكذا، ذهبنا مع كثيرين غيرنا، أخذنا القطار من شينجينغ إلى كوريا، حيث كانت هناك سفينة خاصَّة في انتظارنا. أمَّا والدي، فقد بقي في شينجينغ. آخر مرَّة رأيته فيها كانت في محطَّة القطار وهو يلوِّح لنا مودِّعًا. أخرجتُ رأسي من النافذة، وأخذتُ أرقبه وهو يصغر ويصغر حتى اختفى في زحام المحطَّة. لا أحد يعلم ما حدث له بعد ذلك. أعتقد أنَّ القوَّات السوڤييتيَّة أخذتْه أسيرًا، ونقلته إلى معسكرات العمل في سيبيريا، ثم مات هناك مثل كثيرين غيره. لعلَّه الآن مدفونٌ في قطعة أرضٍ باردة مهجورة من دون أيِّ علامةٍ تدلّ على قبره!

«ما أزال أذكر كلّ شيءٍ في حديقة شينجينغ، بكلٍّ تفاصيلها. وأستطيع أن أستحضرها كلّها في عقلي. كلّ ممرّ، وكلّ حيوان. كنَّا نعيش هناك في مسكنِ كبير الجرَّاحين داخل الحديقة، وكان جميع العمَّال يعرفونني ويسمحون لي بالتنقُّل في الحديقة كما أشاء، حتى في العطلات حين تُغلَق الحديقة». أغمضتْ جوزة الطيب عينَيْها تستحضرُ ذلك المشهد، فيما بقيتُ صامتًا أنتظر أن تُكمل قصَّتها.

«مع ذلك، فلستُ واثقةً من أنَّ الحديقة التي أتذكَّرها كانت بالفعل كذلك. لا أدري كيف أشرح الأمر. أشعر أحيانًا بأنَّ الصورة واضحةٌ أكثر ممَّا يلزم. وحين تطرأ لي هذه الخواطر كلَّما فكَّرتُ فيها، لم أعد أعرف مقدار ما هو حقيقيّ من ذلك الوضوح، ومقدار ما تخترعه خيالاتي. أشعر كما لو أنَّني أسبح في متاهة. هل جرَّبت هذا الشعور؟»

لم أُجرِّبه، لكنِّي سألتها: «هل تعرفين ما إذا كانت الحديقة ما تزال موجودةً في شينجينغ؟»

قالت وهي تلمس طرف قرطها: «من يدري. سمعتُ أنَّ الحديقة أغلقتْ أبوابها بعد الحرب، لكنِّي لا أدري ما إذا كانت ما تزال مغلقة».

*

مرَّت فترةٌ طويلة جدًّا كانت جوزة الطيب أكاساكا فيها الشخصَ الوحيد الذي أتحدَّث إليه. كنَّا نلتقي مرَّةً أو مرَّتيْن كلَّ أسبوع، نتحدَّث في ذلك المطعم على الطاولة نفسها. وبعد عدَّة لقاءات، تبيَّن لي أنَّها مستمعةٌ رائعة جدًّا. كانت حاضرة الذهن، وتعرف كيف تطرح الأسئلة والردود بما يكفل للقصَّة أن تتدفَّق بسهولة.

ولكي أتجنَّب إثارة ضيقها بأيِّ طريقة، كنت أعتني جيِّدًا بمظهري كلَّما التقينا، فأحرص على أن تكون ملابسي مرتَّبةً نظيفةً وأنيقة. كنت ألبس قميصًا نظيفًا من المغسلة، وأختار أفضل ربطة عنقٍ تلائمه. أمَّا حذائي فكان دائمًا ناصعًا لامعًا. وكان أوَّل ما تفعله حين تراني أن تتفحَّصني من أعلى إلى أسفل، بعين طبَّاخٍ يختار خضرواته. فلو كدَّرها شيءٌ من ملابسي، تأخذني مباشرةً إلى محلٍّ وتشتري لي بدلًا منه، بل تجعلني أرتديه هناك إن كان الوضع يسمح. في الملابس، لم تكن جوزة الطيب تقبل شيئًا دون الكمال.

نتيجةً لذلك، بدأتْ خزانةُ ملابسي تمتلئ. ففي بطءٍ مطَّرد، كانت البدلاتُ الجديدة والمعاطف الجديدة والقمصان الجديدة

تغزو الأرض التي كانت تحتلّها ذات يومٍ تنانير كوميكو وفساتينها. ولم تلبث أنْ ضاقت الخزانة، فطويتُ ملابس كوميكو ووضعتُها في صناديق مع كرات النفتالين، ونقلتها إلى مكانٍ آخر. لئن عادتْ كوميكو ذات يوم، فسوف تندهش كثيرًا ممَّا حدث في غيابها.

استغرق منِّي الأمر وقتًا طويلًا كي أشرح لجوزة الطيب مسألة كوميكو، شيئًا فشيئًا، أي أنَّني أريد أن أُنقذها وأُعيدها إلى هنا. وضعتْ مرفقها على الطاولة وأسندتْ ذقنها على يدها، ونظرت إليَّ برهةً.

«ولكن من أين بالضبط ستنقذ كوميكو؟ هل لهذا المكان اسم؟»

فتَّشتُ عن كلماتٍ في الفضاء، لكنَّها لم تكن في الفضاء. ولم تكن تحت الأرض أيضًا. قلت: «في مكانٍ ما. مكانٍ بعيد».

تبسَّمتْ جوزةُ الطيب. «مثل أوپرا الناي السحريّ. بالتأكيد تعرفها، موزارت. لا بدَّ من أن ينقذوا أميرةً أسيرة في حصنٍ بعيد باستخدام ناي سحريٍّ وأجراسٍ سحريَّة. أحبّ هذه الأوپرا. ولا أعرف كم مرَّةً شاهدتها، حتى إنِّي أحفظ أبياتها عن ظهر قلب: «أنا صيَّاد الطيور، يعرفني القاصي والدَّاني». هل شاهدتها؟»

هززتُ رأسي نافيًا. لم أشاهدها قطّ.

«في القصَّة ثلاثة أطفال يمتطون سحابةً ويقودون الأمير وصيَّاد الطيور پاپاغينو إلى الحصن، ولكنْ ما يحدث فعلًا هو معركةٌ بين أرض النهار وأرض الليل. فأرضُ الليل تحاول أن تستعيد الأميرة من أرض النهار. وفي منتصف الأوپرا، يفقد

الأبطال القدرة على تحديد أيّ الطرفيْن صاحب الحقّ، ومن الأسير فيهما. بطبيعة الحال، في النهاية يحصل الأمير على الأميرة، ويحصل پاپاغينو على پاپاغينا، ويسقط الأشرار في الجحيم». مرَّرتْ جوزة الطيب إصبعها حول حافَّة كأسها، ثم قالت: «على أيٍّ حال. في الوقت الحالي ليس لديك صيَّاد طيور، ولا ناي سحريّ، ولا أجراس».

«ولكنْ لديَّ بئر».

*

وكلَّما تعبتُ من الكلام، أو لم أعد قادرًا على إيجاد الكلمات التي أحتاج إليها كي أقصّ حكايتي، كانت جوزة الطيب تُعطيني استراحة، فتأخذُ هي دفَّة الحديث وتُخبرني عن بدايات حياتها، وكانت حكاياتها أطول وأعقد كثيرًا من قصصي. وبعكسي أنا، لم تكن تتَّبع نظامًا في حكاياتها، بل تقفز من موضوعٍ إلى آخر وفق ما تمليه مشاعرها. كانت من دون أيّ تفسير تعكس الترتيب الزمنيّ للأحداث، أو تتحدَّث عن شخصٍ لم تذكره من قبل على أنَّه شخصيَّة رئيسة في حكايتها. فلكي يعرف المرءُ المرحلةَ الزمنيَّة التي ينتمي إليها ما تحكيه، كان لا بدَّ من إجراء حذوفاتٍ دقيقة، على الرَّغم من أنَّ هذا لا يفيد في بعض الحالات مهما حذفت. كانت تسرد أحداثًا كما رأتْها بعيْنها، وأحداثًا لم تشهدها قطّ.

*

قتلوا الفهود، وقتلوا الذئاب، ثم قتلوا الدبَّيْن. وقد استغرق

إطلاق النار على الدبَّيْن معظم الوقت، ذلك أنَّهما ظلَّا يخبطان في قضبان القفص حتى بعد تلقّيهما عشرات الرصاصات. كانا يجأران عاليًا في وجه الجنود، بفكَّيْن مفتوحيْن ولعابٍ يسيل. فقد بدا الدبَّان غير قادريْن على استيعاب أنَّهما يُقتلان، بعكس النمرَيْن اللذيْن كانا أكثر استعدادًا لقبول مصيرهما (أو هكذا بدا على الأقلّ). ربَّما كان هذا هو السبب في أنَّ الأمر استغرق منهما أكثر ممَّا يلزم للوصول إلى انفصالٍ نهائيٍّ عن تلك الحالة الموقَّتة التي تُسمَّى الحياة. فلمَّا استطاع الجنود أخيرًا أن يقضوا على كلّ ملمح من ملامح الحياة في الدبَّيْن، كان الإنهاك قد أخذ منهما كلّ مأخذٍ، لدرجة أنَّهم كانوا مستعدِّين للانهيار في أماكنهم. أعاد الملازم صمَّام الأمان في مسدَّسه، واستخدم قبَّعته كي يمسح العرق المتفصِّد من حاجبَيْه. وفي ذلك الصمت العميق الذي تبع القتل، بدا أنَّ عدَّة جنودٍ كانوا يحاولون إخفاء العار الذي يشعرون به بأنْ يبصقوا في الأرض بصوتٍ عالٍ. كانت خراطيش الرصاص متناثرةً حول أقدامهم مثل أعقاب سجائر، وآذانهم ما تزال ترنّ بقرقعة البنادق. أمَّا الجنديّ الشابّ الذي سوف يلقى حتفه بعد سبعة عشر شهرًا في منجم فحم قرب إركوتسك، فأخذ عدَّة أنفاسٍ عميقة، وأشاح ببصره عن الجثَّتَيْن. كان يصارع كي يكبح الغثيان الذي بدأ يتصاعد إلى حلقه.

وفي نهاية الأمر، لم يقتلوا الفيلَيْن. فحين جاءت المواجهة اتَّضح أنَّ الحيوانيْن كانا كبيريْن جدًّا، لدرجة أنَّ بنادق الجنود بدتْ في حضور الفيلَيْن أشبه بالدمى السخيفة. قلَّب الملازم الأمر في عقله، ثم قرَّر أن يتركهما. في ذلك الوقت، خطرتْ للجنود

كلّهم الفكرةُ نفسها على الرَّغم من غرابتها، أو لعلَّها لم تكن غريبة: يبدو أنَّ قتل البشر في ساحة المعركة أسهل بكثيرٍ من قتل الحيوانات في الأقفاص، حتى وإن كان المرء في ساحة المعركة معرَّضًا للقتل.

سحب العمَّالُ الصينيُّون الحيوانات التي أصبحت مجرَّد جثث، ووضعوها في عرباتٍ ثم نقلوها إلى مستودعٍ فارغ. وهناك طرحوا الحيوانات بأشكالها وأحجامها المختلفة على الأرض. أمَّا الملازم فقد عاد إلى مكتب مدير الحديقة وطلب منه التوقيع على الأوراق الرسميَّة. بعد ذلك، اصطفَّ الجنود ومشَوا في طابورهم العسكريّ، بالقرقعة المعدنيَّة نفسها التي صاحبت حضورهم. وعلى الجهة الأخرى، كان العمَّال الصينيُّون يستخدمون الخراطيم لغسل بقع الدم السوداء من أرضيَّات الأقفاص، وتنظيف ما تبقَّى من أجساد الحيوانات فوق الجدران. فلمَّا انتهى الأمرُ، سأل العمَّالُ الطبيبَ البيطريّ ذا العلامة الزرقاء عن طريقة التخلُّص من الجثث. فأُسقط في يده. جرت العادةُ حين يموت حيوانٌ في الحديقة أن يستدعوا شركةً متخصِّصة للتخلُّص من الجثَّة. ولكنْ في هذا الوضع والمدينة تستعدّ لمعركةٍ دمويَّة، والناس يتسابقون على الرحيل من هذه المدينة الهالكة، لم يكن بالإمكان استدعاء أحدٍ باتِّصالٍ هاتفيٍّ كي يتخلَّص من جثَّة حيوان. كان الصيف قد بلغ ذروته، وسرعان ما ستبدأ الجثث في التحلُّل. بل إنَّ أسراب الذباب قد بدأتْ تتجمَّع فعلًا. قد يكون الحلّ الأفضل دفنها، لكنَّ الأمر لم يكن هيِّنًا حتى وإن كانت لدى الحديقة معدَّاتٌ ثقيلة. أمَّا في الوضع الحالي وبالموارد المحدودة المتاحة

للحديقة، فسيكون من المستحيل أن يحفروا حفرةً تتَّسع لجميع الجثث.

قال العمَّال الصينيُّون للطبيب: دكتور، إنْ سمحتَ لنا أن نأخذ الجثث، فسوف نتولَّى نحن التخلُّص منها. لدينا أصدقاء كثر يساعدوننا، ونعرف المكان المناسب لإنجاز المهمَّة. سنأخذ الجثث خارج المدينة ونتخلَّص منها تمامًا. ولن نتسبَّب لك في أيِّ مشكلة. لكنَّنا في المقابل نريد الجلود واللحم، لا سيَّما لحم الدببة، فهو مطلوب. كما أنَّ بعض الأجزاء من الدببة والنمور مفيدةٌ في الأدوية، وتُباع بسعرٍ مرتفع. وعلى الرَّغم من أنَّ الأوان قد فات، لكنَّنا كنَّا نتمنَّى لو صوَّبتم على رؤوس الحيوانات فقط. كانت الجلود ستأتي بثمنٍ أكبر. هؤلاء الجنود لا يعرفون شيئًا. لو تركتنا نتولَّى الأمر منذ البداية لما انتهى هذه النهاية الطائشة. وافق الطبيبُ على الصفقة. لم يكن لديه خيارٌ آخر. هذه بلادهم في نهاية المطاف.

ما لبث أن ظهر عشرةُ صينيِّين يجرُّون عرباتٍ خلفهم. سحبوا جثث الحيوانات من المستودع، وراكموها على العربات ثم ربطوها وغطُّوها بملاءاتٍ من القشِّ. كانت وجوههم خاليةً من أيِّ تعبير، ولم يتبادلوا أيّ حديثٍ طوال ذلك الوقت. فلمَّا انتهوا أخذوا يجرُّون العربات إلى مكانٍ ما. كانت العربات القديمة تُصرُّ تحت ثقل الجثث. وهكذا، انتهت المذبحة (التي وصفها الصينيُّون بأنَّها مذبحةٌ طائشة) لحيوانات الحديقة في عصرٍ حارٍّ من شهر آب / أغسطس. وكلّ ما تبقَّى بعد ذلك عدَّة أقفاصٍ نظيفة، وخالية. أمَّا القرود فكانت ما تزال هائجة، تتنادى بلغةٍ غير

مفهومة. فيما ظلَّت حيوانات الغُرَير تجري في قفصها الضيِّق. وأمَّا الطيور فكانت تصفِّق بأجنحتها في يأس، يتناثر ريشُها في كلِّ مكان. فيما استمرَّت السيكادات في صيحاتها الحادَّة.

*

بعد أنْ انتهى الجنود من عمليَّة القتل وعادوا إلى مقرِّ القيادة، وبعد أن اختفى آخر عاملَيْن صينيَّيْن وهما يجرَّان العربة المملوءة بجثث الحيوانات، أصبحتْ الحديقة مثل منزلٍ خاوٍ على عروشه. جلس الطبيب البيطريّ على حافَّة نافورةٍ جافَّة، ونظر عاليًا إلى السماء، فرأى مجموعةً من السحُب حادَّة الأطراف تسبح في الفضاء. ثم استمع إلى السيكادات وهي تصيح. أمَّا طائرُ الزنبرك فلم يكن يصيح، لكنَّ الطبيب لم يلاحظ ذلك. بل إنَّه لم يسمع طائر الزنبرك من الأساس. كان الوحيد الذي سمعه ذلك الجنديّ المسكين الذي سيُضرب حتى الموت في منجم فحمٍ في سيبيريا.

أخرج الطبيبُ علبةَ سجائر مضمَّخةً بالعرَق من جيب سترته، ووضع سيجارةً في فمه، وأشعل عود ثقاب. حين أشعل سيجارته أدرك أنَّ يده ترتعش. ولفرط ارتعاشها لم يستطع أن يُشعل السيجارة إلَّا في المحاولة الثالثة. لم يكن مُصابًا بصدمةٍ عصبيَّة أو عاطفيَّة. صحيح أنَّ عددًا كبيرًا من الحيوانات «صُفِّيت» في لحظةٍ أمام عينيْه، لكنَّه ولسببٍ غير مفهوم لم يشعر بأيِّ صدمةٍ أو حزنٍ أو غضب. في واقع الأمر، لم يكد يشعر بشيءٍ على الإطلاق. كان حائرًا جدًّا، لا أكثر.

جلس هناك برهةً، يرقب الدخان وهو يلتفّ من سيجارته،

فيحاول أن يتبيَّن مشاعره. حدَّق في يديْه وهما على حِجره، ثم نظر ثانيةً إلى السحاب. العالم الذي رآه أمامه كان يبدو كما كان دائمًا، لم يجد فيه أيَّ علامةٍ على التغيير. ومع ذلك، لم يكن بالإمكان إلَّا أن يكون هذا عالمًا مختلفًا تمامًا عن عالمه الذي كان يعرفه. فالعالم الذي يعيش فيه الآن «تُصفَّى» فيه الدببة والنمور والفهود والذئاب. كانت تلك الحيوانات على قيد الحياة صباح ذلك اليوم، لكنَّها لم تعد موجودةً الآن في الساعة الرابعة مساءً. ذبحها الجنودُ، وحتى جثثها لم تعد موجودة.

كان لا بدَّ من فجوةٍ واضحة تفصل بين العالميْن. كان لا بدَّ من وجود فجوة، لكنَّه لم يجدها. فقد بدا العالم بالنسبة إليه كما كان دائمًا. وأكثر ما أثار حيرته انعدامُ المشاعر داخله.

أدرك كم هو منهك، وتذكَّر أنَّه لم يكد ينام حتى ساعةً واحدة في الليلة الماضية. قال في نفسه كم سيكون رائعًا لو استطاع أن يجد ظلًّا باردًا تحت شجرة، يتمدَّد فيه وينام قليلًا، كي يتوقَّف عقله عن التفكير، ويغرق في ظلامٍ هادئ من اللاوعي. ألقى نظرةً على ساعته. كان عليه أن يجد طعامًا للحيوانات التي تتضوَّر جوعًا. كان عليه أن يعالج قردَ البابون من الحمَّى الشديدة التي أصابته. كان هناك ألفُ شيءٍ ينبغي فعله، لكنَّ الأهمّ الآن هو أنْ ينام. سوف يتولَّى الأمور الأخرى عندما يحين وقتها.

مشى الطبيب البيطريّ إلى المنطقة المشجَّرة القريبة، وتمدَّد فوق العشب حيث لا يراه أحد. كان العشب المظلَّل يبدو باردًا، منعشًا. وكانت رائحة العشب تُعيد إليه ذكرى جميلة من طفولته.

أخذتْ عدَّة جنادب منشوريَّة تقفز فوق وجهه بطنينها العالي المبهج. أشعل سيجارةً أخرى وهو مستلقٍ هناك، وكان مسرورًا لأنّ يديْه لم تعودا ترتعشان كثيرًا. عبّأ صدره بالدخان، ثم تخيَّل الصينيِّين وهم يجزُّون جلود الحيوانات في مكانٍ ما، ويقطِّعون لحومها. كان قد رأى الصينيِّين يفعلون هذا كثيرًا، ويعرف جيِّدًا أنَّهم يتقنون عملهم. ففي غضون لحظاتٍ يسيرة لا يبقى من الحيوان إلَّا جلدٌ ولحم وأعضاء وعظام، وكأنَّ هذه العناصر كانت في الأصل منفصلة، وحدث صدفةً أنْ اجتمعتْ بعض الوقت. قال لنفسه حين أستيقظُ من غفوتي ستكون قِطَع اللحم في السوق بالتأكيد. هذا هو الواقع: السرعة والعمليَّة. قَطَع حفنةً من العشب أخذ يستمتع بنعومتها. ثم أطفأ سيجارته، وزفر كلّ الدخان المتبقِّي في رئتيْه بتنهيدةٍ عميقة. فلمَّا أغمض عينَيْه بدا صوت أجنحة الجنادب أكثرَ صَخَبًا في الظلام. وسرعان ما اجتاحه توهُّمٌ بأنَّ جنادب ضخمةً بحجم الضفادع كانت تتقافز فوقه.

خطر له فيما وعيُه يتلاشى بعيدًا أنَّ العالم ربَّما يكون مثل بابٍ دوَّار. فالمقطع الذي تجد نفسك فيه إنَّما يعتمد على موطئ قدمك لا أكثر. ثمَّة مقطعٌ فيه نمور، ومقطع آخر لا توجد فيه نمور. لعلَّ الأمر بهذه البساطة. فلا يوجد اتِّصالٌ منطقيٌّ بين مقطعٍ وآخر، وهذا تحديدًا هو السبب الذي يجعل الخيارات بلا معنى. ألم يكن هذا هو السبب في أنَّه لم يكن يستطيع الشعور بالفجوة بين عالمٍ وآخر؟ إلى هنا توقَّفتْ أفكاره، ولم يكن يستطيع أن يصل إلى أعمق من ذلك. كان التعب في جسده ثقيلًا خانقًا، مثل بطَّانيَّة مبتلَّة. لم تخطر له أفكارٌ أخرى، وظلَّ مستلقيًا يتنفَّس

رائحة العشب، يستمع إلى أجنحة الجنادب، ويحسّ بذلك الغشاء الكثيف لظلٍّ كان يغطِّيه.

في نهاية المطاف، توارى عقلُه في قيلولةٍ عميقة.

*

انصاعت السفينةُ للأوامر وأوقفتْ محرِّكَيْها، وما لبثتْ أن توقَّفت تمامًا على صفحة الماء. لم يكن بإمكان هذه السفينة أن تسبق غوَّاصةً حديثةً سريعة كهذه بأيِّ حالٍ من الأحوال. وكان مدفع الغوَّاصة ورشَّاشها ما يزالان مصوَّبَيْن نحو السفينة، وطاقمها في حالة استعدادٍ للهجوم. مع ذلك، فقد خيَّم حسٌّ من الهدوء على السفينتَيْن. اصطفَّ رجالُ الغوَّاصة فوق ظهرها يشاهدون السفينة على طريقة من لديه الوقتُ لكي يقتُل. حتى إنَّ العديد منهم لم يُكلِّفوا أنفسهم أن يشدُّوا خوذاتهم. كان الجوّ خاليًا من أيِّ ريح في ذلك العصر الصيفيّ، ومع توقُّف المحرِّكَيْن لم يكن ثمَّة صوتٌ إلَّا تلاطم الأمواج الكسول على السفينتَيْن. أرسلت السفينة إشارةً إلى الغوَّاصة: «نحن سفينةُ نقلٍ تحمل مدنيِّين عُزَّل. لا توجد لدينا ذخيرةٌ أو جنود. قوارب النجاة قليلة». أمَّا ردّ الغوَّاصة فكان غليظًا: «هذه ليست مشكلتنا. سنُطلق النار بعد عشر دقائق بالضبط، سواء أخليتم الركَّاب أم لا». وبهذا انتهى تبادل الرسائل بين السفينتَيْن. فقرَّر قبطانُ السفينة أن لا يُخبر الركَّاب بمضمون الرسالة. ما الفائدة؟ قد يحالف الحظُّ بعضهم في النجاة، لكنَّ الجميع سيغرقون إلى قعر البحر في هذه السفينة القديمة التي تُشبه طشت الغسيل. شعر القبطان برغبةٍ في كأس شرابٍ أخيرة، لكنَّ زجاجة الوسكي (وسكي أسكتلنديّ فاخر كان يحتفظ به) كانت في

درج مكتبٍ في قمرته، ولم يبق ما يكفي من الوقت لإحضارها. خلع قبَّعته ونظر إلى السماء، راجيًا بفعل معجزةٍ ما أن يظهر فجأةً سربُ طائراتٍ يابانيَّةٍ مقاتلة. لكنَّ هذا ليس يوم المعجزات. لقد فعل القبطان كلّ ما في وسعه. وفكَّر ثانيةً في الوسكي.

وفيما كانت مهلة الدقائق العشر توشك على الانتهاء، بدأتْ بعض التحرُّكات الغريبة على ظهر الغوَّاصة. كان هناك حديثٌ سريعٌ بين الضبَّاط المصطفِّين في برج القيادة، واندفع أحدهم إلى ظهر الغوَّاصة يجري بين طاقمها ويلقي عليهم التعليمات. فما إنْ يصل إلى مكانٍ حتى تنتشر التحرُّكات بين الرجال في مواقعهم القتاليَّة. هزَّ أحد البحَّارة رأسه من جهةٍ إلى أخرى، ولَكَم ماسورة المدفع بقبضته. ونزع بحَّارٌ آخر خوذته ثم حدَّق في السماء. لعلَّها تصرُّفات الرجال كانت تعبيرًا عن الغضب أو الفرح أو خيبة الأمل أو الإثارة. أمَّا ركَّاب السفينة فلم يستطيعوا أن يعرفوا ما كان يحدث أو ما سيقود إليه. هكذا، كانوا مثل جمهورٍ يتابع تمثيليَّةً صامتة من دون معلومات (لكنَّها تحوي رسالةً شديدة الأهمِّيَّة)، فحبسوا أنفاسهم وثبَّتوا أنظارهم على كلِّ حركةٍ من حركات البحَّارة، رجاءَ أن يجدوا إشارةً يفهمون منها ما يحدث. في نهاية المطاف، بدأتْ موجةُ الارتباك بين البحَّارة تنحسر، وأزالوا القذائف من المدفع تنفيذًا لأمرٍ جاءهم من القيادة. أدار الرجال أذرع المدفع، فحوَّلوا ماسورته بعيدًا عن السفينة إلى أن عاد مصوَّبًا إلى الأمام كما كان، ثم سدُّوا فوَّهته السوداء. أُعيدَت القذائف إلى مكانٍ آخر في الأسفل، واندفع البحَّارة إلى عنابرهم. كانوا ينجزون كلّ شيءٍ بسرعةٍ وبراعة، على عكس حركاتهم

السابقة. فلا ثرثرة ولا حركة في غير محلِّها.

هدرتْ محرِّكات الغوَّاصة عاليًا، وفي الوقت نفسه تقريبًا، عَلَت صفَّارةٌ تأمر الجميع بالنزول من ظهر الغوَّاصة. بدأت الغوَّاصة تتقدَّم قليلًا، ثم في اللحظة التالية، كانت تغوص في الماء، مخلِّفةً وراءها زبدًا كثيرًا، كما لو أنَّها لم تستطع أن تنتظر نزول الرجال وإغلاق عنابرهم. ابتلع ماءُ البحر ظهرَ الغوَّاصة من مقدِّمته إلى مؤخِّرته، وغرق المدفع تحت سطح الماء، وانسلَّ برج القيادة إلى الأسفل فقَطَع صفحة الماء الزرقاء، وأخيرًا توارى الهوائيّ والمنظار، وكأنَّها تمسح أيّ أثرٍ لوجودها. تكدَّر سطحُ البحر قليلًا، ولكنْ سرعان ما انحسرت الدوائر ولم يبق إلَّا البحر الهادئ.

حتى بعد أنْ نزلت الغوَّاصة تحت سطح الماء على نحوٍ مفاجئ يُشبه ظهورها، ظلَّ ركَّاب السفينة جامدين في أماكنهم يُحدِّقون في امتداد البحر. لم يتنحنح واحدٌ منهم. ثم استعاد القبطان حضور ذهنه وأصدر أوامره للملَّاح، فأوصلها هذا بدوره إلى غرفة المحرِّك، وأخيرًا بعد شحذٍ طويل، اشتغل المحرِّك العتيق مثل كلبٍ نائمٍ أوقظه صاحبُه بركلة.

حبس طاقمُ السفينة أنفاسهم، في انتظار قذيفة طربيد. فربَّما غيَّر الأميركان خطَّتهم، وأدركوا أنَّ إغراق السفينة بالطربيد أسهل وأسرع من قذائف المدفع. هكذا، راحت السفينة تمخر البحر في خطٍّ متعرِّج، فيما القبطان والملَّاح يفتِّشان سطح البحر بالمنظار بحثًا عن أثرٍ أبيض لطربيد. لكنَّهما لم يجدا شيئًا. وبعد مرور عشرين دقيقة من اختفاء الغوَّاصة تحت الأمواج، بدأ الناس أخيرًا

يتحرَّرون من لعنة الموت التي تعلَّقتْ فوق رؤوسهم. كانوا متشكِّكين في بادئ الأمر، ولكنْ شيئًا فشيئًا بدأوا يشعرون أنَّ الأمر حقيقيّ، وأنَّهم قد عادوا إلى الحياة من شفير الموت. حتى القبطان نفسه لم يعرف لماذا تراجع الأميركان. تُرى ما الذي غيَّر رأيهم (لم يُعرف إلَّا لاحقًا أنَّ تعليماتٍ وَصَلت قبل لحظاتٍ من تنفيذ الهجوم، تأمر الغوَّاصة بوقف أيِّ اشتباكٍ إلَّا في حالة الدفاع عن النفس. فقد أبرقتْ الحكومةُ اليابانيَّة للحلفاء وأبلغتْهم باستعدادها لقبول إعلان بوتسدام، والاستسلام من دون قيدٍ أو شرط). وهكذا، بعد أن تحرَّر بعض الركَّاب من ذلك التوتُّر الشديد، خرُّوا على ظهر السفينة وبدأوا في البكاء، لكنَّ معظمهم لم يكن يستطيع أن يبكي ولا أن يضحك. ظلُّوا عدَّة ساعات (وبعضهم عدَّة أيَّام) في حالةٍ من الذهول التامّ، وقد انغرست شوكةُ كابوسٍ طويلٍ مقيت من دون رحمةٍ في رئاتهم، وقلوبهم، وظهورهم، وعقولهم، وأرحامهم.

أمَّا الصغيرة جوزة الطيب، فظلَّت نائمةً في حُجر أمّها طوال ذلك الوقت. نامت عشرين ساعة مستمرَّة، كما لو أنَّها فقدت الوعي. كانت أمّها تصرخ فيها وتلطم خدَّيْها، بلا جدوى. لا فرق إذن لو أنَّها غرقت في قاع البحر. كان الفاصل بين أنفاسها يطول ويطول، فيما يبطؤ نبضُها. لم يكن تنفُّسها مسموعًا، ولكنْ حين وصلت السفينة إلى ساسيبو استيقظتْ فجأةً، وكأنَّ قوَّةً عظيمة جرَّتها مرَّةً أخرى إلى هذا العالم. هكذا إذن، لم تشهد جوزة الطيب ما حدث من أمر الغوَّاصة واختفائها، بل سَمعتْه بعد ذلك بفترةٍ طويلة من والدتها.

توقَّفتِ السفينة متثاقلةً في ميناء ساسيبو بُعَيْد العاشرة من صباح السادس عشر من شهر آب / أغسطس، في اليوم التالي لحادث الغوَّاصة. ران على الميناء صمتٌ غريب، ولم يأتِ أحدٌ للترحيب بالسفينة. لم تكن هناك أيّ آثارٍ لبشرٍ في المكان حتى في المنصَّة المضادَّة للطائرات. كانت شمس الصيف تحرق الأرض، وبدا العالم عالقًا في شللٍ هائل، وشَعَر البعضُ من ركَّاب السفينة كما لو أنَّهم مرُّوا بالصدفة على أرض الأموات. فبعد سنواتٍ من حياتهم في الخارج، لم يكن في وسعهم إلَّا أن يحدِّقوا في أرض آبائهم صامتين. وفي ظهيرة الخامس عشر من آب / أغسطس، بثَّت الإذاعةُ إعلان الأمبراطور اليابانيّ عن انتهاء الحرب. قبلها بستَّة أيَّام، كانت مدينة ناغازاكي القريبة قد أُحرقت بقنبلةٍ ذرِّيَّة. أمَّا أمبراطوريَّة مانشوكو فقد أصبحت شبحًا يتوارى في صفحات التاريخ. وأمَّا الطبيب البيطريّ ذو العلامة على خدِّه فقد وقع فجأةً في المقطع الخطأ من الباب الدوّار، فلم يختلف مصيرُه عن مصير مانشوكو.

10
والآن، السؤال التالي
(مايو كاساهارا تتحدَّث: 2)

مرحبًا مرَّةً أخرى سيِّد طائر الزنبرك.

هل فكَّرتَ في المكان الذي أعيش فيه وماذا أفعل هنا، كما طلبتُ منك في رسالتي السابقة؟ هل استطعت أن تتخيَّل شيئًا؟

على أيِّ حال، سأفترض أنَّك لم تستطع تخمين شيء (وأنا متأكِّدة من هذا).

دعنا إذن نفرغ من هذا الأمر، وأُخبرك مباشرةً.

إنَّني أعمل في مكانٍ ما، دعنا نسمِّيه مصنعًا. مصنعًا كبيرًا. وهو في مدينةٍ ريفيَّة، أو ربَّما يجدر بي أن أقول في الجبال الواقعة على ضواحي مدينةٍ ريفيَّةٍ تواجه بحر اليابان. ولكنْ لا تنخدع بكلمة «مصنع». فهو ليس كما تظنّ، واحدًا من تلك

الأماكن الكبيرة التي تغصّ بالآلات الكبيرة فائقة التقْنيَّة والتي تهدر بقوَّة، مع أحزمةٍ متحرِّكة ودخان يتصاعد من المداخن. هو كبير، هذا صحيح، لكنَّه يمتدّ على مساحةٍ واسعة، وهو مضيء وهادئ. ولا تخرج منه أيّ أدخنةٍ على الإطلاق. لم أتخيَّل قطّ أنْ توجد في العالم مصانع ممتدَّة على مساحةٍ واسعة هكذا. المصنع الوحيد الذي رأيته على هذا النحو كان مصنع الكراميل في طوكيو، حين ذهبنا إليه في رحلةٍ مدرسيَّة في المرحلة الابتدائيَّة، وكلّ ما أذكره منه الضوضاءُ والاكتظاظ والناس الكادحون بتعابير كئيبةٍ على وجوههم. هكذا، كان «المصنع» بالنسبة إليَّ مثل الصور التي نراها في الكتب المدرسيَّة تحت عنوان «الثورة الصناعيَّة».

جميعُ العاملين هنا تقريبًا فتيات. هناك مبنًى منفصلٌ قريب، مختبر، فيه رجالٌ بمعاطف بِيض يعملون على تطوير المنتجات، ملامحهم جادَّة جدًّا، لكنَّهم لا يشكِّلون إلَّا نسبةً صغيرة. أمَّا البقيَّة فكلّهنَّ فتيات في أواخر العقد الثاني من أعمارهنَّ أو في بداية العشرينيَّات. وربَّما سبعون في المئة منهنَّ يسكنَّ في سَكَن الشركة مثلي. فالتنقُّل من البلدة إلى هذا المكان يوميًّا بالحافلة أو السيَّارة متعبٌ جدًّا، والسكن جيِّد. المباني جديدة، والغرف كلّها فرديَّة، والطعام جيِّد، ويمكنك اختيار ما تريده، والخدمات ممتازة، والغرف والوجبات رخيصة. يوجد أيضًا مسبحٌ مزوَّد بتدفئة، ومكتبة، ويمكنك أن تمارس طقوس الشاي وتنسيق الزهور إنْ أردت (لكنِّي لا أريد). بل إنَّ لديهم برنامجًا للفِرَق الرياضيَّة أيضًا، لذلك كثيرٌ من الفتيات اللائي كُنَّ يسكنَّ في الخارج انتقلنَ

إلى سَكَن الشركة. كلّهنَّ يعدنَ إلى بيوتهنَّ في العطلة الأسبوعيَّة كي يقضينَ الوقت مع العائلة، أو يذهبنَ إلى السينما، أو يخرجنَ في مواعيد غراميَّة. لذلك، يكون السكَنُ في يوم السبت خاويًا مهجورًا. لا يوجد أناسٌ كثيرون مثلي ليست لديهم أسْرة يعودون إليها في العطلة الأسبوعيَّة، لكنَّني كما ذكرتُ سابقًا أحبّ هذا الشعور بالفراغ الكبير في السكَن. فيمكنني أن أقضي النهار في القراءة أو الاستماع إلى الموسيقى العالية، أو أمشي في المرتفعات، أو أجلس إلى طاولتي كما أفعل الآن وأكتب إليك يا سيِّد طائر الزنبرك.

الفتيات كلّهنَّ من أهل المنطقة. ما يعني أنَّهنَّ بنات مزارعين. قد لا ينطبق هذا على كلّ واحدة، لكنَّهنَّ في المجمل فتياتٌ سعيدات متفائلات مجتهدات. لا يوجد الكثير من الأعمال التجاريَّة الكبرى في هذه المقاطعة، لذلك كانت الفتيات في الماضي يذهبنَ إلى المدينة بعد تخرُّجهنَّ من المدرسة للبحث عن عمل. ما يعني أنَّ الرجال الذين يبقون هنا لا يجدون زوجات، وهذا يزيد من مشكلة الانخفاض السكَّاني. لذلك، اجتمع أهل البلدة وقدَّموا للشركات هذه الأرض كي تبني عليها مصنعًا، فلم تعد هناك ضرورةٌ لأنْ ترحل الفتيات. أظنّها فكرةً رائعة. أقصد، لديهم الآن فتاةٌ مثلي تأتي من مكانٍ بعيد. لذلك، حين يتخرَّجنَ من المدرسة (أو يتركنها مثلي) يذهبنَ إلى العمل في المصنع ويدَّخرنَ أجورهنَّ إلى أن يصلنَ إلى السنِّ المناسبة للزواج، فيتركنَ العمل وينجبنَ طفلَيْن ويتحوَّلنَ إلى فَقْماتٍ سمينات تُشبه كلّ واحدةٍ منهنَّ الأخرى. بطبيعة الحال، هناك قلَّةٌ تستمرّ في

العمل هنا بعد الزواج، لكنَّ الغالبيَّة يتركنَ العمل.

أعتقد أنَّ هذا يكفي لكي تأخذ فكرةً جيِّدة عن المكان. طيِّب؟

إذن، سأطرح عليك الآن السؤال الثاني: ما الذي ينتجونه في هذا المصنع؟

(أغشِّشك): ذهبنا أنا وأنت ذات مرَّةٍ في مهمَّة عملٍ مرتبطة به. هل تذكر؟ ذهبنا إلى شارع غينزا وأجريْنا استطلاعًا. يا رجل! المفروض أن يكون الجواب سهلًا الآن، حتى لك أنت يا سيِّد طائر الزنبرك!

نعم صحيح! أنا أعمل في مصنعٍ للباروكات! هل تفاجأت؟

ذكرتُ لك سابقًا كيف أنِّي خرجت من ذلك الفندق/ السجن/ المدرسة الريفيَّة بعد ستَّة أشهر، وبقيتُ في البيت مثل كلبٍ بساقٍ مكسورة. وفجأةً، خطرتْ لي فكرةُ مصنع شركة الباروكات. فقد تذكَّرت شيئًا قاله لي رئيسي في العمل ذات مرَّةٍ على سبيل المزاح؛ حين قال إنَّهم لا يجدون ما يكفي من فتياتٍ للعمل في المصنع، وإنَّهم سوف يوظِّفونني في أيِّ وقت لو أردت. بل إنَّه أراني منشورًا عن المصنع، وأتذكَّر انطباعي عنه بأنَّه مصنعٌ جميل لا أمانع العمل فيه. قال رئيسي إنَّ الفتيات يعملن يدويًّا، يزرعن الشعر في الباروكات بأيديهنَّ. هذا صحيح، فصنعُ الشعر المستعار مسألةٌ دقيقة جدًّا، وليست آليَّةً مثل صنع قُدورِ الألمنيوم مثلًا. ينبغي عليك أن تزرع خصلاتٍ صغيرةً من شعرٍ حقيقيّ بعنايةٍ شديدة شديدة شديدة، تزرع حفنةً واحدة في كلِّ مرَّة، لكي تنتج

شعرًا مستعارًا جيِّدًا. ألا تشعر بالإغماء من مجرَّد التفكير في ذلك؟ أقصد، برأيك كم شعرةً توجد في رأس الإنسان؟ لا بدَّ من أنَّها مئات الآلاف! ولكي تصنع باروكةً واحدة عليك أن تزرعها كلّها بيدك كما تزرع الفسائل في حقل رزّ. مع ذلك لا توجد فتاةٌ واحدة تشتكي من هذا العمل. لا يمانعنَ لأنَّ هذه المنطقة تقع في الجانب الثلجيّ من البلاد، ما يعني أنَّ النساء هنا اعتدنَ العمل اليدويّ لكسب المال في الشتاءات الطويلة. ومن المفترض أن يكون هذا هو السبب الذي دعا الشركة إلى اختيار هذه المنطقة تحديدًا لإنشاء المصنع.

أُصارحك بأنِّي لم يكن لديَّ مانع قطّ في أن أعمل عملًا يدويًّا كهذا. أعرف أنَّ مظهري لا يوحي بذلك، لكنَّني في الحقيقة ماهرةٌ في الخياطة. كنتُ دائمًا أُثير إعجاب معلِّماتي. لا تصدِّقني؟ عمومًا، هذه هي الحقيقة. لهذا السبب، فكَّرتُ في أنَّني ربَّما أستمتع بقضاء جزءٍ من حياتي في العمل في مصنعٍ في الجبال، أَشغلُ وقتي من الصباح حتى المساء من دون أن أُفكِّر في شيءٍ يُكدِّرني. كنت قد ضجرتُ من المدرسة، لكنَّني كرهتُ أن أبقى في البيت من دون عملٍ عالةً على أبويّ (وأنا متأكِّدة من أنَّهما كرها هذه الفكرة أيضًا)، ولكنْ لم يكن لديَّ شيء أتوق إلى فعله. لذلك، كلَّما فكَّرت في الأمر اقتنعتُ بأنَّ الشيء الوحيد الذي يمكنني فعله هو المجيء إلى هنا للعمل في المصنع.

أقنعتُ والديَّ بأن يكونا كفيلَيْن لي في هذه الوظيفة، وطلبتُ من رئيسي في العمل رسالة توصية (أعجبهم عملي في الاستطلاعات)، ثم اجتزتُ المقابلة الوظيفيَّة في مقرِّ الشركة، وفي

الأسبوع التالي، كنتُ قد جهَّزت أغراضي تمامًا (لم آخذ شيئًا أكثر من ملابسي ومشغِّل الموسيقى). ركبتُ القطار السريع وحدي، ثم انتقلت إلى قطارٍ صغير أخذني إلى المرتفعات، وانتهيتُ إلى هذه البلدة الصغيرة غير المعروفة. لكنَّني شعرتُ بأنِّي أتيتُ إلى الجانب الآخر من الأرض، فما إنْ نزلتُ من القطار حتى أصابتْني خيبةُ أملٍ كبيرة. قلتُ في نفسي يبدو أنَّني ارتكبتُ خطأً كبيرًا. لكنَّ هذا كان إحساسًا خاطئًا. وها أنا هنا منذ ستَّة أشهر من دون أيِّ مشكلة، وقد تكيَّفت تمامًا مع المكان.

لطالما كنتُ مهتمَّةً بالباروكات، ولا أعرف تفسير ذلك. أو ربَّما يجدر بي القول إنَّني كنت دائمًا «منجذبةً» إليها، مثلما ينجذب بعض الشبَّان إلى الدرَّاجات الناريَّة. أتدري، لم أكن أُدرك هذا الأمر فيَّ، لكنَّني حين أنجزتُ ذلك الاستطلاع ورأيتُ بنفسي ذلك العدد من الرجال الصُلْع (أو من تُطلق عليهم الشركة «رجالًا لديهم مشكلة تساقط الشعر») أدركتُ كثرتهم في هذا العالم! لا أحمل شعورًا سلبيًّا تجاه الصُلْع (ولا أعاني من تساقط الشعر). في الحقيقة، لست «أنجذب» إليهم ولا «أنفر» منهم. فأنت مثلًا يا سيِّد طائر الزنبرك. حتى وإنْ تساقط شعرك أكثر الآن (وسوف يتساقط عمَّا قريب) لن تتغيَّر مشاعري تجاهك أبدًا. الشعور الوحيد الذي يتملَّكني حين أرى رجلًا تساقط شعرُه هو ذلك الإحساس الذي أظنّ أنِّي ذكرتُه لك سابقًا، الإحساس بأنَّ الحياة تبلى وتهترئ. نعم، هذا الموضوع تحديدًا يهمّني جدًّا!

سمعتُ ذات مرَّة أنَّ الناس يبلغون ذروة نموِّهم في سنٍّ معيَّنة (نسيتُ ما إذا كانت التاسعة عشرة أم العشرين أم غيرها)، وبعدها

يبدأ الجسدُ يبلى. إن صحَّ ذلك، فتساقطُ الشعر مجرَّد جزءٍ من هذا «البلى»، ولا يوجد شيءٌ غريب فيه. بل هو عاديّ وطبيعيّ. إن كانت ثمَّة مشكلة في هذا الأمر فهي أنَّ بعض الرجال يصْلعون مبكّرًا، وبعضهم لا يصلعون أبدًا، حتى في سنِّ الشيخوخة. أنا مثلًا لو صلعتُ سأشعر بالظلم. أقصد أنَّ شعري جزءٌ مميَّز وبارز في جسدي! لذلك أتفهَّم شعورهم، مع أنِّي لا أُعاني من المشكلة.

في معظم الحالات، لا حول ولا قوَّة للشخص في مقدار ما يفقده من شعر، سواءٌ أكان أقلّ من غيره أم أكثر. قال لي رئيسي في العمل ذات مرَّة إنَّ الجينات مسؤولة عن الصَلَع بنسبة (90%). فالرجل الذي يرث جين تساقط الشعر من جدِّه وأبيه سيصلع عاجلًا أم آجلًا، مهما بذل من جهدٍ لمنع ذلك. عبارة «الإرادة تصنع المعجزات» لا تنطبق على الصَلَع. فعندما يحين الوقت وينهض الجين قائلًا: «هيَّا لنبدأ» (هذا إنْ كان بمقدور الجين أن ينهض ويقول «هيَّا لنبدأ»)، لا يملك الشعر إلَّا أن يبدأ في التساقط. وهذا غير منصف، أليس كذلك؟ أعرف أنَّك تتَّفق معي.

ها أنت عرفتَ الآن أنَّني هنا في هذا المصنع، في مكانٍ بعيدٍ عن مكانك، أعمل بجدٍّ كلّ يوم. وتعرف عن اهتمامي الشديد بالباروكات وصنعها. أمّا الآن، فسوف أدخل في تفاصيل أكثر عن حياتي وعملي هنا.

لا لا، غيَّرتُ رأيي. وداعًا.

11

هل هذه المجرفة حقيقيَّة؟

(ما حدث ليلًا: 2)

بعد أن غاب الصبيّ في نوم عميق، رأى منامًا شديد الوضوح. كان يُدرك أنَّه حلم، وهذاً في حدٍّ ذاته كان مبعث راحةٍ له. **أعرف أنَّ هذا حلم. لذلك، فما حدث قبلَه لم يكن حلمًا. لقد حدث فعلًا. أعرفُ الفرق بين الواقع والحلم.**

رأى في منامه أنَّه خرج إلى الحديقة. كان الوقت ما يزال في منتصف الليل، وكان وحيدًا. التقط المجرفة، وبدأ ينبش الحفرة التي ردمها الرجل الطويل. كان الرجل قد ترك المجرفة على جذع الشجرة. ولمَّا كانت الحفرة جديدة، لم يكن من الصعب نبشها، لكنَّ التقاط المجرفة في حدٍّ ذاته جعله يلهث. كان حافيَ القدمَيْن، فتجمَّد باطن قدمَيْه من شدَّة البرد. مع ذلك، ظلَّ يلهث

وينبش الحفرة إلى أن استطاع أن يُخرج القماشة الملفوفة التي كان قد دفنها الرجل.

لم يعد طائرُ الزنبرك يصيح، والرجل الذي تسلَّق الشجرة لم ينزل منها. كان السكون يُخيِّم على المكان بأكمله لدرجةٍ تؤذي الأذنَيْن. قال في نفسه: **في النهاية، هذا حلم**. لم يكن حلمًا أنَّ طائر الزنبرك صاح، وأنَّ الرجل الذي يُشبه أباه تسلَّق الشجرة. تلك الأشياء حدثت بالفعل. إذن، لا يمكن أن يكون هناك رابط بين هذا وذاك. مع ذلك فالأمر غريب؛ إذْ ها هو هنا في الحلم، ينبش حفرةً حقيقيَّة. كيف له إذن أن يُميِّز بين الحلم وغير الحلم؟ هل هذه المجرفةُ مجرفةٌ حقيقيَّة أم أنَّها مجرفةُ حلم؟

كلَّما فكَّرَ في الأمر ازدادت حَيرته. وهكذا، توقَّف عن التفكير وصبَّ جهده كلّه في نبش الحفرة. وفي النهاية اصطدمت المجرفةُ بالقماشة الملفوفة. بعدها، أوْلى الصبيّ حرصًا شديدًا كي يزيل التراب المحيط بها من دون أن يمسَّها بسوء.

ثم جثا على ركبتَيْه ورفع اللفافة من الحفرة. كانت السماء خاليةً من أيٍّ سحاب، ولم يكن ثمَّة شيءٌ يحجب ضوء البدر الرطيب الذي انصبَّ فوق الأرض. في الحلم، لم تكن تشوب الصبيَّ شائبةٌ من خوف. الفضول هو الذي طغى عليه بكلِّ قوَّته. فتح اللفافة، فوجد في داخلها قلبَ إنسان. أدرك من فوره شكل القلب ولونه من الصورة التي رآها سابقًا في موسوعته. كان القلب ما يزال طريًّا، حيًّا، يتحرَّك، مثل مولودٍ نبذتْه أمّه. صحيحٌ أنَّه لم يكن يضخّ الدم من شريانه المقطوع، لكنَّه كان ينبض نبضًا قويًّا. سمع الصبيُّ خفقًا قويًّا في أذنَيْه، لكنَّه لم يكن سوى صوت قلبه.

هكذا ظلَّ القلبُ المدفون وقلب الصبيّ يخفقان في تناغمٍ تامّ، كما لو أنَّهما يتحدَّثان إلى بعضهما بعضًا.

هدَّأ الصبيُّ أنفاسَه، وقال لنفسه بحزم: «لستُ خائفًا منه. إنَّه مجرَّد قلب إنسان. مثل ما هو في الموسوعة. كلّ إنسانٍ لديه قلبٌ كهذا. أنا عندي مثله». وبيدَيْن ثابتَيْن، لفَّ الصبيّ القلب النابض بالقماش مرَّةً أخرى، وأعاده إلى قاع الحفرة، ثم واراها التراب. بعد ذلك، سوَّى الأرض بقدمَيْه كي لا يلاحظ أحدٌ وجود الحفرة، وأسند المجرفة إلى جذع الشجرة كما وجدها. كانت الأرض ليلًا كالثلج. تسلَّق فوق عتبة نافذته، وعاد إلى غرفته الدافئة التي يألفها. نفض الطين من قدمَيْه في سلَّة المهملات كي لا يوسِّخ لحافه، ثم همَّ ينسلّ في فراشه. لكنَّه أدرك أنَّ شخصًا ما كان مستلقيًا هناك. شخصًا ينام في سريره، تحت اللحاف، في مكانه.

غضب الصبيُّ وسحب اللحاف. «هيه أنت، قم من هنا. هذا سريري». كان يريد أن يصرخ بهذا في الشخص النائم، لكنَّ صوته لم يخرج، فالشخص الذي وجده في سريره لم يكن إلَّا هو نفسه. كان ما يزال في سريره، نائمًا، يتنفَّس بهدوء. تجمَّد الصبيّ في مكانه، ولم يجد ما يقوله. إن كنتُ أنا هنا نائمًا، فأين تنام هذه **الأنا**؟ الآن فقط تسرَّب الخوف إلى الصبيّ، خوفٌ بدا وكأنَّه سيجمِّد عظامه. أراد الصبيّ أن يصرخ بأعلى صوته كي يوقظ نفسه النائمة، ويوقظ بقيَّة مَن في البيت. لكنَّ صوته لم يخرج. جاهد بكلِّ قوَّته، لكنَّه لم يستطع أن يصدر أيّ صوت، على الإطلاق. فوضع يده على كتف نفسه النائمة وهزَّها بأقوى ما

لديه. لكنَّ الصبيّ النائم لم يستيقظ.

لم يعد في وسعه شيء. نزع سترته وألقى بها على الأرض. ثم دفع نفسه الأخرى النائمة بقوَّةٍ بعيدًا عن وسط السرير، وحشر نفسه في المساحة الصغيرة التي تبقَّت له عند الطرف. كان عليه أن يجد لنفسه مكانًا هنا، وإلَّا فقد يُطرح أرضًا من عالمه الذي ينتمي إليه. محشورًا ومن دون وسادة. مع ذلك، فقد شَعَر الصبيّ بنعاسٍ قويّ فور استلقائه. لم يعد باستطاعته أن يفكِّر. في اللحظة التالية كان غارقًا في النوم.

*

حين استيقظ الصبيّ صباحًا، وجد نفسه في منتصف سريره، وحيدًا. وسادته تحت رأسه، كالعادة. رفع نفسه ببطءٍ ونظر حوله في الغرفة. من النظرة الأولى لم يبدُ أنَّ هناك شيئًا تغيَّر. هي الطاولة نفسها، والخزانة نفسها، والمصباح نفسه. وعقارب الساعة تشير إلى السادسة وعشرين دقيقة. لكنَّ الصبيّ أدرك أنَّ هناك شيئًا غريبًا. قد يبدو كلّ شيءٍ كما هو، لكنَّ هذا المكان ليس نفسه الذي نام فيه البارحة. الهواء، والضوء، والأصوات، والروائح، كلّها مختلفة شيئًا قليلًا. قد لا يلاحظ الآخرون ذلك، لكنَّه كان يعرف. رفع عن نفسه اللحاف ونظر إلى جسده. رفع يدَيْه وحرَّك كلّ إصبعٍ على حِدَة. كانت سليمة. وساقاه أيضًا تتحرَّكان. لم يشعر بأيِّ ألمٍ أو حكَّة. انسلَّ من فراشه وذهب إلى الحمَّام، فلمَّا انتهى من التبوُّل وقف عند المغسلة ونظر إلى وجهه في المرآة. ثم نزع قميص منامته، ووقف على كرسيٍّ ينظر في انعكاس بشرته البيضاء في جسده الصغير. لم يجد شيئًا غريبًا.

مع ذلك، فقد كان هناك شيءٌ مختلف. كان يشعر كما لو أنَّ نفسه وُضعت في وعاءٍ جديد. وقد أدرك أنَّه لم يتكيَّف بعد مع جسده الجديد هذا. شعر بأنَّ ثمَّة شيئًا مختلفًا في هذا الجسد لا يتوافق مع نفسه الأصليَّة. سيطر عليه شعورٌ مفاجئ بالعجز، فحاول أن ينادي والدته، لكنَّ الكلمة لم تبرح حلقه. بل إنَّ حباله الصوتيَّة كانت عاجزةً عن تحريك الهواء، وكأنَّ كلمة «أمِّي» نفسها قد اختفتْ من العالم. لكنَّ الصبيّ سرعان ما أدرك أنَّ الذي اختفى شيءٌ آخر، وليس الكلمة.

12
علاج «م» السرِّيّ

وصمةُ العلاجات الروحانيَّة في عالم الفنِّ والترفيه

[من صحيفة --- تشرين الثاني / نوفمبر]

...وقد أصبح العلاجُ الروحانيّ هذا ضربًا من الصيحة الجديدة بين الفنَّانين في عالم الفنّ والترفيه، ينتشر فيما بينهم بالتوصيات غالبًا، لكنَّه في بعض الحالات لا يخلو من إشارةٍ إلى وجود منظَّماتٍ سرِّيَّة.

ولنأخذ على سبيل المثال فنَّانةً تُدعى «م» تبلغ من العمر ثلاثًا وثلاثين سنة، بدأتْ مسيرتها قبل عشر سنوات ممثِّلةً مساعدة في مسلسلٍ تلفزيونيّ، وبعد نجاحها بدأتْ تؤدِّي أدوارًا رئيسة في المسلسلات والأفلام السينمائيَّة، وقد تزوَّجتْ قبل ستّ سنواتٍ

من صاحب شركة «بوي وَندر» العقاريَّة، واستمرَّت حياتُهما من دون مشكلات في أوَّل عاميْن. كانت أعماله ناجحة، وهي بدورها حقَّقت نجاحًا رائعًا في أفلامها. غير أنَّه بدأتْ تظهر مشكلاتٌ ماليَّة للمطعم ومحلّ الملابس اللذَيْن فتحهما باسمها، ثم تكرَّرت الشيكات المرتجعة منهما، وكانت هي المسؤولة عنها قانونيًّا. وبما أنَّها لم تكن شغوفةً بمسألة التجارة أصلًا، فقد جرَّ زوجُها قدَمها إلى هذا العالم لأنَّه أراد أن يتوسَّع. هناك رأيٌ يقول إنَّ الزوج تعرَّض لعمليَّة احتيال، كما أنَّ هنالك شرخًا كبيرًا بين السيِّدة «م» وأهل زوجها.

سرعان ما بدأت الإشاعاتُ تنتشر عن المشكلة التي وقعتْ فيها «م» مع زوجها، وما لبثا أنْ انفصلا عن بعضهما بعضًا. وقد أنهيا إجراءات الطلاق الرسميَّة قبل عامَيْن بعد تدخُّل وسيطٍ لتسوية الديون، لكنَّ علامات الاكتئاب بدأت تظهر على السيِّدة «م»، فاعتزلت الفنّ بسبب حاجتها إلى العلاج. يقول أحد المصادر في شركة الإنتاج التي كانت تعمل معها إنَّها بدأت تعاني من وساوس وأوهامٍ قويَّة منتظمةٍ بعد الطلاق. كما أنَّ صحَّتها تأثَّرت كثيرًا من أدوية الاكتئاب، ووصل الأمر إلى حدٍّ أنَّ الناس بدأوا يقولون إنَّ «مسيرتها الفنِّيَّة انتهت». يقول مصدرنا إنَّها «فقدت ما يحتاج إليه الممثِّل من قدرةٍ على التركيز، وقد تغيَّر مظهرها تغيُّرًا صادمًا. الأدهى من ذلك أنَّها في الأساس إنسانةٌ جادَّة تدخل في التفاصيل الدقيقة للأمور إلى الحدِّ الذي أثَّر عليها عقليًّا. الأمر الإيجابيّ هو أنّ التسوية الماليَّة كفلتْ لها حياةً جيِّدة، لذلك يمكنها أن تعيش فترةً من دون الاضطرار إلى العمل».

إحدى قريبات السيِّدة «م» كانت متزوِّجةً من سياسيّ معروفٍ ووزيرٍ سابق، وكانت «م» بمثابة ابنةٍ لهذا الشخص، فعرَّفها إلى امرأةٍ تمارس شكلًا من العلاج الروحانيّ، وتتعامل مع عددٍ محدودٍ جدًّا من أفراد الطبقة العليا. هكذا، ظلَّت تزورها بانتظام مدَّة سنةٍ كي تتعافى من الاكتئاب، ولكنْ لا أحد يعرف طبيعة هذا العلاج تحديدًا. فالسيِّدة «م» لم تكشف هذا السرّ قطّ. أيًّا ما كان هذا العلاج، يبدو أنَّه نجح. وسرعان ما تمكَّنت «م» من التوقُّف عن أدوية الاكتئاب، فذهب الانتفاخ الغريب الذي سبَّبته الأدوية، وعاد إليها جمالها وكثافة شعرها. كما أنَّها استعادت صحَّتها العقليَّة أيضًا، وبدأت تعود إلى التمثيل شيئًا فشيئًا. وهنا توقَّفت عن العلاج.

في تشرين الأوَّل / أكتوبر من هذا العام، وحين بدأت السيِّدة «م» تنسى ذكرى الكابوس الذي مرَّت به، ظهرت أعراضُها مرَّةً أخرى من دون سببٍ واضح. لكنَّ التوقيت كان سيِّئًا جدًّا، فقد كانت على وشك أن تبدأ تصوير دورٍ مهمٍّ لها بعد أيَّام قليلة. تواصلتْ «م» مع المرأة التي كانت تعالجها وطلبتْ منها العلاج المعتاد، لكنَّ المرأة قالت لها إنّها تركتِ العمل. «أعتذر منكِ، لا أستطيع مساعدتك، فلم أعد مؤهَّلةً لذلك. لقد فقدتُ قواي. أستطيع أن أوصلك بشخصٍ آخر، ولكنْ عليكِ أن تقسمي لي بكتمان السرّ. فإن قلتِ حرفًا واحدًا عنه لأيِّ أحد، ستندمين. هل هذا مفهوم؟»

قيل للسيِّدة «م» أن تذهب إلى مكانٍ معيَّن، وهناك قابلتْ رجلًا لديه علامةٌ زرقاء على وجهه. لم يتحدَّث هذا الرجل (في

الثلاثينيَّات من عمره) طوال جلسته معها، لكنَّ علاجه كان «ناجعًا على نحوٍ مدهش». ولم تكشف السيِّدة «م» عن السعر الذي دفعتْه لجلسة العلاج، ولكنَّنا نقدِّر بأنَّ «أجر الاستشارة» كان كبيرًا.

هذا ما نعرفه عن العلاج الغامض كما تحدَّثت عنه السيِّدة «م» لصديقةٍ «مقرَّبة جدًّا» تثق بها. فقد طُلب من «م» أن تذهب إلى «أحد الفنادق»، وهناك التقاها شابّ كان مسؤولًا عن أخذها إلى المعالِج. هكذا، خرجا في «سيَّارةٍ سوداء كبيرة» من موقف سيَّاراتٍ لكبار الشخصيَّات تحت الأرض، وذهبا إلى المكان الذي جرتْ فيه جلسة العلاج. لكنَّنا لم نستطع أن نعرف شيئًا عن هذا العلاج نفسه. ويُقال إنَّ «م» قالت لصديقتها: «هؤلاء الناس يملكون قوى رهيبة، وسوف يقع لي شيءٌ مروِّع لو أنَّني أخلفتُ وعدي».

لم تزر السيِّدة «م» ذلك المكان إلَّا مرَّةً واحدة، ولم تُعانِ من أيّ مضاعفاتٍ بعدها. حاولنا التواصل معها مباشرةً للحصول على معلوماتٍ أكثر عن العلاج والمرأة الغامضة، لكنَّها رفضت مقابلتنا كما هو متوقَّع. ووفقًا لمصدرٍ مطَّلع فإنَّ هذه «المنظَّمة» تتجنَّب غالبًا التواصل مع عالم الفنّ والترفيه، وتُركِّز على المجالات الأخرى الأكثر تواريًا عن الأنظار، وتحديدًا عالم السياسة والمال. لذلك، لم نحصل من تواصلنا مع الفنَّانين على أيِّ معلوماتٍ أخرى...

13
رجلٌ ينتظر
*
شيء لا يُمكنك أن تنفضه عنك
*
ما كان ابنُ آدم جزيرةً معزولة

مرَّت الساعة الثامنة مساء، وكان كلّ شيءٍ مظلمًا حين فتحتُ البوَّابة الخلفيَّة ومضيتُ نحو الزقاق. كان عليَّ أن أشقَّ طريقي بين الأرصفة. ولأنَّ البوَّابة كانت خفيضةً لا يصل ارتفاعُها إلى ثلاث أقدام، فقد كانت مموَّهةً بذكاء في طرف السور حتى لا يمكن رصدها من الخارج. كان الزقاق في ظلمة الليل مُضاءً كالعادة بضوءٍ أبيض باردٍ من مصباح زئبقٍ في حديقة بيت مايو كاساهارا.

أغلقتُ البوَّابة خلفي وانسللتُ إلى الزقاق. لمحتُ من خلف

الأسوار أشخاصًا في غرف الطعام والصالات، يتناولون الطعام ويشاهدون المسلسلات. تهادت روائح الطعام عبر نوافذ المطابخ ومراوحها. كان هناك فتًى مراهق يتدرَّب على قيثارته، بصوتٍ خفيض. وفي نافذةٍ في الطابق الثاني فتاةٌ ضئيلة تدْرس على طاولتها، وقد اكتسى محيَّاها علامات الجدّ. زوجان يتشاجران وصلتْ أصواتهما إلى الزقاق. رضيعٌ يبكي. هاتفٌ يرنّ. هكذا كان الواقع ينسكب في الزقاق مثل الماء من طاسةٍ ممتلئة، في هيئة صوت، أو رائحة، أو صورة، أو رجاء، أو ردّ.

لبستُ حذائي الرياضيّ المعتاد كي لا تكون خطواتي مسموعة. مشيتي لم تكن سريعةً جدًّا ولا بطيئة جدًّا، فالمهمّ أنْ لا أُثير انتباه الناس، ولا أسمح لذلك «الواقع» أن يلاحظ وجودي العابر. كنتُ أعرف كلّ زاويةٍ وكلّ حاجز. حتى في الظلام يمكنني أن أمشي في الزقاق من دون أن أصطدم بشيء. فلمَّا وصلتُ إلى خلف بيتي توقَّفت، ونظرتُ حولي، ثم قفزت من فوق الجدار الخفيض.

كان البيت يربض في الظلام مثل ظهر حيوانٍ ضخم. فتحتُ بالمفتاح باب المطبخ، وأشعلتُ الضوء، ثم غيَّرت الماء للقطّ. أخرجتُ علبة طعام القطّ من الدولاب، وفتحتُها. سمع ماكريل الصوت فظهر فجأةً، وفرك رأسه في ساقي بضع مرَّات، ثم اندفع نحو طعامه. وبينما كان يأكل أخذتُ بيرةً باردةً من الثلَّاجة. كنتُ في العادة أتناول عشائي في «المسكن» (وقد رتَّب لي قرفةُ هذا الأمر)، لذلك فلم أكن أتناول شيئًا هنا أكثر من سَلَطة أو شريحة جبن. وأنا أشرب بيرتي أخذتُ القطّ على ركبتيّ لأتأكَّد من دفئه

ونعومته بيديّ. فبعد أن قضيتُ النهار كلّه في عدَّة أماكن، كان كلٌّ منَّا يؤكِّد للآخر أنَّنا عدنا إلى البيت.

*

أمَّا الليلة، فحين خلعتُ حذائي ومددتُ يدي كي أشعل ضوء المطبخ، انتابني شعورٌ بوجود شخصٍ ما. وقفتُ في الظلام وأصختُ السمع، وأنا أتنفَّس بهدوء. لم أسمع شيئًا، لكنَّني شممتُ رائحة تبغٍ خفيفة. كان هناك شخصٌ في البيت، شخص ينتظر عودتي، شخص تملَّكه الضجرُ قبل لحظاتٍ معدودة فأشعل سيجارة ومجَّ منها بضعة أنفاسٍ ثم فتح النافذة كي يُخرج الدخان، لكنَّ الرائحة بقِيَت. لا يمكن أن يكون شخصًا أعرفه. كان البيت ما يزال مقفولًا، ولم أكن أعرف شخصًا يدخِّن إلَّا جوزة الطيب أكاساكا، ولم يكن واردًا أن تنتظرني في الظلام لو أرادتْ أن تقابلني.

بدافع الغريزة، مددتُ يدي في الظلام أبحث عن المضرب، لكنَّه لم يعد هناك. كان في قاع البئر. بدأ قلبي يصدر صوتًا يكاد لا يكون حقيقيًّا لفرط غرابته، كما لو أنَّه فرّ من صدري وأصبح يدقّ الآن عند أذنيّ. حاولتُ أن أحافظ على انتظام أنفاسي. ربَّما لستُ في حاجةٍ إلى المضرب. فلو كان الشخص يريد أن يؤذيني لما جلس هكذا في الداخل. مع ذلك، سرى في راحتيّ إحساسُ الترقُّب، إذْ كانت يداي تبحثان عن ملمس المضرب. ظهر ماكريل فجأةً في الظلام، وبدأ كعادته يموء ويفرك رأسه في ساقي. لكنَّه لم يكن جائعًا كالعادة. عرفتُ هذا من الأصوات التي يصدرها. مددتُ يدي، وأشعلت ضوء المطبخ.

قال الرجل الجالس على الأريكة في الصالة بنبرةِ المرتاح في جلسته: «أنا آسف، فقد أطعمتُ القطّ. ظللتُ أنتظرك فترةً طويلة جدًّا سيِّد أوكادا، وكان القطّ يتمسَّح بساقي ويموء، فوجدتُ علبة طعامه في الخزانة وأعطيته إيَّاها. أرجو ألَّا يزعجك هذا. في الحقيقة، لستُ ماهرًا في التعامل مع القطط».

لم يُبدِ أيَّ إشارة على أنَّه يريد النهوض. نظرتُ إليه وهو جالس هناك، ولم أقل شيئًا.

«لا شكَّ أنَّك مصدومٌ من رؤية شخصٍ في بيتك ينتظرك في الظلام. آسف. فعلًا آسف. لكنَّني لو أشعلتُ الضوء ربَّما لم تكن لتدخل البيت. لستُ هنا لأؤذيك أبدًا، صدِّقني، فلا داعي لأن تنظر إليَّ بتلك النظرة. كلّ ما في الأمر أنَّني أريد التحدُّث إليك قليلًا».

كان قصير القامة، يرتدي بذلة. في الواقع، كان من الصعب تحديد طوله وهو جالس، لكنَّ طوله لا يمكن أن يصل إلى خمسة أقدام. عمره ما بين الخامسة والأربعين والخمسين، ويبدو مثل ضفدعٍ سمين صغير برأسٍ أصلع (كان بالتأكيد من الصنف أ في نظام مايو كاساهارا). صحيح أنَّه كانت لديه بضع لفيفات من الشعر قرب أذنَيْه، لكنَّ وجودها الغريب كان يُبرز المساحة الصلعاء أكثر. كان أنفه كبيرًا، ولعلَّه كان مسدودًا بعض الشيء، فقد كان يتمدَّد وينكمش مثل منفاخٍ مع كلِّ نَفَسٍ مزعج. وفوق أنفه نظَّارةٌ تبدو سميكة، بإطارٍ رفيع من الأسلاك. كانت له طريقة في نطق بعض الكلمات تجعله يلوي شفته العليا، فيكشف عن فم مليء بأسنانٍ معوجَّة مصفرَّة من أثر التدخين. كان بلا شكّ واحدًا

من أقبح البشر الذين رأيتهم. ولا أقصد القُبح الجسديّ فقط، فقد كان به شيءٌ غريب لا أستطيع أن أصفه. شيء مثل ذلك الشعور الذي ينتابك حين تمرّ يداك على حشرةٍ غريبة كبيرة في الظلام. لم يَبدُ بشرًا بقدر ما كان يبدو شيئًا من كابوسٍ طواه النسيان.

«هل تمانع لو دخَّنت؟ كنت أحاول أن أمنع نفسي، لكنَّ الجلوس والانتظار من دون سيجارةٍ أشبه بالتعذيب. عادة سيِّئة جدًّا».

صَعُب عليَّ الكلام، فاكتفيت بالإيماء. أخرج هذا الرجل غريب الشكل سيجارة «پيس» من دون فلتر من جيب معطفه، ووضعها بين شفتيْه، ثم علا صوت حكٍّ عالٍ وهو يشعلها بعود ثقاب. بعد ذلك، التقط علبة طعام القطّ الفارغة من عند قدميْه وألقى العود فيها. إذن، فقد كان يستخدم العلبة منفضة. مجَّ السيجارة فعبَّ رئتيْه باستمتاعٍ واضح وتأوُّهاتٍ خفيضة، وهو يرفع حاجبيْه حتى أصبحا خطًّا واحدًا أشعث. ومع كلّ سحبة دخانٍ طويلة يتوهَّج طرف سيجارته مثل فحمٍ مشتعل. فتحتُ باب الفناء كي يدخل الهواء. كان هناك مطرٌ خفيف. لم أره أو أسمعه، لكنَّني أدركتُ ذلك من الرائحة.

كان الرجل يرتدي بذلةً بنِّيَّة اللون، وقميصًا أبيض، وربطة عنقٍ حمراء، وكلّها رخيصة وضيعة، وبالية. فلون البذلة يذكِّرك بسيَّارةٍ قديمة مطليَّة كيفما اتَّفق. والتجاعيد العميقة في البنطال والمعطف تبدو دائمة فيهما، كما تبدو الأودية من صورةٍ جوِّيَّة. أمَّا القميص الأبيض، فقد بدأ يصفرّ، وثمَّة زرٌّ على الصدر كان آيلًا للسقوط. وقد بدا القميص صغيرًا جدًّا، أصغر من مقاسه

برقم أو رقميْن، بزرّه العلويّ المفتوح وياقته المعوجَّة. وأمَّا ربطة العنق برسمتها الغريبة كالبلازما الخارجيَّة المشوَّهة، فتبدو مثل طعامٍ بائت من أيَّام فرقة «أوزموند وإخوانه» في السبعينيَّات. من ينظرْ إلى هذا الرجل يُدرك مباشرةً أنَّه لم يكن يولي أيّ اهتمامٍ بظاهرة الملابس. كان يرتدي ما يرتديه مُجبرًا، لأنَّه لا خيار لهَ سوى أن يرتدي شيئًا حين يتعامل مع الناس، وكأنَّه يرفض فكرة ارتداء الملابس أصلًا. لعلَّه كان يخطِّط لارتداء هذه الأشياء بالطريقة نفسها إلى أنْ تتداعى، مثل مُزارعٍ في المرتفعات يسوق حماره من الصباح إلى الليل إلى أن يقضي عليه.

وما إن زوَّد رئتيْه بما تحتاج إليه من النيكوتين حتى أطلق تنهيدة ارتياحٍ ونظرةً غريبة، ثم ارتسم على وجهه شيءٌ يراوح بين البسمة الحقيقيَّة والبسمة الساخرة. ثم فتح فمه.

«طيِّب، دعني أوَّلًا أقدِّم نفسي. لستُ قليل الذوق في العادة. اسمي أوشيكاوا. من **أوشي** بمعنى «ثور»، و**كاوا** بمعنى «نهر». سهل التذكُّر، أليس كذلك؟ الجميع يُسمِّيني أوشي. الغريب أنَّني كلَّما سمعتُ الاسم شعرتُ بأنَّني ثورٌ حقيقيّ، بل إنَّني أشعر بنوعٍ من الألفة كلَّما رأيت ثورًا في الحقول. الأسماء غريبة يا سيِّد أوكادا، ألا تعتقد ذلك؟ خذ أوكادا مثلًا. اسمٌ نظيفٌ جميل. «حقل المرتفع». أحيانًا، أتمنَّى لو كان لي اسمٌ طبيعيٌّ كهذا، ولكنْ للأسف ليس في مقدور المرء أن يختار اسم عائلته. فما إنْ تُولد في هذا العالم باسم أوشيكاوا، حتى تظلّ أوشيكاوا إلى الأبد، برضاك أم غصبًا عنك. كانوا يُسمُّوني أوشي منذ أوَّل يومٍ لي في الحضانة. لا مفرّ من ذلك. ما دام اسم

الشخص أوشيكاوا فسوف يُسمِّيه الناس أوشي، أليس كذلك؟ يقولون إنَّ الاسم يعبِّر عن المسمَّى، لكنَّني أتساءل ما إذا كان العكس هو الصحيح. أي أنَّ الأشياء تصبح مع الوقت أكثر شبهًا بأسمائها. على أيِّ حال، يمكنك أن تُسمِّيني أوشيكاوا، وإن أحببت يمكنك أن تُسمِّيني أوشي. لا يزعجني ذلك».

ذهبتُ إلى المطبخ وأحضرتُ لي علبة بيرةٍ من الثلّاجة. لم أقدِّم شيئًا لأوشيكاوا، فلم أدْعُه إلى هنا أصلًا. أخذت أشرب بيرتي ولم أقل شيئًا، فيما راح أوشيكاوا يمجّ سيجارته من دون أن يقول شيئًا. لم أجلس على الكرسيّ قبالته، بل وقفت مستندًا إلى عمودٍ أنظر إليه من علٍ. أخيرًا، أطفأ سيجارته في علبة طعام القطّ، ورفع عينَيْه إليّ.

«تتساءل بالتأكيد يا سيِّد أوكادا كيف دخلتُ إلى هنا. صحيح؟ مع أنَّك واثقٌ من أنَّك قفلت الباب. في الواقع، الباب كان مقفولًا فعلًا. ولكن لديَّ مفتاح. مفتاحٌ حقيقيّ. ها هو».

أدخل يده في جيب معطفه، فأخرج سلسلة مفاتيح بها مفتاح واحد فقط رفعه إليَّ عاليًا. كان بالفعل يبدو مفتاحًا لهذا البيت، لكنَّ الذي جذب انتباهي هو السلسلة. كانت مثل سلسلة كوميكو. سلسلة جلديَّة خضراء بسيطة، بها حلقة تُفتح بطريقةٍ غريبة.

«هو مفتاحٌ حقيقيّ. وكما ترى، فهذه سلسلة زوجتك. ولكي نتِجنَّب أيّ سوء فهم، أؤكِّد لك أنَّ زوجتك كوميكو هي التي أعطتني إيَّاها. لم أسرقها ولم آخذها رغمًا عنها».

فسألتُه وقد بدا صوتي ممسوخًا إلى حدٍّ ما: «أين كوميكو؟»

خلع أوشيكاوا نظّارته، وبدا أنّه يتأكّد من خلوّها من أيّ غَبَش، ثم ارتداها مرّةً أخرى. «أعرف مكانها بالضبط. بل في الواقع إنّني أعتني بها جيّدًا».

«تعتني بها؟»

فقال أوشيكاوا بابتسامة: «لا تفهمني خطأً. لا أقصد بتلك الطريقة. لا تقلق». وحين ابتسم انقسم وجهه على نحوٍ غير متناسق من جانبٍ إلى آخر، وارتفعت نظّارته من جهةٍ واحدة. «لا ترمقني هكذا. أنا أساعدها كجزءٍ من عملي في قضاء المشاوير وإنجاز بعض المهامّ هنا وهناك. أنا مجرّد مَرمَطون لا أكثر. فأنت تعرف أنّها لا تستطيع الخروج».

كرّرتُ كلماته: «لا تستطيع الخروج؟»

تردَّد لحظة، ولسانه ينقر شفتيْه. «آه، ربّما لا تعرف. لا بأس. لا أدري حقًّا ما إذا كانت لا تستطيع الخروج أم لا تريد الخروج. أعلم أنّك تريد أن تعرف، ولكنْ أرجوك لا تسألني، فحتى أنا لا أعرف كلّ التفاصيل. عمومًا، لا داعي للقلق، فهي ليست حبيسة رغمًا عنها. أقصد أنّنا لسنا في فيلم أو رواية. لا يمكننا أن نفعل أشياء كهذه».

وضعتُ علبة البيرة بحرصٍ عند قدميَّ. «على أيٍّ حال، قل لي ما الذي أتى بك إلى هنا؟»

ربّت على ركبتيْه عدّة مرّات، ثم أومأ إيماءةً عميقة حادّة. «آه نعم، نسيتُ أن أُخبركَ. أُعرّف بنفسي طويلًا، ثم أنسى أن أُخبرك عن سبب مجيئي! هذا من أخطائي الدائمة، فدائمًا ما أغوص في

أشياء سخيفةٍ وأترك الموضوع الأساسيّ. لا عجب أنِّي أرتكب الأخطاء دائمًا! حسنًا، الموضوع كالتالي: أنا أعمل عند شقيق زوجتك كوميكو. اسمي أوشيكاوا.. صحيح، قلتُ هذا وأخبرتك عن أوشي وكلّ شيء. أعمل عند الدكتور نوبورو واتايا في وظيفةٍ تُشبه السكرتير الخاصّ، مع أنِّي لست «سكرتيرًا خاصًّا» من النوع الذي قد يكون لعضو برلمان. ثمَّة نوعٌ معيَّن من الأشخاص، نوع رفيع يستطيع أن يصبح «سكرتيرًا خاصًّا». أمَّا المصطلح فيشمل أنواعًا كثيرة. هناك سكرتير خاصّ، وسكرتير خاصّ. وأنا أقرب إلى النوع الثاني. هناك في الدَرَك الأسفل، بعيدًا بعيدًا. إنْ كانت هناك أرواح تربض في كلِّ مكان، فسأكون أنا واحدًا من تلك الأرواح الصغيرة في زاوية الحمَّام، أو الخزانة. ولكنْ لا بأس. لك أن تتخيَّل الدمار الذي يحدثه ظهور شخص أشعث مثلي على صورة الدكتور واتايا الناصعة. الأشخاص الذين يواجهون الكاميرا لا بدَّ من أن يكونوا من النوع الأنيق ذكيّ الملامح، وليس من الأقزام الصُلع. تخيَّل: «مراحب يا أصدقاء.. أنا السوكرتيير الخاصّ للدكتور واتايا». مضحكٌ جدًّا، أليس كذلك سيِّد أوكادا؟»

لزمتُ الصمت فيما هو يثرثر.

«إذن فالأعمال التي أؤدِّيها للدكتور هي الأعمال التي لا تُرى، الأعمال «المخفيَّة» إنْ جاز التعبير، تلك التي لا تظهر في العلن. أنا العازف من خلف الكواليس. هذه الأعمال تخصُّصي. كهذه المهمَّة مع السيِّدة كوميكو. لا تفهمني خطأً وتعتقد أنَّ الاعتناء بها أمرٌ وضيع. لو وصلك هذا الانطباع من كلامي فهو

بعيد كلّ البعد عن الحقيقة. ما أقصده هو أنَّ السيِّدة كوميكو هي الأخت الوحيدة والعزيزة للدكتور، وأنا أعتبر تكليفي بهذه المهمَّة شرفًا كبيرًا. صدِّقني».

«أوه، بالمناسبة، أعرف أنَّ هذا قد يكون قلَّة ذوقٍ منِّي، ولكنْ هل لي أن أطلب علبة بيرة؟ هذا الحديث الطويل جعلني أشعر بالعطش الشديد. سأحضر لنفسي واحدةً إن لم يكن لديك مانع. أعرف مكانها، فحين كنت أنتظرك سمحتُ لنفسي بالتلصُّص في الثلَّاجة».

أومأتُ له، فذهب إلى المطبخ وأخذ زجاجة بيرةٍ من الثلَّاجة، ثم عاد إلى الأريكة يعبّ من الزجاجة بتلذُّذٍ واضح، وجوزة حلقه ترتعش فوق ربطة عنقه كأنَّها حيوان.

«صدِّقني يا سيِّد أوكادا، لا يوجد في هذه الحياة ما هو أجمل من بيرةٍ باردة في نهاية اليوم. هناك أشخاص لا يرضيهم شيء، يقولون إنَّ البيرة الباردة جدًّا لا يكون مذاقها لذيذًا، لكنَّني لا أتَّفق معهم. البيرة الأولى ينبغي أن تكون باردة جدًّا بحيث لا تستطعم شيئًا منها. البيرةُ الثانية ينبغي أن تكون أقلّ برودة، أمَّا الأولى فأريدها أن تكون باردةً كالثلج. أريد لفرط برودتها أن ينبض جبيني من الألم. هذا ما أُفضِّله أنا على أيِّ حال».

بقيت مستندًا إلى العمود، وأخذتُ رشفةً أخرى من بيرتي، فيما كان أوشيكاوا يُجيل نظره في الغرفة وشفتاه مزمومتان.

«أعترف لك سيِّد أوكادا أنَّ بيتك مرتَّب ترتيبًا باهرًا بالنسبة إلى رجلٍ ليست له زوجة. أمَّا أنا ففوضويّ جدًّا، وهذا أمرٌ

مخجل. منزلي عبارةٌ عن كومة قمامة، أو زريبة خنازير. لم أغسل حوض الاستحمام منذ أكثر من سنةٍ تقريبًا. صحيح، ربَّما لم أُخبرك أنَّ زوجتي هجرتْني أيضًا. قبل خمس سنوات. لذلك أشعر بنوعٍ من التعاطف معك يا سيِّد أوكادا، أو دعني أقول إنَّني أفهم شعورك كي لا تفسِّر كلامي تفسيرًا خاطئًا. بالطبع، حالتي تختلف عن حالتك. كان من الطبيعيّ أن تتركني زوجتي؛ فقد كنت أسوأ زوجٍ في العالم. لا يحقّ لي أن أشتكي، بل إنَّني أُكبرها على طولِ صبرها. كنتُ أضربها. ولم أضرب غيرها. كانت الوحيدة التي أستطيع أن أضربها، ولكَ أن تستنتج من ذلك ضعفي. فقلبي قلبُ قملة، ولا أجيد شيئًا سوى التذلُّل للآخرين. يُسمِّيني الناس أوشي ويتسلَّطون عليَّ، فلا أفعل سوى أنْ أزيد في تملُّقي إليهم. لذلك كنتُ أفرغ غضبي في زوجتي. بئس الفعل، أليس كذلك؟ كنتُ أعرف أنَّني سيِّئ، ولكنِّي لم أستطع أن أتوقَّف. كان مثل المرض. كنتُ أضربها في وجهها ضربًا مبرِّحًا حتى تكاد لا تتعرَّف إلى ملامحها. لم أكتفِ بضربها فقط. كنتُ أصفقها في الجدار، أو أركلها، أو أصبّ الشاي الساخن عليها، أو أقذفها بشيء، وقس على ذلك. وحين تحاول ابنتاي أن توقفاني، ينتهي بي الأمر أن أضربهما. طفلتان في سنِّ السابعة أو الثامنة. ولم أكن أدفعهما عنِّي فقط، بل أضربهما بأيِّ شيءٍ في يدي. كنتُ شيطانًا حقيقيًّا. حاولت أن أوقف نفسي، لكنّي لم أستطع. لم أتمكَّن من التحكُّم بنفسي. كنتُ أصل إلى مرحلةٍ أقول فيها يكفي، عليَّ التوقُّف، لكنَّني لم أعرف كيف أتوقَّف. لك أن تتخيَّل الرعب! وقبل خمس سنوات، حين كانت ابنتي في

الخامسة، كسرتُ ذراعها. هكذا، قصمتُ ذراعها. عندها لم تعد زوجتي تحتمل، فأخذت البنتَيْن وهجرتْني. ولم أرهنَّ منذ ذلك الحين، ولم يتواصلنَ معي. ولكنْ ما عساي أفعل؟ أنا السبب».

لم أقل شيئًا. اقترب القطّ منّي وماء قليلًا، كأنَّه يطلب اهتمامي.

«على أيّ حال، آسف، لم أقصد أن أزعجك بكلٍّ هذه التفاصيل المملَّة. لا بدَّ من أنَّك تتساءل ما إذا كان لديَّ ما يستدعي قدومي إلى بيتك. نعم، لديَّ. لم آتِ إلى هنا كي أتحدَّث. لقد أمرني الدكتور.. أقصد الدكتور واتايا.. أن آتي لأقابلك. وسأقول لك ما قاله لي بالضبط. أرجو أن تصغي إليَّ.

«أوَّلًا، الدكتور واتايا لا يُعارض فكرة إعادة النظر في العلاقة بينك وبين السيِّدة كوميكو. بعبارةٍ أخرى، لن يعارض لو قرَّرتما العودة إلى بعضكما بعضًا. في الوقت الحالي، السيِّدة كوميكو نفسها لا تودّ ذلك، فلن يحدث الآن أيّ شيء. ولكنْ إنْ كنتَ ترفض الطلاق وتصرُّ على الانتظار، فلا مانع لديه. لن يلحّ عليك في أمر الطلاق كما كان يفعل، ولن يمانع لو أردت أن توصل إلى السيِّدة كوميكو أيّ رسالةٍ عن طريقي. باختصار، لا مزيد من النزاع، وهي دعوةٌ لإعادة العلاقات الدبلوماسيَّة. هذا هو الأمر الأوَّل. ما رأيك سيِّد أوكادا؟»

نزلتُ إلى الأرض وأخذتُ أُمسِّد رأس القطّ، من دون أن أتفوَّه بكلمة. طالعني أوشيكاوا مع القطّ برهةً، ثم واصل حديثه.

«بطبيعة الحال، لا يمكنك أن تردّ الآن حتى أقول كلّ ما

عندي. لا بأس، سأكمل حتى النهاية. إليك الأمر الثاني إذن، وهو أكثر تعقيدًا من الأوَّل. فالأمر يتعلَّق بمقالٍ نُشر في مجلَّةٍ أسبوعيَّة بعنوان «بيت الشنْق». لا أدري ما إذا كنتَ قرأته أم لا، سيِّد أوكادا، لكنَّه لافت جدًّا، ومتقن. «أرضٌ منحوسةٌ في حيٍّ سكنيّ أنيق بسيتاغايا. كثيرون قضوا نحبهم قبل أوانهم في هذه الأرض على مرِّ السنوات. تُرى من الرجل الغامض الذي اشترى هذه الأرض مؤخَّرًا؟ وما الذي يحدث خلف السور العالي؟ لغز تلو لغز...».

«على أيِّ حال، قرأ الدكتور واتايا المقال، وأدرك أنَّ «بيت الشنْق» قريب جدًّا من مسكنك سيِّد أوكادا. ثم بدأتْ تقضّ مضجعه فكرة أن يكون هناك ارتباط بين هذا البيت وبينك. لذلك أخذ يتقصَّى... أو دعني أقول أوشيكاوا المتواضع هذا على ساقيْه الصغيرتَيْن سمح لنفسه بتقصِّي الأمر. وكانت النتيجة أنَّه مثلما توقَّع الدكتور واتايا، فقد كنتَ يا سيِّد أوكادا تروح وتغدو من الممرّ الخلفيّ كلّ يوم إلى ذلك البيت، ومن الواضح أنَّ لك يدًا في ما يدور داخله. أنا نفسي اندهشتُ من هذه البصيرة النافذة للدكتور واتايا.

«لم يُنشر حتى الآن سوى مقالٍ واحد فقط، من دون أيّ تعقيب. ولكنْ من يدري؟ فالجمرة الميِّتة يمكن أن تشتعل مرَّة أخرى. أقصد أنَّها قصَّة مثيرة. لذلك، فالدكتور واتايا يساوره القلق الآن. ماذا لو كُشف عن ارتباط نسيبه بشيءٍ غير محمود؟ فكِّرْ في الفضيحة التي قد تنشأ من ذلك! فالدكتور واتايا نجم اللحظة الآن، وإنْ ظهر هذا الأمر للعلن سوف تتلذَّذ وسائل

الإعلام به وتلوكه ليل نهار. من جهةٍ أخرى، هناك ذلك الموضوع الشائك بينك وبين السيِّدة كوميكو. سيفجِّرون هذه القضيَّة أيضًا. ما أريد قوله هو أنَّ كلّ شخص لديه شيء لا يودّ أن يظهر على الملأ، أليس كذلك؟ لا سيَّما حين يتعلَّق بالشؤون الشخصيَّة. إنَّها مرحلة حسَّاسة من مسيرة الدكتور واتايا السياسيَّة، وعليه أن يخطو بحذرٍ شديد إلى أن يكون جاهزًا للانطلاق. لذلك، فهو يعرض عليك صفقةً صغيرة. فإنْ قطعتَ كلّ علاقةٍ لك بـ «بيت الشنق» يا سيِّد أوكادا، سوف يفكِّر جدِّيًّا في الجمع بينك وبين السيِّدة كوميكو مرَّةً أخرى. هذا كلّ شيء. ما رأيك سيِّد أوكادا؟ أرجو أن أكون قد شرحت الأمر بوضوح».

«ربَّما».

«ما رأيك إذن؟ ما قولك في هذا كلّه؟»

فكَّرتُ في الأمر برهةً وأنا أمسِّد عنق القطّ، ثم قلت: «لكنِّي لا أفهم ما الذي جعل نوبورو واتايا يفكِّر في وجود علاقةٍ بيني وبين ذلك البيت. كيف وصل إلى هذا الاستنتاج؟»

فتفجَّر وجه أوشيكاوا إلى واحدةٍ من ابتساماته الواسعة، لكنَّ عينيْه بقيتا باردتَيْن مثل الزجاج. أخذ علبةَ سجائر منبعجة من جيبه وأشعل سيجارة. «آه يا سيِّد أوكادا، أنت تسأل أسئلةً صعبة. لا تنسَ أنَّني مجرَّد مرسال. مجرَّد حمامة زاجل حمقاء، أحمل الأوراق هنا وهناك. أظنّ أنَّك تفهم ذلك. لكنْ يمكنني القول إنَّ الدكتور ليس غبيًّا. يعرف كيف يستخدم عقله، ولديْه ما يشبه الحاسَّة السادسة، وهو أمرٌ لا يتوافر للأشخاص العاديِّين. دعني

أقول لك أيضًا يا سيِّد أوكادا إنَّ لديه قوَّةً حقيقيَّة يمكنه أن يستخدمها في هذا العالم، قوَّةً تكبر يومًا بعد يوم. ولا يجدر بك أن تتجاهلها. ربَّما لديك أسبابٌ تجعلك تنفر منه، ولا مشكلة عندي في ذلك فليس هذا من شأني، لكنَّ الأمور تعدَّت مستوى الإعجاب والنفور الآن. أريدك أن تفهم هذا».

«إن كان نوبورو واتايا بهذه القوَّة، لِمَ لا يمنع هذه المجلَّة من نشر أيِّ مقالاتٍ أخرى؟ ألن يكون هذا أسهل بكثير؟»

تبسَّم أوشيكاوا، ثم عبَّ صدره بالدخان.

«يا عزيزي سيِّد أوكادا، لا يجدر بك أن تقول أشياءَ متهوِّرة كهذه. نحن نعيش في اليابان، وهذا بلدٌ من أكثر البلاد ديموقراطيَّة في العالم، أليس كذلك؟ لسنا في دكتاتوريَّة حيث لا ترى من حولك إلَّا مَزارع الموز وملاعب الكرة. ومهما بلغتْ قوَّة السياسيّ في بلادنا، إلَّا أنَّ قمع مقالٍ في مجلَّةٍ ليس بالأمر السهل. سيكون هذا أخطر بكثير. قد تنجح في وضع كبار موظَّفي الشركة في جيبك، ولكنْ سيبقى هناك شخصٌ مستاء. وهذا سيثير المزيد من الانتباه. لا جدوى من محاولة إبعاد الناس حين يتعلَّق الأمر بخبرٍ مثير. صدِّقني.

«بيني وبينك يا سيِّد أوكادا، قد تكون هناك أطرافٌ خبيثة لها اهتمامٌ في هذا الموضوع، وهي أنواع من البشر لا تعرف أنتَ عنها أيّ شيء. في هذه الحال إذن، سيشمل الأمر في نهاية المطاف أشخاصًا غير حبيبنا الدكتور واتايا. وحين يحدث هذا سوف تتغيَّر قواعد اللعبة تمامًا. دعنا نشبِّه الأمر بزيارةٍ إلى طبيب

الأسنان. حتى الآن، نحن في مرحلة الوخز في موضعٍ مُخدَّر، ولذلك لا أحد منزعج من الأمر. ولكنْ سرعان ما سوف يصل المثقاب إلى عصب، وحينها سيقفز شخصٌ ما من الكرسيّ. وقد يغضبُ شخصٌ ما غضبًا شديدًا. هل فهمت ما أقصد؟ لا أحاول أن أهدِّدك، ولكنْ يبدو لي (أنا العجوز أوشيكاوا) أنَّك تُجرُّ إلى أرضٍ خطرة تدريجيًّا من دون أن تُدرك ذلك».

بدا أنَّ أوشيكاوا قال شيئًا مفيدًا في نهاية المطاف.

سألتُه: «هل تقصد أنَّه ينبغي أنْ أنسحب قبل أنْ أتعرَّض للأذى؟»

هزَّ رأسه. «الأمر أشبهُ بلعبةِ المسَّاكة على الطريق السريع يا سيِّد أوكادا. هذه لعبةٌ شديدة الخطورة».

«وإضافةً إلى ذلك، فسوف تتسبَّب في مشكلاتٍ كثيرة لنوبورو واتايا. لذلك إن استسلمتُ فسوف يوصلني هو بكوميكو».

هزَّ رأسه ثانية. «هذه هي الخلاصة».

شربتُ جرعةً من البيرة، ثم قلت: «أوَّلًا، دعني أقول لك شيئًا. سوف أستعيد كوميكو، لكنَّني سأفعل هذا بنفسي، من دون مساعدةٍ من نوبورو واتايا. لا أريد مساعدته. وقد أصبتَ الحقيقة في شيءٍ قلتَه: أنا لا أحبّ نوبورو واتايا. ولكنْ كما قلتَ، فالمسألةُ ليست مسألة حبٍّ وكراهية. الأمر أعمق من ذلك. فأنا لا أكرهه فحسب، بل إنَّني لا أطيق فكرة وجوده أصلًا. لذلك أرفض أن أعقد معه أيّ صفقة. أرجو أن تتكرَّم وتوصل له هذه الرسالة نيابةً عنِّي. ولا تأتِ إلى هذا البيت مرَّةً أخرى من دون

إذني. هذا بيتي وليس بهو فندقٍ أو محطّة قطار».

ضيّق أوشيكاوا عينَيْه وحدّق فيَّ من خلف نظّارته. ظلّتْ عيْناه ساكنتَيْن، ومن دون أيّ عاطفة. لا أقول إنّهما خاليتان من التعبير، ولكنْ كلّ ما ينعكس فيهما مصطنعٌ من وحي اللحظة. عندها، رفع راحته الكبيرة التي لا يتناسب حجمها مع حجمه، وكأنّه يتأكّد من نزول المطر.

«أتفهّم هذا تمامًا. لم يخطر في بالي أنّ الأمر سيكون سهلًا، لذلك لستُ متفاجئًا من ردّك. هذا إلى جانب أنّني لا أتفاجأ بسهولة. أتفهّم شعورك، ويُسعدني أنّ الأمور كلّها أصبحت مكشوفةً هكذا من دون مناورات، بإجابةٍ مباشرة: نعم أو لا. فآخر ما أريده كحمامةِ زاجلٍ أن أحصل على جواب ملتوٍ لا يُعرف سواده من بياضه. العالم مليء بهذه الأشياء. لا أقصد أنْ أشتكي، ولكنْ يبدو أنّ كلّ ما أحصل عليه عبارةٌ عن ألغازٍ من أشخاصٍ غامضين. هذه الوظيفة متعبةٌ لصحّتي، صدّقني. إنْ عشتَ هكذا فسوف تصبح ملتويًا بطبيعتك من دون أن تُدرك. هل تفهم ما أقصده سيّد أوكادا؟ أن تصبح متشكّكًا، تبحث دائمًا عن الدوافع الخفيّة، ولا تثق أبدًا في أيّ جوابٍ واضحٍ ومباشر. هذا فظيع يا سيّد أوكادا، فظيع!

«طيّب إذن، سيّد أوكادا، سوف أبلغ الدكتور بأنّك أعطيتني جوابًا قاطعًا. ولكنْ لا تتوقّع أن يقف الأمر عند هذا الحدّ. ربّما تودّ أنت أن تنتهي من هذا الأمر، لكنّه ليس بهذه السهولة. ربّما سأضطرّ إلى زيارتك ثانيةً. أنا آسف لوضعك في هذا الموقف، بأن تُضطرّ إلى التعامل مع شخصٍ قبيحٍ أشعث مثلي، ولكنْ أرجو

أن تحاول اعتياد وجودي أنا على الأقلّ. لا أحمل أيّ ضغينة لك سيِّد أوكادا، فعلًا. ولكنْ في الوقت الحالي، سواء أردتَ ذلك أم لم ترده، فسوف أصبح واحدًا من تلك الأشياء التي لا يمكنك أن تنفضها عنك. أعرف أنَّه تعبيرٌ غريب، ولكنْ أرجو أن تتخيَّلني على هذا النحو. مع ذلك، أستطيع أن أعدك بشيءٍ واحد، وهو أنَّني لن أدخل بيتك من دون إذنٍ مرَّةً أخرى. معك حقّ، فهذا من سوء الأدب. عليَّ أن أركع على ركبتيَّ وأتوسَّل الإذن بالدخول. ولكنْ هذه المرَّة لم يكن لديَّ خيار. أرجو أن تغفر لي. لستُ متهوِّرًا في العادة. وعلى الرَّغم من أنَّ مظهري لا يوحي بذلك، إلَّا أنَّني إنسانٌ عاديّ. من الآن فصاعدًا، سأفعل كما يفعل الآخرون وأتَّصل قبل الزيارة. لا مشكلة في ذلك، صحيح؟ سأرنّ رنَّةً واحدة، وأغلق الخطّ، ثم أتَّصل مرَّةً أخرى. وسوف تعرف أنَّني المتَّصل، وتقول لنفسك حين تلتقط السمَّاعة: «أوه، إنَّه الأحمق أوشيكاوا مرَّةً أخرى». لكنْ من فضلك ردّ على المكالمة، وإلَّا لن يكون لي خيارٌ آخر سوى أن أدخل البيت بنفسي مرَّةً أخرى. شخصيًّا لا أفضِّل هذا، لكنَّني أتلقَّى أجرًا لكي أُنجز المهامّ بأيّ طريقة. فحين يقول لي رئيسي «افعل» لا يعود أمامي سوى أن أحاول بكلِّ جهدي. بالتأكيد تفهم ذلك».

لم أقل شيئًا. أطفأ أوشيكاوا ما تبقَّى من سيجارته في علبة طعام القطّ، ثم ألقى نظرةً على ساعته وكأنَّه تذكَّر شيئًا فجأةً. «أوه، أوه، كم تأخَّر الوقت! أوَّلًا أقتحمُ بيتك، ثم أُضجرك بحديثي، ثم آخذ منك بيرة. أرجو أن تعذرني. كما قلتُ سابقًا، لا أسرة عندي أعود إليها، لذلك حين أجد شخصًا أتحدَّث إليه

أرتاح في جلستي وأنطلق. هذا مُحزن، أليس كذلك؟ صدِّقني يا سيِّد أوكادا، لا ينبغي للمرء أن يعيش وحيدًا فترةً طويلة. هل تذكر تلك المقولة: «ما كان ابن آدم جزيرةً معزولة». أو ربَّما نقول: «اليد العاطلة نجسة»؟»

نهض أوشيكاوا ببطءٍ بعد أن نفض غبارًا متخيَّلًا من حجره.

«لا ضرورة لأن توصلني للخارج. لقد دخلتُ بنفسي، وأعرف طريق الخروج. وسوف أقفل الباب. نصيحةٌ أخيرة سيِّد أوكادا، مع أنَّك قد لا تودّ سماعها. هناك أشياء في هذا العالم من الأفضل ألَّا نعرفها. وبالتأكيد هي نفسها الأشياء التي يريد الناس معرفتها أكثر من غيرها. غريب! أعرف أنَّني أتكلَّم في العموميّات... لا أدري متى نلتقي مرَّةً أخرى. وأرجو أن تتحسّن الأمور بحلول ذلك الوقت. تصبح على خير».

*

ظلَّ المطر الهادئ يتساقط طوال الليل، ثم بدأ يتناقص قرب الفجر، لكنَّ أثرًا من ذلك الرجل الغريب ورائحة سيجارته غير المفلترة بقيَتْ في البيت ما بقيَتْ نداوةُ المطر.

14
قُرفة ولغة الإشارة الغريبة
*
القربان الموسيقيّ

قالت لي جوزة الطيب: «توقَّفَ قرفةُ عن الكلام تمامًا ونهائيًّا قُبيل عيد ميلاده السادس. كان المفترض أن يدخل المدرسة الابتدائيَّة في تلك السنة. وفجأةً، في شباط / فبراير، توقَّف عن الكلام. والغريب أنَّنا لم نلاحظ ذلك إلَّا في الليل، لم نلاحظ أنَّه لم يقل كلمةً واحدة طوال النهار. صحيحٌ أنَّه لم يكن يتحدَّث كثيرًا من الأساس، لكنَّ الأمر يظلّ غريبًا. حين أدركتُ أخيرًا ما حدث حاولتُ بشتَّى الطرق أن أحثَّه على الكلام. كلَّمته، وهززته. لم ينفع أيّ شيء. كان مثل الحجر. لم أعرف ما إذا كان قد فقدَ القدرة على الكلام أم أنَّه قرَّر من نفسه أن يتوقَّف عن

الكلام. وما زلتُ لا أعرف. لكنَّه لم ينطق بكلمةٍ واحدة، ولا أصدرَ صوتًا واحدًا. إنْ تألَّم لا يصرخ، وإن دغدَغْتُه لا يضحك».

أخذتْ جوزةُ الطيب ابنَها إلى عدَّة أطبَّاء متخصِّصين في الأنف والأذن والحنجرة، لكنَّهم لم يستطيعوا أن يحدِّدوا أصل المشكلة. كلّ ما قالوه هو أنَّ المشكلة ليست جسديَّة، فهو يسمع جيِّدًا، لكنَّه لا يتكلَّم. هكذا استنتجوا جميعًا أنَّ السبب نفسيّ. فأخذتْه جوزةُ الطيب إلى صديقٍ لها يعمل طبيبًا نفسيًّا، لكنَّه هو أيضًا لم يستطع أن يجد تفسيرًا لهذا الصمت المستمرّ. أجرى اختبارًا للذكاء، فلم يجد أيّ مشكلة، بل إنَّ معدَّل ذكاء قرفة كان أعلى بكثيرٍ من المعتاد. ولم يجد الطبيبُ دليلًا على وجود مشكلةٍ عاطفيَّة. فسألها: «هل تعرَّض إلى صدمة؟ حاولي أن تتذكَّري. هل شهد شيئًا غير طبيعيّ أو تعرَّض إلى تعنيفٍ في البيت؟» لكنَّ جوزة الطيب لم تستطع أن تتذكَّر أيّ شيءٍ من هذا النوع. كان ابنها طبيعيًّا في كلِّ تصرُّفاته، فقد تناول وجباته، وتحدَّث أحاديث طبيعيَّة، وخلد إلى النوم في الوقت المحدَّد له. ثم في صباح اليوم التالي وقع في هاوية صمتٍ عميق. لم تكن هناك مشكلاتٌ أسريَّة في البيت، فقد نشأ على عين أمّه وجدَّته اللتَيْن لم ترفعا يدًا في وجهه قطّ. وخلُص الطبيب إلى أنَّه ليس بيدهم شيءٌ سوى أن يراقبا حالته، لعلَّ شيئًا يستجدّ. فلا سبيل إلى علاجه ما داموا لا يعرفون السبب. وهكذا، ظلَّت جوزةُ الطيب تأخذ ابنها إلى الطبيب النفسيّ مرَّةً كلّ أسبوع، علَّهم يكتشفون السبب. ومن المحتمل أن يتحدَّث مرَّةً أخرى، كمن يصحو من حلم. لم يعد

لديهم سوى الانتظار. صحيحٌ أنَّ الطفل لم يكن يتحدَّث، لكنَّه لم يكن يشكو من أيِّ سوء.

وظلُّوا ينتظرون، لكنَّ قرفة لم يخرج قطّ من بحر صمته العميق.

*

عند التاسعة صباحًا، بدأت البوَّابة الأماميَّةُ تنفتح إلى الداخل بطنينها الخفيض الذي يصدره محرِّكها الكهربائيّ، فدخلتْ سيَّارةُ قرفة المرسيدس - بنز. ومن النافذة الخلفيَّة، برز هوائيّ الهاتف مثل مجسٍّ نشأ لتوِّه على جسم كائنٍ حيٍّ. كنتُ أنظر عبر شقٍّ في الستارة. بدت السيَّارة مثل سمكةٍ مهاجرة كبيرة لا تهاب شيئًا. إطاراتها السود تمشي فوق قوسٍ على سطح الإسمنت وتقف في المكان المخصَّص لها. كانت تمرّ كلّ صباحٍ فوق القوس نفسه، وتتوقَّف في البقعة نفسها، من دون فرقٍ يزيد عن سنتيمتراتٍ معدودة.

كنتُ أشرب القهوة التي حمَّصتُها لنفسي قبل دقائق. وكان المطر قد توقَّف، لكنَّ السحب الرماديَّة كانت تغطّي السماء، والأرض ما تزال سوداء، باردة، رطبة. أمَّا الطيور، فكانت تصيح وهي ترفرف في المكان بحثًا عن حشراتٍ تأكلها. انفتح باب السائق بعد وقفةٍ قصيرة، وخرج منها قرفة يرتدي نظَّارة. بعد نظرةٍ سريعة في المكان، نزع نظَّارته ووضعها في جيب صدره، ثم أغلق باب السيَّارة. كان صوت باب المرسيدس مختلفًا عن الأصوات التي تُصدرها أبواب السيَّارات الأخرى. وبالنسبة إليَّ،

كان هذا الصوت يعلن بداية يومٍ جديدٍ في المسكن.

بقيتُ طوال الصباح أُفكِّر في زيارة أوشيكاوا الليلة الماضية، ولا أدري هل أُخبر قرفةَ أنَّ نوبورو واتايا أرسل لي أوشيكاوا كي يدفعني إلى الانسحاب من الأعمال التي تحدث في هذا البيت. لكنَّني قرَّرتُ في النهاية أنْ لا أخبره، في الوقت الحالي على الأقلّ. هذا أمرٌ ينبغي أن أحلّه بيني وبين نوبورو واتايا، ولم أشأ أن أُدخل أيّ طرفٍ ثالث في الموضوع.

كان قرفة متأنِّقًا ببذلته كالعادة. جميع بذلاته كانت من أفضل الأنواع، مخيطة كي تناسبه مثلما يناسب القفَّازُ اليد. كانت البذلة محافظةً في تصميمها، لكنَّه حين يرتديها تبدو شبابيَّة، كما لو أنَّها تحوَّلت بفعل السحر إلى أحدث الصرعات.

كان يرتدي ربطة عنقٍ جديدةً بالطبع، تناسب البذلة التي يرتديها. قميصه وحذاؤه مختلفان أيضًا. أمّه جوزة الطيب هي التي تختار له كلّ شيء بطريقتها المعتادة. كان ملبسه ناصعًا، من أعلاه إلى أسفله، كالمرسيدس التي يقودها. كنتُ كلَّما رأيته صباحًا أُعجَب به أكثر، بل أتأثَّر به. تُرى أيّ كائن قد يكون خلف هذا المظهر الخارجيّ المتقن؟

*

أَخرجَ من صندوق السيَّارة كيسَيْن ورقيَّيْن مليئيْن بالطعام والأغراض الأخرى، وحملهما معه إلى المسكن. حتى ذانك الكيسَان العاديَّان بَدَوَا أنيقَيْن كتحفةٍ فنِّيَّة وهما في يديْه. لربَّما كانت لديه طريقةٌ خاصَّة في حمل الأشياء، أو ربَّما يتعلَّق الأمر

بشيءٍ أعمق من ذلك! اشتعل وجهه كلّه حين رآني. كانت ابتسامته رائعة، كما لو أنَّه خرج لتوِّه من مشيةٍ طويلة في غابةٍ عميقة إلى مكانٍ مشرقٍ مفتوح. قلتُ له: «صباح الخير». لم يقل لي «صباح الخير»، لكنَّ شفتيْه تحرَّكتا. مضى يُخرج الأغراض من الكيسَيْن ويرتِّبها في الثلَّاجة مثل طفلٍ ذكيّ يُضيف مهارةً جديدة إلى ذاكرته. أمَّا الأغراض الأخرى، فراح يُرتِّبها في الخزانات، ثم تناول كوب قهوةٍ معي. جلسنا قبالة بعضنا بعضًا إلى طاولة المطبخ، كما كنَّا نفعل أنا وكوميكو كلّ صباح قبل فترةٍ طويلة.

*

قالت جوزةُ الطيب: «لم يقضِ قرفةُ يومًا واحدًا في المدرسة. فالمدارس العاديَّة لم تكن تقبل طفلًا لا يتحدَّث. ثم إنِّي شعرتُ بأنَّه من الخطأ أن أُدخله مدرسة معاقين. فكنتُ أعرف أنَّ السبب الذي يمنعه من الكلام (أيًّا كان ذلك السبب) يختلف عن أسباب الأطفال الآخرين. هذا إلى جانب أنَّه لم يكن يُبدي أيّ رغبة في الذهاب إلى المدرسة. بل كان يفضِّل البقاء في البيت بمفرده، يقرأ أو يستمع إلى الموسيقى الكلاسيكيَّة، أو يلعب في الفِناء مع الكلب الذي كان لدينا وقتئذٍ. في بعض الأحيان، كان يتمشَّى أيضًا، لكنَّه لم يكن متحمِّسًا لذلك لأنَّه لم يكن يحبّ رفقة الأطفال من سنِّه».

تعلَّمتْ جوزة الطيب لغة الإشارة كي تستخدمها في الحديث مع قرفة. وحين لم تكن لغة الإشارة تكفي كانا يلجآن إلى التواصل بالكتابة. لكنَّها ذات يومٍ أدركت أنَّها وابنها قادران على توصيل مشاعرهما كاملةً من دون اللجوء إلى طرقٍ غير مباشرة. كانت

تعرف تمامًا ما الذي يفكِّر فيه أو يحتاج إليه من مجرَّد لفتةٍ أو تغيّرٍ في تعابير وجهه. ومنذ ذلك الحين، لم تعد تأبه بعدم قدرته على الكلام. في واقع الأمر، لم يكن هناك أيّ عائق للتواصل العقليّ بين الأمّ وابنها. صحيحٌ أنَّ غياب اللغة سبَّب لها ضيقًا بعض الوقت، لكنَّه لم يتعدّ ذلك المستوى قطّ، بل إنَّ هذا العامل تحديدًا أضفى على التواصل بينهما مستوى أعلى من النقاء.

كانت جوزة الطيب في أوقات فراغها بين الأعمال تعلّم ابنها القراءة والكتابة والحساب. لكنَّها لم تحتج إلى أكثر من ذلك؛ فقد كان يهوى الكتب ويستخدمها لتعليم نفسه ما يحتاج إليه. وبذلك، لم تكن الأمّ معلِّمةً له بقدر ما كانت الشخص الذي يختار له الكتب. كان يحبّ الموسيقى ويريد العزف على البيانو، فتعلَّمَ الأساسيَّات مع معلِّمٍ محترف في بضعة أشهر لا أكثر، ثم اعتمد على الكتب التعليميَّة والأشرطة المسجَّلة، فوصل إلى مستوى عالٍ بالنسبة إلى صبيٍّ في مثل سنِّه. كان يحبّ أن يعزف مقطوعات باخ وموزارت والكلاسيكيَّات الرومنسيَّة، ولم يبدِ أيّ اهتمامٍ بغيرها، ربَّما باستثناء معزوفات فرانسِس پولانك وبيلا بارتوك. في سنواته الستّ الأولى، انصبّ تركيزه على الموسيقى والقراءة، لكنَّه وصل إلى سنِّ المدرسة الإعداديَّة فانتقل إلى تعلُّم اللغات، بادئًا بالإنجليزيَّة ثم الفرنسيَّة. وفي كلتا اللغتيْن علَّم نفسه ما يكفي لقراءة الكتب البسيطة في غضون ستَّة أشهر فقط. ومن الأنشطة التي كان يهواها كذلك سمكرة الآلات المعقَّدة. فاشترى طقمًا كاملًا من الأدوات، واستطاع أن يصنع بها مذياعًا ومكبِّر صوت، وكان يحبّ تفكيك ساعات الحائط وإعادة تركيبها.

وهكذا، اعتاد جميعُ من حولَه (أي أمّه وأبوه وجدَّته لأمِّه) حقيقةَ أنَّه طفلٌ لا يتحدَّث، ولم يعودوا يرون في ذلك شيئًا غير طبيعيّ. وبعد بضع سنوات، توقَّفت جوزة الطيب عن أخذ ابنها إلى الطبيب النفسيّ، فلم تكن هناك أيّ فائدةٍ من تلك الزيارات الأسبوعيَّة على «أعراضه». وكما لاحظ الأطبَّاء في بداية الأمر، فالطفل لم يكن يشكو من شيءٍ سوى أنَّه لا يتحدَّث. كان طفلًا كاملًا تقريبًا. لا تذكر جوزة الطيب أنَّها اضطرَّت في يومٍ ما إلى إجباره على فعل شيءٍ أو توبيخه على شيءٍ لم يكن يجدر به أن يفعله. كان يقرِّر بنفسه ما يفعله، ثم ينجز الأمر على طريقته، من دون خطأ. كان مختلفًا جدًّا عن بقيَّة الأطفال (العاديِّين)، حتى إنَّه لم تكن تصحّ المقارنة بينه وبينهم. وحين بلغ الثانية عشرة من العمر، توفِّيت جدَّته (بكاها عدَّة أيَّامٍ، ولكن من دون صوت)، ثم أخذ على عاتقه مهامّ الطبخ والغسيلِ والتنظيف حين تكون والدته في العمل. أرادت جوزة الطيب أن تُحضر مدبِّرةً للمنزل بعد وفاة أمّها، لكنَّ قرفة رفض ذلك رفضًا قاطعًا. كان يرفض أن يدخل غريبٌ إلى البيت فيُفسد نظامه. وهكذا، كان قرفةُ إذن هو الذي يُدير شؤون المنزل، وكان يفعل ذلك بدرجةٍ عالية من الدقَّة والانضباط.

*

حدَّثني قرفةُ بيديْه. كان قد ورث أصابع والدته الرفيعة الجميلة. كانت أصابعه طويلةً، من دون مبالغة. رفعها قرب وجهه وأخذ يحرِّكها من دون تردُّد، فأوصلتْ لي ما يريده وكأنَّها كائنٌ حيّ كامل الإدراك.

«ستأتي عميلةٌ عند الساعة الثانية ظهرًا. ولا يوجد شيءٌ آخر هذا اليوم. سأقضي الساعة القادمة في إنهاء عملي، ثم ألتقيها وأُحضرها إلى هنا. تُشير تنبُّؤات الطقس إلى أنَّ الجوّ سيكون غائمًا طوال النهار. يمكنك أن تقضي الوقت في البئر طالما يوجد ضوء، من دون أن تؤذي عينيْك».

وكما قالت جوزة الطيب تمامًا، لم أجد أيّ صعوبةٍ في فهم الكلام الذي تقوله أصابعه. لم أكن أعرف لغة الإشارة، لكنَّني كنت أتابع حركات أصابعه المنسابة بسهولة. لعلَّ مهارة قرفة هي التي أوصلت لي المعنى بهذا الشكل الطبيعيّ، مثل المسرحيَّة الأجنبيَّة التي لا نفهم لغتها لكنَّها تؤثِّر فينا. أو ربَّما بدا لي أنَّني أُشاهد أصابعه تتحرَّك، لكنَّها لم تكن تتحرَّك. ربَّما لم تكن تلك الأصابع المتحرِّكة سوى واجهة، وكنتُ أنا بنصف وعيٍ أشاهد شيئًا آخر في المبنى خلفها. كنتُ كلَّما جلسنا إلى الطاولة نتحدَّث، أحاول أن ألمح شيئًا من ذلك الحدِّ الفاصل بين الواجهة والخلفيَّة، لكنَّني لم أستطع أن أتبيَّنه، كما لو أنَّ الخطّ الذي قد يرسم الحدّ بين الإثنتيْن كان في حركةٍ وتبدُّل دائمَيْن.

بعد تلك الأحاديث القصيرة (أو تواصلنا القصير)، كان ينزع معطفه ويعلِّقه فوق مشجب، ثم يُدخل ربطة عنقه في قميصه، ويشرع في التنظيف أو الطبخ. وكان حين يعمل يستمع إلى الموسيقى من مسجِّلة. يظلّ أسبوعًا كاملًا لا يستمع إلى شيءٍ سوى الموسيقى الدينيَّة لروسِّيني، ثم في أسبوعٍ آخر يستمع إلى كونشيرتات ڤيڤالدي. يكرِّرها كثيرًا حتى أصبحتُ أحفظ ألحانها عن ظهر قلب.

كان قرفة يعمل بإتقانٍ مذهل، لا يضيِّع وقتًا ولا جهدًا. كنتُ في بادئ الأمر أعرض عليه أن أساعده، لكنَّه كان يكتفي بالابتسام وهزّ رأسه. فلمَّا شاهدتُ الطريقة التي يُنجز بها العمل اقتنعتُ أنَّ الأمور ستمضي بسلاسةٍ أكبر لو تركتُ له كلّ شيء. ثم أصبح من عادتي أن أتجنَّب اعتراضه. كنتُ أقضي الوقت في القراءة على أريكةٍ في «غرفة القياس» فيما ينتهي هو من مهامِّه الصباحيَّة.

لم يكن المسكن في الواقع بيتًا كبيرًا، ولم يكن يحتوي إلَّا على أقلِّ القليل من الأثاث. لا أحد يسكن هذا البيت، لذلك لم يكن يتوسَّخ أو يشهد فوضى كثيرة. ومع ذلك، كان قرفة يكنس كلّ شبرٍ في المكان يوميًّا، وينفض الغبار عن الأثاث والأرفف، وينظِّف زجاج النوافذ، ويلمِّع الطاولة، ويمسح المصابيح، ويُعيد كلّ شيءٍ إلى مكانه. كان يرتِّب الصحون في الخزانات، ويصفّ القدور وفقًا لحجمها، ويرتِّب المناشف بعضها فوق بعض، ويوجِّه مقابض الأكواب في الاتِّجاه نفسه، ويُعيد قطع الصابون إلى اتِّجاهها الصحيح في مغسلة الحمَّام، ويبدِّل المناشف حتى وإن لم يبدُ أنَّها استُخدمت. ثم يجمع القمامة كلّها في كيس، ويربطه، ثم يُخرجه خارج البيت. بعد ذلك، يضبط الساعات وفقًا لساعته (وأراهن أنَّها لم تكن تتأخَّر أو تتقدَّم بأكثر من ثلاث ثوان). فإن وجدَ أيّ شيءٍ في غير مكانه أعاده بدقَّةٍ وحركاتٍ رشيقة. وقد أَختبرهُ بأن أُحرِّك الساعة سنتيمترًا واحدًا إلى يسار الرفّ، فأجده في اليوم التالي قد أعادها سنتيمترًا إلى اليمين.

لم يبدُ في كلِّ ما يفعله قرفةُ شيءٌ من هَوَس. بل بدا أنَّه يفعل ما هو طبيعيّ و«صحيح». ربَّما كانت في عقل قرفة رسمةٌ

واضحة لما ينبغي أن يكون عليه هذا العالم (أو هذا العالم الصغير على الأقلِّ)، وكان الحفاظ على هذا الشكل أمرًا طبيعيًا بالنسبة إليه كالتنفُّس. لعلَّه كان يرى أنَّه يُقدِّم عَونًا بسيطًا حين تكون الأشياء مدفوعةً برغبةٍ داخليَّة قويَّة للعودة إلى أشكالها الأصليَّة.

جهَّز قرفةُ الطعام، ووضعه في الثلَّاجة، ثم أشار إليَّ بما سأتناوله على الغداء. شكرتُه. وقف بعد ذلك أمام المرآة ورتَّب ربطة عنقه، وتفحَّص قميصه، وارتدى معطفه. ثم ابتسم وحرَّك شفتيْه مودِّعًا، وتفقَّد المكان مرَّةً أخيرة، ثم خرج. فلمَّا جلس في سيَّارته المرسيدس ـ بنز، أدخل شريط موسيقى كلاسيكيَّة وضغط على زرِّ جهاز التحكُّم عن بُعد كي تُفتح البوَّابة، وخرج مرورًا على القوس نفسه الذي دخل عليه. وما إنْ عبرتْ سيَّارتُه البوَّابة حتى انغلقت. شاهدتُه من فتحةٍ في الستارة وأنا أحمل كوب قهوة، كالسابق. لم تعد الطيور تصدر أصواتًا كثيرةً كحالها حين وصل قرفة. ورأيتُ السحب الخفيضة وقد تفرَّقتْ وحملتْها الرياحُ بعيدًا، ومن فوقها طبقةٌ أخرى من السحب أكثرُ كثافة.

*

جلستُ إلى الطاولة، وضعتُ كوبي، وأجَلْتُ النظر في الغرفة التي أضْفَت عليها يدا قرفة حسًّا رائعًا من الترتيب. كانت تبدو مثل حياةٍ كبيرة ساكنة ثلاثيَّة الأبعاد، لا يُعكِّر صفوها سوى دقَّات السَاعة الهادئة. كانت عقاربها تُشير إلى العاشرة وعشرين دقيقة. نظرتُ إلى الكرسيّ الذي كان يجلس عليه قرفة، وسألتُ نفسي هل كان تصرُّفي صحيحًا حين لم أخبره عن زيارة أوشيكاوا؟ ألن

يفسد هذا رابط الثقة بيني وبينه أو بيني وبين جوزة الطيب؟

مع ذلك، فضَّلتُ أن أنتظر قليلًا حتى أرى كيف تسير الأمور. تُرى ما الذي يزعج نوبورو واتايا في ما أفعله هنا؟ أيُّ ذيلٍ من أذياله تُراني وطأت؟ وأيّ نوعٍ من الإجراءات سيتَّخذه بشأني؟ لو أنِّي أستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة، لاقتربتُ أكثر من سرِّه. وبذلك أقترب أكثر من معرفة مكان كوميكو.

فلمَّا دَنَت عقاربُ الساعة من الحادية عشرة (الساعة التي أعادها قرفةُ لليمين سنتيمترًا واحدًا)، خرجتُ إلى الفِناء، ونزلت إلى قاع البئر.

*

«أخبرتُ قرفة بقصَّة الغوَّاصة وحديقة الحيوان حين كان صغيرًا، أخبرته بما رأيته من على ظهر السفينة في شهر آب / أغسطس عام 1945 م، وكيف أطلق الجنود اليابانيُّون النار على الحيوانات في حديقة أبي في الوقت نفسه الذي كانت تُصوِّب فيه الغوَّاصة الأميركيَّة مدفعها إلينا وتستعدّ لإغراق سفينتنا. كنت قد احتفظتُ بالقصَّة لنفسي فترةً طويلة ولم أُخبر أحدًا بها. كنتُ أجول في صمتٍ في تلك المتاهة الكئيبة التي امتدَّت بين الوهم والحقيقة. ولكنْ حين وُلد قرفة خَطَر لي أنَّه الوحيد الذي يمكنني أن أحكي له القصَّة. هكذا، وقبل أن يتعلَّم الكلام بدأتُ أحكي له مرَّةً تلو الأخرى، في ما يشبه الهمس. كنتُ أحكي له كلّ ما أتذكَّره، فتعود لي المشاهد حيَّة، في ألوانٍ واضحة جدًّا، وكأنِّي رفعتُ الغطاء عنها وأطلقتُ سراحها.

«فلمَّا بدأ قرفة يفهم اللغة أخذ يطلب منِّي أن أحكي له القصَّة مرَّةً تلو المرَّة. لا بدَّ من أنِّي حكيتها له مئة أو مئتيْن أو خمسمئة مرَّة، ولكن ليس بتكرار الكلام نفسه. كنتُ كلَّما حكيت له يطلب منِّي أن أحكي له قصَّةً أخرى صغيرة داخل تلك القصَّة الرئيسة. كان يريد أن يعرف كلّ غصنٍ في الشجرة نفسها، وكنت أنا أتبع الغصن الذي يطلبه فأحكي له ذلك الجزء من القصَّة. وهكذا، ظلَّت القصَّة تكبر وتكبر..

«بهذه الطريقة مضينا نصنع عالمنا المتشابك من المتاهات. هل فهمتَ ما أقصده؟ كنَّا نتمادى في حكاية القصَّة كلّ يوم. نتحدَّث ساعاتٍ عن أسماء الحيوانات في الحديقة، عن لمعان فروها، أو لون أعينها، وعن الروائح المختلفة في المكان، وعن أسماء الجنود ووجوههم، ومولدهم، وطفولتهم، وبنادقهم، ووزن ذخيرتهم، وعن المخاوف التي ساورتْهم، وعن عطشهم، وعن أشكال السحب السابحة في السماء..

«كنتُ أرى كلّ الألوان والأشكال بوضوحٍ تامٍّ وأنا أحكي له القصَّة، وكنت أستطيع أن أصوغ ما أراه في كلمات (الكلمات التي أحتاج إليها بالضبط)، فأوصلها كلّها إليه. وما من نهايةٍ للأمر؛ فقد كانت هناك دائمًا تفاصيل أخرى يمكن إضافتها، وظلَّت القصَّة تزداد عمقًا على عمق، وتكبر أكثر فأكثر».

ابتسمتْ جوزة الطيب وهي تتحدَّث عن تلك الأيَّام البعيدة. لم أرَ ابتسامةً طبيعيَّةً كهذه على مُحيَّاها من قبل.

«ثم انتهتْ ذات يوم. توقَّف قرفة عن سرد القصص معي في

صباح أحد أيَّام شباط / فبراير حين توقَّف عن الكلام».

وتوقَّفتْ جوزة الطيب قليلًا لتُشعل سيجارة.

«أعرف الآن ما حدث. لقد تاهت كلماته في المتاهة. ابتلعها عالم القصص. شيءٌ ما خرج من تلك القصص واختطف لسانه. وهذا نفسه ما حدث بعد بضع سنوات وقَتَل زوجي».

*

اشتدَّت الريحُ أكثر ممَّا كانت عليه صباحًا، واندفعت السحب الرماديَّة الثقيلة نحو الشرق واحدةً تلو الأخرى. كانت تلك السحب مثل مسافرين صامتين في طريقهم إلى طرف الأرض. وعلى الأغصان العارية في الفِناء، كانت الريح تئنُّ أنَّةً قصيرةً خرساء من وقتٍ إلى آخر. وقفتُ عند البئر أُطالع السماء، لعلَّ كوميكو كانت تنظر إلى السحب أيضًا من مكانها. هكذا، خطرتْ لي الفكرةُ من دون سبب. كان مجرَّد شعور.

نزلتُ بالسلّم إلى قاع البئر، ثم سحبت الحبل كي أغلق الغطاء. تنفَّستُ عميقًا مرَّتيْن أو ثلاث، ثم أمسكت بالمضرب واتَّخذت موضعي في الجلوس في تلك العتمة. العتمة التامَّة. نعم، كان هذا هو الأهمّ، فالمفتاح إنَّما يكمن في العتمة التي لا تشوبها شائبة. الأمر أشبه ببرنامج طبخٍ على التلفاز: «هل جهَّزتم كلّ المقادير؟ السرّ في هذه الوصفة هو العتمة التامَّة. احرصوا على أن تشتروا النوع الأكثر سُمكًا». ثم أضفتُ وأنا أبتسم لحظةً في العتمة: وأقوى مضرب تجدونه.

كنتُ أحسّ بدفءٍ في علامة خدِّي. تقول لي إنَّني أقترب

أكثر فأكثر من جوهر الأشياء. أغمضتُ عينيَّ. ما يزال يتردَّد في أذنيَّ صدى الموسيقى التي شغَّلها قرفة وهو يعمل. كانت مقطوعة «القربان الموسيقيّ» لباخ ما تزال باقيةً في رأسي مثل همهمةِ الحضور في قاعة مدرَّج عالية السقف. ثم هبط الصمت، وبدأ يحفر في طيَّات عقلي، طيَّة بعد الأخرى مثل حشرةٍ تضع بيوضها. فتحتُ عينيَّ، ثم أغلقتُهما ثانية. كانت عتمة الداخل وعتمة الخارج تمتزجان، وبدأتُ أتحرَّك خارج نفسي، خارج الوعاء الذي يحتويني.

كالعادة.

15
قد يكون هذا آخرَ المطاف
(مايو كاساهارا تتحدَّث: 3)

مرحبًا مرَّةً أخرى، سيِّد طائر الزنبرك:

في المرَّة السابقة، كنتُ على وشك أن أُخبرك عن عملي في مصنع الباروكات في الجبال هنا بعيدًا مع الكثير من الفتيات من أهل المنطقة. وهذه تكملة الرسالة.

مؤخَّرًا، بدأتُ أنزعج كثيرًا من الطريقة التي يعمل بها الناس هنا هكذا كلّ يومٍ من الصباح إلى الليل، بدأتُ أرى الأمر غريبًا نوعًا ما. ألم تشعر بأنَّه غريب؟ ما أقصده هو أنَّ كلّ ما أفعله هنا هو إنجاز ما يأمرني به رؤسائي بالطريقة التي يملونها عليَّ. لستُ مضطرَّةً إلى التفكير أساسًا. يبدو لي الأمر وكأنِّي أضع عقلي في الخزانة قبل أن أبدأ العمل، ثم آخذه معي في طريق العودة إلى

السكن. أقضي سبع ساعاتٍ كلّ يومٍ على طاولة عمل، أزرع الشعر في فروة الباروكة، ثم أتناولُ عشائي في الكافتيريا، وأستحمّ، ثم ينبغي عليَّ أن أنام طبعًا كالبقيَّة. وهكذا، أكاد لا أملك أيّ وقت فراغٍ في الأربع وعشرين ساعة. ولأنَّني أكون منهكةً من العمل، غالبًا ما أقضي «وقت الفراغ» مستلقيةً ورأسي يدور. لا وقت لديَّ أبدًا للجلوس والتفكير في أيِّ شيء. صحيحٌ أنَّني لا أعمل في العطلة الأسبوعيَّة، لكنَّني مضطرَّةٌ إلى الغسيل والتنظيف، وأحيانًا أذهب إلى وسط البلدة، وهكذا تنتهي العطلة في لمح البصر. قرَّرتُ ذات مرَّة أن أكتب يوميَّاتي، لكنَّني لم أجد ما أكتبه، فصرفتُ النظر بعد أسبوع. هي الأشياء نفسها أفعلها مرَّةً تلو المرَّة، يومًا تلو الآخر.

مع ذلك، فلا يعجبني إطلاقًا أنَّني جزءٌ من هذا العمل الذي أؤدِّيه. لا أشعر بتاتًا أنَّني اغتربتُ عن حياتي. بل إنَّني أحيانًا أشعر بأنِّي في تركيزي على عملي هكذا بدأب نملةٍ ساهية أقترب أكثر فأكثر من «أنا الحقيقيَّة». لا أعرف كيف أُعبِّر عن الأمر، ولكنْ يبدو كما لو أنَّني حين لا أُفكِّر في نفسي أقترب أكثر من جوهر نفسي. وهذا ما أقصده حين قلت «غريبًا نوعًا ما».

إنَّني أمنح كلّ ما عندي لهذه الوظيفة. لا أُريد أن أتباهى، لكنَّهم اختاروني موظَّفة الشهر. قلتُ لك إنَّ ملامحيَ قد لا توحي بأنِّي ماهرةٌ جدًّا في الأعمال اليدويَّة. حين نعمل نقسِّم أنفسنا إلى فِرَق، والفريق الذي أنضمُّ إليه يتحسَّن أداؤه. فحين أنتهي من العمل المطلوب منِّي أساعد الفتيات البطيئات. لذلك أصبحتُ محبوبةً بين الفتيات. هل تصدِّق ذلك؟ أنا أصبح محبوبة! على أيِّ

حال، ما أردت أن أقوله لك يا سيِّد طائر الزنبرك هو أنَّ كلّ ما أفعله منذ أن أتيتُ إلى هنا هو العمل، العمل، العمل. مثل النمل. مثل حدَّاد القرية. واضح؟

عمومًا، المكان الذي أعمل فيه غريبٌ حقًّا. مكانٌ ضخم، كأنَّه حظيرة طائرات، واسعٌ وله سقفٌ كبيرٌ عال. تجلس هناك مئة وخمسون فتاة مصطفَّات يعملن. منظرٌ بديع. بطبيعة الحال، لم يكونوا مضطرِّين إلى إنشاء مصنعٍ ضخم كهذا. فنحن لا نصنع غوَّاصات مثلًا. كان بإمكانهم أَنْ يوزِّعونا إلى غرفٍ منفصلة. لكنَّهم ربَّما أرادوا أن يزيدوا من حسِّ التكافل الاجتماعيّ حين تعمل الفتيات جميعًا في المكان نفسه، أو ربَّما لأنَّ الأمر أسهل هكذا بالنسبة لرؤسائنا كي يشرفوا علينا. أراهن أنَّهم يستخدمون ما يُسمَّى بعلم النفس علينا. يقسِّموننا إلى فِرَق، نلتفّ حول طاولات العمل مثل ما يحدث في حصَّة العلوم حين يشرِّحون الضفادع، فيما تجلس الفتاة الأكبر في الطرف بوصفها قائدةً للفريق. يُسمح لنا بالكلام ما دامت أيدينا تعمل (فلا يمكنك أن تخرس وتؤدِّي هذا العمل طوال النهار)، لكنَّك إنْ تحدَّثتَ أو ضحكتَ بصوتٍ عال أو انهمكت في الحوار، فسوف تأتي إليك قائدة الفريق عابسةً وتقول: «يوميكو، حرِّكي يديْكِ لا لسانك. يبدو أنَّكِ تأخَّرتِ عن زميلاتك». وهكذا، نظلّ نتهامس كاللصوص.

يُشغِّلون موسيقى في المصنع، يتغيَّر نوعها وفقًا للوقت. فإنْ كنتَ من المعجبين بباري مانيلو أو أير سبلاي، قد يروقك هذا المكان يا سيِّد طائر الزنبرك.

يستغرق منِّي الأمر بضعة أيَّام لكي أنتهي من واحدةٍ من باروكاتي. تختلف المدَّة طبعًا وفقًا لنوع المنتج، ولكنْ عليك أن تحسب الوقت الذي تستغرقه لكي تصنع باروكةً في غضون أيَّام. أوَّلًا، تقسِّم الفروة إلى مربَّعات، ثم تزرع الشعر في مربَّعٍ تلو الآخر بالترتيب. مع ذلك، فالعمل لا يجري بطريقةِ خطّ التجميع، مثل المصنع في فيلم شارلي شابلن، حيث تُدير برغيًّا ثم يأتي غيره. لا، هنا كلّ باروكة تُعتبر «باروكتي». فحين أنتهي من باروكةٍ أشعر برغبةٍ في التوقيع عليها باسمي والتاريخ. لكنَّني طبعًا لا أفعل ذلك. سيغضبون جدًّا. مع ذلك، فهو شعور جميل حين أعلم أنَّ شخصًا ما في هذا العالم سوف يضع هذه الباروكة التي صنعتُها فوق رأسه. يمنحني هذا حسًّا بما يشبه... الترابط.

لكنَّ الحياة غريبةٌ جدًّا. لو قال لي أحدٌ قبل ثلاث سنوات «بعد ثلاث سنوات ستكونين في مصنعٍ في الجبال تصنعين الباروكات مع العديد من فتيات الريف» لضحكتُ في وجهه. لم أكن لأتخيَّل هذا. أمَّا ما سأفعله بعد ثلاث سنوات من الآن، فلا أحد يعرف الإجابة. هل تعرف ما سوف تفعله بعد ثلاث سنوات يا سيِّد طائر الزنبرك؟ أكيد أنَّك لا تعرف. دع عنك الثلاث سنوات، أراهن بكلِّ ما أملك من مالٍ أنَّك لا تعرف ما سوف تفعله بعد شهرٍ واحد من الآن!

لكنَّ الفتيات هنا يعرفنَ ما سوف يفعلنه بعد ثلاث سنوات. أو على الأقلِّ هكذا يعتقدن. يقلنَ إنَّهنَّ سوف يدَّخرنَ المال ثم يعثرنَ على الرجل المناسب بعد بضع سنوات، ويتزوَّجنَ زواجًا سعيدًا.

غالبًا، سيتزوَّجنَ من أبناء مزارعين يرِثون المحلّ من آبائهم، أو شبابٍ يعملون في شركاتٍ محلّيَّة صغيرة. وكما قلتُ سابقًا، يوجد نقصٌ مزمن في الفتيات هنا، لذلك ينفدن بسرعةٍ في سوق الزواج. ولا تبقى فتاةٌ من دون زواج إلَّا إنْ كان حظّها شديد السوء، لذلك جميعهنَّ يتزوَّجن. أمرٌ لافت فعلًا. وكما أخبرتك في رسالتي السابقة، أغلب الفتيات هنا يتركنَ العمل حين يتزوَّجن. فوظيفة المصنع بالنسبة إليهنَّ مجرَّد مرحلةٍ تملأ فراغ السنوات القليلة بين المدرسة والزواج. وكأنَّها غرفة انتظارٍ يدخلنها، ويبقين فيها قليلًا، ثم يغادرن.

والمصنع نفسه لا يكتفي بعدم الممانعة، بل إنَّه يفضِّل كما يبدو أن تعمل الفتيات بضع سنوات فقط ثم يرحلن. فالأفضل لهم أن تتغيَّر العاملات بانتظامٍ بدلًا من الدخول في مسائل الرواتب والمخصَّصات واتِّحادات العمَّال، وما إلى ذلك. لكنَّ الشركة تولي عنايةً أكبر بالفتيات الماهرات اللائي يصبحن قائدات فِرَق، أمَّا الفتيات العاديَّات فهنَّ عبارة عن بضاعةٍ مُستهلَكة. ثمَّة تفاهمٌ ضمنيّ إذن بين الفتيات والشركة بأنَّهنَّ سوف يتزوَّجن ويغادرن. لذلك، فإنَّ تخيُّلَ ما سيحدث بعد ثلاث سنوات من الآن بالنسبة إلى الفتيات لا يخرج عن احتمالَيْن: فإمَّا أن تكون في طور البحث عن زوجٍ وهي تعمل في المصنع، أو أن تكون قد غادرت للزواج. ما أبسط الأمور!

ببساطة، لا توجد فتاةٌ مثلي هنا تقول لنفسها إنَّها لا تعرف ما سيحدث بعد ثلاث سنوات. جميعهنَّ عاملات جيِّدات. ولا واحدة منهنَّ تتهاون في أداء عملها أو تشتكي منه. ربَّما فقط

أسمع من وقتٍ إلى آخر واحدةً تشتكي من طعام الكافتيريا. نتحدَّث عن مشكلات العمل طبعًا، فلا يمكن أن يكون ممتعًا طوال الوقت. قد ترى واحدةً تعمل من التاسعة إلى الخامسة لأنَّها مضطرَّة إلى ذلك، مع أنَّها تريد العودة إلى البيت، ولكنْ في الغالب أعتقد أنَّهنَّ يستمتعنَ بالعمل. لا بدَّ من أنَّ السبب هو معرفتهنَّ بأنَّ هذه الوظيفة مرحلةٌ موقَّتة، معلَّقة بين عالمٍ وآخر. لذلك يردنَ أن يستمتعنَ قدر الإمكان هنا. ففي نهاية المطاف، هي فترةٌ انتقاليَّة بالنسبة إليهنَّ لا أكثر.

لكنَّ هذا الأمر لا ينطبق عليَّ. فهي ليست فترةً انتقاليَّة بالنسبة إليَّ. أنا لا أعرف خطوتي التالية بعد هذا المكان. بالنسبة إليَّ قد يكون هذا آخرَ المطاف. هل فهمت قصدي؟ لذلك، إنْ تحرَّينا الدقَّة فأنا غير مستمتعةٍ بالعمل هنا. كلّ ما أفعله هو أنَّني أتقبَّل العمل. فحين أصنع باروكةً، لا أُفكِّر في أيِّ شيء سوى صنع الباروكة. أكون في غاية الجدِّيَّة، لدرجة أنْ يتفصَّد العرق منِّي.

لا أعرف كيف أُعبِّر عمَّا أريد أقوله، لكنَّني بدأت مؤخَّرًا أُفكِّر في الصبيّ الذي تسبَّبتُ في مقتله في حادث الدرَّاجة الناريَّة. كي أكون صريحةً معك، لم أُفكِّر فيه كثيرًا من قبل. ربَّما صدمة الحادث شوَّهت ذاكرتي على نحوٍ ما، فكلّ ما كنتُ أتذكَّره منه أشياء غريبة، مثل رائحة إبطيْه الكريهة، أو غبائه، أو أصابعه التي تحاول أن تصل إلى أماكن غريبةٍ في جسدي. ولكنْ بين الفينة والأخرى تخطر لي صِفةٌ جيِّدة فيه. فحين يكون عقلي فارغًا وأنا أزرع الشعر في فروة الباروكة تخطر لي هذه الأشياء فجأةً. أقول

في نفسي نعم صحيح، كان بالفعل هكذا. أعتقد أنَّ الزمن لا يتدفَّق مرتَّبًا، أليس كذلك؟ إنَّما يهيم حيث يشاء.

هل لي أنْ أكون صريحةً معك سيِّد طائر الزنبرك؟ أقصد صريحةً جدًّا جدًّا جدًّا؟ أشعر أحيانًا بخوفٍ شديييد! أصحو في منتصف الليل وحدي تمامًا، مئات الأميال تفصلني عن أيّ بشر، والظلام حالك، ولا أعرف ما سيحدث لي في المستقبل، فأشعر بخوفٍ شديدٍ لدرجة الرغبة في الصراخ. هل يحدث لك ذلك سيِّد طائر الزنبرك؟ حين يحدث لي، أحاول أن أذكِّر نفسي بأنَّني متَّصلةٌ بالبقيَّة، ببقيَّة الأشياء وبقيَّة الناس. أبذل قصارى جهدي كي أُسجِّل أسماءهم في رأسي. في رأس القائمة أنت بالطبع يا سيِّد طائر الزنبرك. والزقاق، والبئر، وشجرة الكاكا، وهكذا.. والباروكات التي صنعتها هنا بيديَّ، والأشياء الصغيرة التي أتذكَّرها عن ذلك الولد. هذه الأشياء الصغيرة كلّها (على الرَّغم من أنَّك لست مجرَّد شيءٍ من هذه الأشياء الصغيرة يا سيِّد طائر الزنبرك، ولكن على أيِّ حال. . .) هي التي تساعدني على العودة إلى «هنا» شيئًا فشيئًا. ثم أشعر بالأسف لأنَّني لم أدَعْ حبيبي يراني عاريةً أو يلمسني. في ذلك الوقت، كنتُ مصرَّةً على أن لا أدَعَه يلمسني. أحيانًا، يا سيِّد طائر الزنبرك، أشعر بالرغبة في البقاء عذراء طوال حياتي. فعلًا. ما رأيك بهذا؟

وداعًا سيِّد طائر الزنبرك. أرجو أن تعود كوميكو قريبًا.

16

تعبُ العالم وأعباؤه

*

المصباح السحريّ

رنَّ الهاتف عند التاسعة والنصف مساء. رنَّة واحدة، ثم توقَّف، وعاد يرنّ مرَّةً أخرى. كانت هذه إشارة أوشيكاوا.

«ألو، سيِّد أوكادا. هذا أنا أوشيكاوا. أنا الآن قريبٌ من منزلك، وخطر لي أنْ أزورك إنْ لم يكن لديك مانع. أعرف أنَّ الوقت متأخِّر، ولكنْ لديَّ أمرٌ أودّ التحدُّث بشأنه معك شخصيًا. ما رأيك؟ الأمر متعلِّق بالسيِّدة كوميكو، لذلك قلتُ ربَّما يهمّك».

تخيَّلتُ وجه أوشيكاوا على الطرف الآخر وأنا أستمع إلى كلامه. كان يبتسم ابتسامة رضًا، ويلوي شفتيْه فتظهر أسنانه القذرة

كأنَّه يقول أعرف أنَّك لا تستطيع أن ترفض هذا العرض. وللأسف فقد كان محقًّا.

*

استغرق عشر دقائق بالضبط كي يصل إلى البيت. كان يرتدي الملابس نفسها التي كان يرتديها قبل ثلاثة أيَّام. ربَّما أكون مخطئًا، لكنَّه كان يرتدي النوع نفسه من البذلة والقميص وربطة العنق، كلّها كئيبة شعثاء مهلهلة. بدت لي هذه الملابس الشنيعة كما لو أنَّها مجبورةٌ على تقبُّل حصَّةٍ غير عادلة من تَعَب العالم وأعبائه. فلو عُرض عليَّ أن أعود في حياةٍ ثانية (بشكلٍ من التناسخ) في صورة ملابس أوشيكاوا مع ضمانةٍ بمجدٍ عظيم في هذه الحياة الثانية، لرفضتُ الحياة الثانية.

استأذن منِّي، ثم أحضر لنفسه زجاجة بيرة من الثلَّاجة، وتأكَّد أوَّلًا من برودتها، ثم صبَّها في كأسٍ وجدها بالقرب منه. جلسنا إلى طاولة المطبخ.

قال: «طيِّب، لتوفير الوقت سأتجاوز المقدِّمات وأدخل في صلب الموضوع مباشرة. أنت تريد التحدُّث إلى السيِّدة كوميكو، أليس كذلك سيِّد أوكادا؟ حديثًا مباشرًا. أنتما الإثنان فقط. أعتقد أنَّ هذا ما كنت تطلبه منذ فترة. هذه أولويَّتك، صحيح؟»

فكَّرتُ في كلامه. أو ربَّما توقَّفتُ لحظاتٍ وكأنِّي أُفكِّر.

«بالطبع، أريد التحدُّث إليها إنْ كان هذا ممكنًا».

قال أوشيكاوا بهدوءٍ وهو يهزّ رأسه: «غير ممكن».

«إلَّا بشروط...؟»

أخذ رشفةً من البيرة وقال: «لا توجد شروط. ولكنْ عندي اقتراحٌ لك. أرجو أن تسمعني وتُفكِّر جيِّدًا فيما سأقوله. وهو أمرٌ مختلفٌ عن مسألة ما إذا كنتَ ستتحدَّث إلى السيِّدة كوميكو».

نظرتُ إليه من دون أن أتحدَّث.

«أوَّلًا، سيِّد أوكادا، أنت تستأجر تلك الأرض والبيت الذي عليها من شركةٍ معيَّنة، أليس كذلك؟ أقصد «بيت الشنْق». وتدفع مبلغًا كبيرًا كلّ شهر. لكنَّك لا تملك عقدًا عاديًا، وإنَّما عقدًا يتيح لك شراء العقار بعد بضع سنوات، صحيح؟ عقدك ليس مسجَّلًا بطبيعة الحال، وهكذا لا يظهر اسمك في أيِّ مكان، وهذا هو مربط الفرس. مع ذلك، فأنت المالك الفعليّ للمكان، والإيجار الذي تدفعه يُعتبر أقساطًا للقرض. إذن فالمبلغ الإجماليّ الذي ينبغي لك أن تدفعه، دعنا نقول يقترب من الثمانين مليون ين، أليس كذلك؟ بهذا المعدَّل، يُفترض أن تتملَّك الأرض والمبنى في أقلِّ من سنتَيْن. رائع جدًّا! عمليَّةٌ سريعة جدًّا! تستحقّ التهنئة».

نظر إليَّ أوشيكاوا كي أؤكِّد له كلّ ما قاله، لكنِّي لزمتُ الصمت.

«أرجوك لا تسألني كيف عرفتُ كلّ هذه التفاصيل. فمن يجتهد في التنقيب يجد كلّ ما يريد.. إنْ كان يعرف كيف ينقِّب. كما أنَّ لديَّ فكرةً عمَّن يقف خلف تلك الشركة الوهميَّة. بصراحة، هذه المعلومة كانت صعبة! كان عليَّ الزحف في متاهةٍ معقَّدة للحصول عليها. كان الأمر أشبه بالبحث عن سيَّارةٍ مسروقة

أُعيد طلاؤها وغُيِّرت إطاراتها وبُدِّلت أغطية مقاعدها وأُزيل رقم المحرِّك منها. فقد أخفوا كلّ آثارهم. إنَّهم محترفون فعلًا. لكنّني الآن أعرف ما يحدث، وربَّما أعرفه أكثر منك يا سيِّد أوكادا. بل أراهن أنَّك حتى لا تعرف الشخص الذي تسدِّد له المبلغ، أليس كذلك؟»

«لا بأس، فالمال لا اسم له».

ضحك أوشيكاوا. «معك حقّ تمامًا سيِّد أوكادا. المال فعلًا ليس له اسم. أحسنت القول. ينبغي لي أن أُدوِّن هذه الجملة. ولكنْ للأسف يا سيِّد أوكادا، الأمور لا تسير دائمًا كما نشتهي. خذ مثلًا أولئك الصِبية في مكتب الضرائب. ليسوا عباقرة، ولا يعرفون إلَّا استخراج الضرائب من الأماكن التي لها أسماء. وهذا ما يدفعهم إلى بذل كلّ ما في وسعهم لتحديد أسماءٍ لأماكن ليست لها أسماء. بل وأرقامٍ أيضًا. لكأنَّهم في عملهم هذا روبوتات. لكنَّ هذا بالضبط ما تأسَّس عليه مجتمعنا الرأسماليّ... وهذا ما يقودنا إلى الخلاصة، وهي أنَّ المال الذي نتحدَّث عنه الآن له اسم، واسمٌ رائع أيضًا».

نظرتُ إلى رأس أوشيكاوا وهو يتحدَّث. كان الضوء يُحدث ما يُشبه البَعجات الغريبة على صلعته، وفقًا لزاويتها.

ثم قال ضاحكًا: «لا تقلق. لن يأتي صاحب الضرائب إلى هنا. وحتى إنْ أتى، فسوف تنتهي به هذه المتاهة إلى أن يصطدم بشيءٍ، فيظهر له ورمٌ كبير في رأسه. في نهاية المطاف، هذه مجرَّد وظيفةٍ بالنسبة إليه، ولن يرغب في إيذاء نفسه من أجل

الوظيفة. سوف يفضِّل الحصول على المال بالطريقة السهلة لا الصعبة. وطالما حصل على ما يريده، فلا يهمّه أن يحصل على إطراء. أيّ شخص عاديّ سيختار الطريقة السهلة، لا سيَّما إنْ أمَرَه رئيسه بذلك. لقد استطعتُ العثور على ما عثرتُ عليه لأنَّني أنا الذي كنت أبحث. لا أقصد أن أتباهى، لكنَّني ماهرٌ في هذا الأمر. قد لا يوحي مظهري بذلك، لكنّني ماهرٌ جدًّا، وأعرف كيف أتجنَّب الإصابات. أعرف كيف أنسلّ من الشارع ليلًا حين تكون الظلمة حالكة.

«ولكنْ إنْ شئتَ الصراحة يا سيِّد أوكادا (وأنت شخصٌ أستطيع أن أفتح قلبي له) فحتى أنا لا أعرف ما الذي تفعلُه في ذلك المكان. أعرف أنَّ زوَّارك يدفعون مبالغ كبيرة، فمن المؤكَّد إذن أنَّك تُقدِّم لهم شيئًا مميَّزًا يستحقّ كلّ تلك المبالغ. إلى هنا الأمور واضحةٌ بالنسبة إليَّ تمامًا. لكنَّني لا أعرف شيئًا عمَّا تفعله بالضبط، والسبب الذي يجعلك تتشبَّث بتلك الأرض. هذان أهمّ شيئَيْن في المسألة كلّها، ومع ذلك فهما الأكثر غموضًا. وهذا يُقلقني».

«وهذا يعني أنَّه يقلق نوبورو واتايا».

لكنَّه لم يجب، بل بدأ يشدّ الشعرات الشعثاء فوق أذنَيْه.

«هذا الموضوع بيني وبينك يا سيِّد أوكادا، ولكنْ عليَّ الاعتراف بأنِّي معجبٌ بك جدًّا. لا أجاملك. قد يبدو هذا غريبًا، لكنَّك رجلٌ عاديّ في الأساس. وكي أكون أكثر صراحةً لعلِّي أقول إنَّه لا يوجد شيءٌ مميَّزٌ فيك. سامحني، ولكنْ أرجو

ألَّا تُسيء فهمي. مع ذلك، فما قلتُه صحيح، فيما يتعلَّق بمكانتك في المجتمع. لكنَّني بعد أن التقيْتك وجهًا لوجه وتحدَّثتُ معك، أجد نفسي معجبًا جدًّا بك. معجبًا بالطريقة التي تُدبِّر بها أمرك. انظر مثلًا للطريقة التي استطعتَ أن تهزّ بها رجلًا مثل الدكتور واتايا! لهذا السبب أنا مجرَّد حمامةٍ زاجلة. فالشخص العاديّ تمامًا لا يستطيع أن يفعل ذلك.

«وهذا ما يعجبني فيك. صدِّقني. قد أكون مجرَّد حثالة، لكنَّني لا أكذب في هذه الأشياء. ولستُ أنظر إليك نظرةً موضوعيَّة تمامًا. فإن لم يكن بك شيءٌ مميَّز فيما يتعلَّق بمكانتك في المجتمع، فأنا أسوأ منك مئة مرَّة. فلستُ سوى بليدٍ غير متعلِّم من بيئةٍ وضيعة. كان والدي صانع حُصُر التاتامي في فوناباشي، وكان سكِّيرًا، وَغْدًا حقيقيًّا. كنتُ أتمنَّى أن يموت ويتركني وشأني، فقد كنتُ طفلًا تعيسًا، ثم تحقَّقت أمنيتي. بعد ذلك، عانيْتُ من الفقر المدقع كما في القصص. لا أذكر يومًا واحدًا سعيدًا من طفولتي، ولا كلمةً طيِّبة من والدي أو والدتي. لا عجب أنِّي انحرفتُ إذن! صحيحٌ أنِّي استطعتُ اجتياز المرحلة الثانويَّة بصعوبة، لكنَّني بعد ذلك دخلتُ مدرسة الحياة الصعبة. تعيَّشتُ على فِطنتي، أو القليل الذي رُزقتُه منها. ولذلك لا أحبّ الطبقة العليا أو المسؤولين الحكوميِّين. بصراحة، أنا أكرههم. أبناء الحرام هؤلاء يدخلون المجتمع من أوسع أبوابه ويتزوَّجون أحلى النساء ويعيشون عيشةً راضية. أحبُّ من هم على شاكلتك يا سيِّد أوكادا، مَن وصلوا بجهدهم».

أشعل أوشيكاوا عود ثقاب، فأشعل به سيجارةً أخرى.

«لكنَّك لن تستطيع أن تحافظ على ذلك إلى الأبد. سوف تنطفئ عاجلًا أم آجلًا. هذا مصير الجميع. قَدَر البشر. وبلغة تاريخ التطوُّر، فلم يتعلَّم البشر أن يمشوا على قدميْن ويتورَّطوا في التفكير بأفكارٍ معقَّدة إلَّا البارحة. لذلك كن أكيدًا. سوف تنطفئ، لا سيَّما في هذا العالم الذي تحاول أن تتعامل معه. الجميع ينطفئون. هنالك أشياء كثيرة مخاتلة في ذلك العالم، وطرقٌ كثيرة جدًّا للتورُّط في المشكلات. إنَّه عالم مصنوع من الأشياء المخاتلة. لقد عملتُ في هذا العالم منذ أيَّام عمّ الدكتور واتايا، وقد ورِثَه الآن بكلِّ ما فيه. كنتُ أتعيَّش بإنجاز الأشياء الخطرة. ولو أنِّي واصلت لكنتُ الآن إمَّا في السجن أو ميِّتًا. وقد أنقذني عمّ الدكتور واتايا في اللحظة الأخيرة. لقد مرَّت عليَّ أشياءٌ كثيرة سيِّد أوكادا. الكلّ ينطفئ في هذا العالم، سواء أكان هاويًا أم محترفًا، لا يهمّ. الكلّ ينطفئ، والكلّ يُصاب، الأخيار منهم والأشرار. لهذا السبب، يحرص الجميع على أن يكون لهم تأمينٌ بسيط. حتى أنا. بهذه الطريقة يمكنك أن تنجو حين تنطفئ. أمَّا إنْ كنت وحدك، فسوف يُقضى عليك فور أن تزلّ.

«ربَّما لا يجدر بي أن أقول لك هذا سيِّد أوكادا، لكنَّك جاهزٌ للسقوط. هذا مؤكَّد. واضحٌ في دفتري، بحروفٍ سوداء كبيرة بعد صفحتيْن أو ثلاث. «**تورو أوكادا جاهزٌ للسقوط**». الأمر حقيقيّ، ولا أحاول أن أُخيفك. ما أقوله في هذا العالم أدقّ بكِثيرٍ من تنبُّؤات الطقس في التلفاز. لذلك ما أريد قوله لك هو: ما يزال لديك الوقت طالما أنَّ الأمور مؤاتية للانسحاب».

أغلق أوشيكاوا فمه ونظر إليَّ. ثم واصل كلامه:

«دعنا نتوقَّف عن جسّ نبض بعضنا بعضًا يا سيِّد أوكادا، وندخل في الموضوع... فننتهي من المقدِّمة الطويلة. الآن أستطيع أن أُقدِّم لك العرض الذي جئتُ بخصوصه».

وضع أوشيكاوا يدَيْه على الطاولة، ثم نقر بلسانه على شفتَيْه.

«لنقل إنَّني أخبرتك قبل قليلٍ أنَّه ينبغي لك قطع علاقتك بتلك الأرض والانسحاب من الصفقة. ولكنْ ربَّما لا تستطيع الانسحاب حتى إن رغبتَ في ذلك. ربَّما ستظلّ عالقًا في هذه الصفقة إلى أنْ تُسدِّد القرض». توقَّف أوشيكاوا عن الكلام وسدَّد إليَّ نظرةً متفحِّصة. «إنْ كان المال هو المشكلة، فسوف نعطيك إيَّاه. إن كنتَ في حاجةٍ إلى ثمانين مليون ين، فيمكنني أن آتيك بالثمانين مليون ين في حزمةٍ جميلة مرتَّبة. ثمانية آلاف ورقة من فئة العشرة آلاف ين. يمكنك أن تسدِّد ما تبقَّى عليك وتحتفظ بالباقي. وبعدها عِش حياتك! ما رأيك؟»

«وبهذا تؤول الأرض والمبنى إلى نوبورو واتايا؟ هذا قصدك؟»

«نعم، هكذا ستسير الأمور. مع ذلك، أفترض أنَّه ستكون هناك الكثير من التفاصيل المزعجة التي ينبغي تدبُّر أمرها...».

تفكَّرتُ في مقترحه قليلًا. «أتدري يا أوشيكاوا. الأمر يُحيِّرني. ما الذي يجعل نوبورو واتايا حريصًا كلّ هذا الحرص على أن يُبعدني عن تلك الأرض؟ ما الذي ينوي أن يفعله بها حين يمتلكها؟»

حكَّ أوشيكاوا خدَّه براحة يده. «سامحني سيِّد أوكادا، فلا

علم لي بهذه الأشياء. أنا مجرَّد حمامةٍ زاجلة حمقاء كما قلت لك. يأمرني سيِّدي فأفعل. وأغلب ما يأمرني به بغيض. حين قرأتُ قصَّة علاء الدين، كنتُ دائمًا أتعاطف مع الجنِّيّ لفرط ما يؤذونه بطلباتهم، لكنِّي لم أتخيَّل قطّ أنَّني سأصبح مثله. صدِّقني إنَّها قصَّةٌ حزينة. عمومًا، كلّ ما قلتُه لك مجرَّد رسالةٍ طُلب إليَّ أن أوصلها. الرسالة من الدكتور واتايا. والخيار لك. فما رأيك؟ ما الجواب الذي تريدني أن أبلغه به؟»

لم أقلْ شيئًا.

«بالتأكيد، ستحتاج إلى وقتٍ للتفكير. لا بأس. يمكننا أن نمنحك وقتًا، فلا أتوقَّع منك أن تقرِّر الآن. كنتُ أودّ أن أقول خذ كلّ ما تحتاج إليه من وقت، ولكنْ للأسف لا يمكنني ذلك. سأقول لك شيئًا يا سيِّد أوكادا. سأُقدِّم لك رأيي الشخصيّ. العروض السخيَّة مثل هذا العرض لا تظلّ على الطاولة إلى الأبد. فقد تشيحُ بنظرك عنها لحظةً واحدة، ثم لا تجدها حين تنظر مرَّةً أخرى. قد تتبخَّر، مثل الغبش فوق النوافذ. لذا، فكِّر في الأمر جيِّدًا، بسرعة. فالعرض يستحقّ كما ترى. فهمت قصدي؟»

تنهَّد أوشيكاوا ونظر في ساعته. «أوه، أوه، عليَّ الذهاب. أطلتُ الزيارة مرَّةً أخرى، واستمتعتُ ببيرةٍ أخرى، وكالعادة كنتُ أنا الذي أتحدَّث طوال الوقت. سامحني. صدِّقني، لا أحاول أن أبرِّر ما فعلته، لكنَّني حين آتي إلى هنا يبدو أنَّني أشعر بالارتياح. لديك بيتٌ مريح يا سيِّد أوكادا. هذا بالتأكيد هو السبب».

نهض أوشيكاوا وحمل كأسه وزجاجة البيرة والمنفضة إلى مغسلة المطبخ.

«سوف أتواصل معك قريبًا سيِّد أوكادا، وسوف أرتِّب أمر حديثك مع السيِّدة كوميكو. أعدك بذلك. توقَّع ذلك قريبًا».

*

فلمَّا غادر أوشيكاوا، فتحتُ النوافذ كي يخرج دخان السجائر، ثم شربتُ كأس ماء. جلستُ على الأريكة ووضعتُ القطّ ماكريل في حجري، ثم تخيَّلت أوشيكاوا يُزيل قناعه بعد أن أغلق الباب، ثم يطير إلى نوبورو واتايا. بئس الخيال!

17
غرفة القياس

*

وريث

لم تكن جوزة الطيب تعرف شيئًا عن النساء اللائي يأتينَ إليها، فلا هنَّ يُقدِّمن معلوماتٍ عن أنفسهنَّ ولا هي تسأل. أمَّا الأسماء التي يستخدمنَها لحجز المواعيد فكانت بطبيعة الحال أسماءً وهميَّة. مع ذلك، فقد كانت لهؤلاء النساء رائحةٌ خاصَّة، تلك الرائحة التي تنتج عن امتزاج المال بالسلطة. صحيح أنَّ النساء لم يكنَّ يُبرزن ذلك أو يستعرضن به، لكنَّ جوزة الطيب استطاعت أن تستنتج من الملبس والمظهر أنَّهنَّ من الطبقة المَوسرة.

استأجرتْ جوزة الطيب شقَّةً في بنايةٍ تجاريَّة في أكاساكا،

وهي بناية لا تلفت الأنظار، في مكانٍ لا يلفت الأنظار، وذلك احترامًا لخصوصيَّة عميلاتها اللائي كنَّ يحرصنَ أشدّ الحرص على ذلك. وبعد تفكيرٍ مليّ، قرَّرتْ أن تجعل الشقَّة مشغلًا لتصميم الأزياء. كانت في الواقع قد عملتْ مصمِّمة أزياء، ولذلك لن يرتاب أحدٌ لو رأى عددًا كبيرًا من النساء يزرن شقَّتها. كانت جميع عميلاتها في الثلاثينيَّات إلى الخمسينيَّات من العمر. هكذا، ملأتْ جوزة الطيب الشقَّة بالملابس وصور التصاميم ومجلَّات الأزياء، وأحضرت الأدوات والمانيكانات وما يحتاج إليه مَن يُصمِّم الأزياء، بل بلغ بها الأمر حدَّ تصميم بعض الأزياء كي تُضفي على المكان جوًّا من المصداقيَّة. واختارت الغرفة الصغيرة كي تكون غرفةَ قياس. وبذلك، تحضُر العميلات إلى تلك الغرفة فتتولّى جوزة الطيب عمليَّة «ضبط» المقاس على الأريكة.

أمَّا المسؤولة عن قائمة العميلات فهي زوجة صاحب محلّ ملابس معروف. وقد انتقت المرأةُ عددًا محدودًا جدًّا من النساء الموثوقات من بين دائرة معارفها الواسعة، إذْ كانت على قناعةٍ بوجوب أن يبقى الأمر أشبه بالنادي الخاصّ، وذلك لتجنُّب أيّ احتمالٍ للفضيحة لو تسرَّب الخبر. كانت تُحذِّر النساء المختارات من قول أيِّ شيءٍ يتعلَّق بـ «الضبط» لأيّ أحد. وفي الواقع، لم تكن هذه النساء كتومات فحسب، بل كنَّ يعلمن تمام العلم أنَّ الإخلاف بالوعد سيترتَّب عليه طردهنَّ من عضويَّة هذا النادي الخاصّ طردًا نهائيًّا.

كانت العميلة تتَّصل هاتفيًّا لتحجز موعدًا لـ «الضبط»، فتحضُر في وقتٍ محدَّد لها وهي واثقةٌ من أنَّها لن تصادف عميلةً أخرى

في المكان، وأنَّ خصوصيَّتها مضمونة. تُدفع الأتعاب نقدًا في المكتب، أمَّا قيمتها فتحدِّدها زوجةُ صاحب محلّ الملابس، بأرقامٍ أعلى بكثيرٍ ممَّا قد تتخيَّله جوزةُ الطيب، على أنَّ هذا لم يسبِّبْ أيّ مشكلةٍ قطّ. فما من امرأة تُجرى لها عمليَّة «الضبط» إلَّا وتتَّصل مرَّةً أخرى لتحجز موعدًا آخر، من دون استثناء. كانت زوجة صاحب محلّ الملابس تقول لجوزة الطيب: «لا تشغلي نفسك بمسألة المال، فكلَّما دفعنَ أكثر ازددنَ طمأنينة». وهكذا، كانت جوزة الطيب تذهب إلى «مكتبها» ثلاثة أيَّامٍ في الأسبوع، وتؤدِّي عمليِّة «الضبط» مرَّةً واحدة في اليوم. كانَ هذا هو الحدّ الذي وضعتْه لنفسها.

فلمَّا بلغ قرفة السادسةَ عشرة أصبح مساعدًا لوالدته. في ذلك الوقت، صَعُب على جوزة الطيب أن تؤدِّي جميع المهامّ المكتبيَّة بنفسها، لكنَّها كانت متردِّدةً في توظيف شخصٍ غريب. وبعد تفكيرٍ طويل، طلبتْ من ابنها أن يساعدها في عملها، فوافق من فوره من دون حتى أنْ يسأل عن طبيعة عملها. كان يذهب إلى المكتب كلّ صباحٍ عند العاشرة صباحًا بسيَّارة أجرة (فلم يكن يَحتمل أن يكون مع آخرين في الباص أو القطار)، يُنظِّف المكتب وينفض الغبار ويُعيد كلّ شيءٍ إلى مكانه، ويملأ المزهريَّات، ويعدّ القهوة، ويشتري ما ينقص، ويضع أشرطة الموسيقى الكلاسيكيَّة بصوتٍ خفيض، ويتولَّى أمور المحاسبة.

وما لبث أن أصبح قرفة شخصًا لا يمكن الاستغناء عنه في المكتب. وسواء أكانت هناك مواعيد أم لا، كان يلبس بذلته وربطة عنقه ويجلس إلى طاولته في غرفة الانتظار. لم تشتكِ أيُّ

عميلةٍ من أنَّه لا يتكلَّم. لم يتضايقنَ من الأمر، بل كنَّ منشرحات. كان هو الذي يتلقَّى المكالمات حين يحجزنَ المواعيد. يخبرنه اليوم والوقت الذي يردنَه، فيجيبهنَّ بالنقر على طاولته. النقرةُ الواحدة تعني «لا»، والنقرتان «نعم». ولقد أحبَّت النساء هذا الإيجاز. كان قرفةُ شابًّا ذا ملامح كلاسيكيَّة، لدرجة أنَّه يمكن تحويله إلى تمثالٍ وعرضه في المتحف. ولم يكن قرفة يفقد سحر صورته حين يفتح فمه، على عكس الكثير من الشباب الوسيمين. كانت العميلات يتحدَّثن إليه في دخولهنَّ وخروجهنَّ، فيُجيب بابتسامةٍ وإيماءة. هذه «الحوارات» كانت تبعث الراحة فيهنَّ، وتخلِّصهنَّ من التوتُّر الذي جلبنَه معهنَّ من العالم الخارجيّ، أو تقلِّل من الحَرَج الذي يشعرنَ به بعد «الضبط». حتى قرفة نفسه الذي لم يكن يحبّ التواصل مع الغرباء لم ينزعج من التعامل مع هؤلاء النساء.

فلمَّا بلغ قرفةُ الثامنةَ عشرة استخرج رخصة القيادة. وجدتْ جوزة الطيب معلِّم قيادةٍ لطيفًا كي يُدرِّب قرفة على القيادة، لكنَّ قرفة كان قد التهم كلّ ما وقعتْ يداه عليه من كتبٍ عن القيادة فتشرَّب كلّ تفاصيلها. أمَّا المهارات العمليَّة التي لا يمكن الحصول عليها من الكتب فقد أتقنها في غضون أيَّامٍ قليلة. وفور حصوله على الرخصة راح يقلِّب في كتب السيَّارات المستعملة، واشترى لنفسه سيَّارة «بورشه كاريرا»، ودفع مقدَّمًا لها كلّ المال الذي ادَّخره من عمله عند والدته (إذ لم يكن مضطرًّا إلى إنفاقه على معيشته). أصلح المحرِّك، واشترى قطع غيارٍ وإطاراتٍ جديدة، فأوصل السيَّارة إلى مستوى سيَّارات السباق. مع ذلك،

فكلّ ما كان يفعله بها هو أن يقودها كلّ يومٍ في ذلك الطريق القصير المزدحم من منزله في هيرو إلى المكتَب في أكاساكا، فنادرًا ما يتجاوز سرعة الخمسة وستِّين كيلومترًا في الساعة. وهذا ما جعل سيَّارته واحدةً من أندر «الپورشات» في العالم.

*

ظلَّت جوزة الطيب تمارس عملها أكثر من سبع سنوات، فقدتْ خلالها ثلاث عميلات فقط. أمَّا الأولى، فقد قضت نحبها في حادث سيَّارة؛ وأمَّا الثانية، فطُردت «طردًا نهائيًّا» لأنَّها خالفت القواعد؛ وأمَّا الثالثة فسافرت «بعيدًا» لغرضٍ يتعلَّق بوظيفة زوجها. جاءت أربع عميلات بدلًا منهنَّ، وجميعهنَّ من ذلك النوع نفسه. نساءٌ في منتصف العمر يرتدين ثيابًا غالية، ويستخدمنَ أسماءً مستعارة. العمل نفسه لم يتغيَّر في تلك السنوات السبع، فقد ظلَّت جوزة الطيب تؤدِّي «الضبط» للعميلات، فيما ينظِّف قرفة المكتب ويتولَّى المحاسبة، ويقود سيَّارته الپورشه. لم يشهد العمل تطوُّرًا أو تراجعًا، سوى أنَّ العمر كان يتقدَّم. كانت جوزة الطيب تقترب من الخمسين، فيما أتمّ قرفة العشرين. كان هذا مستمتِعًا بعمله، أمَّا جوزة الطيب فقد بدأ يسيطر عليها حسٌّ من العجز، شيئًا فشيئًا. كانت على مرَّ السنوات «تضبط» ذلك «الشيء» الذي تحمله كلُّ عميلةٍ في داخلها. لم تفهم قطّ طبيعة ما تفعله لهنَّ، غير أنَّها ظلَّت تبذل قَصارى جهدها. لكنَّ تلك «الأشياء» لم تُعالَج، ولم تستطع جوزة الطيب أن تُزيلها. فكلّ ما كان في وسع قواها العلاجيَّة هو أن تقلِّل من نشاطها بعض الوقت، ثم يعود كلّ «شيء» مرَّةً أخرى

خلال أيَّام قليلة (من ثلاثة أيَّام إلى عشرة في الغالب). كان «الشيء» يتقدَّم ويتراجع، لكنَّه بالتأكيد يكبر بمرور الوقت، كخلايا السرطان. وقد كانت جوزة الطيب تحسّ بتلك «الأشياء» تكبر في يديْها، وتقول لها إنَّما تضيِّعين وقتك، فسوف ننتصر في النهاية مهما فعلتِ. وكانت على حقّ. لم يكن لجوزة الطيب أملٌ في الانتصار. كل ما كانت تستطيع فعله هو أن تُبطئ تقدُّمها، لكي تمنح عميلاتها بضعة أيَّام من السكينة والراحة.

كانت جوزة الطيب تسأل نفسها كثيرًا: «هل الأمر متعلِّق بهؤلاء النساء فقط؟ أم أنَّ نساء العالم كلّهنَّ يحملن هذا «الشيء» في داخلهنَّ؟ ولماذا كلّ من تأتي إليَّ في منتصف عمرها؟ وهل لديَّ أنا «شيء» في داخلي أيضًا؟

لكنَّها لم تكن تريد أن تعرف الأجوبة فعلًا. كلّ ما كانت واثقةً منه هو أنَّ الظروف تضافرت كي تحصرها في غرفة القياس. كان الناس في حاجةٍ إليها، وطالما استمرَّت حاجتُهم إليها فلن تستطيع الفكاك. في بعض الأحيان، كان يبلغ بها حسّ العجز حدًّا عميقًا مروِّعًا، فتشعر كما لو أنَّها صَدفةٌ فارغة. كانت تَبلى، وتختفي في عَدَمٍ مظلم. وحين يجتاحها هذا الإحساس تفتح قلبها لابنها الصامت، فيومئ لها وهو يستمع باهتمامٍ إلى كلمات أمّه. لم يقل شيئًا، لكنَّ مجرَّد الحديث معه كان يُضفي عليها شيئًا من السكينة، فتشعر أنَّها ليست وحيدةً تمامًا، ولا عاجزة تمامًا. قالت في نفسها ما أغرب هذا، أعالج الناس وقرفة يعالجني. فمن يا تُرى يعالج قرفة؟ أم هو كالثقب الأسود يبتلع الألم والوحدة بنفسه؟ ذات مرَّة (لم تتكرَّر) حاولتْ أن تبحث في داخله،

فوضعت يدها على جبينه كما تفعل مع عميلاتها حين تُجري لهنَّ «ضبطًا»، لكنَّها لم تشعر بشيء.

ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى شعرت جوزة الطيب بأنَّها تريد التوقُّف عن العمل. «لم أعد أملك الكثير من القوَّة. فإنْ واصلتُ هكذا سأنطفئ تمامًا، ولن يبقى عندي شيءٌ على الإطلاق». لكنَّ الناس ظلُّوا في حاجةٍ شديدة إلى «الضبط». لم تستطع أن تتخلَّى عن عميلاتها من أجل راحتها.

غير أنَّ جوزة الطيب وجدتْ وريثًا لها في صيف ذلك العام. عرفتْه منذ اللحظة التي رأت فيها العلامة على خدِّ الشابّ الذي كان جالسًا أمام المبنى في شنجوكو.

18
ضفدعةٌ حمقاء
(مايو كاساهارا تتحدَّث: 4)

مرحبًا مرَّةً أخرى سيِّد طائر الزنبرك:

الساعة الآن الثانية والنصف صباحًا. زميلاتي كلُّهنَّ نائمات، لكنَّني لا أستطيع النوم. وها أنا مستيقظةٌ أكتب إليك. بصراحة، ليالي الأرق بالنسبة إليَّ غريبة، كغرابة أن يرتدي مصارعُ السومو قبّعة بيريه ويبدو أنيقًا. في العادة، أغرق في النوم مباشرةً في موعد نومي، وأصحو مباشرة في موعد استيقاظي. لديَّ منبِّه، لكنَّني لا أكاد أستخدمه أبدًا. مع ذلك، تحدث لي حالات الأرق هذه على الرَّغم من ندرتها، فأصحو في منتصف الليل وقد طار النوم من عينيَّ.

قرَّرتُ أن أجلس إلى طاولتي وأكتب إليك هذه الرسالة إلى

أنْ أشعر بالنعاس، فلا أدري ما إذا ستكون الرسالة طويلةً أم قصيرة. الحقّ أنّي لا أعرف هذا أبدًا في أيِّ مرَّةٍ أكتب فيها إليك، حتى أصل إلى النهاية.

عمومًا، يبدو لي أنَّ الطريقة التي يحيا بها أغلب الناس (وأتصوَّر أنَّ هنالك استثناءات)، هي أنَّهم يعتقدون أنَّ العالم أو الحياة (أو أيًّا ما كانت) هي المكان الذي يكون فيه كلّ شيء (أو يُفترض أن يكون) منطقيًّا ومتَّسقًا. ينتابني هذا الشعور حين أتحدَّث إلى زميلاتي هنا. فمثلًا، حين يحدث شيءٌ ما، سواء أكان حدثًا كبيرًا يؤثِّر في المجتمع كلّه أم شيئًا شخصيًّا صغيرًا، يتحدَّث الناس عنه بقولهم «أوه، بالطبع. لقد حدث هذا بسبب كذا وكذا». ومعظم الناس يوافقون على ذلك ويقولون «طبعًا، طبعًا». أمَّا أنا، فلا أفهم. «بما أنَّ ألِف كان هكذا، فقد حدث باء». بصراحة، هذا لا يفسِّر أيّ شيء. الأمر يشبه مزيج عصيدة الرزّ حين تضعها في طاسةٍ في الميكروويف، ثم تضغط الزرّ، وبعدها يرنّ الجرس فتزيل الغطاء وتجد عصيدةَ الرزّ. ولكن، ما الذي يحدث في المسافة الزمنيَّة بين ضغطة الزرّ ورنين الجرس؟ لا يمكنك أن تعرف ما يحدث تحت الغطاء. ربَّما تتحوَّل هذه العصيدة أوَّلًا إلى معكرونة بالجبن في الظلام حين لا يراها أحد، ثم تعود لتصبح عصيدة رزّ. نحن نعتقد أنَّه من الطبيعيّ أن نجد عصيدة الرزّ بعد أن وضعنا المزيج في الميكروويف وسمعنا الجرس، لكنَّ هذا بالنسبة إليَّ مجرَّد افتراض. الحقيقةُ أنَّني سأشعر بشيءٍ من الارتياح لو يحدث من فترةٍ إلى أخرى أن نضع مزيج العصيدة في الميكروويف ويرنّ الجرس فنفتح الغطاء ونجد

معكرونة بالجبن. طبعًا سأُصدم، ولكنْ.. لا أدري.. أعتقد أنِّي سأشعر بالارتياح أيضًا. أو على الأقلِّ لن أنزعج كثيرًا، لأنَّ هذا سيبدو أكثر واقعيَّةً بكثير.

لماذا «أكثر واقعيَّة»؟ سيكون من الصعب جدًّا جدًّا جدًّا أن أشرح هذا شرحًا منطقيًّا، بالكلمات. لكنَّك لو تتبَّعتَ الطريق الذي سارت فيه حياتي على سبيل المثال، وفكَّرت فيه مليًّا، فسوف ترى أنَّه لا يوجد بها تقريبًا شيءٌ واحد يمكنك أن تصفه بأنَّه «متَّسق». فأوَّلًا، كيف حدث أن وُلدتْ ابنةٌ مثلي لوالديْن مُضجِرَيْن كضفادع الأشجار؟ من الغريب أن أقول شيئًا كهذا، أعرف، لكنَّني أكثر جدِّيَّةً بكثيرٍ منهما. لا أقصد أن أتباهى، لكنَّها الحقيقة. لا أقول إنَّني أفضل منهما، لكنَّني إنسانةٌ أكثر جدِّيَّة. لو قابلتهما لعرفتَ ما أقصده يا سيِّد طائر الزنبرك. يظنّ الناس أنَّ العالم متَّسقٌ، ويمكنهم تفسيره مثل مخطَّط بيتٍ جديد في مجمَّعٍ سكنيّ راقٍ، فإنْ أنجزتَ كلّ شيءٍ بطريقةٍ منطقيَّةٍ متَّسقة، ستجدُ كلّ شيءٍ في مكانه في نهاية الأمر. وهذا هو السبب في أنَّهم يستاؤون ويحزنون ويغضبون حين لا أكون كذلك.

لماذا وُلدت في هذا العالم لهاتيْن الدميتيْن الحمقاويْن؟ ولماذا لم ينتهِ بي المطاف أنا أيضًا لأكون ضفدعة أشجارٍ حمقاء طالما أنَّني ابنتهما؟ بقيتُ طوال حياتي أتساءل وأتساءل عن هذا الأمر، لكنَّني لا أملك تفسيرًا. أشعر بأنَّه لا بدَّ من وجود سبب، لكنَّني لا أستطيع العثور عليه. وهناك آلاف الأشياء الأخرى التي لا يوجد لها تفسيرٌ منطقيّ. خذ مثلًا «لماذا يكرهني الجميع؟». لم أفعل سوءًا. كنتُ أحيا حياتي بالطريقة المعتادة فحسب.

وفجأةً، لاحظتُ ذات يوم أنَّه لا يوجد من يحبّني. لستُ أفهم.

شيء منفصلٌ يقود إلى آخر منفصل، وهكذا حدثتْ أشياءُ كثيرة. مثلًا، التقيتُ الولد صاحب الدرَّاجة الناريَّة ووقع لنا ذلك الحادث الغبيّ. ووفقًا لما أتذكَّره (أو للكيفيَّة التي تصطفّ بها الأشياء في رأسي) لا يوجد «حدث هذا بتلك الطريقة، فمن الطبيعيّ أن يحدث ذلك بتلك الطريقة». كلَّما رنَّ الجرس ونزعتُ الغطاء وجدتُ شيئًا لم أره من قبل.

لا أعرف ما يحدث لي، ثم أقرِّر ألَّا أذهب إلى المدرسة، وأظلّ في البيت. في ذلك الوقت، ألتقيك يا سيِّد طائر الزنبرك. لا، قبل ذلك أجري استطلاعاتٍ لشركة الباروكات. ولكنْ لماذا شركة باروكات؟ هذا لغزٌ آخر. لا أذكر. لعلِّي خبطتُ رأسي في الحادث، فتحرَّك دماغي من مكانه. أو لعلَّها الصدمة النفسيَّة التي جعلتْني أخفي الذكريات كلّها، كما يخبِّئ السنجاب بندقةً ثم لا يذكر أين دفنها. (هل رأيت هذا من قبل، سيِّد طائر الزنبرك؟ أنا رأيته، حين كنت صغيرة. قلت في نفسي إنَّ هذا السنجاب الغبيّ مضحك جدًّا. ولم يخطر في بالي قطّ أنَّني سأصبح مثله).

عمومًا إذن، بدأتُ أُجري الاستطلاعات لشركة الباروكات، وهذا ما منحني ذلك التعلُّق بالباروكات كأنَّها قَدَري. أرأيتَ غياب الارتباط! لماذا الباروكات وليس الجوارب الطويلة أو كرات الرزّ؟ لو كانت جوارب طويلة أو كرات رزٍّ فلم أكن لأكدح هنا في مصنع الباروكات هكذا. صحيح؟ ولو لم أتسبَّب في ذلك الحادث الغبيّ، ربَّما لما التقيْتك في الزقاق في ذلك الصيف، ولو لم تلتقيني ربَّما لم تكن لتعرف أبدًا عن بئر مياواكي، ولما

ظهرتْ تلك العلامةُ على وجهك، ولما دخلتَ في معمعة تلك الأشياء الغريبة. . . ربَّما. حين تخطر لي هذه الأفكار لا أملك إلَّا أن أسأل نفسي: «أين يوجد الاتِّساق المنطقيّ في هذا العالم؟»

لا أدري. . ربَّما للعالم صنفان من الناس، فصنفٌ يبدو له العالم منطقيًّا، موضعًا لعصيدة الرزّ؛ أمَّا الصنف الآخر، فالعالم بالنسبة إليه معكرونة بالجبن، قد تأتي وقد لا تأتي. أراهن بأنَّه لو وَضع ضفدعا الأشجار (أي والداي) مزيج عصيدة الرزّ في الميكروويف ووجدا معكرونةً بالجبن فسوف يقولان: «أوه، لا بدَّ من أنَّنا وضعنا مزيج المعكرونة بالجبن بالخطأ»، أو سيأخذان المعكرونة ويحاولان إقناع نفسيْهما بالقول: «إنَّما هي تبدو معكرونة بالجبن لكنَّها عصيدة رزّ». ولو حاولتُ أن أكون لطيفةً وأشرح لهما أنَّه يحدث أحيانًا أن يضع المرء مزيج العصيدة فيحصل على معكرونة بالجبن، فلن يصدِّقاني أبدًا. لعلَّهما سيغضبان. هل تفهم ما أحاول أن أقوله يا سيِّد طائر الزنبرك؟

هل تذكر حين قبَّلتُ العلامة على خدِّك؟ كنتُ أُفكِّر في ذلك منذ أن ودَّعتك في الصيف الماضي، أُفكِّر فيه مرارًا وتكرارًا، مثل قطَّةٍ ترقب انهمار المطر، وأتساءل ما الذي دعاني إلى ذلك؟ بصراحة، لا أظنّ أنَّ لديَّ تفسيرًا. في وقتٍ ما من المستقبل، ربَّما بعد عشر سنوات أو عشرين سنة، إنْ أُتيحت لنا فرصة الحديث عن الموضوع، وأصبحتُ أنا أكثر نضجًا وذكاء، فقد أستطيع أن أُخبرك معنى ما حدث. أمَّا الآن، سامحني، لا أظنّ أنَّني أملك هذه القدرة، أو العقل إن شئنا الدقَّة.

مع ذلك، فهناك شيءٌ واحد أستطيع أنْ أقوله لك بصراحة يا سيِّد طائر الزنبرك، وهو أنَّني أحبّك أكثر من دون العلامة التي على وجهك. لا، لحظة، هذا مجحف بحقِّك. فأنت لم تضع العلامة. ربَّما عليَّ القول إنَّني أحبّك حتى من دون العلامة. هل يكفي هذا؟ لا، فهو لا يفسِّر أيّ شيء.

ما أراه يا سيِّد طائر الزنبرك هو أنَّ تلك العلامة قد تمنحك شيئًا مهمًّا، لكنَّها سوف تسلبك شيئًا في المقابل. فإن ظلَّ الجميع يأخذ منك الأشياء هكذا، سوف تُنهَك إلى أنْ لا يبقى فيك شيء. لذلك.. لا أدري.. أعتقد أنَّ ما أريد قوله فعلًا هو أنَّ الأمر لا يشكِّل أيّ فرقٍ لديَّ لو لم يكن لديك ذلك الشيء.

يخطر لي أحيانًا أنَّ سبب وجودي هنا وعملي في صنع الباروكات هكذا كلّ يوم هو أنَّني قبَّلتُ العلامة التي على وجهك. فلأنَّني فعلتُ ذلك قرَّرتُ أن أبتعد عنك قدر الإمكان. أعلم أنِّي قد أجرحك بهذا الكلام، لكنِّي أظنّ أنَّها الحقيقة. مع ذلك، فما حدث كان السبب في أنَّني استطعتُ أخيرًا العثور على المكان الذي أنتمي إليه. بمعنى من المعاني إذن، أنا ممتنَّةٌ لك يا سيِّد طائر الزنبرك. ولكن لا أتصوَّر أنَّه شعور جميل أنْ يكون هناك شخصٌ ممتنّ لك «بمعنى من المعاني»، أليس كذلك؟

وهكذا، أشعر الآن بأنَّني قلتُ كلّ ما ينبغي لي قوله لك يا سيِّد طائر الزنبرك. الساعة تقترب من الرابعة صباحًا، وعليَّ النهوض في السابعة والنصف. ربَّما أستطيع النوم ثلاث ساعات ونصف، وأكثر قليلًا. أرجو أن أنام فورًا. عمومًا، سأُنهي هذه الرسالة الآن. وداعًا سيِّد طائر الزنبرك. دعواتك لي كي أنام.

19
المتاهة الخفيَّة

*

بابان من أبواب قرفة

قال أوشيكاوا: «يوجد حاسوب في ذلك البيت، أليس كذلك سيِّد أوكادا؟ لكنِّي لا أعرف من يستخدمه».

كانت الساعة التاسعة مساءً، وكنت جالسًا إلى طاولة المطبخ وسمَّاعة الهاتف على أذني.

فاكتفيتُ بالقول: «نعم يوجد حاسوب».

تنشَّق أوشيكاوا، وقال: «أعرف هذا من تلصُّصي المعتاد. بطبيعة الحال، لا أقصد التلميح بشيءٍ عن وجود حاسوب لديك. في هذه الأيَّام، كلّ من يعمل عَمَلًا عقليًّا لا بدَّ من أن يكون لديه حاسوب. لا غرابة في الأمر. ولكنْ كي لا أُطيل عليك، خطرتْ

لي فكرةُ أنَّه يمكنني التواصل معك عبر الحاسوب. لذلك بحثتُ في الأمر، لكنَّ المسألة كانت أكثر تعقيدًا بكثيرٍ ممَّا تخيَّلت. فالاتِّصال بالرقم الهاتفيّ لا يكفي لفتح التواصل عبر الحاسوب، كما أنَّه ينبغي لك الحصول على كلمة مرورٍ خاصَّة. من دون كلمة المرور هذه، لا يُفتح الباب. هذا هو الذي عوَّقني.

«لا تسئ الظنّ بي سيِّد أوكادا. لم أكن أحاول الدخول إلى حاسوبك من أجل التلصُّص. لم يخطر هذا ببالي. ناهيك عن أنَّ إجراءات الحماية التي لديك لا تسمح لي بأخذ أيّ بياناتٍ حتى لو أردت. لا، لم يكن هذا مرادي. كلّ ما في الأمر أنَّني أحاول إجراء محادثةٍ بينك وبين السيِّدة كوميكو. كنتُ قد وعدتك بذلك، ألا تذكر؟ وعدتك بأنَّني سأفعل ما في وسعي لأساعدكما على التحدُّث مباشرةً. مضى وقتٌ طويل منذ أن تَرَكَتْ بيتك، وليس من الحكمة أن تُترك الأشياء عالقةً هكذا. كما أنَّ حياتك الآن ربَّما ستزداد غرابة. من الأفضل للناس دائمًا أنْ يتحدَّثوا وجهًا لوجه بكلِّ صراحة، وإلَّا فمن الطبيعيّ أن يقع سوء الفهم بينهم، وسوء الفهم يورث الاستياء والنكد... عمومًا، بهذه الطريقة إذن حاولتُ أن أستميل السيِّدة كوميكو. فعلتُ كلّ ما في وسعي.

«لكنِّي لم أنجح في إقناعها. أصرِّت على أن لا تتحدَّث إليك مباشرةً، ولا حتى بالهاتف (لم يكن اللقاء وجهًا لوجه واردًا). **ولا حتى بالهاتف!** كنتُ على وشك أنْ أستسلم. جرَّبتُ كلّ الطرق المعروفة، لكنَّها كانت قد حسمت أمرها. مثل الصخر».

سكتَ أوشيكاوا في انتظار ردٍّ منِّي، لكنِّي لم أقل شيئًا.

«مع ذلك، لم يكن بإمكاني أن أقبل ردَّها وأنسحب. سيعاقبني الدكتور واتايا لو بدأتُ أتصرَّف هكذا. فإنْ كان الشخص الآخر صخرةً أو جدارًا، لا بدَّ من أن أجد مساحةً صغيرة للتسوية. هذه وظيفتنا، أن نجد تلك المساحة. إنْ رفضَ الشخص أن يبيع لك الثلَّاجة، لا بدَّ من أن تقنعه بأنْ يبيع لك بعض الثلج. هكذا أعملتُ فكري لأجد طريقةً لحلٍّ المشكلة. خذها منِّي يا سيِّد أوكادا، هذا ما يجعلنا بشرًا، أن نأتي بألف طريقةٍ وطريقة مختلفة. لذلك، قفزتْ فكرةٌ في عقلي المغبَّش فجأةً، مثل نجمةٍ تلتمع عبر فجوةٍ في السحاب. قلت لنفسي: «وجدتها، لم لا نجري محادثةً على الحاسوب؟». فهمتَ قصدي؟ أيْ بالكتابة على الشاشة. أظنّ أنَّك تعرف ذلك، صحيح سيِّد أوكادا؟»

كنتُ قد استخدمتُ حاسوبًا أثناء عملي في شركة المحاماة، بحثًا عن سوابق قانونيَّة أو بيانات خاصَّة للعملاء، أو تواصلًا عبر البريد الإلكتروني. كوميكو أيضًا كانت تستخدم الحاسوب في عملها، فمجلَّة الغذاء الصحِّيّ التي كانت تُحرِّرها، لها ملفَّات إلكترونيَّة متعلِّقة بالوصفات والتحليلات الغذائيَّة.

تابع أوشيكاوا: «هذه الطريقة لن تنجح على أيِّ حاسوبٍ قديم، لكنَّ استخدام حاسوبك وحاسوبنا سيمكِّنكما من التواصل بوتيرةٍ سريعة. تقول السيِّدة كوميكو إنَّها مستعدَّة للتحدُّث إليك بالطريقة هذه. وهذا أكثر ما استطعت أن أُقنعها به. تبادل الرسائل هكذا سيكون **تقريبًا** كالتحدُّث وجهًا لوجه. وهذه هي مساحة التسوية التي استطعت الوصول إليها. ما رأيك؟ ربَّما لا تجد

نفسك متحمِّسًا جدًّا لهذه الفكرة، لكنَّني أعملت فكري من أجلها. صدِّقني يا سيِّد أوكادا، من المتعب جدًّا أن تُفكِّر جاهدًا بعقلٍ لا تمتلكه أساسًا!»

نقلتُ السمَّاعة إلى يدي اليسرى.

«ألو؟ سيِّد أوكادا؟ هل تسمعني؟»

«أسمعك».

«طيِّب إذن، ما أحتاجه منك هو كلمة المرور، كي أستطيع فتح المحادثة بينك وبين السيِّدة كوميكو. ما رأيك؟»

«الأمر ليس بهذه السهولة».

«صحيح؟»

«أوَّلًا، كيف لي أن أتأكَّد من أنَّ الشخص الذي يكلِّمني هو كوميكو؟ فأنتَ حين تتحدَّث إلى شخصٍ عبر الحاسوب لا ترى وجهه ولا تسمع صوته. قد يجلس أحدٌ إلى الحاسوب يكتب لي ويدَّعي أنَّه كوميكو».

قال أوشيكاوا بنبرة إعجاب: «نعم، فهمتك. لم أُفكِّر في هذا الأمر، لكنَّني متأكِّدٌ من أنَّنا سنجد حلًّا. لا أقصد أن أجاملك، لكنِّي معجبٌ بنظرتك إلى الأشياء بشيءٍ من التشكُّك. «أنا أشكّ، إذن أنا موجود». طيِّب، ما رأيك أن تبدأ المحادثة بطرح سؤالٍ لا أحد يعرف إجابته إلَّا كوميكو؟ فإنْ جاءك الجواب الصحيح ستكون كوميكو بالتأكيد. عشتما معًا عدَّة سنوات زوجًا وزوجة، وهناك بالتأكيد بضعة أشياء لا يعلمها غيركما».

كان كلامه مقنعًا. فقلت: «حلّ جيِّد. لكنِّي لا أعرف كلمة

المرور. لم أستخدم ذلك الجهاز قطّ».

*

كانت جوزة الطيب قد أخبرتني أنَّ قرفة قد أجرى عمليَّة تعديلٍ وتخصيص لكلِّ ذرَّةٍ من نظام الحاسوب. فقد أعدَّ قاعدة بياناته وطبَّق عليها إجراءات حمايةٍ خارجيَّة برمزٍ سرِّيٍّ وأجهزةٍ متطوِّرة. وهكذا، كان قرفةُ الحاكم المطلق على هذه المتاهة الخفيَّة ذات الأبعاد الثلاثة. فقد كان يعرف كلّ ممرٌّ من ممرَّاتها المتشابكة، ويستطيع القفز من ممرٍّ إلى آخر بضغطة واحدة. أمَّا الغزاة غير المطَّلعين (أيّ شخص آخر غير قرفة) فقد يستغرقهم الأمر شهورًا طويلة كي يتلمَّسوا طريقهم في المتاهة بين أجهزة الإنذار والمصائد ويصلوا إلى البيانات المهمَّة. والحاسوب الموجود في المسكن ليس كبيرًا في حجمه، بل يُشبه النوع الموجود في مكتب أكاساكا، لكنَّ كليْهما مربوط بالحاسوب الرئيس الموجود في بيت جوزة الطيب. وبكلِّ تأكيد، وضعَ قرفةُ في هذا الحاسوب الرئيس بيانات عميلاته وملفَّات الحسابات، لكنَّني أظنّ أنَّه يحتوي على أكثر من الأسرار المتعلِّقة بعمله مع والدته.

والذي قادني إلى هذا الاعتقاد ما رأيتُه من تعلُّق قرفة بحاسوبه في المسكن. كان في العادة يغلق على نفسه في مكتبه الصغير، لكنَّه في بعض الأحيان يترك الباب مواربًا، فأراه وهو يعمل (مع حسٍّ بالذنب طبعًا لأنَّني أنتهك خصوصيَّته). كان هو وحاسوبه يبدوان وكأنَّهما يعملان في انسجامٍ شبه إيروتيكيّ. وبعد أن يضغط بضع ضغطات على لوحة المفاتيح، ينظر إلى الشاشة،

إمَّا يزمّ شفتيْه في استياء، أو يلويهما في ابتسامة. كان في بعض الأحيان يبدو متعمِّقًا في أفكاره وهو ينتقل من مفتاحٍ إلى آخر إلى آخر، لكنَّه في أحيانٍ أخرى كان يحرِّك أصابعه بنشاط، مثل عازف پيانو يحاول أن يعزف مقطوعةً لفرانز لِيست. وبينما ينغمس في حوارٍ صامتٍ مع حاسوبه، كان يبدو وكأنَّه ينظر من خلال الشاشة إلى عالمٍ آخر له حميميَّةٌ خاصَّة. لم أملك إلَّا أن أشعر بأنَّ الواقع بالنسبة إليه لا يكمن في هذا العالم الدنيويّ، بل في متاهته الخفيَّة. ربَّما كان لقرفة في ذلك العالم صوتٌ واضح رنَّان يتحدَّث فيه بطلاقة، ويضحك، ويصيح عاليًا.

*

سألتُ أوشيكاوا: «ألا يمكن أن أتواصل أنا من الحاسوب مع حاسوبكم؟ بهذه الطريقة لن تحتاج إلى كلمة مرور».

«لا، لن ينفع. قد تصل رسائلك إلينا، لكنَّ رسائلنا لن تصلك. المشكلة إنَّما تكمن في كلمة المرور، افتح يا سمسم. من دونها لا نستطيع أن نفعل شيئًا. لن يُفتح الباب للذئب مهما حاول أن يُغيِّر صوته. قد يَقرع الباب ويقول «مرحبًا، أنا الأرنب صديقكم»، ولكنْ إنْ لم يكن يعرف كلمة المرور فسوف يُطرد من عند الباب. نحن نتحدَّث هنا عن بابٍ لا يُخترق».

أشعل أوشيكاوا عود ثقابٍ لسيجارته. تخيَّلتُ أسنانه الصفراء وفمه المتهدِّل.

«هي كلمةٌ من ثلاثة أحرف أو أرقام. ينبغي لك أن تُدخلها خلال عشر ثوان، وإن أدخلتَ كلمةً خاطئة ثلاث مرَّات يُقفل

النظام، ويرنّ جرس الإنذار. مجازيًا طبعًا، فلا يوجد جرس إنذار، لكنَّ النظام سيسجِّل آثار أقدام الذئب ويعرف أنَّه كان عند الباب. نظامٌ ذكي، أليس كذلك؟ إنْ حاولتَ تخمين الكلمة، فستجد أنَّ هناك احتمالات لانهائيَّة في مزج ستَّةٍ وعشرين حرفًا وعشرة أرقام. لا مفرَّ من معرفة كلمة المرور، فمن دونها لا يمكنك أن تفعل شيئًا».

فكَّرتُ برهةً في كلامه من دون تعليق.

«هل لديك حلٌّ، سيِّد أوكادا؟»

*

في اليوم التالي، وبعد أن خرجت العميلةُ وصعدتْ إلى سيَّارة المرسيدس، دخلتُ مكتب قرفة، وجلستُ إلى الحاسوب، ثم شغَّلته. اكتست الشاشة لونًا أزرق وظهرتْ عليها الرسالة التالية:

يرجى إدخال كلمة المرور خلال عشر ثوان

فأدخلتُ الكلمة التي جهَّزتها في عقلي مسبقًا:

zoo

رنَّ الحاسوب رنَّةً واحدة، وظهرتْ رسالة خطأ على الشاشة:

كلمة المرور غير صحيحة

يرجى إدخال كلمة المرور خلال عشر ثوان

بدأ العدّ التنازليّ، فغيَّرتُ الحروف إلى حروفٍ كبيرة:

ZOO

فظهرتْ رسالةُ الخطأ مرَّةً أخرى:

كلمة المرور غير صحيحة

يُرجى إدخال كلمة المرور خلال عشر ثوان. في حال أدخلتم كلمة مرور غير صحيحة مرَّةً أخرى سوف يُقفل النظام تلقائيًّا.

مرَّةً أخرى بدأ العدّ التنازليّ. هذه المرَّة اخترتُ أن أجعل الحرف الأوَّل فقط كبيرًا. كانت فرصتي الأخيرة:

Zoo

لم تظهر رسالة الخطأ، بل ظهرتْ قائمةٌ فوقَها الرسالةُ التالية:

اختر واحدًا من البرامج التالية

تنفَّستُ الصعداء، وبدأتُ أمرُّ على القائمة الطويلة من البرامج حتى وصلتُ إلى برنامج التواصل، فنقرتُ الفأرة:

اختر واحدا من البرامج التالية

فاخترت «المحادثة»، ونقرتُ الفأرة.

يُرجى إدخال كلمة المرور خلال عشر ثوان

كان هذا مفترَقًا مهمًّا بالنسبة إلى قرفة كي يمنع الدخول إلى حاسوبه. وبما أنَّ المفترق كان مهمًّا، فلا بدَّ من أن تكون كلمة المرور مهمَّةً أيضًا. طبعتُ التالي:

SUB

فظهرتْ رسالةُ الخطأ:

كلمة المرور غير صحيحة

يُرجى إدخال كلمة المرور خلال عشر ثوان.

وبدأ العدّ التنازليّ: 10، 9، 8، . . .

حاولتُ المزج بين الأحرف الكبيرة والصغيرة كما فعلتُ في كلمة المرور الأولى:

Sub[1]

فظهرتْ رسالةٌ على الشاشة:

يُرجى إدخال رقم الهاتف

شبكتُ ذراعيّ فوق صدري ومتَّعتُ ناظريّ بهذه الرسالة. لقد نجحتُ في فتح بابيْن في متاهة قرفة. يكفي هذا الآن. نقرتُ على «خروج» وعدتُ إلى القائمة الرئيسة، ثم اخترتُ «إغلاق»، فظهر لي السؤال التالي:

تسجيل الخطوات في ملفّ العمليَّات؟ نعم/ لا

بناءً على تعليمات أوشيكاوا، اخترتُ «لا» كي أتجنَّب تسجيل الخطوات التي أجريتها لتوِّي.

انطفأ الجهاز بهدوء. مسحتُ العرق عن جبيني. وبعد أن تأكَّدتُ من ترك لوحة المفاتيح والفأرة في المكان الذي وجدتهما فيه، نهضتُ وابتعدتُ عن الحاسوب.

---

(1) الأحرف الأولى من كلمة غوَّاصة باللغة الإنجليزيَّة: «submarine». المترجم).

20
قصَّة جوزة الطيب

استغرق الأمر من جوزة الطيب عدَّة أشهر كي تحكي لي قصَّة حياتها. فقد كانت قصَّةً طويلة، طويلة، ذات تفرُّعات عديدة. ولذلك، فما أسوقه هنا ليس إلَّا خلاصةً مبسَّطة جدًّا (لكنَّها ليس قصيرة بالضرورة). لا يمكنني الادِّعاء بأنَّ هذه الخلاصة تحتوي على جوهر قصَّتها، لكنَّها على الأقلِّ تُقدِّم الصورة العامَّة لأهمّ الأحداث التي وقعت في مفاصل مهمَّة من حياتها.

*

فرَّت جوزة الطيب وأمّها من منشوريا إلى اليابان، لا تملكان شيئًا سوى ما استطاعتا أن تلبساه من مجوهرات. هكذا، سافرتا من ميناء ساسيبو إلى يوكوهاما للإقامة مع عائلة أمّها، إذْ كانت هذه العائلة تمتلك شركة استيرادٍ وتصدير تتعامل غالبًا مع تايوان.

وبعد أن كانت الشركة مزدهرةً قبل الحرب، خسرتْ معظم أعمالها حين فقدتْ اليابان تايوان. تُوفي الأب من مرضٍ في القلب، ثم قُتل الابن الثاني (الذي كان مساعدًا لأبيه) في غارةٍ جوِّيَّة قُبيل انتهاء الحرب. لذلك ترك الابن الأكبر وظيفتَه في التعليم كي يُدير شركة العائلة، غير أنَّ مزاجه لم يتوافق مع التجارة، فلم يستطع أن يعوِّض الخسائر. مع ذلك، كانت العائلة تملك أرضًا وبيتًا مريحًا، لكنَّ المقام فيه لم يكن سعيدًا بالنسبة إلى جوزة الطيب وأمّها؛ فقد كرهتا أن تكونا عالةً على أحدٍ في تلك السنوات العسيرة بعد الحرب. لذلك كانتا تحرصان على أن يكون حضورهما خفيفًا؛ فتأخذان من الوجبات حصَّةً أقلّ من الآخرين، وتصحوان صباحًا قبل الآخرين، وتعملان في البيت أكثر من الآخرين. وكلُّ ملبسٍ لبستْه جوزة الطيب كان من متروك أبناء خؤولتها، من قفَّازاتٍ وجوارب، بل حتى الملابس الداخليَّة. وأمَّا ما تكتب به فكان ما تستطيع أن تجمعه من أعقاب أقلام الرصاص. هكذا، كان مجرَّد الاستيقاظ صباحًا أمرًا مؤلمًا؛ فبداية يومٍ جديد كانت تبعثُ الألم في صدرها.

كانت تريد أن تترك ذلك البيت، وأن تعيش وحدها مع أمّها في مكانٍ لا تشعران فيه بأنَّهما مقيَّدتان، حتى وإنْ أدَّى ذلك إلى أن تعيشا عيشةً فقيرة. لكنَّ أمَّها لم تحاول قطّ أن تترك البيت. تقول جوزة الطيب: «لطالما كانت أمّي امرأةً نشيطةً مبادرة، لكنَّها بعد فرارنا من منشوريا أصبحتْ مثل صَدَفةٍ فارغة. كما لو أنَّ القوَّة على الحياة تبخَّرت من داخلها». لم يعد بإمكانها أنْ تستنهض نفسها لأيِّ شيء، وكلُّ ما كانت تفعله هو أن تحكي

لجوزة الطيب مرَّةً تلو المرَّة عن ماضيها السعيد. وهكذا، كان على جوزة الطيب أن تعثر لنفسها على ما يعينها على الحياة.

لم تكن جوزة الطيب تكره الدراسة، لكنَّها لم تنجذب إلى الموادّ المطروحة في المدرسة الثانويَّة. لم تقتنع قطّ بأنَّه سيفيدها أن تحشر عقلها بعشرات التواريخ أو القواعد اللغويَّة أو المعادلات الهندسيَّة. كانت تريد أن تتعلَّم مهارةً مفيدة، وأن تستقلّ بنفسها في أقرب فرصةٍ ممكنة. لقد كانت اهتماماتها مختلفةً كلّ الاختلاف عمَّا يجده زملاؤها من متعةٍ مريحة في حياة المدرسة.

لم يجذب اهتمامَها سوى الأزياء. كان عقلها يمتلئ بالأفكار عن الملابس في كلّ وقت. صحيحٌ أنَّه لم تتوافر لها أسبابُ أنْ ترتدي ملابس وفقًا للموضة، لكنَّها كانت تلتهم ما تقع يداها عليه من مجلَّات الأزياء، وتملأ دفاترها برسوم الفساتين، تقلِّد ما تشاهده في المجلَّات وتبتكر من خيالها فساتين أخرى. ولم تكن تعرف السرّ في اهتمامها الآسر هذا بالفساتين الفاخرة. قالت في نفسها لعلَّها عادتها القديمة حين كانت تلعب بخزانة الملابس الكبيرة في منشوريا. كانت أمّها بمثابة حامل ملابس! فكان لديها من الكيمونات والفساتين أكثر ممَّا تتَّسع له الخزائن، فكلَّما سنحت فرصةٌ أخرجتْ جوزة الطيب تلك الملابس وتلمَّستها. لكنَّ معظم تلك الفساتين والكيمونات تُركت في منشوريا بعد رحيلهما، وأمَّا ما حملوه معهما فقد قايضا به من أجل الطعام. كانت أمّها تبسط الفستان أمامها كي تقايض به، فتتنهّد له حسرةً قبل أن تتخلَّى عنه.

قالت: «كان تصميم الملابس بابي السرِّيّ إلى عالم مختلف، عالم يخصّني وحدي. في ذلك العالم، كان الخيالَ سيِّدًا على كلّ شيء. فكلَّما أحسنتَ تخيُّل ما تريد تخيُّله، ابتعد بك المهربُ عن الواقع. والجميلُ في الأمر أنَّه كان مجَّانيًا. كان هذا رائعًا! لكنَّ تخيُّل الملابس الجميلة في عقلي ثم نقل الصور إلى الورق لم يكن مجرَّد طريقةٍ كي أترك الواقع خلفي وأغرق في الأحلام. كنتُ في حاجةٍ إلى أن أعيش، وبدا لي الأمر طبيعيًّا جدًّا كالهواء الذي أتنفَّسه. ولذلك افترضتُ أنَّ الجميع يفعلون ذلك أيضًا. فلمَّا أدركتُ أنَّ الجميع لم يكونوا يفعلون ذلك، وأنَّهم لا يستطيعون حتى وإن أرادوا، قلتُ لنفسي «إنَّني مختلفةٌ عن الآخرين، لذلك فإنَّ الحياة التي سأعيشها ستكون غير حياتهم»».

تركتْ جوزةُ الطيب المدرسة الثانويَّة وانتقلت إلى مدرسةٍ لتصميم الملابس، فتوسَّلت إلى أمّها أن تبيع قطعةً من آخر ما تملك من مجوهرات كي تدفع رسوم الدراسة. وهكذا، تهيَّأ لها أن تدرس الخياطة والتصميم، ومهاراتٍ أخرى مفيدةً مدَّة عامين. فلمَّا تخرَّجت انتقلتْ إلى شقَّةٍ وبدأتْ تعيش بمفردها. بعد ذلك، التحقتْ بكلِّيَّةٍ متخصِّصة في تصميم الأزياء، وكانت توفِّر مصاريف الدراسة بالعمل نادلةً في المطاعم حينًا، وخيَّاطة حينًا. وبعد التخرُّج، تقدَّمت للعمل في مصنعٍ للملابس النسائيَّة ذات الجودة العالية، فاستطاعتْ أن تحصل على وظيفةٍ في قسم التصميم.

لم يكن هنالك شكّ في أنَّها تمتلك موهبةً حقيقيَّة، إذْ لم تكن تحسن الرسم فحسب، بل إنَّ أفكارها ووجهة نظرها كانت

تختلف كلّ الاختلاف عن البقيَّة. كان لديها تصوُّرٌ واضحٌ لما تريد أن تصنعه، وكان على الدوام شيئًا من صنيع خيالها لا تستعيره من أحد. كان يخصُّها وحدها، ويخرج من تلقاء طبيعتها. كانت تتابع التفاصيل الدقيقة في تصوُّرها بكلِّ حماسة، مثل سمكة سلمون تسبح ضدَّ التيَّار في نهرٍ كبير حتى تصل إلى منبعه. لم تكن تجد وقتًا للنوم، فقد كانت تحبّ عملها ولا تحلم إلَّا بأنْ تصبح ذات يومٍ مصمِّمةً مستقلَّة. كما أنَّها لم تُفكِّر قطّ في إيجاد المتعة خارج عملها، بل إنَّها في الواقع لم تكن تُجيد ما يفعله الناس من أجل المتعة. وهكذا، سرعان ما أدرك رؤساؤها جودةَ عملها واهتمُّوا بتصاميمها الباذخة المنسابة، وأنهَوا سنوات تدرُّبها، فأطلقوا يدها رئيسةً لقسمها الصغير. كانت ترقيةً غيرِ معتادة على الإطلاق.

مضتْ جوزةُ الطيب تسطِّر سجلًّا مدهشًا من الإنجازات، سنةً بعد سنة. فقد اجتذبتْ بموهبتها وطاقتها اهتمام الناس لا في الشركة فحسب، بل في عالم الأزياء كلّه. كان عالمُ تصميم الأزياء منيعًا مغلقًا، لكنَّه في الوقت نفسه عالمٌ منصف تحكمه المنافسة. فقوَّة المصمِّم إنَّما تتحدَّد بعاملٍ واحد لا غير، وهو عدد الطلبات المقدَّمة للملابس التي صمَّمها. وبذلك، لا يوجد أيّ شكّ في تحديد الفائز والخاسر؛ ذلك أنَّ الأرقام هي التي تتحدَّث. لم تكن جوزة الطيب تشعر بأنَّها تنافس أحدًا، لكنَّ إنِجازاتها كانت تفرض نفسها.

ظلَّت تكرِّس نفسها تمامًا للعمل حتى أواخر العشرينيَّات من العمر، والتقت أشخاصًا كثيرين في مجال عملها من بينهم عدَّة

رجال أبدوا اهتمامهم بها، لكنَّ علاقاتها هذه كانت قصيرةً وسطحيَّة. لم تكن جوزة الطيب قادرةً على أن تخلق في نفسها اهتمامًا عميقًا بالكائنات الحيَّة البشريَّة. فكان عقلُها ممتلئًا بصور الملابس، بل إنَّ تصاميم أزياء الرجال كانت تؤثِّر فيها تأثيرًا عميقًا أكثر من أيّ تأثيرٍ للرجال أنفسهم.

لكنَّها حين بلغت السابعة والعشرين تعرَّفت إلى رجلٍ غريب المظهر في حفل رأس السنة. كانت ملامحه عاديَّة، لكنَّه أشعث الشعر، حادَّ الأنف والذقن مثل الأدوات الحجريَّة. كان يبدو أقرب إلى الواعظ الدجَّال منه إلى مصمِّم أزياء نسائيَّة. كان يصغرها بسنة، نحيلًا كالسِّلك، وله عيْنان عميقتان لا قرار لهما، ينظر بهما إلى الناس بتحديقةٍ جريئة تبدو مقصودةً لكي تبعث في النفس اضطرابًا. مع ذلك، فقد استطاعتْ جوزة الطيب أن ترى صورتها في عينَيْه. في ذلك الوقت كان ما يزال غيرَ معروف، لكنَّه مصمِّمٌ واعد. وعلى الرَّغم من أنَّه كان لقاءهما الأوَّل إلَّا أنَّها سمعتْ عنه. كان يُقال إنَّه صاحب موهبةٍ فريدة، غير أنَّه مزهوٌّ بنفسه، مغرورٌ يحبّ الجدال، ويكاد لا يرتاح إليه أحد.

«كنَّا من قالبٍ واحد. فنحن الاثنيْن وُلدنا خارج اليابان وعدنا بعد الحرب مُعدَمَيْن، إذ عدتُ أنا من منشوريا وعاد هو من كوريا. كان والده جنديًّا، وقد لاقوا بعد الحرب فقرًا شديدًا. أمَّا والدته فقد تُوفِّيت بحمَّى التيفوس حين كان صغيرًا، وربَّما هذا ما قاده إلى الاهتمام الشديد بملابس النساء. كان يمتلك موهبةً، لكنَّه لم يكن يعرف كيف يتعامل مع الناس. لك أن تتخيَّل مصمِّم ملابس نسائيَّة لكنَّه حين يقابل امرأةً يتورَّد خجلًا ويصبح غريب

الأطوار. هكذا إذن، كنَّا نحن الاثنيْن نغرِّد بعيدًا عن بقيَّة السرب».

تزوَّجا في العام التالي (1963 م). وفي ربيع العام الذي يليه (عام أولمبياد طوكيو) وُلد قرفة. «إذن اسمه قرفة **فعلًا**، أليس كذلك؟». وما إنْ وُلد قرفة حتى أحضرتْ جوزةُ الطيب والدتها إلى بيتها كي تعتني بالطفل، فقد كانت تعمل ليل نهار ولا تجد وقتًا للعناية به. وهكذا، نشأ قرفةُ على عين جدَّته.

لم تعرف جوزة الطيب قطّ ما إذا كانت قد أحبَّت زوجها كما تحبّ المرأةُ الرجل. فلم يكن لديها معيارٌ تحتكم إليه، ولا زوجُها أيضًا. أمَّا الذي جمع بينهما فكان حُكم الصدفة، والشغفُ المشترك بينهما في تصميم الأزياء. مع ذلك، فقد كانت سنواتهما العشر الأولى مثمرةً لهما معًا. فبُعيد زواجهما ترك كلٌّ منهما وظيفته، وأنشآ مشغلًا مستقلًّا للتصميم في شقَّةٍ في بنايةٍ صغيرة خلف شارع آوياما. كانت شقَّةً سيِّئة التهوية ولا يوجد بها مكيِّف للهواء، فتغدو شديدة الحرارة صيفًا حتى إنَّ أقلام الرصاص تنزلق من بين أصابعهما لفرط العرق. في بادئ الأمر لم يمضِ المشروع بسلاسة، فقد كانت جوزة الطيب وزوجها فقيرَيْن في الحسّ التجاريّ، ما جعل منهما لقمةً سائغة للاحتيال، وقادهما إلى ارتكاب أخطاءٍ واضحة، وحرمهما من الوصول إلى زبائن جدد. تعاظمت الديونُ عليهما حتى بدا لهما أنَّ الحلّ الوحيد هو الهروب، ثم جاء الفَرَج حين قابلتْ جوزةُ الطيب مدير مشروعاتٍ متمكِّن أدرك موهبتهما واستطاع أن يخدمهما بأمانة. من تلك اللحظة، تطوَّرت الشركة كثيرًا حتى إنَّ كلّ الصعاب السابقة بدت

مثل حلم بغيض. وظلَّت المبيعات تتضاعف سنةً وراء سنة، إلى أن حقَّقتِ الشركةُ الصغيرة في عام 1970 م نجاحًا مُعجزًا، فاجأ كثيرين من بينهم هذان الزوجان المغروران المترفِّعان اللذَان أنشآ الشركة بميزانيَّةٍ ضئيلةٍ جدًّا. هكذا، ازداد عددُ الموظَّفين، وانتقلت الشركةُ إلى بنايةٍ أكبر في الشارع نفسه، وفتحت لها محالّ في أحياء مهمَّةٍ مثل غينزا وآوياما وشنجوكو. وكانت مجموعة الملابس التي صمَّماها كثيرًا ما تلفت أنظار الإعلام، فغدتْ معروفةً على نطاقٍ واسع.

*

وما إنْ وصلت الشركةُ إلى حجمٍ معيَّن، حتى اضطُرَّ الزوجان إلى تقسيم العمل بينهما بطريقةٍ مُختلفة. فعلى الرَّغم من أنَّ تصميم الملابس وتصنيعها عمليَّةٌ إبداعيَّة، إلَّا أنَّها لم تكن مثل النحت أو كتابة الرواية؛ ذلك أنَّه عمل تتوقَّف عليه أرزاق الكثير من الناس. ولا يمكن للمصمِّم أن يكتفي بالجلوس في بيته وصُنع ما يشاء؛ إذْ ينبغي له أن يخرج فيُظهر «وجه» الشركة أمام العالم. وقد ازدادت هذه الحاجةُ مع تنامي حجم العمل، فكان لزامًا على جوزة الطيب أو زوجها أن يظهر أحدهما في الحفلات وعروض الأزياء، فيلقي كلمةً قصيرة ويخالط الحضور ويظهر في وسائل الإعلام. فلمَّا أنِفت جوزة الطيب من هذا الدور، اضطُرّ زوجها إليه. وبما أنَّه كان في الأصل لا يُجيد مخالطة الناس فقد لاقى العذاب في أوَّل الأمر. فلم يكن يستطيع التحدُّث أمام جمهورٍ غفير، وكان يعود إلى البيت بعد كلّ حفلةٍ مُنهكًا. لكنَّه بعد ستَّة أشهر من ذلك لاحظ أنَّ الأمر لم يعد يعذِّبه. صحيحٌ أنَّه لم

يصبح متحدِّثًا بارعًا، لكنَّ الناس لم يجفلوا من سلوكه الفظّ كما كانوا يفعلون حين كان شابًّا، بل إنَّهم بدأوا ينجذبون إليه، فقد اعتبروا أنَّ جلافته (المستقاة من شخصيَّته الانطوائيَّة بطبيعتها) ليست دليل غرورٍ أو ترفُّع وإنَّما علامة مزاجٍ فنِّيّ آسر. هكذا، بدأ يستطيب وضعه الجديد، وما لبث أن بدأ الناس يحتفون به نجمًا من نجوم الثقافة والمجتمع.

قالت جوزة الطيب: «لعلَّك سمعتَ اسمه. ولكنْ في واقع الأمر، كنتُ أنا من يُنجز ثلثي أعمال التصميم في ذلك الوقت. فقد انطلقتْ أفكاره الأصيلة الجريئة واتَّخذتْ مسارها، وأنتج لنا ما يكفي لكي نستمرّ، وكانت مهمَّتي هي أنْ أطوِّرها وأزيد عليها وأمنحها شكلًا نهائيًّا. لم نوظِّف مصمِّمين آخرين بصرف النظر عن ازدياد حجم الشركة. ازداد موظَّفونا، لكنَّ جوهر العمل ظلَّ مسؤوليَّتنا وحدنا. وكلُّ ما كنَّا نريده هو أن نصنع الملابس التي نريدها، من دون أن نفكِّر في من سيشتريها. لم نُجرِ بحثًا للسوق أو حسابات تكلفةٍ أو تخطيطًا استراتيجيًّا. كنَّا إذا ما أردنا أن نفعل شيئًا فعلناه، واستخدمنا أفضل الخامات، وأخذنا كلّ ما نحتاج إليه من وقت. فما تُنتجه الشركاتُ الأخرى في خطوتيْن، كنَّا نفعله في أربع خطوات، وإذا ما استخدموا ثلاثة أمتارٍ من القماش استخدمنا أربعة. كنَّا نتفحَّص كلّ قطعةٍ ونوافق عليها قبل خروجها من المحلّ، أمَّا الملابس التي لا تُباع فكنَّا نتخلَّص منها. لم نبع أيّ شيء بتخفيض، وكانت أسعارُنا مرتفعةً طبعًا. كان أقراننا في هذا المجال يقولون إنَّنا مجانين، لكنَّ ملابسنا أصبحت رمزًا للمرحلة، مع ملابس «بيتر ماكس» و«ودستوك»

و«تويغي» و«إيزي رايدر» وغيرها. كنَّا مستمتعِين أيّما متعة في تصميم الملابس آنذاك! كنَّا نطبّق أجرأ الأفكار وأكثرها جنونًا، ثم نجد عملاءنا يدعموننا. كنَّا وقتها نشعر بأنَّ أجنحةً كبيرةً نبتتْ لنا، فنطيرُ بها إلى أيِّ مكانٍ نشاء».

ولكنْ بينما كان مشروعهما يتوهَّج وينطلق، بدأت جوزة الطيب وزوجها يبتعدان عن بعضهما بعضًا أكثر فأكثر. كانت تشعر بين الفترة والأخرى أنَّ قلبه يهيم في مكانٍ بعيد، حتى حين يعملان جنبًا إلى جنب. بدا أنَّ عينيْه قد فقدتا بريقهما المتعطِّش. وتلك النزعة العنيفة التي كانت تدفعه إلى رمي الأشياء لم تعد تظهر. كانت كثيرًا ما تجده يحدِّق في الفضاء كأنَّما هو غارق في أفكاره، ويكادان لا يتكلَّمان خارج المكتب. وشيئًا فشيئًا، كثرت الليالي التي لا يعود فيها إلى البيت. وقد أحسَّت جوزة الطيب أنَّ في حياته عدَّة نساء، لكنَّ هذا لم يكن يؤلمها. كانت تقول في نفسها إنَّه أمرٌ حتميّ؛ فقد توقَّفت العلاقةُ الجسديَّة بينهما منذ فترةٍ طويلة (غالبًا لأنَّها فقدتْ الرغبة في الجنس).

*

كان في أواخر عام 1975 م أن قُتل زوجها، حين بلغتْ هي الأربعين وابنها الحادية عشرة. فقد عُثر على جثّته مقطَّعةً إربًا في غرفة فندقٍ بأكاساكا. فحين دخلتْ عاملة التنظيف إلى غرفته بمفتاحها عند الساعة الحادية عشرة صباحًا، وجدتْ حمَّام دم في دورة المياه. الجثَّة نفسها جُفِّفت تمامًا من الدم، ونُزع منها القَلب والبطن والكبد والكليتان والبنكرياس، وكأنَّ القاتل قطع تلك الأعضاء وحملها معه في أكياس بلاستيكيَّة أو نحو ذلك. أمَّا

الرأس فقد قُطع وُوضع على غطاء المرحاض، وأمَّا الوجه فكان مفرومًا. بدا أنَّ القاتل ابتدأ بقطع الرأس، ثم أخذ يجمع بقيَّة الأعضاء.

لا بدَّ من أنَّ قطع الأعضاء من جسم كائنٍ بشريٍّ يتطلَّب أدواتٍ حادَّةً جدًّا ومهارةً فائقة. فثمَّة أطرافٌ ينبغي قطعها بالمنشار، وهي عمليَّة دمويَّة تستغرق وقتًا. ولا يُعرف لماذا قد يتجشَّم شخصٌ ما كلّ هذا العناء أصلًا!

لا يذكُر موظَّف الاستقبال لفرط الزحام في يوم العطلة إلَّا أنَّ زوج جوزة الطيب جاء في العاشرة من مساء اليوم السابق، وحجز غرفةً في الطابق الثاني عشر بصحبة امرأة. كانت امرأةً جميلة، ربَّما في الثلاثين من العمر، ترتدي معطفًا أحمر طويلًا، لكنَّها لم تكن طويلة؛ ولم تكن تحمل معها سوى حقيبةٍ صغيرة. وقد كشف التحقيقُ الجنائيّ عن آثار عمليَّةٍ جنسيَّة على الفراش، فقد وجدوا آثارًا لشعر عانته ومنيِّه. كانت الغرفة مليئةً بالبصمات، لكنَّها من فرط كثرتها لم تكن مفيدةً للتحقيق الجنائيّ. وجدوا في حقيبته الجلديَّة الصغيرة غيارًا داخليًّا، وبعض أدوات الحمَّام، وملفًّا به بعض الأوراق المتعلِّقة بالعمل، إلى جانب أكثر من مئة ألف ين نقدًا وعدَّة بطاقات ائتمانيَّة في محفظته. غير أنَّه كانت هناك مفكِّرة يُفترض أن تكون معه، لكنَّها مفقودة. كما لم يجدوا في الغرفة أيّ علامةٍ على اقتتال أو مقاومة.

تقصَّت الشرطة عن جميع معارفه، لكنَّها لم تعثر على امرأةٍ تطابق الأوصاف التي قدَّمها موظَّف الاستقبال. وأمَّا النساء القليلات اللائي وجدوهنَّ فلم يكن لديهنَّ أيّ دافع لحقدٍ دفين أو

غيرة، وكلّهنّ قدّمن شاهد إثباتٍ قويّ على وجودهنّ في مكانٍ آخر وقت الجريمة. كان هناك عددٌ من الذين لا يحبُّونه في عالم الأزياء (وهو عالم لا يُعرف بمناخه الودّيّ الحميم على أيّ حال)، ولكنْ لا أحد منهم بدا أنّه يكرهه بما يكفي لقتله، كما أنّ لا أحد منهم لديه الخبرة اللازمة لاقتطاع ستّة أعضاء من جثّة القتيل.

كان من الطبيعيّ أن تتداول الصحفُ بشيءٍ من الإثارة مقتلَ مصمّم أزياءٍ معروف، لكنّ الشرطة لجأت إلى بعض الإجراءات كي تُخفي ما يتعلّق باقتطاع الأعضاء، وذلك للتخفيف من الإثارة الإعلاميّة التي ستُحيط بجريمة قتلٍ غريبة كهذه. كما يبدو أنّ الفندق المرموق نفسه قد مارس بعض الضغط ليبعد ارتباط اسمه بهذه القضيّة قدر الإمكان، فلم يُنشر أكثرُ من أنّ القتيل تعرّض للطعن حتى الموت في واحدةٍ من غرف الفندق. ولقد انتشرت شائعاتٌ بعض الوقت تقول إنّ في الأمر «شيئًا غير طبيعيّ»، بيد أنّه لم يظهر أيّ شيءٍ محدّد. وعلى الرّغم من التحقيق الكبير الذي أجرته الشرطة إلّا أنّها لم تعثر على القاتل، ولم تستطع تحديد الدافع إلى الجريمة.

تقول جوزة الطيب: «والغرفة ربّما ما تزال مغلقةً حتى الآن».

*

في ربيع العام التالي، بعد هذه الحادثة، باعتْ جوزةُ الطيب الشركة، بكلّ ما فيها من محالّ ومخزون واسمها التجاري، لشركة

أزياءٍ كبيرة. وحين جاء المحامي بالعقد، وضعتْ خِتْمها من دون أن تقول كلمة، ومن دون حتى أنْ تنظر إلى سعر البيع.

وما إنْ تخلَّت عن الشركة حتى اكتشفتْ أنَّ كلّ ما بقي من شغفها بتصميم الملابس قد تبخَّر، وأنَّ تيَّار الرغبة الجارف قد جفَّ بعد أن كان هو الذي يضفي على حياتها المعنى. صحيح أنَّها كانت تقبل طلبًا بين فترةٍ وأخرى، فتنجزه بمهارةٍ واحتراف قلَّ مثيلهما، لكنَّها لم تكن تجد في ذلك أدنى قدرٍ من المتعة. كان الأمر أشبه بتناول طعامٍ لا مذاق له. بل كانت تشعر كما لو «أنَّهم» اقتلعوا أحشاءها هي. كان أولئك الذين يعرفون جوزة الطيب وقدراتها يذكرونها بشيءٍ من الهالة الأسطوريَّة، فلم يتوقَّفوا عن طلب التصاميم منها، لكنَّها كانت ترفض الطلبات جميعها ما عدا قلَّة لم تستطع أن ترفضها. نصحها مُحاسبها بأن تستثمر أموالها في الأسهم والعقارات، فازدادت ثروتها خلال سنوات النموِّ الاقتصاديّ.

تُوفِّيت أمّها بُعيد بيع الشركة. كانت ترشّ الماء على الرصيف خارج بيتها في عصر يوم حارٍّ من أيَّام آب / أغسطس، ثم شعرتْ فجأةً بـ «مكروهٍ» أصابها، فاستلقتْ على فراشها ونامت تشخِّر شخيرًا عاليًا، وفاضت روحُها. هكذا، لم يبق أحدٌ لجوزة الطيب وابنها، فحبستْ نفسَها في بيتها أكثر من سنة، تقضي النهار كلّه فوق الأريكة تنظر إلى الحديقة، كأنَّما تحاول أن تجد الطمأنينة التي فقدتها في حياتها. كانت تنام عشر ساعات في اليوم، وتكاد لا تأكل شيئًا. أمَّا قرفة (الذي كان في سنِّ المدرسة الثانويَّة آنذاك)، فقد تولَّى العناية بالبيت بدلًا من والدته، يشغِّل سوناتات

موزارت وهايدن وهو يُنجز أعمال البيت، ويدرس عدَّة لغاتٍ في الوقت نفسه.

ظلَّت هذه المساحة الهادئة (الفارغة تقريبًا) في حياة جوزة الطيب عامًا كاملًا، إلى أن اكتشفتْ أنَّها تمتلك «قوّةً» خاصَّة، قدرةً غريبة لم تكن تُدرك وجودها. خطر لها أنَّ هذه القوَّة إنَّما انبجست في داخلها لتحلّ محلّ شغف التصميم الذي تبخَّر من داخلها. وهكذا، أصبحت هذه القوَّة مهنتها الجديدة، مع أنَّها لم تسعَ إليها.

*

كان أوَّل المستفيدين من هذه القوَّة الغريبة زوجة صاحب محلّ ملابس كبير، وهي امرأةٌ ذكيَّة مفعمة بالنشاط، كانت في شبابها مغنِّية في الأوپرا. وقد أدركتْ مهارة جوزة الطيب قبل أن تصبح مصمِّمةً معروفة، وكانت ترعى مسيرتها المهنيَّة؛ فمن دون دعم هذه المرأة لربَّما فشلت شركةُ جوزة الطيب في مهدها. ونظرًا لهذه العلاقة الخاصَّة التي تربط بينهما، وافقت جوزة الطيب على مساعدة المرأة في اختيار وتنسيق ملابس زفاف ابنتها، وهي مهمَّة لم تكن شاقَّة على جوزة الطيب.

كانت تتجاذب أطراف الحديث مع المرأة في انتظار انتهاء الابنة من قياس ملابسها، وفجأةً وضعت المرأة يديْها على رأسها وكادت تسقط على الأرض متأرجحة، فارتعبتْ جوزة الطيب وأمسكتْ بها كي لا تسقط، ثم بدأتْ تمسِّد جبهتها. فعلتْ هذا كردِّ فعلٍ لاإراديٍّ، من دون تفكير، لكنَّها ما إنْ حرَّكت راحتها

حتى شعرتْ «بشيءٍ ما» هناك، وكأنَّها تتحسَّس شيئًا داخل كيسٍ قماشيّ.

ارتبكتْ جوزة الطيب، فأغمضتْ عينَيْها وحاولت أن تُفكِّر في شيءٍ آخر. فخطرتْ لها حديقة الحيوان في شينجينغ. كانت الحديقة مغلقةً وهي هناك بمفردها، فقد كان ذلك مسموحًا لها وحدها بوصفها ابنة الطبيب البيطريّ. كان هذا أسعد الأوقات في حياتها، حين كانت تنعم بالحماية والحبّ والطمأنينة. تلك أقدم ذكرياتها من الماضي. الحديقة الفارغة. خطرتْ لها الروائح والضوء الساطع، وأشكال السحب التي تطفو في السماء. كانت تمشي وحيدةً من قفصٍ إلى آخر، في فصل الخريف والسماءُ صافية، بينما تحلِّق أَسراب الطيور المنشوريَّة من شجرةٍ إلى أخرى. كان هذا هو عالمها الأصليّ الذي فُقد إلى الأبد. لم تكن تعرف كم مضى من الوقت في حلم اليقظة هذا، لكنَّ المرأة نهضت أخيرًا وانتصبت واقفةً، واعتذرت لجوزة الطيب. كانت ما تزال مشوَّشة، لكنَّها قالت إنَّ الصداع قد ذهب. بعد بضعة أيَّام، اندهشت جوزة الطيب حين وصلها مبلغٌ أكبر بكثيرٍ من المبلَغ الذي توقَّعته لقاء عملها.

بعد حوالى شهر من تلك الحادثة، هاتفتْها، ودَعَتْها للغداء. وبعد أن تناولتا الغداء، اقترحتْ أن تذهبا إلى منزل المرأة، وهناك قالت لها: «هل لكِ أن تضعي يدكِ على رأسي مثل المرَّة السابقة؟ أريد أن أتأكَّد من شيء». لم تجد جوزة الطيب سببًا للرفض، فجلستْ إلى جانبها ووضعت راحة يدها على جبهتها. فلمَّا وضعتْها أحسَّت بذلك «الشيء» نفسه الذي أحسَّت به في

المرَّة السابقة. ركَّزتْ كلّ انتباهها عليه كي تفهم شكله، لكنَّه بدأ يتلوَّى ويتغيَّر. إنَّه حيّ! انتابتها وخزةٌ من خوف، فأغمضتْ عينَيْها وفكَّرت في حديقة الحيوان. لم يصعب عليها ذلك، فكلّ ما كان عليها أن تفعله هو استحضار القصَّة التي روَتْها لابنها والمشاهد التي وصفتها له. غادر وعيُها جسدها، وأخذ يجول في المسافات ما بين الذاكرة والقصَّة، ثم عاد. فلمَّا استعادت وعيها، تناولت المرأةُ يدَها وشكرتْها. لم تسأل جوزة الطيب عمَّا حدث، ولم تقدِّم المرأةُ أيّ تفسير. ومرَّةً أخرى، شعرتْ جوزة الطيب بتعبٍ بسيط، وخيطٍ من العرق يتفصَّد فوق جبينها. وحين همَّت بالخروج شكرتْها المرأة على وقتها وزيارتها، وحاولت أن تُعطيها مظروفًا به بعض المال، لكنَّ جوزة الطيب رفضتْ أخذه رفضًا قاطعًا، ولكنْ بأدب. «هذه ليست وظيفتي. كما أنَّكِ دفعتِ لي مبلغًا كبيرًا المرَّة الماضية». ولم تلحّ المرأة عليها.

بعد بضعة أسابيع، عرَّفتْها تلك المرأة إلى امرأةٍ أخرى. كانت هذه في منتصف الأربعينيَّات من عمرها، ضئيلة القوام ولها عينان غائرتان حادَّتان. وعلى الرَّغم من أنَّها كانت ترتدي ملابس غالية الثمن، إلَّا أنَّها لم تكن تلبس أيّ حليّ باستثناء خاتم زواجها الفضِّيّ. كان واضحًا من هيئتها ومسلكها أنَّها ليست شخصًا عاديًّا. قالت زوجةُ صاحب محلّ الملابس لجوزة الطيب: «تريد منكِ أن تفعلي لها ما فعلتِه لي. أرجوكِ لا ترفضي، ولا تقولي شيئًا حين تعطيك المال. خذيه وحسب. سيكون مهمًّا لكِ على المدى الطويل.. ولي أنا أيضًا».

دخلتْ جوزةُ الطيب في غرفةٍ داخليَّة مع المرأة، ووضعت

راحتها على جبهتها كما فعلت سابقًا. كان هناك «شيء» مختلفٌ داخل هذه المرأة، وكان أقوى من «الشيء» الذي في داخل زوجة صاحب محلّ الملابس، وحركاته أسرع. أغمضت جوزة الطيب عينَيْها، وحبست أنفاسها، تحاول أن تُخمد تلك الحركة. راحت تركِّز بقوَّةٍ أكبر وتستحضر ذكرياتها بإصرارٍ أكبر. وهكذا، بالحفر في أصغر طيَّات الذاكرة حملتْ دفء ذكرياتها إلى ذلك «الشيء».

تقول جوزة الطيب: «وما لبثتْ أن أصبحتْ هذه وظيفتي»، إذْ أدركتْ أنَّ ثمَّة تدفُّقًا كبيرًا أحاط بها. فلمَّا كبر ابنها قرفة أصبح مساعدًا لها في عملها.

21
لغز بيت الشنق: 2

سيتاغايا، طوكيو: أهل بيت الشنق

طيفُ سياسيٌّ معروف:
يظهر أحيانًا، يختفي أحيانًا
عباءة إخفاءٍ مدهشة عبقريَّة ـ فماذا تخفي؟
[من مجلَّة ---، 21 تشرين الثاني / نوفمبر]

كنَّا قد نشرنا في عدد السابع من تشرين الأوَّل / أكتوبر مقالنا الأوَّل عن منزلٍ يقع في حيّ سيتاغايا الهادئ، يُطلق عليه الأهالي اسم «بيت الشنق»، ذلك أنَّ كلّ من سكن هذا المنزل تدهورت حياته وانتهى به المطاف منتحرًا، وأغلبهم انتحروا شنقًا.

[ملخَّص المقال السابق محذوف]

ولقد قادتْنا تحقيقاتنا إلى حقيقةٍ ثابتة واحدة، ألا وهي وجود سدّ منيع في نهاية كلّ طريقٍ نسلكه لنعرف هُويَّة المالك الجديد الذي اشترى «بيت الشنق». وعلى الرَّغم من أنَّنا وصلنا إلى شركة البناء التي شيَّدت المنزل، إلَّا أنَّ كلّ محاولاتنا لاستخلاص المعلومات منهم باءت بالفشل. أمَّا الشركة الوهميَّة التي جرت الصفقة من خلالها فلم نقع على أيِّ شيء يُدينها قانونيًّا، كما لم نستطع أن نتوصَّل إلى أيِّ معلومات من خلالها. لقد تمَّت هذه الصفقة بانتباهٍ متقَن للتفاصيل، وهذا ما يقودنا إلى الافتراض بأنَّ ثمَّة سببًا وراء ذلك.

أمَّا الأمر الآخر الذي أثار فضولنا فهو شركة المحاسبة التي ساعدت في إنشاء الشركة الوهميَّة التي اشترت الأرض. فلقد أظهرت تحقيقاتنا أنَّ الشركة تأسَّستْ قبل خمس سنوات بوصفها «مقاولًا فرعيًّا» صوريًّا لشركة محاسبةٍ معروفة في الأوساط السياسيَّة. لشركة المحاسبة هذه عدَّة «مقاولين فرعيِّين»، وكلّ واحدٌ منهم مكلَّف بإدارة عملٍ معيَّن، ثم يُلفظ كأنَّه ذيلُ سحليةٍ إنْ طرأتْ أيّ مشكلة. حريٌّ بالذكر أنَّ الشركة نفسها لم تتعرَّض إلى أيِّ تحقيقٍ من مكتب المدَّعي العامّ، لكنَّ مراسلًا صحفيًّا مختصًّا بالشؤون السياسيَّة في إحدى الصحف الكبرى قال لنا إنَّ «اسمها ظهر في عددٍ من الفضائح السياسيَّة، ولذلك فهي تحت أعين السلطات حاليًّا». من هنا، لا يصعب التخمين بوجود شكلٍ من الارتباط بين الساكن الجديد في «بيت الشنق» وإحدى الشخصيَّات السياسيَّة النافذة، ذلك أنَّ الأسوار العالية والحماية المشدَّدة التي

تستخدم أحدث المعدَّات، والمرسيدس السوداء المستأجرة، والشركة الوهميَّة التي أُنشأت بذكاء، كلّ هذا التدبير يُشير إلى تورُّط شخصيَّةٍ سياسيَّة كبيرة.

سرِّيَّة تامَّة

أجرى فريقنا الإخباريّ استطلاعًا لدخول المرسيدس السوداء إلى «بيت الشنق» والخروج منه، فوجد أنَّ السيَّارة زارت البيت إحدى وعشرين مرَّة خلال عشرة أيَّام، بمعدَّل زيارتيْن في اليوم الواحد. كما لاحظ الفريق نمطًا متكرِّرًا في هذه الزيارات، إذ تأتي السيَّارة عند التاسعة صباحًا ثم تغادر عند العاشرة والنصف. كان السائق شديد الانضباط في وقته، فلا توجد اختلافات في هذه المواعيد بما يزيد عن خمس دقائق بين يوم وآخر. أمَّا الزيارات التالية فكانت غير منتظمةٍ على الإطلاق. فعلى الرَّغم من أنَّ أغلبها كان بين الساعة الواحدة والثالثة عصرًا، إلَّا أنَّ أوقات الدخول والخروج كانت تختلف اختلافًا كبيرًا. هذا ويوجد اختلافٌ كبير أيضًا في الفترة التي تقضيها السيَّارة داخل البيت، ما بين أقلّ من عشرين دقيقة، وساعةٍ كاملة.

هكذا قادتنا هذه الحقائق إلى الافتراضات الآتية:

1 ـ الزيارات الصباحيَّة: تُشير هذه الزيارات إلى «توصيل» شخصٍ إلى هذا البيت. لم نعرف حتى الآن هويَّة هذا الشخص، ذلك أنَّ زجاج السيَّارة معتَّم تمامًا.

2 ـ الزيارات المسائيَّة: تُشير هذه الزيارات إلى وصول ضيوفٍ إلى

البيت، ويبدو أنَّ الأوقات تتغيَّر وفق رغبة الضيف. ولكنْ من غير الواضح ما إذا كان هؤلاء الضيوف يأتون فرادى أم بصحبة آخرين.

3 ـ لا يبدو أنَّ هناك أيّ شيءٍ يحدث في البيت ليلًا. ومن غير الواضح ما إذا كان هناك أحدٌ يعيش في البيت. فمن غير الممكن لمن هم خلف السور أن يعرفوا ما إذا كانت هناك مصابيح مُضاءة.

نقطة مهمَّة أخرى: الشيء الوحيد الذي دخل البيت خلال الأيَّام العشرة هو المرسيدس السوداء. فلا سيَّارات أخرى ولا أشخاص. يقودنا حسّنا الفطريّ إلى القول بأنَّ ثمَّة شيئًا غريبًا يحدث في الداخل. فـ «الشخص» الذي يعيش في البيت لا يُغادر البيت لشراء حاجيَّات أو للمشي. والأشخاص الآخرون يصلون ويغادرون في المرسيدس السوداء المعتَّمة وحدها لا غير. بعبارةٍ أخرى، نقول **إنَّهم لا يريدون أن يراهم أحدٌ تحت أيِّ ظرفٍ من الظروف**. تُرى ما السبب الذي يدعوهم إلى ذلك؟ ما الذي يجعلهم يتجشَّمون هذا العناء كي يفعلوا ما يفعلونه في سرِّيَّة تامَّة؟

ولنا أن نُضيف هنا أنَّ البوَّابة الأماميَّة هي المنفذ الوحيد للدخول والخروج من البيت. ثمَّة زقاقٌ ضيِّق خلف قطعة الأرض، لكنَّه لا يفضي إلى أيِّ مكان. ولا يمكن الدخول أو الخروج من هذا الزقاق إلَّا عبر البيوت. يقول الجيران إنَّ السكَّان لم يعودوا يستخدمون هذا الزقاق، وهذا هو السبب في عدم وجود بوَّابةٍ تفضي إلى الزقاق الخلفيّ. لا يوجد شيءٌ هنالك سوى السور العالي، مثل متاريس حصنٍ عظيمة.

خلال الأيَّام العشرة هذه، ضغط أشخاصٌ على زرّ جهاز الاتِّصال الداخليّ في البوَّابة الأماميَّة، وتبيَّن أنَّهم موزِّعو صحفٍ أو باعةٌ جائلون، لكنَّهم لم يجدوا أيّ ردّ. وإن كان هناك أيّ أحدٍ في الداخل فيبدو أنَّه كان يستخدم الكاميرا لمشاهدة الواقف عند البوَّابة. هذا ولم يحضر أيّ ساعٍ للبريد العاديّ أو شركات البريد السريع.

لذلك، لم يبقَ لنا من خيطٍ في هذا التحقيق سوى أن نرصد تحرُّكات المرسيدس السوداء. لم يكن من الصعب أن نتبع هذه السيَّارة اللامعة البطيئة في سيرها في زحام المدينة، غير أنَّها لم تقدنا إلى أبعد من مدخل موقف سيَّاراتٍ تحت الأرض لفندقٍ من فئة الخمس نجوم في أكاساكا. كان ثمَّة حارس يقف هناك، ولا يمكن لأيِّ سيَّارة أن تدخل إلَّا باستخدام بطاقةٍ خاصَّة. يُعدّ هذا الفندق تحديدًا مقرّ إقامة العديد من المؤتمرات الدوليَّة، ما يعني وجود كثيرٍ من كبار الشخصيَّات فيه، وكثيرٍ من الفنَّانين المعروفين القادمين من الخارج. ولغرض الحفاظ على أمنهم وخصوصيَّتهم، فقد حدَّدت لهم إدارة الفندق مواقف سيَّارات منفصلةً عن مواقف النزلاء العاديِّين، كما توجد مصاعد محجوزةٌ لهم وحدهم ولا تظهر فوقها لوحةٌ تحدِّد رقم الطابق الذي يذهبون إليه. هكذا إذن، يصبح بإمكان هؤلاء النزلاء أن يدخلوا الفندق ويخرجوا منه من دون أن يراهم أحد. ويبدو أنَّ سيَّارة المرسيدس موقوفةٌ في واحدٍ من هذه المواقف. تقول إدارة الفندق في جوابٍ قصيرٍ ومحسوبٍ على أسئلتنا إنَّ هذه المواقف تؤجَّر «بشكلٍ اعتياديّ» لقاء مبلغٍ معيَّن، لكنَّها لا تُمنح إلَّا لبعض المؤسَّسات التي تستوفي الشروطَ

بعد «التحقُّق الدقيق من خلفيَّاتها»، لكنَّنا لم نحصل على أيٍّ معلوماتٍ تفصيليَّة تتعلَّق بشروط استخدام هذه المواقف أو هُويَّة المستخدمين أنفسهم.

يحتوي الفندق على مركزٍ تجاريٍّ، وبضعة مقاهٍ ومطاعم، وأربع قاعاتٍ للزفاف، وثلاث قاعاتٍ للمؤتمرات، ما يعني أنَّ طيفًا واسعًا من الناس يزورون الفندق ليل نهار، ولذلك يغدو من المستحيل أن نحدِّد مَنْ منهم يركب سيَّارة المرسيدس. فبإمكان أيّ شخصٍ أن يترجَّل من السيَّارة، ويستخدم المصعد الخاصّ فينزل في أيٍّ طابق يشاء ثم يغيب وسط الزحام. علاوةً على أنَّ هناك نظامًا قويًّا يجري تطبيقه في الفندق للحفاظ على السرِّيَّة المطلقة. من ذلك كلّه نستشفّ وجود استخدامٍ مفرط للمال والنفوذ السياسيّ. فكما قالت إدارة الفندق، ليس من السهل تأجير مواقف كبار الشخصيَّات. هذا ومن المؤكَّد وجود سُلطاتٍ أمنيَّة معنيَّة بتوفير الحماية لكبار الشخصيَّات الأجنبيَّة، فهذا ما يُشير له «التحقُّق الدقيق من خلفيَّاتهم». نفهم من هذا أنَّه لا بدَّ من ارتباطاتٍ سياسيَّة في هذا الأمر، ذلك أنَّ وفرة المال لا تكفي، مع أنَّه لا حاجة بنا إلى القول إنَّ الأمر كلّه يكلِّف الكثير من المال.

[محذوف هنا: تكهُّنات بأنَّ البيت تستخدمه منظَّمةٌ دينيَّة يدعمها سياسيّ نافذ].

22
قناديلُ البحر من شتَّى أنحاء العالم
*
الأشياء تتحوَّل

أجلس إلى حاسوب قرفة في الوقت المحدَّد، وأستخدم كلمة المرور للدخول إلى برنامج التواصل، ثم أُدخل الأرقام التي أعطاني إيَّاها أوشيكاوا. لن يستغرق الأمر أكثر من خمس دقائق لإتمام الاتِّصال. أبدأُ في ارتشاف قهوتي التي أعددتُها، وأركِّز على تثبيت أنفاسي. لكنَّ القهوة بلا مذاق، والهواء الذي أستنشقه لا يخلو من حِدَّة.

يرنّ الحاسوب فتظهر رسالةٌ على الشاشة تُبلغني بأنَّ الاتِّصال قد تمَّ، وأنَّ الحاسوب جاهزٌ للتواصل. أختارُ أن يتحمَّل الطرف الآخر كلفة هذا الاتِّصال، لئلَّا يكون هناك أيّ سجلٌ لهذه

المحادثة، وهكذا لن يعرف قرفةُ أنَّني استخدمتُ حاسوبه (مع أنِّي لستُ واثقًا من ذلك. فهذه متاهته هو، أمَّا أنا فمجرَّد غريبٍ لا حول لي ولا قوَّة).

يمرّ وقتٌ طويل، أطول ممَّا توقَّعت بكثير، وفي النهاية تظهر رسالةٌ تقول إنَّ الطرف الآخر قد قبل أن يتحمَّل كلفة الاتِّصال. قد تكون كوميكو هناك، في الطرف البعيد الآخر من الأسلاك الممدودة تحت الأرض في طوكيو. لعلَّها تجلس هي الأخرى أمام شاشة، ويداها على لوحة المفاتيح. أمَّا في الواقع، فكلّ ما أراه شاشتي وهي تُصدر صريرًا إلكترونيًّا خافتًا. أختار وضع «الإرسال»، ثم أطبع الكلمات التي راجعتها في عقلي مرَّةً تلو الأخرى.

> لديّ سؤال واحد. ليس صعبًا، لكنَّني أحتاج إلى إثباتٍ على أنَّ من يكلِّمني هو أنتِ فعلًا. في أوَّل مرَّةٍ خرجنا فيها معًا، قبل زواجنا بوقتٍ طويل، ذهبنا إلى حديقة الأسماك. ما أكثر شيء شدَّ انتباهك فيها؟

أضغط على رمز إرسال النصّ (**ما أكثر شيء شدَّ انتباهك فيها؟**). ثم أنتقل إلى وضع «الاستقبال».

يأتيني الردّ بعد فاصلٍ قصيرٍ صامت. ردٌّ قصير:

> قناديل البحر. قناديل البحر من شتَّى أنحاء العالم.

يظهر سؤالي في النصف الأعلى من الشاشة وتحته الإجابة. أُحدِّق فيهما برهة. **قناديل البحر من شتَّى أنحاء العالم**.. لا بدَّ من أنَّها كوميكو. بشحمها ولحمها. لكنَّ هذه الحقيقة لا تزيدني

إلَّا ألمًا. أشعر بأنَّ أحدًا يمزِّق أحشائي. لماذا لا توجد طريقةٌ أخرى نتحدَّث بها؟ ولكنْ لا خيار لديَّ سوى أن أقبل. وهكذا أعود إلى الطباعة.

> سأبدأ أوَّلًا بالأخبار السعيدة. لقد عاد القطّ في فصل الربيع. هكذا فجأةً. كان ضامرًا بعض الشيء، لكنَّه في صحَّةٍ جيِّدة ولم يتعرَّض لأذى. وبقيَ في البيت منذ أن عاد. لقد منحتُه اسمًا جديدًا. أعرف أنَّه كان ينبغي لي استشارتك أوَّلًا. سمَّيته ماكريل. على اسم السمكة. أحوالنا جيِّدة معًا. أظنّ أنَّ هذه أخبار سعيدة.

تأخير. ولا أدري هل هذا بسبب البطء المتأصِّل في هذا النوع من التواصل، أم أنَّه صمت كوميكو.

> كم أنا سعيدةٌ لأنَّه ما يزال حيًّا! كنتُ قلقة جدًّا عليه.

أرشف من قهوتي كي أرطِّب شفتيّ بعد جفافهما. ثم أبدأ الطباعة مرَّةً أخرى.

> والآن الأخبار السيِّئة. في الواقع، باستثناء عودة القطّ يبدو أنَّ كلّ شيء آخر سيكون في خانة الأخبار السيِّئة. فأوَّلًا، ما زلتُ غير قادرٍ على حلِّ أيّ ألغاز.

أُعيد قراءة ما كتبت، ثم أتابع.

اللغز الأوَّل: أين أنتِ الآن؟ وماذا تفعلين؟ ولماذا ما زلتِ تبتعدين عنِّي؟ لماذا لا تريدين رؤيتي؟ هل من سبب؟ هناك أشياء كثيرة جدًّا ينبغي لنا أن نتحدَّث عنها وجهًا لوجه. ألا توافقيني؟

يستغرق الأمر منها بعض الوقت للردِّ على رسالتي. أتخيَّلها

جالسةً أمام لوحة المفاتيح تعضّ شفتها وتُفكِّر. وأخيرًا، يبدأ المؤشِّر في الحركة على الشاشة استجابةً لحركة أصابعها.

>**كلّ ما أردتُ قوله لك قلتُه في رسالتي التي أرسلتُها. وأكثر ما أريد منك أن تفهمه هو أنَّني لم أعد كوميكو التي تعرفها. الناس يتغيَّرون لأسبابٍ كثيرة، وفي بعض الحالات قد يقودهم هذا التحوُّل إلى أن يفسدوا. ولهذا لا أريد أن أراك. ولهذا لا أريد أن أعود إليك.**

يتوقَّف المؤشِّر ويظلّ يومض في مكانه، باحثًا عن كلمات. أثبِّت عينيَّ عليه عشر ثوان، عشرين ثانية، أنتظره أن يشكِّل كلماتٍ جديدة على الشاشة. **قد يقودهم هذا التحوُّل إلى أن يفسدوا؟**

أُريد منك إن استطعتَ أن تنساني في أسرع وقتٍ ممكن. فأفضل شيء لي ولك هو أن تنهي إجراءات طلاقنا وتبدأ حياةً جديدة. لا يهمّ أين أنا أو ماذا أفعل. الأهمّ هو أنَّنا لسببٍ أو لآخر قد افترقنا فعلًا إلى عالمَيْن مختلفَيْن تمامًا. ولا يمكن بحالٍ من الأحوال أن نعود إلى ما كنَّا عليه. أرجوك، حاول أن تفهم كم هو مؤلمٌ أن أتواصل معك بهذه الطريقة. ولا يمكنك أن تتخيَّل كيف يمزِّقني هذا الأمر.

أقرأ رسالة كوميكو عدَّة مرَّات. ولا أجد فيها أيّ ملمح على التردُّد، ولا إشارةً إلى أنَّ كلامها يصدر عن أيّ شيء سوى عن اقتناعٍ عميقٍ مؤلم. لعلَّها راجعت هذه الكلمات في عقلها عدَّة مرَّات. مع ذلك، ينبغي لي أن أجد طريقةً أهزّ بها أسوارها

المنيعة، حتى لو هززتُها قليلًا لا أكثر. أعود مرَّةً أخرى إلى لوحة المفاتيح.

> ما تقولينه غامض بعض الشيء ويصعب عليَّ أن أفهمه. تقولين إنَّك فسدتِ، ولكنْ ما المقصود بذلك بالضبط؟ لم أفهم. الطماطم تفسد. المظلَّات تفسد. أفهم هذا. تتعفَّن الطماطم وتنبعج المظلَّات. ولكنْ ما الذي يعنيه قولك إنَّكِ أنت «فسدتِ»؟ لا أستطيع أن أتصوَّر شيئًا واضحًا. قلتِ في رسالتك إنَّك مارستِ الجنس مع شخصٍ آخر، ولكنْ هل يجعلك هذا «فاسدة»؟ نعم كانت صدمةً لي، لكنَّ هذا يختلف قليلًا عن أنْ يصبح المرء «فاسدًا»، بحسب رأيي.

سكتةٌ طويلة. أشعر بالقلق من أن تكون كوميكو قد اختفت. ثم تبدأ أحرفها تصطفُّ على الشاشة.

> قد تكون على حقّ، لكنَّ الأمر أكبر من ذلك.

سكتةٌ أخرى. تختار كلماتها بحرصٍ كما لو أنَّها تُخرجها من رفٍّ.

هذا مظهرٌ واحد فقط. «الفساد» شيءٌ يحدث على امتداد فترةٍ زمنيَّة طويلة. لقد قرَّر شخصٌ آخر هذا مسبقًا، من دون إرادتي، في غرفةٍ مظلمة. حين التقيتك وتزوَّجتك خِلتُ أنَّه قد أصبحتْ عندي خياراتٌ جديدة. كنت أرجو أن أستطيع الهروب من منفذٍ إلى مكانٍ ما، لكنَّني أرى الآن أنَّه ربَّما كان مجرَّد وهم. هناك إشارات لكلِّ شيء، ولهذا السبب حاولتُ جاهدةً أن أجد قطَّنا حين اختفى.

أظلّ أُحدِّق في رسالتها على الشاشة، لكنَّ زرَّ «الإرسال» لا يظهر بعد. ما يزال حاسوبي في وضع «الاستقبال». تُفكِّر كوميكو في ما تريد أن تكتبه بعد ذلك. «**الفساد شيء يحدث على امتداد فترة زمنيَّة طويلة**. ما الذي تحاول أن تقوله؟ أُركِّز انتباهي في الشاشة، غير أنِّي لا أجد سوى شيءٍ يشبه الجدار الخفيّ. مرَّةً أخرى تبدأ الحروف تصطفّ في الشاشة.

أُريدك أن تُفكِّر بي على هذا النحو إن استطعت: أنني أموت موتًا بطيئًا من مرضٍ لا شفاء منه. مرض يجعل وجهي وجسدي يتحلَّلان شيئًا فشيئًا. هذا مَجاز بالطبع، لا أكثر. فلا جسدي ولا وجهي يتحلَّلان. لكنَّ ما أقوله قريبٌ جدًّا من الحقيقة. ولهذا السبب لا أُريدك أن تراني. أعلم أنَّ مجازًا غامضًا مثل هذا لن يساعدك كي تفهم كلّ شيء عن الوضع الذي أجد نفسي فيه. ولا أنتظر أن يقنعك بصدق ما أقوله. يسوؤني هذا الأمر جدًّا، لكنَّني لا أملك شيئًا آخر أقوله. وكلُّ ما في وسعك هو أن تقبله.

مرضٌ لا شفاء منه.

أنظر في الشاشة كي أتأكَّد من أنَّني في وضع «الإرسال»، ثم أبدأ في الطباعة.

< **إنْ كنتِ تريدين منِّي أن أقبل هذا المجاز، فلا مانع عندي من قبوله. لكنَّ هناك شيئًا لا يمكنني أن أفهمه. فحتى لو افترضتُ بأنَّكِ كما تقولين «فسدتِ» وأنَّك مُصابة بـ«مرضٍ لا شفاء منه»، ما الذي يجعلك تلجئين إلى نوبورو واتايا تحديدًا؟ لماذا لم تظلِّي معي هنا؟ ولماذا لسنا معًا؟ أليس من أجل هذا تزوَّجنا؟**

صمت. أشعر بوطأته في يديّ. أشبكُ يديّ على الطاولة وأسحب عدَّة أنفاسٍ عميقة. ثم يأتي الردّ.

> **السببُ الذي يجعلني هنا، سواء أعجبني أم لا، هو أنَّه مكاني الصحيح. هذا هو المكان الذي ينبغي لي أن أكون فيه. ولا حقَّ لي في أن أختار غير ذلك. حتى لو أردتُ أن أراك، فلم أكن لأقدر على ذلك. أوتظنّ بأنِّي لا أريد رؤيتك؟**

لحظةٌ فارغة يبدو أنَّ كوميكو تحبس أنفاسها فيها. ثم تبدأ أصابعها في الحركة مرَّةً أخرى.

> **لذا أرجوك، لا تعذِّبني أكثر من ذلك. إنْ كان ثمَّة شيء واحد يمكنك أن تفعله من أجلي، فهو أن تنسى وجودي بأسرع وقتٍ ممكن. خذ تلك السنوات التي قضيناها معًا وامحُها من ذاكرتك كأنَّها لم توجد قطّ. هذا أفضل ما يمكنك أن تفعله من أجلي وأجلك. وأنا مقتنعةٌ بذلك تمامًا.**

فأُجيب:

> **تقولين إنَّك تريدين منِّي أن أنسى كلّ شيء. وتقولين إنَّك تريدين منِّي أن أتركك وشأنك. مع ذلك، وفي الوقت نفسه، من مكانٍ ما في هذا العالم، أسمعكِ تتوسَّلين نجدتي. الصوتُ بعيدٌ وخافت، لكنِّني أسمعه بوضوحٍ في الليالي الهادئة. إنَّه صوتك: وأنا متأكِّد من ذلك. يمكنني أن أقبل أنَّ هناك كوميكو واحدة تحاول بكلِّ جهدها أن تبتعد عنِّي، وربَّما لديها أسبابها. لكنَّ هناك كوميكو أخرى، تحاول بكلِّ جهدها أيضًا أنْ تقترب منِّي. هذا ما أؤمن به حقًّا، وبصرف النظر عمَّا تقولينه هنا فعليّ أن**

أؤمن بكوميكو التي تريد مساعدتي وتحاول الاقتراب منِّي. بصرف النظر عمَّا تقولينه لي، وبصرف النظر عن مشروعيَّة أسبابك، فلا يمكنني أبدًا أن أنساكِ، لا يمكنني أبدًا أن أزيح من عقلي السنوات التي قضيناها معًا. لا أستطيع ذلك لأنَّها حدثتْ فعلًا، ولأنَّها جزءٌ من حياتي، ولا يمكن أن أمحوها هكذا. فإنْ محوتُها محوتُ نفسي. لا بدَّ من أنْ أعرف، أيُّ أسبابٍ مشروعة يمكن أن تبرِّر ذلك؟

تمرُّ برهةٌ فارغة أخرى. أحسّ بصمتها عبر الشاشة. يتسلَّل مثل الدخان من طرف الشاشة إلى أرضيَّة الغرفة. أعرف لحظات صمت كوميكو. رأيتُها، وجرَّبتها مرَّاتٍ عديدة في حياتنا. إنَّها تحبس أنفاسها الآن، تجلس أمام شاشة الحاسوب تعقد حاجبَيْها في تركيزٍ تامّ. أمدّ يدي أرفع الكوب فأرشفُ من قهوتي الباردة. ثم أحبسُ أنفاسي والكوبُ الفارغ بين يديَّ، وأُحدِّق في الشاشة كما تفعل كوميكو. تربطنا نحن الاثنيْن روابط صمتٍ ثقيلة تمرّ عبر الجدار الذي يفصل بين عالمَيْنا. نحتاج إلى بعضنا بعضًا أكثر من أيِّ شيء آخر. ينتابني هذا الشعور من دون أدنى شكّ.

> لا أعرف.

> لكنِّي أنا أعرف.

أضع كوب قهوتي على الطاولة وأطبع بأسرع ما يمكنني، كما لِو أنَّني أحاول اللحاق بقطار الوقت المندفع.

أعرف. أعرف أنَّني أُريد العثور على الطريق الذي يوصلني إليكِ. أنتِ، كوميكو التي تريدني أن أنقذها. لكنْ ما لستُ أعرفه

حتى الآن للأسف هو كيفيَّة الوصول إلى هناك وما الذي ينتظرني. فطوال هذه الفترة منذ أن هجرتِني، صرت أشعر بأنِّي قد أُلقيَ بي في عتمةٍ كاملة. لكنَّني أقترب، ببطءٍ ولكن بثقة، أقتربُ من ذلك المكان الذي فيه جوهر الأشياء. هذا ما أردتُ أن تعرفيه. أنَّني أقترب من مكانك، وأنَّني عازم على الاقتراب أكثر.

أُسند يديَّ على لوحة المفاتيح وأنتظر جوابها.

> **لم أفهم أيّ شيءٍ من هذا.**

تطبع كوميكو هذه العبارة ثم تنهي المحادثة:

> **وداعًا.**

*

تقول لي الشاشة إنَّ الطرف الآخر قد أغلق الاتِّصال. انتهتْ محادثتنا. لكنَّني أظلّ أُحدِّق في الشاشة، أنتظر شيئًا يحدث. لعلَّ كوميكو تغيِّر رأيها وتعود إلى المحادثة. لعلَّها تتذكَّر شيئًا نسيتْ أن تقوله. لكنَّها لا تعود. أفقد الأمل بعد عشرين دقيقة. أحفظ الملفّ، ثم أذهب إلى المطبخ لأشرب ماءً باردًا. أفرِّغ عقلي برهةً، وأتنفَّس بانتظام عند الثلَّاجة. يبدو لي أنَّ صمتًا رهيبًا قد حطَّ على كلِّ شيء. أشعر كما لو أنَّ العالم يُنصت في انتظار ما سأُفكِّر فيه بعد ذلك. لكنَّني لا أستطيع التفكير في أيِّ شيء. آسف، لا أستطيع التفكير في أيِّ شيء.

أعود إلى الحاسوب، أجلس هناك أعيد قراءة محادثتنا كاملةً من أوَّلها إلى آخرها: ما قلتُه، وما قالته، وما قلتُه ردًّا على ذلك، وما قالته هي ردًّا عليه. كانت المحادثة بأكملها ما تزال على

الشاشة واضحةً كلّ الوضوح. كنتُ أسمع صوتها فيما عيناي تتابعان صفّ الحروف التي طبعتْها. كنتُ أسمع صعود صوتها وهبوطه، بالنبرات الرقيقة والسكتات. يظلّ المؤشّر في السطر الأخير يومض منتظمًا، بانتظام دقَّات القلب، ينتظر بأنفاسٍ لاهثةٍ الكلمة التالية التي سترسلها. ولكنْ لا تأتي أيّ كلمة تالية.

أحفر المحادثة كلّها في عقلي (بعد أن قرَّرت أنَّه من الأفضل ألَّا أطبعها)، ثم أنقر على خانة الخروج من وضع الاتِّصال. أطلب من البرنامج ألَّا يترك أيّ سجلّ في ملفّ العمليَّات، ثم أفصل الحاسوب. يرنّ رنَّةً، ثم تنطفئ الشاشة. يختفي الدويّ الرتيب فيبتلعه صمتُ الغرفة، مثل حلمٍ ساطعٍ إذْ يمزِّقهُ العَدَم.

*

لا أدري كم مضى من الوقت، لكنِّي حين أُدرك أين أنا أجد نفسي أحدِّق في يديَّ على الطاولة. تبدو عليهما آثار عينَيْن ظلَّتا تركِّزان فيهما فترةً طويلة.

«الفساد» شيءٌ يحدث على امتداد فترةٍ زمنيَّة طويلة.

تُرى كم تبلغ هذه الفترة؟

23
عَدُّ الخِراف

*

الشيءُ الذي في مركز الدائرة

بعد بضعة أيَّامٍ من زيارة أوشيكاوا الأولى، طلبتُ من قرفة أن يحضر لي معه صَحيفةً كلَّما جاء إلى المسكن. كان الوقتُ قد حان لكي أبدأ في مواكبة الواقع في العالم الخارجيّ. فمهما حاولتَ أن تتجنَّبه، لا بدَّ من أن يأتي إليك عندما يحينُ الوقت.

أومأ قرفة، وصار يُحضر لي ثلاث صحفٍ معه كلّ يوم.

وهكذا، كنت أُطالع الصحف يوميًّا بعد الإفطار. مضت فترةٌ طويلة جدًّا لم أكن أعبأ فيها بالصحف، حتى أصبحتْ في نظري شيئًا غريبًا، باردًا فارغًا. رائحةُ الحبر صدَّعتْ رأسي، وتلك المجاميع الطباعيَّة الصغيرة بدتْ لي بسوادها الشديد وكأنَّها

تطعنني في عينيَّ. شكلُ الصحيفة وأسلوب عناوينها ونبرة الكتابة فيها، كلّ ذلك بدا لي غير واقعيّ. كنتُ كثيرًا ما أتركها وأغمض عينيّ، وأتنهَّد. لم يكن الأمر هكذا فيما مضى. لا بدَّ من أنَّ قراءة الصحيفة كانت تجربةً عاديَّةً جدًّا. تُرى ما الذي تغيَّر فيها؟ أو بالأحرى ما الذي تغيَّر فيَّ أنا؟

بعد قراءة الصحف بعض الوقت، استطعتُ الوصول إلى فهمٍ واضح لحقيقةٍ واحدة تتعلَّق بنوبورو واتايا، وهي أنَّه كان يؤسِّس لنفسه موقعًا أكثر قوَّةً في المجتمع. في الوقت نفسه، كان يسير على برنامجٍ سياسيٍّ طموح، واحدًا من أعضاء البرلمان الواعِدِين، وكان يصدر تصريحاتٍ مستمرَّة في الشأن العامّ إمَّا في عموده في إحدى المجلَّات أو على شاشة التلفاز. كنتُ أرى اسمه في كلّ مكان. والذي لم أستطع أن أفهمه هو أنَّ الناس كانوا ينصتون لآرائه، وبحماسٍ متزايد. فعلى الرَّغم من أنَّه كان جديدًا على الساحة السياسيَّة، إلَّا أنَّه بزغ بوصفه واحدًا من السياسيِّين الشباب الذين تُنتظر منهم أشياءُ عظيمة. وفي استطلاعٍ أجرتْه مجلَّةٌ نسائيَّة تبيَّن أنَّه أكثر السياسيِّين شعبيَّة. هكذا إذن، تهالَتْ عليه الإطراءات ناشطًا سياسيًّا مثقَّفًا، وهو نوعٌ جديد من السياسيِّين الأذكياء الذين لم تشهد البلاد مثلهم من قبل.

فلمَّا قرأتُ ما أستطيع احتمالَه من الأحداث الجارية وموقع نوبورو واتايا البارز فيها، انتقلتُ إلى مجموعتي المتنامية من الكتب المنشورة عن مانشوكو. فقد كان قرفة يُحضر لي كلّ ما يجده حول هذا الموضوع. لكنَّني حتى في هذه الكتب لم أستطع أن أفلت من طيف نوبورو واتايا. ففي ذلك اليوم، خرج لي من

صفحات كتابٍ عن مشكلات الإمدادات العسكريَّة، منشورٍ عام 1978 م. هي نسخة المكتبة العامَّة، استُعيرت مرَّةً واحدة قبل ذلك، في وقت صدور الكتاب، والذي استعارها أرجعها مباشرةً تقريبًا. ربَّما لا يوجد من يهتمّ بمشكلات الإمدادات في مانشوكو سوى معارف الملازم ماميا.

يقول المؤلِّف إنَّ الجيش الأمبراطوريّ اليابانيّ كان منذ العام 1920 م يبحث في إمكانيَّة تجهيز عددٍ هائلٍ من حقائب النجاة الشتويَّة ترقُّبًا لحربٍ شاملة مع السوفييت. فقد كانوا في ذلك الوقت يعتبرون تجهيز الجيش للقتال في البرد القارس أمرًا ملحًّا، ذلك أنَّهم كانوا يفتقرون إلى خبرة القتال في معركةٍ حقيقيَّة في مكان شديدِ البرودة مثل سيبيريا. فإنْ أفضى نزاعٌ حدوديّ إلى إعلان حربٍ على الاتِّحاد السوفييتي (وكان هذا احتمالًا قائمًا في تلك الأيَّام) سيكون الجيش غير مستعدٍّ لحملةٍ عسكريَّة شتويَّة. لهذا السبب، شُكِّل فريقٌ بحثيّ في قيادة الأركان العامَّة لخوض حربٍ افتراضيَّةٍ مع الاتِّحاد السوفييتي، وأُوكلت لقسم الإمدادات مهمَّة البحث في شراء ملابس شتويَّة خاصَّة. ولكي يستطيع الفريق أن يفهم معنى البرد القارس في سيبيريا، ذهب إلى جزيرة سخالين الشماليَّة البعيدة (وقد كانت محلّ نزاعٍ طويل مع روسيا القيصريَّة ثم الاتِّحاد السوفييتي)، واستخدم وحدةَ قتالٍ حقيقيَّة لاختبار الأحذية العازلة والمعاطف والملابس الداخليَّة. ولقد أجرى الفريق اختباراتٍ دقيقةً على التجهيزات المستخدمة في الجيش السوفييتيّ ونوع الملابس التي استخدمها جيش نابليون في حملته على روسيا، فتوصَّلوا إلى استنتاجٍ مفادُه استحالةُ أن يجتاز الجيشُ

اليابانيّ شتاء سيبيريا بتجهيزاته الحاليَّة. وقدَّروا أنَّ حوالى ثُلثي الجنود المشاة على الخطوط الأماميَّة سيُصرفون من الخدمة بسبب تعرُّضهم لقرسات البرد. فتجهيزاتُ النجاة الحاليَّة مصنوعةٌ لتحمُّل الشتاء في شمال الصين، وهو شتاءٌ أخفّ من نظيره في سيبيريا، إضافةً إلى شحّ هذه التجهيزات. وقد حَسَب فريقُ البحث عدد الخراف المطلوبة لتصنيع ملابس شتويَّة مناسبة وكافية لفِرقَ الجيش العشر (وقد سَرت نكتةٌ بين أعضاء الفريق آنذاك بأنَّهم يكادون لا ينامون لفرط انشغالهم بعدِّ الخراف). سلَّم الفريقُ هذه الحسابات في تقريره، مع تقديراتٍ للمعدَّات المطلوبة لمعالجة الصوف.

لم يكن عدد الخراف المتوافرة في الجزر اليابانيَّة كافيًا لخوض حربٍ طويلةٍ في الشمال ضدَّ الجيش السوفْييتيّ في حال نَزَلت عقوباتٌ اقتصاديَّة أو حصارٌ على اليابان، لذلك يلحّ التقرير على ضرورة أن تؤمِّن اليابان إمداداتٍ مستمرَّةً من صوف الخراف (والأرانب وفِراء الحيوانات الأخرى) في منطقة منشوريا ـ منغوليا، مع المعدَّات اللازمة لمعالجته. أمَّا الرجل الذي أرسلوه للمعاينة الميدانيَّة في مانشوكو عام 1932 م (بُعيد إقامة الحكومة الصوريَّة هناك) فكان شابًّا متخصِّصًا، تخرَّج حديثًا في الكلِّيَّة العسكريَّة بقسم الإمدادات. وكان اسمه يوشيتاكا واتايا.

يوشيتاكا واتايا! لا يمكن إلَّا أن يكون عمّ نوبورو. فلم يكن هناك عددٌ كبير من الواتايا في العالم، وأمَّا اسم يوشيتاكا فكان أندر منه.

كانت مهمَّته هي أن يحسب الوقت المطلوب لتأمين إمداداتٍ مستمرَّة من الصوف في مانشوكو. هكذا، انتهز يوشيتاكا واتايا

مشكلة الملابس الشتويَّة هذه كحالةٍ نموذجيَّة في مجال الإمدادات الحديثة، فأجرى تحليلًا رقميًا شاملًا.

حين كان يوشيتاكا واتايا في «موكدن» سعى إلى التعرُّف إلى الفريق كانجي إشيوارا، فقضى الليلةَ كلّها يتجاذب معه أطراف الحديث ويشرب.

كانجي إشيوارا. هذا اسمٌ آخر أعرفه جيِّدًا. كان عمّ نوبورو واتايا على اتِّصالٍ بكانجي إشيوارا، قائد الهجوم الصينيّ المدبَّر على القوَّات اليابانيَّة المعروف باسم «الحادثة المنشوريَّة» (وهي الحادثة التي مكَّنت اليابان من تحويل منشوريا إلى مانشوكو)[1]، وسوف يتبيَّن لاحقًا أنَّ هذا كان أوَّل عملٍ عدائيّ خلال خمس عشرة سنة من الحرب.

كان إشيوارا قد جال في أنحاء القارَّة واقتنع بأنَّ الحرب قادمةٌ لا محالة مع الاتِّحاد السوفيتيّ، بل إنَّ مفتاح النصر في تلك الحرب إنَّما يكمن في تقوية القدرة اللوجستيَّة لليابان، وذلك عبر زيادة التصنيع في أمبراطوريَّة مانشوكو الجديدة وإنشاء اقتصاد مكتفٍ ذاتيًا. ولقد قدَّم رأيه هذا ليوشيكا واتايا بشغفٍ وأسلوبٍ بليغ. وشجَّع أيضًا على أهمِّيَّة إحضار المزارعين من اليابان، وتنظيم الصناعات الزراعيَّة والحيوانيَّة في مانشوكو وزيادة فاعليَّتها.

---

(1) الحادثة المنشوريَّة أو حادثة موكدن: تفجيرٌ قرب موكدن، يُقال إنَّ الجيش اليابانيّ هو الذي دبَّره، ثم اتَّهم عناصر صينيَّة بالمسؤوليَّة عن الحادث، ما قدَّم لليابان ذريعةً لغزو منشوريا ثم إنشاء دولة مانشوكو فيها. (المترجم).

وكان إشيوارا مقتنعًا بأنَّ على اليابان ألَّا تُحوِّل مانشوكو إلى مستعمرةٍ يابانيَّة مكشوفة، مثل كوريا أو تايوان، بل أن تجعل منها دولةً آسيويَّة جديدة نموذجيَّة. وعلى الرَّغم من نظرته إلى أنَّ مانشوكو سوف تكون قاعدةً لوجستيَّة للحرب على الاتِّحاد السوفييتي (وحتى الولايات المتَّحدة وإنجلترا)، إلَّا أنَّه كان واقعيًا إلى حدٍّ يُثير الإعجاب. فقد كان يؤمن بأنَّ اليابان غدت الدولةَ الآسيويَّة الوحيدة القادرة على خوض الحرب القادمة ضدَّ الغرب (أو كما يُسمِّيها هو «الحرب الأخيرة»)، وأنَّ على الدول الأخرى أن تتعاون مع اليابان كيما تضمن تحرُّرها من الغرب. لم يكن هناك ضابطٌ آخر في الجيش الأمبراطوريّ في ذلك الوقت يضاهي إشيوارا في اهتمامه العميق بالمسائل اللوجستيَّة الممزوج باطِّلاعٍ وإلمامٍ كبيرَيْن. فمعظم الضبَّاط اليابانيِّين كانوا يأنفون من هذا التخصُّص بوصفه تخصُّصًا «متأنِّثًا»، ويرون أنَّ «الطريق» الصحيح الذي ينبغي لـ «مقاتلي صاحب الجلالة» اتِّباعه هو القتال بنكرانٍ جريء للذات، بصرف النظر عن ضعف التجهيزات. فالمجدُ الحربيّ الحقيقيّ إنَّما يكمن في احتلال عدوٍّ قويّ حين تكونُ أقلَّ منه عددًا وعُدَّة. اضرب عدوَّك وتقدَّم «بسرعة شديدة لا تستطيع الإمدادات أن تلحق بها». كان هذا طريق الشرف.

غير أنَّ هذا الرأي بالنسبة إلى اختصاصيٍّ خالص مثل يوشيتاكا واتايا مجرَّد كلام فارغ. فقد كان يرى أنَّ بدء حربٍ طويلة من دون دعمٍ لوجستيٍّ محضُ انتحار. كان السوفييت قد توسَّعوا كثيرًا وحدَّثوا قدراتهم الحربيَّة خلال الخطَّة الخمسيَّة التي أطلقها ستالين للتنمية الاقتصاديَّة المكثَّفة. ولقد دمَّرت السنواتُ

الدمويَّة الخمس من الحرب العالميَّة الأولى قِيم العالم القديم، وأحدثت الحربُ الممكننة ثورةً في التفكير الأوروبي فيما يتعلَّق بالاستراتيجيّات والإمدادات. ولمَّا كان يوشيتاكا واتايا قضى سنتَيْن في برلين فقد كان يؤمن بحقيقة هذا إيمانًا عميقًا، لكنَّ عقليَّة الجزء الأكبر من العسكريِّين اليابانيِّين لم تصحُ بعد من سكرةِ انتصارهم في الحرب الروسيَّة ـ اليابانيَّة قبل حوالى ثلاثين عامًا.

عاد يوشيتاكا واتايا إلى اليابان متحمِّسًا أشدّ الحماس لآراء إشيوارا ونظرته للعالم، بل ومعجبًا جدًّا بشخصيَّته، فاستمرَّتْ علاقتهما سنواتٍ عديدة. كان كثيرًا ما يزور إشيوارا بعد أن أُعيد من منشوريا ليتولَّى قيادة الحصن المعزول «مايزورو». وقد سلَّم يوشيتاكا واتايا تقريره المفصَّل والدقيق حول تربية الخراف ومعالجة الصوف في مانشوكو إلى القيادة بُعيد عودته إلى اليابان، فلقيَ عليه إطراءً كبيرًا. غير أنَّ هزيمة اليابان النكراء في معركة نومونهان عام 1939 م وتشديد العقوبات الاقتصاديَّة من الولايات المتَّحدة وبريطانيا جعلت الجيش يحوِّل اهتمامه جِهة الجنوب. ونتيجةً لذلك، توقَّفتْ أنشطةُ الفريق البحثيّ في شنِّ حربٍ افتراضيَّة على الاتِّحاد السوڤييتي. وبطبيعة الحال، كان تقريرُ الفريق البحثيّ عاملًا مهمًّا في قرار إنهاء معركة نومونهان بسرعةٍ مع بداية الخريف، وعدم السماح لها بالتطوُّر إلى حربٍ شاملة، فقد نصَّ التقرير على أنَّنا «غيرُ قادرين على شنِّ حملةٍ شتويَّةٍ ضدَّ الجيش السوڤييتي، بالنظر إلى حالة جاهزيَّتنا». هكذا، وما إنْ بدأتْ تهبُّ رياح الخريف حتى نفضت القيادةُ الأمبراطوريَّة يدها من القتال (وهو تحرُّك غير معتاد في الجيش اليابانيّ المهووس

بالحفاظ على ماء وجهه)، ثم تخلَّت بالمفاوضات الدبلوماسيَّة عن سهوب هولونبوير الجرداء لصالح منغوليا الخارجيَّة والقوَّات السوڤييتيَّة.

وقد أشار المؤلِّف في الهامش إلى أنَّ قوَّات التحالف التي احتلَّت اليابان حظرتْ يوشيتاكا واتايا من تقلُّد أيِّ منصبٍ رسميّ بعد الحرب، وعاش فترةً في عزلة في مسقط رأسه نيتاغاتا، لكنَّ حزب المحافظين أقنعه بالترشُّح لعضويَّة البرلمان، فنجح في فترتَيْن في مجلس المستشارين، ثم انتقل إلى مجلس النوَّاب. وهناك لوحةٌ بالخطِّ الياباني مكتوبٌ فيها اسم كانجي إشيوارا معلَّقة على جدار مكتبه.

لم أكن قبل ذلك أعلم في أيِّ مجلسٍ كان عمّ نوبورو واتايا، وماذا حقَّق في حياته السياسيَّة. أعرف أنَّه كان وزيرًا ذات مرَّة، ويبدو أنَّه كان مؤثِّرًا بين أهل محافظته، لكنَّه لم يصل إلى مستوى الزعامة. أمَّا الآن، فقد ورث ابنُ أخيه نوبورو واتايا دائرتَه الانتخابيَّة.

*

أغلقتُ الكتاب، ثم شبكت ذراعيَّ خلف رأسي، وأخذت أُحدِّق في النافذة صوب البوَّابة الأماميَّة. عمَّا قريب ستنفتح البوَّابة وتظهر سيَّارة المرسيدس، يقودها قرفة لي،حضر «عميلةً» جديدة. كان الرابط بيني وبين هؤلاء «العميلات» تلك العلامة فوق خدِّي. وهو الرابط نفسه بيني وبين جدّ قرفة (والد جوزة الطيب). أمَّا الرابط بين جدّ قرفة والملازم ماميا فكان مدينة شينجينغ. والرابط

بين الملازم ماميا والعرَّاف السيِّد هوندا هو المهمَّة الخاصَّة على الحدود المنشوريَّة ـ المنغوليَّة. وقد تعرَّفتُ أنا وكوميكو إلى السيِّد هوندا من خلال عائلة نوبورو واتايا. والرابط بيني وبين الملازم ماميا هو تجربة البئر، هو في بئره في منغوليا، وأنا في بئري في هذه الأرض التي أجلس فيها الآن. على هذه الأرض نفسها عاش ذات مرَّةٍ ضابطٌ قاد القوَّات في الصين. كلّ هذه العناصر مرتبطةٌ وكأنَّها في حَلَقة، في مركزها منشوريا قبل الحرب وشرق آسيا القارِّيَّة، والحرب القصيرة في نومونهان عام 1939 م. لكنِّي لا أفهم لماذا يُقذف بنا أنا وكوميكو في هذه السلسلة السببيَّة التاريخيَّة. وكلُّ هذه الأحداث قد وقعت قبل ولادتي أنا وكوميكو بفترةٍ طويلة!

جلستُ إلى طاولة قرفة، ووضعت يديَّ على لوحة المفاتيح. كان إحساس أصابعي على المفاتيح ما يزال طريًّا، من ذكرى محادثتي مع كوميكو. كنتُ واثقًا من أنَّ نوبورو واتايا يراقب تلك المحادثة. كان يحاول أن يعرف شيئًا منها. فبالتأكيد لم يرتِّب لنا هذا اللقاء من تلقاء طيبته وكرم أخلاقه. لا بدَّ من أنَّه ورجاله كانوا يحاولون استخدام الاتِّصال الذي أجروه بحاسوب قرفة كي يعرفوا أسرار هذا المكان. لكنَّ هذا لم يقلقني، فأعماقُ هذا الحاسوب هي نفسها أعماق قرفة، ولا يمكن لهم أن يعرفوا مدى هذا العمق.

24
الإشارة حمراء الآن
*
الذراع الطويلة تمتدّ

لم يكن قرفة بمفرده حين جاء في صباح اليوم التالي؛ فقد كانت إلى جانبه في السيَّارة أمّه جوزة الطيب أكاساكا. مضى أكثر من شهرٍ على آخر زيارةٍ لها، وكانت قد جاءت آنذاك مع قرفة فجأةً أيضًا، وتناولت الفطور معي، ثم دردشنا ساعةً أو نحو ذلك قبل أن تغادر.

علَّق قرفة معطفه، وفيما كان يستمع إلى كونشيرتو غروسو لهاندل (لليوم الثالث على التوالي) دخل المطبخ لإعداد الشاي والخبز المحمَّص لوالدته التي لم تكن قد تناولت فطورها. كان الخبز الذي يعدّه متقنًا جدًّا، وكأنَّه في إعلانٍ تلفزيونيّ. بعد

ذلك، مضى قرفة يرتِّب المطبخ فيما جلسنا أنا وجوزة الطيب إلى طاولةٍ صغيرة نشرب الشاي. لم تأكل سوى شريحةِ خبزٍ محمَّص، مع قليلٍ من الزبدة. وفي الخارج كان المطر البارد الثلجيّ يتساقط. لم تتحدَّث كثيرًا، ولم أتحدَّث كثيرًا. مجرَّد تعليقاتٍ قليلة عن الجوِّ. مع ذلك، بدا لي أنَّها كانت تريد أن تقول شيئًا. كان هذا واضحًا من نظرتها وطريقة كلامها. كانت تقطع مربَّعاتٍ صغيرةً من الخبز، وتتناولها واحدةً بعد الأخرى. وكنَّا ننظر بين الفينة والأخرى إلى المطر كأنَّه صديقٌ قديم.

فلمَّا انتهى قرفة من المطبخ وبدأ التنظيف، قادتني جوزة الطيب إلى «غرفة القياس». وقد صُمِّمت هذه على هيئة «غرفة القياس» الموجودة في مكتبها في أكاساكا، متطابقتَيْن تقريبًا في الشكل والحجم. للنافذة هنا أيضًا طبقتان من الستائر، وكانت الغرفة مظلمة حتى خلال النهار. لم تكن الستائر تُفتح أكثر من عشر دقائق في المرَّة الواحدة حين ينظِّف قرفة الغرفة. ثمَّة أريكةٌ جلديَّة، ومزهريَّة زجاجيَّة على الطاولة بها زهور، ومصباح طويل. في وسط الغرفة طاولةٌ كبيرة عليها مقصٌّ ومِزَقٌ من القماش وصندوقٌ خشبيٌّ به إبرٌ وخيوطٌ وأقلام رصاص ودفتر تصميم (رُسمت فيه بضعة تصاميم أوَّليَّة)، وعدَّة أدوات لم أكن أعرف أسماءها ولا استخداماتها. على الجدار مرآةٌ كبيرة طويلة، وإحدى زوايا الغرفة فُصلت بحاجزٍ لتبديل الملابس. كان قرفة يُدخل العميلات دائمًا إلى هذه الغرفة.

لا أدري ما الذي دعا قرفة ووالدته إلى إعادة إنتاج «غرفة القياس» نفسها، فلا توجد حاجةٌ إلى التمويه هنا! لعلَّهما اعتادا

(وكذلك العميلات) شكل الغرفة في مكتب أكاساكا إلى حدٍّ أنَّهما لم يعودا قادريْن على الإتيان بأيِّ أفكارٍ جديدة لتصميم المكان. بطبيعة الحال، ربَّما قالا: «ما المشكلة في غرفة القياس؟» فلم يجدا مشكلة. على أيِّ حال، كنتُ مرتاحًا لهذه الغرفة. كانت «غرفة القياس» وليست أيّ غرفة أخرى، بل إنَّني أحسستُ بإحساسٍ غريب من الأمان في هذا المكان، محاطًا بأدوات صنع الملابس. كان وضعًا غير واقعيّ، لكنَّني لا أستطيع القول إنَّه غير طبيعيّ.

طلبتْ منِّي جوزة الطيب أن أجلس على الأريكة الجلديَّة، ثم جلستْ إلى جانبي.

سألتْني: «قل لي، كيف تشعر؟»

«شعورًا جيّدًا إلى حدٍّ ما».

كانت ترتدي بذلةً خضراء فاتحة. تنُّورتها قصيرة، وأزرار معطفها السداسيَّة تصل إلى حنجرتها، مثل المعاطف التي كان يرتديها نهرو. على كلِّ كتفٍ حشيةٌ بحجم خبزةٍ مدوَّرة صغيرة. ذكَّرني منظرها بفيلم خيالٍ علميّ كنتُ قد شاهدته قبل زمنٍ طويل، تجري أحداثه في المستقبل القريب. كانت جميع النساء تقريبًا يرتدين بذلات كهذه ويعشن في مدينةٍ مستقبليَّة الطابع.

كانت ترتدي قرطَيْن بلاستيكيَّيْن كبيرَيْن يطابقان لون بذلتها. بل إنَّ لهما لونًا عميق الخضرة يبدو أنَّه مصنوع من مزيج ألوان، ولعلَّهما صُمِّما خصِّيصًا لهذه البذلة؛ أو ربَّما العكس، ربَّما صُمِّمت البذلة من أجل القرطَيْن، كفتحةٍ في الجدار تُشقّ على

شكل الثلّاجة. قلت في نفسي لعلّها ليست طريقةً سيّئة للنظر إلى الأمور. كانت قد وصلتْ وهي ترتدي نظّارةً شمسيّة على الرَّغم من المطر، وأكاد أجزم أنّها كانت خضراء. جورباها الطويلان كانا أخضرَيْن أيضًا. من الواضح أنَّ هذا اليوم يومٌ أخضر.

بحركاتها الرشيقة المعتادة سحبت سيجارةً من حقيبتها، ووضعتها في فمها، وأشعلتها بولّاعتها وهي تزمّ شفتيْها قليلًا. لم تكن الولّاعة خضراء على الأقلّ، بل الولّاعة الذهبيّة الثمينة نفسها التي كانت تحتفظ بها دائمًا. لكنّها كانت تناسب اللون الأخضر جدًّا. رفعتْ جوزةُ الطيب ساقًا فوق ساقها المتّشحة بالجورب الأخضر. نظرتْ إلى ركبتَيْها فعدّلت تنّورتها، ثم نظرتْ إلى وجهي كما لو أنّه امتدادٌ لركبتَيْها.

قلتُ مرّة أخرى: «جيّدًا إلى حدٍّ ما. كالعادة».

هزّت رأسها. «ألست متعبًا؟ ألا تشعر بالحاجة إلى الراحة؟»

«لا. أعتقد أنّني تأقلمتُ مع العمل. لقد أصبح أسهل بكثيرٍ ممّا كان عليه في أوّل الأمر».

لم تردّ. ارتفع دخان سيجارتها مثل حبلٍ سحريٍّ لعازفٍ هنديٍّ، ثم اختفى في تهوية السقف. على حدِّ علمي كان جهاز التهوية هذا الأفضلَ عالميًّا من حيث قوّته وهدوئه.

سألتُها: «كيف حالك أنتِ؟»

«أنا؟»

«هل أنتِ متعبة؟»

نظرتْ إليَّ. «هل أبدو متعبة؟»

كانت في الواقع تبدو متعبةً منذ أن رأيتها أوّل مرَّة. حين أخبرتُها بذلك تنهَّدت.

«نُشر صباح اليوم مقالٌ آخر عن هذا المكان. ضمن سلسلة مقالات عن «لغز بيت الشنق». كأنَّه عنوانٌ لفيلم رعب».

«هذا المقال الثاني، أليس كذلك؟»

«نعم بالضبط. وفي الحقيقة، هناك مجلَّةٌ أخرى نشرت مقالًا متعلِّقًا بهذا الموضوع قبل فترة، ولكنْ لحسن الحظّ لم ينتبه أحدٌ للرابط بينهما. حتى الآن».

«هل اكتُشف شيءٌ جديد؟ عنَّا؟»

مدَّتْ يدها وأطفأتْ سيجارتها في المنفضة. ثم هزَّت رأسها قليلًا، فرفرف قرطاها الأخضران مثل فراشتَيْن في أوَّل الربيع.

قالت: «لا»، وسكتت قليلًا. «لا أحد يعرف بعدُ مَن نحن، وماذا نفعل هنا. سأترك لك نسخةً من المقال لتقرأه إن كان يهمّك. لكنَّ الموضوع الذي أريد أن أتحدَّث إليك عنه فعلًا شيءٌ يتعلَّق بخبرٍ تنامى إلى علمي قبل أيَّام. وهو أنَّ نسيبك سياسيٌّ شابٌّ معروف. هل هذا صحيح؟»

«للأسف نعم. شقيق زوجتي».

«تقصد شقيق زوجتك التي لم تعد معك؟»

«نعم».

«وهل يعلم بما تفعله هنا؟»

«يعرف أنَّني آتي هنا كلّ يوم لأفعل شيئًا ما. وقد كلَّف

شخصًا للتقصّي حول الأمر. أظنّ أنَّه قلقٌ ممَّا أفعله، لكنَّني لا أعتقد أنَّه عرف شيئًا بعد».

فكَّرتْ جوزة الطيب في ما قلته، ثم رفعتْ وجهها ونظرت إليَّ، وقالت: «يبدو أنك لا تحبّ نسيبك هذا كثيرًا. صحيح؟»

«لا، ليس كثيرًا».

«وهو لا يحبّك».

«نعم، إنْ استخدمنا تعبيرًا مخفَّفًا».

«وهو الآن قلقٌ ممَّا تفعله هنا. لماذا؟»

«لو تبيَّن أنَّ نسيبه متورِّط في شيءٍ يُثير الشبهات، فقد تكون فضيحةً بالنسبة إليه. هو رجل المرحلة الآن، وأظنّ أنَّه من الطبيعيّ أن يشعر بالقلق».

«إذن، من المستبعد أن يكون هو الذي يسرِّب للإعلام معلوماتٍ عن هذا المكان، أليس كذلك؟»

«بأمانة، لا أعرف ما الذي يدور في رأس نوبورو واتايا. لكنَّ المنطق يقول إنَّه لن يجني شيئًا من تسريب المعلومات للصحف. بل الأرجح أنَّه يرغب في التعتيم عليها».

ظلَّت جوزة الطيب تقلِّب الولَّاعة الذهبيَّة بين أصابعها وقتًا طويلًا. بدتْ مثل طاحونةٍ ذهبيَّة في يومٍ شحيح الريح.

«لماذا لم تذكر لنا أيّ شيءٍ عن نسيبك؟»

«الأمر لا يتعلَّق بكما فقط؛ فلا أحبّ أن أذكره لأيّ أحد. منذ لقائنا الأوَّل لم نرتح لبعضنا بعضًا، أمَّا الآن فكلٌّ منَّا يكره

الآخر. لم أكن أخفيه عنكما، لكنَّني لم أر حاجةً لإثارة موضوعه».

«كان ينبغي لك أن تخبرنا».

«ربَّما نعم».

«أنت تُدرك بالتأكيد خطورة الأمر. لدينا عميلات من عالم السياسة والأعمال. أُناس ذوو نفوذ. أُناس معروفون. ولا بدَّ من حماية خصوصيَّتهنَّ. لهذا السبب اتَّخذنا كلّ هذه الإجراءات الاحترازيَّة. أليس كذلك؟»

هززتُ رأسي.

«لقد تجشَّم قرفة مشقَّةً كبيرة كي يضع لنا نظامًا دقيقًا ومعقَّدًا للحفاظ على سرِّنا، وهي عبارة عن متاهة من الشركات الوهميَّة والحسابات المخبوءة تحت عدَّة طبقات، وموقف سيّارات غير معروف في ذلك الفندق، وإدارة صارمة في اختيار العميلات، ونظام متحكِّم في الدخل والمصروفات، وتصميم هذا المنزل. كلّ هذا من عقله هو. وحتى الآن لم يحدث خطأ واحد. بطبيعة الحال هذا النظام يكلِّف الكثير من المال، لكنَّ المال ليس مشكلةً بالنسبة إلينا. المهمّ هو أن تطمئنّ العميلات إلى وجود نظامٍ أمنيٍّ مطلق».

«هل أفهم أنَّ هناك تهديدًا على نظامنا الأمنيّ؟»

«نعم، للأسف».

التقطتْ جوزة الطيب سيجارةً من علبتها، لكنَّها تركتها بين أصابعها فترةً طويلة من دون أن تُشعلها.

«والأدهى والأمَرّ أنَّ نسيبي سياسيٌّ معروف، وهذا يزيد من احتمالات الفضيحة».

فقالت جوزة الطيب وهي تلوي شفتها: «بالضبط».

«وما تقدير قرفة للأمر؟»

«لا يقول شيئًا. مثل صدفةٍ كبيرة في قاع البحر. لقد اختبأ داخل نفسه وأغلق الباب، يُفكِّر تفكيرًا عميقًا».

كانت عيْناها مثبَّتتيْن على عينيَّ. أشعلتْ سيجارتها، كأنَّها تذكَّرت أخيرًا أنَّها بين أصابعها. ثم قالت: «ما زلتُ أُفكِّر في الأمر كثيرًا.. أقصد عن زوجي والطريقة التي قُتل بها. لماذا قتلوه؟ لماذا لطَّخوا غرفة الفندق بالدم وقطَّعوا أحشاءه وأخذوها؟ لا أجد أيّ سببٍ يدفعهم إلى ذلك. لم يكن زوجي من ذلك النوع الذي يستحقّ القتل بهذه الطريقة الغريبة.

«لكنَّ مقتل زوجي ليس الشيء الوحيد. هذه الأحداث الغريبة التي حصلت في حياتي حتى الآن: الشغف الشديد بتصميم الأزياء الذي تلاشى فجأةً، وكيف توقَّف قرفة عن الكلام فجأةً، وكيف جُرفتُ إلى هذا العمل الغريب الذي نفعله، كما لو أنَّها بُرمجت منذ البدء كي تأتي بي إلى هذا المكان حيث أقف اليوم. ويبدو أنَّني لا أستطيع أن أزيح هذه الفكرة من رأسي. أشعر كما لو أنَّ كلّ حركةٍ من حركاتي تتحكَّم بها ذراعٌ طويلة تمتدّ من مكانٍ بعيد، وأنَّ حياتي ليست أكثر من مَعبرٍ تمرّ من خلاله تلك الأشياء».

تناهى إلى مسامعنا صوت المكنسة الكهربائيَّة التي يستخدمها

قرفة في الغرفة المجاورة. كان يؤدِّي مهامَّه بطريقته المعتادة، بكلّ تنظيم وتركيز.

«ألم تشعر بهذا الشعور قطّ؟»

«لا أشعر أنَّني «جُرفتُ» إلى أيٍّ شيء. فأنا هنا لأنَّه كان ينبغي لي أن أكون هنا».

«كي يمكنك أن تنفخ في الناي السحريّ وتجد كوميكو؟»

«نعم».

قالت وهي تبدِّل ساقها الخضراء التي تضعها فوق الأخرى: «ثمَّة شيء تبحثُ عنه. وكلّ شيء له ثمن».

بقيتُ صامتًا.

ثم قالت جوزة الطيب خلاصة ما تريد قوله أخيرًا: «لقد قرَّرنا ألَّا نحضر أيّ عميلات موقَّتًا. هذا قرار قرفة. بسبب المقالات المنشورة وظهور نسيبك في المشهد. لقد تغيَّرت الإشارة من اللون الأصفر إلى الأحمر. بالأمس، ألغينا كافَّة المواعيد المتبقِّية، بدءًا من مواعيد اليوم».

«كم ستطول هذه الفترة؟»

«إلى أن يسدّ قرفة ثغرات النظام، ونتأكَّد من أنَّنا اجتزنا أيّ كارثة محتملة. عذرًا، ولكنَّنا لن نغامر أبدًا. سوف يأتي قرفة إلى هنا كلّ يوم كعادته، لكنَّنا لن نُحضر أيّ عميلة».

*

حين غادر قرفة مع والدته كان المطر قد توقَّف. ستَّة عصافير

كانت تغسل ريشها في بركة ماءٍ صغيرة في ممرٍّ السيّارات. فلمّا اختفت المرسيدس وأُغلقت البوَّابة، جلستُ عند النافذة أنظر إلى السماء الشتويَّة الملبَّدة بالغيوم خلف فروع الأشجار. وخطرتْ لي كلمات جوزة الطيب: «ذراع طويلة تمتدّ من مكانٍ بعيد». تخيَّلتُ الذراع وهي تمتدّ من السحب الداكنة الخفيضة، مثل رسمةٍ في كتاب صُورٍ مشؤوم.

25
أذنان مثلَّثتان
*
أجراسُ زلَّاجة

قضيت ما تبقَّى من النهار أقرأ عن مانشوكو. لم يكن هناك ما يدفعني إلى الإسراع في العودة إلى البيت. فقد تركتُ لماكريل قدرًا من طعام القطط الجافّ يكفيه يوميْن خشية أن أتأخَّر في العودة. قد لا يروقه ذلك، لكنَّه لن يتضوَّر جوعًا على الأقلّ. لذلك، لم أجد سببًا يغريني بجرِّ نفسي إلى البيت. كنتُ أريد أن أستلقي وأغفو قليلًا. أخرجتُ وسادةً وبطَّانيَّة، وفرشتهما على الأريكة في غرفة القياس، وأطفأتُ الأنوار. ثم استلقيتُ على الأريكة وأغمضتُ عينيّ، وبدأتُ أفكِّر في ماكريل. كنتُ أريد أن أنام وأنا أُفكِّر في القطّ. ذلك أنَّه شيءٌ قد عاد إليَّ. لقد عاد إليَّ

من مكانٍ بعيد، ولا بدَّ من أن يكون في ذلك شيءٌ من النعمة. فكَّرتُ في الملمس الناعم لباطن خُفَّيه، وأذنيْه المثلَّثتَيْن الباردتَيْن، ولسانه الورديّ. كنتُ أتخيَّل ماكريل منطويًا على نفسه نائمًا في هدوء. أحسستُ بدفئه براحة يدي، وكنتُ أسمع صوت أنفاسه. كنت متوتِّر الأعصاب أكثر من المعتاد، لكنَّ النوم ما لبث أن جاءني. كان نومًا عميقًا لا أحلام فيه.

صحوتُ في منتصف الليل. وخِلتُ أنَّني سمعتُ أجراس زلَّاجةٍ من مكانٍ بعيد، كما في ترانيم أعياد الميلاد.

أجراسُ زلَّاجة؟

جلستُ على الأريكة وبحثتُ بيدي عن ساعتي فوق الطاولة. كانت عقاربها المضيئة تُشير إلى الواحدة والنصف صباحًا. لا بدَّ من أنَّني نمت نومًا عميقًا أكثر ممَّا توقَّعت. لم أُحرِّك ساكنًا، وأصختُ السمع، لكنَّ الصوت الوحيد الذي سمعته كان خفقان قلبي. ربَّما تخيَّلتُ أجراس الزلَّاجة. ربَّما كنت أحلم. لكنَّني قرَّرت أنْ أتفقَّد المكان. لبستُ خُفَّيّ ومشيتُ إلى المطبخ، غير أنَّ الصوت كان يبتعد حين غادرت الغرفة. كان بالفعل صوت أجراس زلَّاجة، ويبدو أنَّه قادم من مكتب قرفة. وقفتُ عند الباب أنصت، ثم طرقته. لعلّ قرفة عاد إلى المسكن حين كنتُ نائمًا. ولكنْ لم يأتني أيّ جوابٍ من الداخل. فتحتُ الباب شيئًا يسيرًا، ونظرتُ في الداخل.

رأيتُ شيئًا في الظلام يصل إلى طول خصري، وَهْجًا يميل إلى الأبيض وله شكلُ مربَّع. كان وهج شاشة الحاسوب، أمَّا

صوتُ الجرس فكان رنينًا متكرِّرًا من الحاسوب، رنينًا جديدًا لم أسمعه من قبل. كان الحاسوب يناديني، فرحتُ كالمجذوب إليه وجلستُ أمام الوهج، وقرأتُ الرسالة المكتوبة على الشاشة:

يمكنك الدخول الآن إلى برنامج «يوميَّات طائر الزنبرك». اختر الملفّ (1 ـ 16).

لقد شغَّل شخصٌ ما الحاسوب، ودخل إلى مستندات بعنوان «يوميَّات طائر الزنبرك». ولكنَّ المفروض أنَّني الوحيد في المسكن، فهل شغَّله أحدهم من خارج المنزل؟ في هذه الحالة، لا يمكن أن يكون غير قرفة. «يوميَّات طائر الزنبرك»؟

ظلَّ الصوت الخفيف الذي يُشبه أجراس الزلَّاجة يَصدر من الحاسوب، وكأنَّنا في صباح أعياد الميلاد. كأنَّما الصوت يحثّني على أن أختار. اخترت بعد تردُّدٍ الرقم (8)، هكذا كيفما اتَّفق. توقَّف الرنين، وفُتح الملفّ على الشاشة مثل لوحةٍ أفقيَّة ملفوفة تُفتح أمامي.

26
يوميَّات طائر الزنبرك رقم 8
(أو: مذبحةٌ طائشة ثانية)

استيقظ الطبيب البيطريّ قبل السادسة صباحًا. غسل وجهه بماءٍ بارد ثم أعدَّ إفطاره. كان النهار قد طلع في ساعةٍ مبكِّرة في هذا الصيف، ومعظم الحيوانات كانت قد استيقظت. تناهت أصواتها عبر النافذة المفتوحة، وحمل النسيم روائحها، فعرف الطبيبُ الجوَّ من دون أن ينظر في الخارج. كان هذا جزءًا من عاداته اليوميَّة. يسمع أوَّلًا، ثم يستنشق هواء الصباح، فيجهِّز نفسه لليوم الجديد.

لكنَّ اليوم تحديدًا يفترض أن يكون مختلفًا عن الأمس. كان ينبغي أن يكون مختلفًا. فكثيرٌ من الأصوات والروائح قد ذهبت! النمور والفهود والذئاب والدببة، كلّها صفَّاها الجنود في اليوم

السابق. بعد ليلةٍ من النوم، بدت تلك الأحداث بالنسبة إليه مثل كابوسٍ ثقيل من زمانٍ مضى. لكنَّه كان يعرف أنَّ هذه الأحداث وقعتْ فعلًا. فما تزال أذناه تئنَّان من دويّ البنادق. لا يمكن أن يكون حلمًا. كان يعرف أنَّه في شهر آب / أغسطس من سنة 1945 م، في مدينة شينجينغ، حيث تدفَّقت القوَّات السوفييتيَّة عبر الحدود وصارت تقترب شيئًا فشيئًا. كان هذا حقيقيًّا، مثل المغسلة وفرشاة الأسنان أمامه.

نَهيمُ الفِيلَيْن أعطاه إحساسًا بالارتياح. آه، صحيح، لقد نجا الفيلان. تذكَّر البيطري وهو يغسل وجهه أنَّ الملازم المسؤول اضطُرّ لحسن الحظّ إلى حذف الفيلَيْن من قائمته. كان قد التقى منذ أن جاء إلى منشوريا عددًا من الضبَّاط اليابانيِّين الشباب المتعصِّبين، ودائمًا ما كانت تجربته معهم غير مريحة. كان معظمهم أولادَ مزارعين قضوا شبابهم في سنوات الثلاثينيَّات، سنوات الكساد الاقتصاديّ، فتمرَّغوا في مآسي الفقر في الوقت الذي كانت تُدكُّ رؤوسهم بخطابٍ قوميّ مهووس. كانوا ينصاعون لأوامر رؤسائهم من دون أيِّ تفكير، مهما كانت غريبة. فلو جاءهم أمرٌ باسم الأمبراطور أن يحفروا حفرةً في الأرض إلى البرازيل، لالتقطوا أقرب مجرفةٍ وبدأوا بالحفر. كان البعض يُسمِّي ذلك «نقاءً»، لكنَّ الطبيب البيطريّ كان يصِفه بكلماتٍ أخرى. فهو ابن طبيبٍ حَضَريّ تعلَّم في المناخ اللِبراليّ نسبيًّا في العشرينيَّات، ولم يستطع أن يفهم هؤلاء الجنود؛ إذ يُفترض أن يكون إطلاقُ النار على فيلَيْن بأسلحةٍ صغيرة أسهلَ بكثير من شقِّ حفرةٍ في الأرض إلى البرازيل. غير أنَّ الملازم المسؤول عن فرقة

الإعدام (مع أنَّ لهجته ريفيَّة) بدا له كائنًا بشريًّا طبيعيًّا أكثر من الضبَّاط الآخرين الذين التقاهم، وأفضلَ تعليمًا ومنطِقًا. لقد شعر الطبيب البيطريّ بهذا من الطريقة التي كان يتحدَّث بها الضابط ويتصرَّف.

على أيِّ حال، لم يُقتل الفيلان، وذكَّر الطبيب نفسه بأنَّ هذا في حدِّ ذاته مدعاة للشكر. والجنود أيضًا لا بدَّ من أنَّهم كانوا سعداء بتخليصهم من هذه المهمَّة. أمَّا العمَّال الصينيُّون فربَّما أسِفوا على ذلك؛ إذْ فاتهم كثيرٌ من اللحم والعاج.

أغلى الطبيبُ الماء في غلَّايته، ثم بلَّل ذقنه بمنشفةٍ ساخنة، وحَلَق. ثم تناول فطوره، الشاي والخبز المحمَّص والزبدة. لم تكن حصص الطعام في منشوريا كافيةً قطّ، لكنَّها كانت حصصًا سخيَّة إنْ قورنت بالحال في أماكن أخرى. من حسن حظِّه وحظّ الحيوانات. صحيحٌ أنَّ الحيوانات أعربت عن استيائها من تقليل حصصها الغذائيَّة، لكنَّ الحال في هذه الحديقة كان أفضل منه في الحدائق الأخرى في اليابان؛ إذْ كانت الموادّ الغذائيَّة قد نفدت أصلًا. صحيحٌ أنَّه لا يمكن توقُّع ما سوف يحدث، ولكنْ على الأقلِّ لم يُضطرّ البشر ولا الحيوانات هنا حتى الآن إلى معاناة الجوع الشديد.

فكَّر في حال زوجته وابنته. لو أنَّ كلّ شيءٍ سار وفق المخطَّط له فلا بدَّ من أن يكون القطار قد وصل بهما إلى بوسان. كان ابنُ عمِّه الذي يعمل في سكَّة الحديد يعيش في هذه المدينة، والمقرَّر أن تسكن زوجةُ الطبيب وابنته مع أسرة ابن العمّ إلى أن تركبا السفينة التي ستقلَّهما إلى اليابان. افتقد الطبيب رؤيتهما عند

الصباح، وافتقد أصواتهما المفعمة بالحياة وهما تعدَّان الفطور. بعدهما سيطر على البيت هدوءٌ مكتوم. لم يعد البيت الذي يحبّه، ولا المكان الذي ينتمي إليه. مع ذلك، لم يستطع أن يمنع نفسه من الإحساس بفرحٍ غريب لأنَّه تُرك وحده في هذا المسكن الرسميّ الخالي. فالآن فقط، يمكنه أن يحسّ بجبروت القَدَر يضربه حتى النخاع.

القَدر في حدٍّ ذاته كان مرضه العضال. فمن بواكير سنينه كان لديه إدراكٌ واضح مفاده «أنا، بصفتي فردًا، أعيش تحت سيطرة قوَّةٍ خارجيَّة». ولعلَّ ذلك يعود إلى العلامة الزرقاء على خدِّه الأيمن. كان في طفولته يكره تلك العلامة، تلك الدمغة التي اضطُرَّ هو وحده فقط (ولا أحد غيره) أن يحتملها على جسده. كان يتمنَّى الموت كلَّما سَخِر منه الأطفال الآخرون أو حدَّق الغرباء فيه. تمنَّى لو كان يستطيع أن يقطعها بسكِّين! لكنَّه حين كبر وصل إلى قبولٍ هادئ للعلامة، قبولٍ لن يتلاشى أبدًا. ربَّما كان هذا عاملًا ساعد في تشكيل استسلامه لكلِّ ما يتعلَّق بالقدَر.

في أغلب الأحيان، كان القَدَر يعزف في حياته مثل دقَّات «بيز» هادئةٍ رتيبة، ولا يلوِّن من حياته إلَّا أطرافَها. لكنَّ قوَّته تزداد من وقتٍ إلى آخر حين يختلّ التوازن (ولم يعرف قطّ ما الذي يتحكَّم بهذا التوازن، إذْ لم يكتشف نمطًا واضحًا لتلك التحوُّلات)، فتدفع به إلى حالةٍ من الاستسلام الذي يقارب الشلل. في مثل هذه الأوقات لا يجد خيارًا إلَّا أن يتخلَّى عن كلِّ شيءٍ ويُسلِّم نفسه للتدفُّق. وقد عرف مِن تجربةٍ أنَّه لا ينفع عملٌ ولا تفكير في تغيير الحال. فالقَدَر يطلب حصَّته، ولن يرحل أبدًا

حتى يحصل عليها. كان يؤمن بهذا من صميم قلبه.

لا يعني هذا أنَّه كان إنسانًا سلبيًّا، بل لقد كان أكثر حزمًا من معظم الآخرين، وكان يلتزم بالقرار الذي يتَّخذه إلى أن ينتهي من تنفيذه. كان في مهنته متفوِّقًا، طبيبًا بيطريًّا ذا مهارةٍ استثنائيَّة، ومعلِّمًا لا يكلّ ولا يملّ. ربَّما كان يفتقر إلى شعلةٍ من الإبداع، لكنَّه كان في المدرسة تلميذًا نجيبًا، ودائمًا ما يختاره المعلِّمون قائدًا للصفّ. وفي عمله كان الكبار من زملائه يعترفون له بالتفوُّق، والصغار ينظرون له بإكبار. لم يكن «جَبْريًّا» بالمعنى الشائع عند معظم الناس، لكنَّه لم يشعر قطّ بيقينٍ راسخ أنَّه هو وحده الذي توصَّل إلى قرارٍ ما. كان لديه شعورٌ دائم بأنَّ القَدَر يدفعه إلى اتِّخاذ قراراتٍ تُلائمه (أي القدر). في بعض المرَّات، بعد أن يشعر لحظةً بالرضا من قرارٍ اتَّخذه بإرادته الحُرَّة، يكتشف أنَّ الأشياء قد حُدِّدت مسبقًا بقوَّةٍ خارجيَّة تتخفَّى في هيئة الإرادة الحُرَّة. كان مجرَّد طُعم ملقى له على قارعة الطريق كي يغريه بالتصرُّف على النحو الذي ينبغي له. أمَّا الأشياءُ التي كان يُقرِّرها بنفسه في استقلالٍ كامل فهي الأشياء التافهة، والتي إنْ نظرنا فيها بتعمُّق وجدنا أنَّها لا تتطلَّب اتِّخاذ قرار. هكذا، شعر بأنَّه حاكمٌ إسميٌّ لا يفعل شيئًا سوى أنْ يضع ختمه على الأوراق، يأتمر بأمر وصيٍّ عليه هو الذي يملك السلطة الحقيقيَّة. تمامًا مثل أمبراطور مانشوكو.

كان الطبيب يحبّ زوجته وطفلته حبًّا جمًّا، وكانتا أروع ما حدث له في حياته، لا سيَّما ابنته التي بلغ حبُّه لها حدَّ الهوس. كان مستعدًّا للتضحية بحياته من أجلهما عن طيب خاطر. كثيرًا ما

كان يتخيَّل هذا، بل إنَّ الميتات التي ماتها من أجلهما في خياله بدت أجمل الميتات الممكنة. لكنَّه في الوقت نفسه كثيرًا ما عاد إلى البيت وهو يقول لنفسه: في نهاية الأمر هذان كائنان بشريَّان منفصلان، ولا يوجد ما يربطني بهما. كانا شيئًا آخر، شيئًا لا يعرفه حقَّ المعرفة، شيئًا يوجد في مكانٍ بعيد عنه هو نفسه. وكلَّما انتابه هذا الشعور خطرتْ له فكرةُ أنَّه لم يختر هذَيْن الكائنَيْن بنفسه، لكنَّ هذا لم يمنعه من حبّهما من دون قيدٍ أو شرط على الإطلاق. كان هذا بالنسبة إلى الطبيب مفارقةً كبيرة، تناقضًا لا حلَّ له، فخًّا كبيرًا نُصب له في حياته.

مع ذلك، فما إنْ غدا وحيدًا في مسكنه في حديقة الحيوان حتى أصبح العالم الذي ينتمي إليه أبسط بكثير، وأيسر بكثيرٍ للفهم. فكلّ ما ينبغي له التفكير فيه هو الاعتناء بالحيوانات. ذهبتْ زوجته وابنته، ولا حاجة لأنْ يُفكِّر فيهما حاليًّا. هكذا، يمكن أن يظلّ وحيدًا مع قَدَره.

كان القَدَر، وجبروت القدر هو الذي بسط نفوذه على مدينة شينجينغ في آب / أغسطس من عام 1945 م، وليس جيش كوانتونغ أو الجيش السوڤييتيّ أو قوَّات الشيوعيِّين أو قوَّات الكومينتانغ[1]. كان يمكن للمرء أن يُدرك بسهولةٍ أنَّ القدر سيِّد الأشياء هنا، وأنَّ الإرادة الفرديَّة لم تعد تُساوي شيئًا. فالقدر هو الذي نجَّا الفيلَيْن، وهو الذي قضى على النمور والفهود والذئاب والدببة في اليوم السابق. تراه يقضي على مَنْ الآن؟ ومن ينجِّي؟

(1) الكومينتانغ: الحزب القوميّ الصينيّ. (المترجم).

كانت هذه أسئلةً لا يستطيع أحدٌ أن يُجيب عنها.

غادر الطبيب مسكنه كي يستعدّ لإطعام الحيوانات، وافترضَ أنَّ الموظَّفين والعمَّال لن يأتوا إلى العمل بعد يوم أمس، لكنَّه وجد صبيَّيْن صينيَّيْن ينتظرانه في المكتب. لم يكن يعرفهما، وكانا في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من العمر، نحيلَيْن وذوَي بشرةٍ داكنة، وأعينٍ حيوانيَّة دوَّارة. قال أحدهما: «أرسلونا كي نساعدك». فأومأ لهما الطبيب وسألهما عن اسمَيْهما، لكنَّهما لم يُجيبا. ظلَّ وجه كلٌّ منهما فارغًا، وكأنَّهما لم يسمعا السؤال. لا بدَّ من أنَّ العمَّال الصينيِّين الذين كانوا يعملون عنده حتى يوم أمس أرسلوهما. من المرجَّح أن يكون هؤلاء قد أوقفوا كلّ تعاملٍ لهم مع اليابانيِّين، في انتظار التغيُّرات القادمة، وافترضوا أنَّ الأطفال لن يقعوا تحت طائلة المحاسبة. لقد علم العمَّال أنَّه لن يستطيع الاعتناء بالحيوانات بمفرده، فأرسلوا الصبيَّيْن من تلقاء مودَّتهم.

أعطى الطبيب كلّ واحدٍ منهما بسكوتتَيْن، ثم وجَّههما لمساعدته في إطعام الحيوانات. هكذا، أخذا يقودان عربةً يجرُّها بغلٌ من قفصٍ إلى قفص، فيقدِّمون لكلِّ حيوان حصَّته من الطعام ويغيِّرون له الماء. أمَّا تنظيف الأقفاص فلم يكن واردًا. كلّ ما يمكنهم فعله هو أن يرشُّوا المكان بخرطوم ماءٍ كي يزيلوا الفضلات. على أيِّ حال، كانت الحديقة مغلقةً، ولن يشتكي أحدٌ من الرائحة.

وتبيَّن أنَّ غياب النمور والفهود والدببة والذئاب سهَّل المهمَّة كثيرًا، ذلك أنَّ الاعتناء بالحيوانات اللاحمة الكبيرة ينطوي على

مجهودٍ كبير، ومخاطرة. وعلى الرَّغم من الأسى الذي شعر به الطبيب وهو يمرّ من أقفاصها الفارغة، إلَّا أنَّه لم يستطع أن يمنع شعوره بالارتياح إذْ أُزيحت هذه المهمَّة عن كاهله.

بدأوا العمل عند الثامنة صباحًا، وانتهوا بُعيد العاشرة. وبعدها، اختفى الصبيَّان من دون أن يقولا شيئًا. أمَّا الطبيب فشعر بالإنهاك وعاد إلى مكتبه، ثم أبلغ مدير الحديقة أنَّهم أطعموا الحيوانات.

قُبيل الظهر، عاد الملازم الشابّ إلى الحديقة، يقود الجنود الثمانية الذين أحضرهم في اليوم السابق. كانوا مسلَّحين أيضًا، يمشون بقرقعةٍ معدنيَّة تُسمع من بعيد. كانت قمصانهم ملطَّخة بالعرق كما كانت، والسيكادات تصيح فوق الأشجار، لكنَّهم لم يأتوا اليوم لقتل الحيوانات. حيّا الملازمُ المدير وقال: «نريد أن نعرف ما لديكم من عربات وحيوانات جرّ صالحة للاستخدام». فأبلغه المدير أنَّ لديهم بغلًا واحدًا وعربةً واحدة. «لقد قدَّمنا شاحنتنا الوحيدة وحصانَيْنا قبل أسبوعيْن». فأومأ له الملازم، وقال إنَّه سوف يصادر البغل والعربة، وفقًا لأوامر القيادة في جيش كوانتونغ.

تدخَّل الطبيب قائلًا: «انتظر لحظة. نحتاج إلى البغل والعربة كي نطعم الحيوانات مرَّتيْن يوميًّا. لقد اختفى جميع العمَّال، ومن دون البغل والعربة سوف تموت الحيوانات جوعًا. بل إنَّنا نكاد لا نتَدَبَّر أمورنا مع وجود البغل والعربة».

فقال الملازم وقد كانت عيْناه حمراوَيْن ووجهه مغطَّى بلحيةٍ

خفيفة: «كلّنا نكاد لا نتدبَّر أمورنا، سيِّدي. أولويَّتنا الآن هي الدفاع عن المدينة. يمكنكم إطلاق سراح الحيوانات إنْ لزم الأمر. لقد تولَّينا أمر الحيوانات الخطيرة، أمَّا الأخرى فلا تمثِّل أيّ خطر. هذه أوامر عسكريَّة سيِّدي. عليكم أن تجدوا طريقةً لإدارة أموركم».

أنهى الملازم النقاش حين أمر رجاله بأخذ البغل والعربة. فلمَّا ذهبوا، نظر الطبيب والمدير إلى بعضهما بعضًا. رشف المدير من شايه، وهزَّ رأسه، من دون أن يقول شيئًا.

بعد أربع ساعات عاد الجنود بالبغل والعربة، يغطِّيها قماشٌ مشمَّع قذر. كان البغل يلهث، وجلده ينزّ من حرارة الظهيرة ووطأة الأثقال. قاد الجنود الثمانية أربعة رجالٍ صينيِّين أمامهم بتهديد الحِراب. كانوا شبابًا ربَّما في العشرين من العمر يرتدون ملابس البيسبول وأيديهم مقيَّدة خلف ظهورهم. يبدو واضحًا من العلامات السود والزُرق على وجوههم أنَّهم ضُربوا ضربًا مبرِّحًا. كانت عيْنُ واحدٍ منهم متورِّمةً تكاد تنغلق، في حين تلطَّخ قميصُ واحد آخر بالأحمر من شفتيْه الداميتَيْن. صدور القمصان فارغة لم يُكتب عليها شيء، فيما ظلَّت مستطيلاتٌ صغيرة في المكان الذي نُزعت منه الأسماء. كانت الأرقام على ظهورهم: (1) و(4) و(7) و(9). لم يستطع الطبيب أن يتخيَّل حتى السبب الذي يجعل أربعة شبَّان صينيِّين يرتدون ملابس بيسبول في هذا الوقت من الأزمة، أو لماذا ضُربوا هكذا ويقودهم جنود يابانيُّون. بدا المشهد غريبًا، ليس من هذا العالم، كأنَّما هو لوحةٌ يرسمها مريضٌ عقلي.

سأل الملازمُ مديرَ الحديقة إنْ كانت لديهم أيَّة معاول أو

مجارف. بدا الضابط أكثر شحوبًا ونحولًا ممَّا كان سابقًا. قاده الطبيب مع الجنود إلى سقيفة أدواتٍ خلف المكتب. فاختار الملازم معولَيْن ومجرفتَيْن لرجاله. ثم طلب من الطبيب أن يذهب معه، فترك رجاله هناك، وسار إلى أجمة خلف الشارع. تبعه الطبيب. وأينما وضع الملازم قدمَيْه تناثرت جنادبُ عملاقة. تعلَّقت رائحة عشب الصيف في الهواء، تمتزج مع صيحات السيكادات التي تصمّ الآذان، ونهيم الفيلَيْن الحادّ الذي بدا مثل إنذارٍ قادمٍ من بعيد.

مشى الملازم بين الأشجار من دون أن يتكلَّم، إلى أن وجد ما يُشبه الحفرة في الأدغال. كانت منطقةً قد حُدِّدت لمشروع بناء باحةٍ للحيوانات الصغيرة كي يلعب الأطفال معها، لكنَّ المخطَّط أُجِّل إلى وقتٍ غير معلوم حين شحَّت موادّ البناء بسبب الوضع العسكريّ المتفاقم. أُزيلت الأشجار كي تكون هناك دائرة من الأرض الجرداء، أضاءتها الشمس مثل أضواء المسرح. وقف الملازم في وسط الدائرة وأخذ ينظر في المكان، ثم حفر في الأرض بكعب حذائه.

قال وهو يجثو على الأرض، يحثو التراب: «سوف نعسكر هنا بعض الوقت». أومأ له الطبيب. لم يكن يعرف لماذا يعسكرون في حديقة حيوان، لكنَّه قرَّر ألّا يسأل. هنا في شينجينغ علَّمتْه التجربة ألَّا يستجوب العسكر أبدًا. فلا شيء تفعله الأسئلة سِوى أن تُغضبهم، وفي كلِّ الأحوال لا يقدِّمون جوابًا مباشرًا.

قال الملازم كأنَّه يُكلِّم نفسه: «سنحفر أوَّلًا حفرةً كبيرة هنا». نهض، وأخذ علبة سجائر من جيب قميصه، ثم وهو يضع سيجارةً

بين شفتيْه عرض واحدة على الطبيب، وأشعلهما بعود ثقاب. استغرق الاثنان في التدخين، كي يملآ فجوة الصمت. ومرَّةً أخرى بدأ الملازم يحفر الأرض بحذائه، رسَمَ ما يُشبه المخطَّط في الأرض، ثم مسحه. وأخيرًا سأل الطبيب: «أين وُلدت؟»

«في كاناغاوا. في بلدةٍ تُسمَّى أوفونا، قرب البحر».

هزَّ الملازم رأسه.

فسأله الطبيب: «وأين وُلدت أنت؟»

لم يحر الملازم جوابًا، لكنَّه ضيَّق عينَيْه ينظر في الدخان وهو يتصاعد من بين أصابعه. قال الطبيب في نفسه لا فائدة أبدًا من سؤال العسكر. يحبُّون أن يطرحوا الأسئلة، لكنَّهم لا يعطونك جوابًا. حتى لو سألتهم عن الوقت، فلن يجيبوك.

قال الملازم: «يوجد استديو لتصوير الأفلام هناك».

استغرق الأمر من الطبيب بضع ثوانٍ كي يُدرك أنَّ الملازم يقصد أوفونا. «نعم صحيح. استديو كبير. لكنَّني لم أدخله قطّ».

رمى الملازم ما تبقَّى من سيجارته على الأرض وسحقها بقدمه. «أرجو أن تستطيع العودة إلى هناك. ولكن بالطبع هناك محيطٌ يفصلنا عن اليابان. ربَّما سنموت جميعًا هنا». كان ينظر إلى الأرض وهو يتحدَّث. «قل لي يا دكتور، هل تخاف من الموت؟»

فقال البيطريّ بعد لحظة تفكير: «أظنّ أنَّ الأمر يعتمد على طريقة الموت».

رفع الملازم عينَيْه إلى الطبيب كأنَّما أثار فضوله. من الواضح

أنَّه كان ينتظر جوابًا آخر. «معك حقّ. الأمر يعتمد على طريقة الموت».

ظلَّ كلاهما صامتًا، وبدا الملازم كما لو أنَّه سوف يغفو في مكانه، واقفًا. من الواضح أنَّه كان منهكًا. طار جندبٌ كبير فوقهما مثل طائر، ثم اختفى في أجمةٍ بعيدة وهو يصفِّق بجناحيْه. نظر الملازم في ساعته.

قال الملازم من دون أن يوجِّه كلامه لأحد: «حان الوقت لكي نبدأ». ثم تحدَّث إلى الطبيب: «أريدك أن تبقى بعض الوقت. قد أحتاج منك خدمة».

فأومأ الطبيب.

*

قاد الجنودُ مساجينهم الصينيِّين إلى تلك الفتحة في الغابة، وفكُّوا وثاقهم. رسم العريف دائرةً كبيرة على الأرض باستخدام مضرب بيسبول (ولم يعرف الطبيب كيف يتأتَّى لجنديٍّ أن يحمل معه مضرب بيسبول)، ثم أمر المساجين باليابانيَّة أن يحفروا حفرةً كبيرة بحجم تلك الدائرة. هكذا بدأ الرجال الأربعة يحفرون بالمعاول والمجارف، وبقي نصف الجنود يراقبونهم، فيما تمدَّد البقيَّة تحت الأشجار.

كان يبدو عليهم ظمأ النوم، فما إنْ ألقَوا أجسادهم على الأرض حتى راحوا يشخِّرون. أمَّا الجنود الأربعة الذين ظلُّوا مستيقظين فراحوا يراقبون المساجين وبنادقهم في أحضانهم، مستلِّين حِرابهم استعدادًا لاستخدامها مباشرةً. تناوب الملازم

والعريف في الإشراف على العمل والاستلقاء تحت الشجر. وفي أقلِّ من ساعةٍ كان المساجين الصينيُّون قد انتهوا من شقِّ حفرةٍ عرضها اثنتا عشرة قدمًا، عميقةٍ إلى حدّ أعناقهم. طلب أحد المساجين ماءً، باليابانيَّة. فأومأ الملازم وأحضر لهم أحد الجنود دلوًا من الماء. شرب الصينيُّون الأربعة من الدلو، وكادوا يأتون على كلّ ما فيه. كانت ملابسهم قد اسودَّت من أثر الدم والطين والعرق.

أمر الملازم اثنَيْن من جنوده بسحب العربة إلى الحفرة. ثم نزع العريف القماش من فوقها، فظهرتْ أربع جثث مكوَّمة في العربة، في ملابس البيسبول أيضًا مثل الأسرى، ومن الواضح أنَّهم كانوا صينيِّين. بدا أنَّهم تلقُّوا طلقاتٍ ناريَّة، فتلطَّخت ملابسهم بالدماء. كانت هناك أسراب ذبابٍ كبير بدأت تحوم حول الجثث. وبالنظر إلى جفاف الدماء خمَّن الطبيب أنَّهم ميِّتون منذ ما يقرب من أربع وعشرين ساعة.

أمر الملازمُ الصينيِّين الأربعة بإلقاء الجثث في الحفرة التي حفروها. هكذا، بوجوهٍ واجمة، ومن دون أيِّ كلمة، حملوا الجثث من العربة وألقوا بها واحدةً تلو الأخرى في الحفرة. سقطت كلّ جثَّةٍ بصوتٍ مكتوم. كانت الأرقام على ظهور الموتى: (2) و(5) و(6) و(8). سجَّلها الطبيب في ذاكرته.

فلمَّا انتهى الصينيُّون الأربعة من إلقاء الجثث أخذهم الجنود وربطوا كلّ واحدٍ في شجرةٍ قريبة. رفع الملازمُ معصمه ونظر في ساعته متجهِّمًا. ثم نظر عاليًا في مكانٍ من السماء كأنَّه يبحث عن شيءٍ هناك. بدا ساعتها مثل ناظر محطَّةٍ يقف على رصيفها في

انتظار قطارٍ متأخِّر. لكنَّه في الحقيقة لم يكن ينظر إلى شيء. كان يريد أن يتسرَّب بعضُ الوقت، لا أكثر. وحين انتهى، التفت إلى العريف وأمره بقتل ثلاثةٍ من السجناء الأربعة بالحِراب (رقم 1 ورقم 7 ورقم 9).

اختير ثلاثة جنودٍ للمهمَّة، فاتَّخذوا مواقعهم أمام الصينيِّين الثلاثة. وقد بدا الجنود أكثر شحوبًا من الذين سيُقتلون. وأمَّا الصينيُّون فكانوا لفرط إنهاكم لا يرجون شيئًا. عرض العريف على كلٍّ واحدٍ منهم سيجارةً، لكنَّهم رفضوا، فأعاد سجائره إلى جيب قميصه.

مشى الملازم كي يقف على مقربةٍ من الجنود، وأخذ الطبيب معه. قال له: «ينبغي لك أن تُشاهد ما سيحدث. تلك طريقةٌ أخرى للموت».

أومأ الطبيب. قال لنفسه إنَّ الملازم لا يحدِّثني، بل يحدِّث نفسه.

قال الملازم بصوتٍ هادئ: «إنَّ أسهل الطرق وأنجعها لقتلهم هي إطلاق النار عليهم، لكنَّ الأوامر تحتِّم علينا ألَّا نبدِّد رصاصةً واحدة، وبالتأكيد لا ينبغي تبديد الرصاص في قتل الصينيِّين. المطلوب منَّا أن نحافظ على ذخيرتنا لقتال الروس. لذلك سنقتلهم بالحِراب، لكنَّ الأمر ليس سهلًا. بالمناسبة يا دكتور، هلِ علَّموك استخدام الحربة في الجيش؟»

فقال الطبيب إنَّه لم يتدرَّب على استخدام الحربة، فقد كان طبيبًا بيطريًّا في سلاح الفرسان لا أكثر.

«سأُخبرك كيف يُقتل المرء بالحربة. أوّلًا، تحشرُها تحت الضلوع.. هنا». وأشار الملازم إلى ضلوعه، فوق بطنه. «ثم تجرّ سِنّ الحَربة في دائرةٍ عميقةٍ كبيرة داخله، كي تمزج أعضاءه. بعدها تدفع الحربة عاليًا، كي تنشبها في القلب. لا تتوقّع أن يموت ما إنْ تغرس في جسمه الحربة. لقد لُقِّنّا نحن الجنود هذه التفاصيل مرارًا، فالاشتباك بالأيدي والحراب (إلى جانب الهجمات الليليَّة) يُعدّ من مفاخر الجيش الأمبراطوريّ. والسبب الرئيس في ذلك هو أنَّه أقلّ كلفةً من الدبَّابات والطائرات والمدافع. بالطبع يمكنك أن تُدرِّب الجنود كما تشاء، ولكن في النهاية ما تطعنه في تدريباتك مجرَّد دميةٍ من القشّ، وليس إنسانًا حيًّا. لا تدمى الدميةُ ولا تصرخ، ولا تتساقط أحشاؤها على الأرض. وهؤلاء الجنود لم يقتلوا في حياتهم أحدًا بهذه الطريقة. ولا أنا».

نظر الملازم إلى العريف وأومأ له. فصاح هذا بالأمر إلى الجنود الثلاثة الذين انتصبوا في انتباه. ثم تراجعوا نصف خطوة، وصوَّب كلٌّ واحدٍ منهم حربته باتِّجاه سجينه. جأرَ واحدٌ من المساجين (رقم 7) بشيءٍ كأنَّه شتيمة صينيَّة، وبصق في تحدٍّ، لكنَّ بصقته لم تصل حتى إلى الأرض، فانزلقتْ على صدر قميصه.

ومع الأمر الثاني، نَشب الجنود الثلاثة حرابهم بقوَّة في أجساد مساجينهم. وكما قال الملازم، فقد لفُّوا الحربة كي تُمزِّق الأعضاء، ودفعوا بالسنِّ إلى الأعلى. لم تكن صرخات الصينيِّين عاليةً جدًّا، بل بدتْ أقرب إلى النشيج منها إلى الصراخ، وكأنَّهم

يزفرون ما تبقَّى من أنفاسهم دفعةً واحدة. سحب الجنود حرابهم وتراجعوا. وصاح العريف بأوامره ثانية، فكرَّر الجنود ما فعلوه: طعنٌ، ثم تدوير، ثم دفع إلى الأعلى، ثم سحب. شاهد الطبيب كلّ هذا في صمتٍ ذاهل، يهيمن عليه إحساسٌ بأنَّه ينشطر إلى نصفيْن، فأصبح الطاعنَ والمطعون في الوقت نفسه. كان يحسّ بطعنة الحربة وهي تدخل جسد الضحيَّة، ويحسّ بالألم من تمزُّق أحشائه.

استغرق الأمر وقتًا كي يموت الصينيُّون، أطول ممَّا ظنّ. تصبَّبتْ من أجسادهم المقطَّعة دماءٌ كثيرة على الأرض، لكنَّهم ظلُّوا يتلوُّون بعض الوقت. استخدم العريف حربته لكي يقطع الحبال التي تشدّ وثاقهم بالأشجار، ثم أمر الجنود الذين لم يشاركوا في القتل بأن يجرُّوا الجثث ويُلقوا بها في الحفرة. أحدثت هذه الجثث صوتًا مكتومًا هي الأخرى، لكنَّ الطبيب لم يملك إلَّا أن يشعر بأنَّ الصوت كان مختلفًا عن صوت الجثث السابقة، ربَّما لأنَّها لم تكن قد ماتت بعد.

لم يبقَ إلَّا السجين الذي يحمل رقم (4) على ظهر قميصه. قطع الجنود الثلاثة أصحاب الوجوه الشاحبة أوراقًا عريضة من النباتات الخفيضة، وراحوا يمسحون حرابهم الدامية. لم يكن الدم وحده الذي علق بنصال الحراب، بل كذلك سوائل جسديَّة غريبة اللون وقِطع من اللحم. كان على الجنود أن يستخدموا الأوراق كي يُعيدوا الحراب إلى حالتها الأصليَّة اللامعة.

تساءل الطبيب في نفسه لماذا تركوا الرجل رقم (4) حيًّا، لكنَّه لم يكن ينوي أن يسأل. أشعل الملازم سيجارةً أخرى،

وعرض واحدةً على الطبيب فأخذها في صمت، وضعها بين شفتيْه ثم أشعلها بعود ثقاب. لم ترتعش يده، ولكنْ بدا أنَّها فقدت كلّ إحساس، كما لو أنَّه كان يرتدي قفَّازًا سميكًا.

«كان هؤلاء تلاميذ عسكريِّين في مدرسة الضبَّاط بجيش مانشوكو، ورفضوا المشاركة في الدفاع عن شينجينغ. قتلوا اثنَيْن من معلِّميهم اليابانيِّين ليلة أمس وحاولوا الفرار، فأمسكنا بهم في دوريَّة ليليَّة ونتج عن ذلك مقتل أربعة منهم والقبض على أربعة آخرين. واستطاع اثنان آخران أن يهربا في جنح الظلام». حكَّ الملازم لحيته براحة يده، ثم أردف: «كانوا يحاولون الفرار بملابس البيسبول خشية اعتقالهم بوصفهم فارِّين من الخدمة العسكريَّة لو أنَّهم ارتدوا زيَّهم العسكريّ. أو ربَّما خافوا ممَّا قد تفعله القوَّات الشيوعيَّة بهم لو قبضوا عليهم بزيِّ مانشوكو. على أيِّ حال، لم يكن لدى هؤلاء في ثكناتهم من ملابس سوى زيِّهم العسكريّ وزيّ فريق البيسبول في مدرسة الضبَّاط. مزَّقوا الأسماء من قمصانهم، وقرَّروا أن يهربوا بها. لا أدري إن كنتَ سمعت من قبل، فمدرسة الضبَّاط بها فريق بيسبول رائع. كان يسافر إلى تايوان وكوريا للعب مبارياتٍ ودِّيَّة. وذلك الشخص...» وأومأ الملازم صوب الرجل المربوط في الشجرة. «ذلك الشخص كابتن الفريق واللاعب الضارب فيه. الأرجح أنَّه هو الذي دبَّر الهروب. فقد قضى على المعلِّمَيْن بمضربه. كان المعلِّمان يُدركان وجود لغطٍ في الثكنات فلم يرغبوا في توزيع السلاح على التلاميذ إلَّا عند الطوارئ. لقد شجَّ رأسيْهما بالمضرب، ويبدو أنَّهما فارقا الحياة فورًا. ضربتا بيسبول متقنتان. وهذا هو المضرب».

طلب الملازم من العريف أن يُحضر المضرب، ثم مرَّره إلى الطبيب. أمسك الطبيب به بيديْه ورفعه أمام وجهه كما يفعل اللاعب الذي يستعدّ لاستقبال الكرة. كان مضربًا عاديًّا، غير متقن الصنع. لكنَّه كان ثقيلًا، مُريح القبضة. كان مقبضه مسودًّا من أثر العرق، ولم يبدُ عليه ما يشي بأنَّه استُخدم في قتل كائنَيْن بشريَّيْن. أعاد الطبيب المضرب إلى الملازم، فسدَّد به في الهواء بضع مرَّات، تسديدةَ خبير.

قال الملازم: «هل تلعب البيسبول؟»

«طوال طفولتي».

«وكبرتُ عليها الآن؟»

فقال الطبيب: «ما عدت ألعبها» وكان على وشك أن يسأل: «ماذا عنك أيُّها الملازم؟» لكنَّه ابتلع سؤاله.

قال الملازم في صوتٍ جافٍّ وهو يخبط الأرض برأس المضرب: «أُمرتُ أن أضرب هذا الرجل حتى الموت، بالمضرب نفسه الذي استخدمه. العيْن بالعيْن، والسنّ بالسن. أصدقك القول إنَّني أجد هذا الأمر مقرفًا. فأيّ فائدة تعود علينا من قتل هؤلاء؟ لم تعد لدينا طائرات أو سفن حربيَّة، وأفضل قوَّاتنا قُتلت. ثمَّة قنبلةٌ جديدة مسحتْ مدينة هيروشيما بأكملها في جزءٍ من الثانية. إمَّا أنَّنا سنُطرد من مانشوريا أو نُقتل فيها جميعًا، وتعود الصين إلى الصينيِّين مرَّةً أخرى. لقد قتلنا الكثير من الصينيِّين، فما الفائدة من إضافة بضع جثث؟ لكنَّ الأوامر أوامر، وأنا جنديّ لا أملك إلَّا أن أتَّبع الأوامر. قتلنا بالأمس النمور

والفهود، واليوم علينا أن نقتل هؤلاء. انظر جيِّدًا يا دكتور. هذه طريقة أخرى للموت. أنت طبيب، ولعلَّك اعتدت السكاكين والدماء والأحشاء، لكنَّك ربَّما لم تَرَ في حياتك شخصًا يُضرب حتى الموت بمضرب بيسبول».

أمر الملازم العريفَ أن يحضر له اللاعب رقم 4 (الكابتن الضارب) إلى حافَّة الحفرة. كبِّلوا يديْه وراء ظهره، وعَصبوا عينَيْه وأجبروه على أن يجثو. كان شابًّا طويلًا ممشوق القوام، له ذراعان هائلان كأنَّهما فخذان. نادى الملازم جنديًّا وناوله المضرب. قال: «اقتله بهذا». وقف الجنديّ في انتباه، وأدَّى التحيَّة قبل أن يأخذ المضرب، لكنَّه حين أمسكه بيديْه ظلّ واقفًا في مكانه، كأنَّما قد صُعق. بدا عاجزًا عن أن يفهم كيف يُضرب رجلٌ صينيّ حتى الموت بمضرب بيسبول.

قال الملازم للجنديّ الشابّ (الذي سيشُجُّ رأسَه حارسٌ سوفييتيّ في منجمٍ قرب إركوتسك): «هل سبق وأن لعبت البيسبول؟»

«لا، سيِّدي. ولا مرَّة». فقريْتُه التي وُلد فيها هوكايدو والقرية التي نشأ فيها في منشوريا كانتا فقيرتَيْن جدًّا حتى إنَّ الأسر فيها لم تكن تتحمَّل هذا الشكل من الرفاهية. لقد قضى صباه يجري في الحقول، يصطاد اليعاسيب ويبارز أقرانه بسيوفٍ من خشب. لم يلعب البيسبول في حياته ولم يشاهد مباراةً قطّ. كانت هذه أوَّل مرَّةٍ يمسك فيها مضربًا.

أوضح له الملازم كيف يمسك المضرب، وعلَّمه أساسيَّات

الضربة بتوضيح عَمَلي. ثم قال من بين أسنانه المصطكَّة: «أرأيت؟ الأمر كلّه يكمن في وركيْك. بدءًا من التحضير للضربة، تلفّ جسمك من الخصر فأسفل، وسوف ينساب رأس المضرب معك تلقائيًّا. فهمت؟ لو ركَّزت أكثر من اللازم في التصويب فسوف تتحمَّل ذراعاك كلّ الجهد، وتفقد طاقتك. صوِّب من خاصرتك».

لم يبدُ أنَّ الجنديّ استوعب تعليمات الملازم استيعابًا كاملًا، لكنَّه نزع عتاده الثقيل وتدرَّب على التصويب بعض الوقت. كان الجميع يراقبه. وضع الملازم يدَيْه على يدَي الجنديّ كي يساعده في تعديل قبضته. كان معلِّمًا جيّدًا. وما لبثْ أن تحرَّكت ضربة الجنديّ تشقّ الهواء (مع أنَّها لم تكن بارعة). وما افتقر إليه الجنديّ من مهارة، عوَّضه بقوَّة عضلاته، فقد قضى زمنًا يعمل في مزرعة.

قال الملازم وهو يمسح العرق عن حاجبه بقبَّعته: «جيِّد، هذا يكفي. حاول الآن أن تُنجز الأمر في ضربةٍ واحدة نظيفة. لا تدعه يعاني».

ما كان يريد قوله هو: «أنا أيضًا لا أريد أن نفعل ذلك. مَن بحقِّ الجحيم يُفكِّر في شيءٍ أحمق كهذا؟ أن تقتل إنسانًا بمضرب بيسبول. . . »، لكنَّ الضبَّاط لا يمكن أن يقولوا شيئًا كهذا لمجنِّديهم.

تقدَّم الجنديّ من الصينيِّ الجاثم المعصوبة عيناه. فلمَّا رفع المضرب، عكستْ أشعَّةُ الشمس الغاربة ظلَّ المضرب الطويل

على الأرض. خطرتْ للطبيب غرابةُ الموقف. لقد كان الملازم على حقٍّ، فلم يرَ قطّ رجلًا يُقتل بمضرب بيسبول. رفع الجنديّ المضرب عاليًا فترةً طويلة، ولاحظ الطبيب أنَّ رأس المضرب يرتعش.

أومأ الملازم للجنديّ. أخذ هذا نفَسًا عميقًا، ورفع المضرب استعدادًا للتصويب، ثم هوى به على رأس الصينيّ من الخلف. كانت ضربةً متقنة. فقد لفَّ وركيْه كما علَّمه الملازم، واندفع المضرب تلقائيًّا فضرب رأس الرجل خلف أذنه. أحدث ذلك صوت تكسيرٍ خافت حين تهشَّمت جمجمته، أمَّا الرجل نفسه فلم يصدر أيّ صوت. تعلَّق جسده في الهواء لحظةً في وضعيَّةٍ غريبة، ثم هوى. خدّه على الأرض، والدم يتدفَّق من أذنه. لم يتحرَّك. نظر الملازم في ساعته. أمَّا الجندي فكان ما يزال ممسكًا بالمضرب يحدِّق في الفراغ، فاغر الفم.

كان الملازم من أولئك الرجال الذين ينجزون الأشياء بحرصٍ شديد. انتظر دقيقةً كاملة، وحين رأى أنَّ الصينيّ لا يتحرَّك أبدًا قال للطبيب: «هلَّا فحصتَه للتأكُّد من أنَّه ميِّت فعلًا؟»

أومأ الطبيب، واقترب من الصينيّ وجثا، ثم أزال عصابة عينيْه. كانت عيناه مفتوحتَيْن على وسعهما، وقد ارتفعتْ حدقتاهما، فيما يتدفَّق دمٌ أحمرُ فاتح من أذنه. فمه نصف مفتوح يكشف عن لسانه. تلك الضربة جعلت رقبته تلفّ في زاويةٍ غريبة. من منخريْه خرجتْ كتلٌ سميكة من الدم فأحدثت بقعًا سوداء على الأرض. وثمَّة ذبابةٌ كبيرة يقظة شقَّت طريقها إلى أحد المنخريْن لتضع بيوضها. للتأكُّد، أمسك الطبيب معصم الرجل ليتأكَّد من

نبضه. لم يجد نبضًا. لا نبض أبدًا في المكان المفترض. لقد قضى الجنديّ على حياة هذا الرجل القويّ بضربةٍ واحدة، وكانت ضربته الأولى في حياته. نظر الطبيب إلى الملازم وأومأ له بإشارةٍ إلى أنَّ الرجل ميِّت من دون شكّ. وإذ أنهى مهمَّته، همَّ ينهض على قدمَيْه، فبدا له أنَّ الشمس المشرقة على ظهره اشتدَّت حرارتها فجأةً.

في تلك اللحظة نفسها، جلس الضاربُ الصينيّ ذو القميص رقم (4) معتدلًا، وكأنَّه استفاق من نومه. ومن دون أيّ حيرةٍ أو تردُّد (أو هكذا بدا لمن يرى)، أمسك بمعصم الطبيب. حدث هذا كلّه في جزءٍ من الثانية. وبُهت الطبيب؛ فقد كان هذا الرجل ميّتًا. أمّا الآن، بفضل قطرةٍ أخيرة من الحياة انبثقت من العدم، كان الرجل يقبض على معصم الطبيب بقوَّة الحديد. الأجفان ممدودةٌ على آخرها، والحدقتان ما تزالان تنظران إلى الأعلى، وسقط الرجل في الحفرة يجرّ الطبيب وراءه. سقط الطبيب فوقه، وسمع صوت ضلعٍ من أضلاع الرجل ينكسر من وطأة وزنه. مع ذلك، ظلّ اللاعبُ الصينيّ قابضًا على معصمه. رأى الجنود كلّ ذلك يحدث، لكنَّهم لفرط ذهولهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا سوى أن يتفرَّجوا. كان الملازم أوَّلَ من استردَّ وعيه، فقفز في الحفرة. سحب مسدَّسه من جرابه، وألصق فوَّهته برأس الصينيّ، وسحب الزناد مرَّتيْن. قرقعتان حادَّتان، وانفتحتْ فتحةٌ سوداء كبيرة في جبهة الرجل. الآن غابت حياته تمامًا، لكنَّه مع ذلك أبى أن يفلت معصم الطبيب. جثا الملازم وهو ما يزال ممسكًا بمسدَّسه، وراح يرفع أصابع الجثَّة واحدًا تلو الآخر. كان الطبيب

هناك في الحفرة، محاطًا بثماني جثث صينيَّة صامتة في ملابس البيسبول. وهناك في الحفرة، كانت صيحات السيكادات مختلفة جدًّا عمَّا هي فوق الأرض.

فلمَّا تحرَّر الطبيب من قبضة الميِّت، سحبه الجنودُ والملازمَ من القبر. أقعى الطبيب فوق العشب وأخذ عدَّة أنفاس عميقة، ثم نظر إلى معصمه. لقد تركتْ أصابع الرجل خمس علامات حمراء. شعر الطبيب ببردٍ في أعماق جسده، على الرَّغم من هذا العصر الحارّ من شهر آب / أغسطس. قال في نفسه لن أتخلَّص من هذا البرد أبدًا. كان ذلك الرجل عازمًا حقًّا على أنْ يأخذني معه إلى أيِّ مكانٍ يذهب إليه.

أمَّن الملازمُ مسدَّسه وأعاده إلى جرابه. كانت هذه أوَّل مرَّة في حياته يُطلق النار على بشر. لكنَّه حاول ألَّا يُفكِّر في الأمر. سوف تستمرّ الحرب بعض الوقت على الأقلّ، ويموت الناس فيها. فليؤجِّل التفكير العميق لوقتٍ لاحق. مسح راحة يده اليمنى المتعرِّقة في بنطاله، ثم أمر الجنود الذين لم يشاركوا في الإعدام بأنْ يردموا الحفرة. آنذاك، كان سربٌ كبير من الذباب قد استولى على كومة الجثث.

ظلَّ الجنديّ الشابّ واقفًا في مكانه مذهولًا، يقبض على المضرب. يبدو أنَّه لم يكن قادرًا على إفلاته. تركه الملازم والعريف وحده. لقد بدا أنَّه كان يشاهد الأحداث الغريبة كلّها (حين قبض الصينيّ «الميِّت» على معصم الطبيب وسقطا في القبر، وحين قفز الملازم وقتل الرجل، والآن والجنود يردمون الحفرة). لكنَّ الحقيقة أنَّه لم يكن يشاهد أيّ شيءٍ منها. كان يستمع إلى

طائر الزنبرك. وكاليوم السابق، كان الطائر في شجرةٍ في مكانٍ ما، يصدر ذلك القيييق قيييق، وكأنَّه يلفّ زنبركًا. نظر الجنديّ عاليًا، كي يحدِّد اتِّجاه الصيحات، لكنَّه لم يرَ أيّ علامةٍ على الطائر. شعر بغثيانٍ خفيف في حلقه، لكنَّه لم يكن بقوَّة الإحساس الذي جرَّبه في اليوم السابق.

وفيما كان الجنديّ ينصت إلى الزنبرك، رأى صورًا متقطِّعة تمرّ أمامه وتختفي. فبعد أن ينزع السوفييت سلاح اليابانيِّين، سيسلِّمون الملازم إلى الصينيِّين فيعدمه هؤلاء بسبب دوره في هذه الإعدامات. أمَّا العريف فسوف يهلك بوباءٍ في معسكر عملٍ في سيبيريا. سيعزلونه في سقيفةٍ إلى أن يموت، مع أنَّه في الحقيقة كان قد انهار من سوء التغذية ليس إلَّا، ولم يُصب بالوباء قبل أن يقذفوا به في تلك السقيفة. وأمَّا الطبيب البيطري ذو العلامة على وجهه فسوف يموت في حادثٍ بعد سنة. سيأخذه السوفييت عقابًا على تعاونه مع العسكريِّين، ويرسلونه إلى معسكرٍ للأشغال الشاقَّة في سيبيريا. هناك سيعمل في منجم فحم، ويغرق مع جنودٍ كثيرين في فيضان. قال الجنديّ لنفسه: وأمَّا أنا... لكنَّه لم يستطع أن يرى مستقبله. لم يكن يستطيع حتى أن يرى الأحداث التي تتسرَّب أمام عينيْه. فقد أغمض عينيْه الآن وراح ينصت إلى نداء طائر الزنبرك.

ثم فجأةً، خطر له المحيط. ذلك المحيط الذي رآه من على ظهر السفينة التي أتى بها من اليابان إلى منشوريا. لم يكن قد رأى المحيط من قبل، ولا رآه بعد ذلك. كان هذا قبل ثماني سنوات. ما يزال يذكر رائحة الهواء المالح. كان المحيط واحدًا

من أعظم ما رأى في حياته، أكبر وأعمق من أيِّ شيءٍ مرَّ في خياله. كان يُغيِّر لونه وشكله وتعابيره وفقًا لتغيّر الزمان والمكان والأجواء. لقد أثار البحر حزنًا عميقًا في قلبه، لكنَّه في الوقت نفسه أضفى عليه راحةً وطمأنينة. أتُرى سيراه ثانيةً؟ أرخى أصابعه وترك المضرب يسقط، فأصدر هذا صوتًا جافًّا وهو يرتطم بالأرض. وما إنْ ذهب المضرب من يده حتى شعر بازديادٍ طفيف في الغثيان.

ظلّ طائرُ الزنبرك يصيح، ولكنْ لا أحد غيره يسمع نداءه.

*

هنا انتهت «يوميَّات طائر الزنبرك رقم 8».

27
روابط قرفة المفقودة

هنا انتهتْ «يوميَّات طائر الزنبرك رقم 8».

خرجتُ من الملفّ وعدتُ إلى القائمة الأساسيَّة، ونقرتُ على «يوميَّات طائر الزنبرك رقم 9». كنتُ أريد أن أقرأ تكملة القصَّة. لم يظهر لي ملفٌّ جديد، بل الرسالة التالية:

الدخول غير مسموح إلى «يوميَّات طائر الزنبرك رقم 9» وفقًا للتشفير رقم R24

يُرجى اختيار ملفٍّ آخر

اخترت رقم (10)، فظهرت الرسالة نفسها:

الدخول غير مسموح إلى «يوميَّات طائر الزنبرك رقم 10» وفقًا للتشفير رقم R24

يُرجى اختيار ملفٍّ آخر

تكرَّر الأمر نفسه مع رقم (11) وجميع الملفَّات الأخرى بما فيها رقم (8). لا أدري ما هو «التشفير R24»، لكنْ من الواضح أنَّه كان يمنع الدخول إلى كلِّ الملفَّات. ربَّما في اللحظة التي فتحتُ فيها «يوميَّات طائر الزنبرك رقم 8» كان يمكنني أن أدخل إلى أيِّ ملفّ آخر، ولكنْ بعد أن أغلقتُه انغلقتْ أبواب الملفَّات كلّها. ربَّما هذا البرنامج لا يسمح بالدخول إلى أكثر من ملفّ واحد في كلّ مرَّة.

جلستُ أمام الحاسوب أتساءل عن خطوتي التالية. ولكنْ لم تكن لديَّ خطوةٌ تالية. كان هذا عالمًا منظَّمًا جدًّا، متصوَّرًا في عقل قرفة، وكان يسير وفق مبادئه. لم أكن أنا أعرف قواعد اللعبة، فاستسلمتُ وأغلقت الحاسوب.

*

كانت «يوميَّات طائر الزنبرك رقم 8» من دون شكّ قصَّةً كتَبها قرفة. وقد أدخل ستَّ عشرة قصَّة في حاسوبه تحت عنوان «يوميَّات طائر الزنبرك»، وصادف الأمرُ أنَّني اخترتُ رقم (8). وبالنظر في طول هذه القصَّة، يبدو أنَّ القصص الستّ عشرة لو طُبعت ستخرج في كتابٍ كبير.

ولكنْ تُرى إلى ماذا يُشير «رقم 8»؟ لعلَّ كلمة «يوميَّات» تُشير إلى أنَّ القصص مرتَّبة ترتيبًا زمنيًّا، أي أنَّ القصَّة رقم (8) تأتي بعد القصَّة رقم (7)، والقصَّة رقم (9) تأتي بعد القصَّة رقم (8)، وهكذا. كان هذا افتراضًا منطقيًّا، وإن لم يكن صحيحًا بالضرورة. فربَّما كانت مرتَّبةً على نحوٍ آخر. ربَّما كانت مرتَّبة

بالعكس، من الحاضر إلى الماضي. ولو شطحنا في الافتراض قد نقول إنَّها ستّ عشرة رواية مختلفة للقصَّة نفسها. في كلّ الأحوال، كانت القصَّة التي اخترتها جزءًا ثانيًا من القصَّة التي روتها لي والدة قرفة عن الجنود الذين قتلوا الحيوانات في حديقة الحيوان في شينجينغ، في شهر آب / أغسطس من عام 1945 م. كانت في الحديقة نفسها في اليوم التالي، والشخصيَّة الرئيسة أيضًا كانت نفسها، والد جوزة الطيب، جدّ قرفة، الطبيب البيطريّ مجهول الاسم.

لم تكن لديَّ طريقةٌ أعرف بها مقدار الحقيقة في هذه القصَّة. أتُرى كانت كلّها من اختراع قرفة، أم أنَّ أجزاءً منها مبنيَّة على أحداثٍ حقيقيَّة؟ كانت جوزة الطيب قد قالت لي إنَّه لم يُعرف «أيُّ شيءٍ على الإطلاق» عمَّا حدث لأبيها بعد أن رأتْه آخر مرَّة. وهذا يعني أنَّ القصَّة لا يمكن أن تكون حقيقيَّة بأكملها. مع ذلك، لا يُستبعد أن تكون بعض التفاصيل مستقاةً من حقيقةٍ تاريخيَّة. يُحتمل أن يكون عددٌ من التلاميذ في مدرسة الضبَّاط بجيش مانشوكو قد أُعدموا في تلك الفترة ودُفنوا في حفرةٍ في حديقة شينجينغ، وأنَّ الضابط اليابانيّ المسؤول عن العمليَّة قد أُعدم هو الآخر بعد الحرب. لم تكن حالات التمرُّد والفرار من الخدمة في قوَّات جيش مانشوكو نادرةً على الإطلاق. صحيح أنَّ مسألة ارتدائهم ملابس البيسبول قد تكون غريبة، إلَّا أنَّها ليست مستحيلة. هكذا، إذن، ربَّما عرف قرفة هذه الحقائق فمزجها بالصورة التي لديه عن جدِّه، وكتب القصَّة.

ولكنْ لماذا يا تُرى كتب قرفة هذه القصص؟ ولماذا كتبها

قِصصًا؟ لماذا لم تكن في قالبٍ آخر؟ ولماذا استخدم كلمة «يوميَّات» في العنوان؟ فكَّرتُ في هذه الأشياء وأنا جالس على الأريكة في غرفة القياس، أُقلِّبَ قلمًا ملوَّنًا في يدي، مرَّةً تلو المرَّة.

كان عليَّ أن أقرأ القصص الستّ عشرة كلّها كي أجد الأجوبة، لكنَّني بعد قراءة القصَّة رقم (8) وحدها أدركتُ شيئًا يسيرًا (وإن كان غامضًا) عمَّا يبحث عنه قرفة عبر الكتابة. كان ماضيًا في بحثٍ عن معنى وجوده. وكان يرجو أن يجده بالنظر في الأحداث التي سبقت مولده.

وحتى يستطيع أن يفعل ذلك كان مضطرًّا إلى سدِّ فجوات الماضي التي لم يكن يستطيع الوصول إليها. فهو حين ينشئ القصَّة يحاول أن يوفِّر الروابط المفقودة. ومن القصص التي سمعها من أمِّه مرَّةً بعد مرَّة استقى قصصًا أخرى، في محاولةٍ لأنْ يبعث الحياة في شخصيَّة جدِّه الغامضة، في سياقٍ جديد. وقد ورث عن قصص أمّه الأسلوب الأساسيّ الذي يستخدمه في قصصه، ألا وهو الافتراض بأنَّ **الوقائع قد لا تكون الحقيقة، والحقيقة قد لا تكون مطابقةً للواقع**. لم يكن مهمًّا بالنسبة إليه أيّ أجزاءٍ من القصَّة كانت مطابقةً للواقع وأيُّها لم يكن كذلك. فالمسألة المهمَّة ليس الذي **فَعَله جدّه**، بل **ما يُحتمل أن يكون قد فعله**. وقد عرف الجواب فور أن نجح في سرد القصَّة.

كان يستخدم في قصصه «طائر الزنبرك» بوصفه عبارةً مفتاحيَّة، وكانت بالتأكيد تقريبًا تنقل السرد إلى الوقت الحاضر في شكل يوميَّات (أو ربَّما ليس في شكل يوميَّات). على أنَّ «طائر

الزنبرك» لم يكن مصطلحًا من اختراع قرفة، فقد قالتْه أمّه في قصَّةٍ روتْها لي في المطعم الذي كنَّا نلتقي فيه في آوياما. ومن شبه المؤكَّد أنَّ جوزة الطيب لم تكن تعرف آنذاك أنَّني أُلقَّب بـ «سيِّد طائر الزنبرك»، ما يعني أنَّني مرتبطٌ بحكايتهما في مزيجٍ عجيب من المصادفات.

لكنَّني لم أستطع أن أتيقَّن من ذلك. فربَّما كانت جوزة الطيب تعرف أنَّني أُلقَّب بـ «سيِّد طائر الزنبرك»، فأثَّر هذا الاسم على قصَّتها (أو بالأحرى قصَّتهما) وشقَّ طريقه في اللاوعي. لعلَّ هذه القصَّة التي يمسك خيوطَها قرفةُ ووالدته لا توجد في شكلٍ ثابتٍ واحد، بل تتغيَّر وتنمو كما يحدث للقصَّة التي تُروى شفاهيًا.

وسواء أكان الأمر صدفةً أم لا، يبقى أنَّ لـ «طائر الزنبرك» حضورًا قويًا في قصَّة قرفة. فصَيْحةُ هذا الطائر لا يسمعها إلَّا أشخاصٌ معيَّنون، تقودهم إلى هلاكٍ محتوم. إرادة البشر لا تعني شيئًا إذن، كما كان يشعر الطبيب البيطريّ. لم يكن البشر أكثر من دمى فوق سطح الطاولة، يُلفُّ الزنبرك في ظهورها بقوَّة، ثم تُترك كي تتحرَّك على نحوٍ لا تختاره، وفي اتِّجاهٍ لا تختاره. كلّ الذين كانوا في محيط صيحة الطائر تقريبًا هلكوا، وضاعوا. معظمهم ماتوا، سقطوا من حافَّة الطاولة.

*

الأرجح أنَّ قرفة كان يراقب محادثتي مع كوميكو. فربَّما كان يعرف كلّ ما يدور في حاسوبه، وانتظر حتى أنتهي كي يُقدِّم لي

قصَّة «يوميَّات طائر الزنبرك». لم يحدث هذا صدفةً أو عن خاطرٍ عابر. لقد برمج قرفة الحاسوب لغرضٍ محدَّد في عقله، وتعمَّد أن يُريني قصّةً واحدة. وحرص على أن أعرف باحتمال وجود مجموعةٍ كبيرة من القصص الأخرى.

استلقيْتُ على الأريكة أنظر في السقف في غرفة القياس، والغرفة نصف معتمة. كان الليل دامسًا ثقيلًا، والحيّ يئنّ من قسوة الهدوء. السقف بدا مثل غطاءٍ أبيض سميكٍ من الثلج موضوع في أعلى الغرفة.

ثمَّة أشياءُ غريبةٌ مشتركة بيني وبين جدّ قرفة، ذلك الطبيب البيطريّ مجهول الاسم. علامة الوجه، ومضرب البيسبول، وصيحة طائر الزنبرك. وهناك الملازم الذي ظهر في قصَّة قرفة، فقد ذكَّرني بالملازم ماميا. كان هذا يخدم أيضًا في قيادة جيش كوانتونغ في شينجينغ آنذاك. لكنَّ الملازم ماميا لم يكن مسؤول الرواتب بل ضابطًا في قسم الخرائط، ولم يُعدم بعد الحرب (فقد حرمه القدَر من الموت) بل عاد إلى اليابان بعد أن فقد يده اليسرى في المعركة. مع ذلك، سيطر عليَّ انطباع بأنَّ الضابط الذي أمر بإعدام التلاميذ الصينيِّين كان هو الملازم ماميا. على الأقلِّ لو أنَّه كان **بالفعل** الملازم ماميا، فلن يكون الأمر غريبًا على الإطلاق.

وهناك مسألة المضرب أيضًا. كان قرفة يعلم أنَّني أحتفظ بمضرب بيسبول في قاع البئر، ما يعني أنَّ صورة المضرب ربَّما تسلَّلت إلى قصَّته مثلما تسلَّلت «يوميَّات طائر الزنبرك». ولكنْ حتى إنْ كان ذلك صحيحًا، فثمَّة شيءٌ في موضوع المضرب لا

يمكن تفسيره بهذه البساطة، ألا وهو الرجل الذي هاجمني بالمضرب في تلك البناية. كان هو نفسه الذي قدَّم عرض اليد والشمعة في البار في ساپورو، ثم ضربني بالمضرب لاحقًا، فأخذتُ المضرب وضربته به. إنَّه هو الذي **سلَّمني** المضرب.

وأخيرًا، لماذا اصطنعتُ لوجهي علامةً تطابق العلامة التي كانت عند جدّ قرفة؟ أفهل كانت هذه أيضًا شيئًا تسلَّل إلى القصَّة من وجودي؟ هل كانت للطبيب البيطريّ فعلًا علامةٌ على وجهه؟ لم تكن جوزة الطيب في حاجةٍ إلى اختراع هذا حين وصفتْ أباها لي، بل إنَّ الأمر الذي قادها إلى «إيجادي» في شوارع شنجوكو هو هذه العلامة المشتركة بيني وبين أبيها. كانت كلّ الأشياء متداخلة، كأنَّها لعبةُ الصورة المقطَّعة لكنَّها ثلاثية الأبعاد. لعبةٌ فيها الحقيقة ليست بالضرورة واقعًا، والواقع ليس حقيقةً بالضرورة.

نهضتُ عن الأريكة وذهبتُ مرَّةً أخرى إلى مكتب قرفة. جلستُ إلى الطاولة، أسندتُ مرفقيَّ عليها، وحدَّقتُ في شاشة الحاسوب. **ربَّما كان قرفة موجودًا هناك بالداخل**. فقد كانت كلماته الصامتة تعيش وتتنفَّس قصصًا هناك. كان لها أن تُفكِّر وتبحث وتنمو وتبعث الحرارة. غير أنَّ الشاشة التي أمامي ظلَّت غارقةً في الموت كالقمر، تخفي كلمات قرفة في غابةٍ من متاهات. لا الشاشة ولا قرفة نفسه من خلفها حاول أن يُخبرني بشيءٍ أكثر ممَّا قيل لي من قبل.

28

البيوت لا أمان لها

(مايو كاساهارا تتحدَّث: 5)

كيف حالك سيِّد طائر الزنبرك؟

كتبتُ في نهاية رسالتي السابقة أنَّني قلتُ لك كلّ ما أريد قوله تقريبًا. . كما لو أنَّ الأمر سينتهي عند ذاك الحدّ. أتذكر؟ لكنَّني جلستُ أُفكِّر بعد ذلك، وبدأت أشعر أنَّه ينبغي لي أن أكتب أكثر. وها أنا الآن، أدبّ في منتصف الليل مثل صرصار، أجلس إلى طاولتي وأكتب لك مرَّةً أخرى.

لا أدري لماذا أُفكِّر في أسرة مياواكي كثيرًا هذه الأيَّام! المساكين الذين كانوا يعيشون في البيت الخالي، ثم لاحقهم الدائنون فخسروا كلّ شيءٍ وانتحروا. أذكر جيّدًا أنَّني قرأتُ أنَّ الابنة الكبرى لم تمت، وأنَّ لا أحد يعرف مكانها. . . تخطر هذه

العائلة في رأسي دائمًا، سواءٌ أكنتُ أعمل أم أتناول العشاء أم أستمع إلى الموسيقى في غرفتي أم أقرأ. لا أقصد أنَّ شبحهم يلاحقني أو ما إلى ذلك، ولكنْ كلَّما حدثتْ فجوةٌ (ورأسي به الكثير من الفجوات!) تزحف إليَّ ذكراهم وتلبث هناك بعض الوقت، كما يتسرَّب دخان النار من النافذة. ظلَّ هذا يحدث طوال الوقت في الأسبوع الماضي.

لقد عشتُ في بيتنا في ذلك الزقاق منذ ولادتي، ونشأتُ وأنا أنظر إلى البيت المقابل. فنافذة غرفتي تطلّ عليه مباشرة. أعطاني أبويّ غرفةً لي حين دخلتُ المرحلة الابتدائيَّة. في ذلك الوقت، كانت أسرة مياواكي قد بنت بيتها الجديد وسكنته. كنتُ دائمًا ما أرى واحدًا منهم في البيت أو الفِناء، وكثيرًا من الملابس المعلَّقة كي تجفّ في الأيَّام المشمسة، والبنتَيْن تناديان باسم كلبهما الألمانيّ الأسود الكبير (ما اسمه؟). وحين تغيب الشمس تُفتح الأضواء داخل البيت، فيبدو دافئًا حميميًّا، ثم تُطفأ الأضواء لاحقًا واحدًا بعد الآخر. كانت البنتان تتلقَّيان دروسًا في العزف، الكبيرة في البيانو، والصغيرة في الكمان (كانت الكبيرة أكبر منِّي، والصغيرة أصغر منِّي). كانوا يُقيمون حفلاتٍ في بعض المناسبات مثل أعياد الميلاد، فيأتي الكثير من الأصدقاء، وكان البيت غامرًا بالسعادة والبهجة. من يرى البيت بعد أن أصبح خاليًا خَربًا لا يمكن أن يتصوَّر كيف كان حاله من قبل.

كنتُ أرى السيِّد مياواكي يُقلِّم الأشجار وما إلى ذلك في العطلات الأسبوعيَّة. كان يبدو مستمتعًا بإنجاز المهامّ المنزليَّة بنفسه، تلك المهامّ التي تستغرق وقتًا، مثل تنظيف المزاريب أو

تمشية الكلب أو تلميع السيَّارة. لا أفهم أبدًا كيف يستمتع الناس بهذه الأشياء، فهي مشقَّةٌ كبيرة، ولكنْ كلّ شخصٍ وما يهوى. وأظنّ أنَّ كلّ أسرةٍ بها شخصٌ واحد على الأقلّ على هذا النحو. كانت الأسرة بأكملها تذهب للتزلُّج على الجليد، ففي كلّ شتاء يربطون عدَّة التزلُّج بسقف سيَّارتهم الكبيرة ويغادرون إلى مكانٍ ما، ويبدون في غاية البهجة (أمَّا أنا فأكره التزلُّج).

كلامي هذا يجعلهم يبدون أسرةً سعيدة عاديَّة، لكنَّهم فعلًا كانوا هكذا، مجرَّد أسرة سعيدة عاديَّة. لم يكن فيهم أيّ شيء على الإطلاق يُثير العجب أو يدعوك إلى التُفكُّر.

كان الناس في الحيّ يتهامسون: «ما كنَّا لنسكن في مكانٍ مخيفٍ كهذا حتى وإن أعطيتمونا إيَّاه مجَّانًا»، لكنَّ مياواكي وأسرته كانوا يعيشون حياةً مطمئنَّة هناك، صورةً جميلة في إطار، لا تشوبها ذرَّةٌ من غبار. كانوا من أهل تلك الحكايات الذين يعيشون «في تباتٍ ونبات». فإن قارنتَهم بأسرتي على الأقلّ لوجدتَ أنَّهم كانوا يعيشون في تباتٍ ونبات عشرة أضعاف أسرتنا. كما أنَّ البنتَيْن كانتا لطيفتَيْن جدًّا كلَّما قابلتهما. كنتُ أتمنَّى لو كانت لي أختان مثلهما. لقد بدا أنَّ الأسرة كلّها كانت تضحك دائمًا، بما في ذلك الكلب.

لم أكن أتخيَّل أنَّ هذا كلّه يمكن أن يختفي في غمضة عيْن. لكنَّ هذا ما حدث. ذات يوم، لاحظتُ أنَّ الأسرة كلّها (بما فيها كلب الشيبرد الألمانيّ) اختفت، كما لو أنَّ ريحًا اقتلعتْهم من المكان، فلم تترك خلفها من شيءٍ سوى البيت. لم يلاحظ أحدٌ من الحيِّ غياب الأسرة فترةً، ربَّما أسبوعًا. لقد لفت نظري أنَّ

الأضواء لم تكن تُرى في الليل، لكنَّني قلتُ في نفسي ربَّما ذهبوا في رحلةٍ عائليَّة. ثم سمعتْ والدتي أقاويل عن أنَّ الأسرة «فرَّت» كما يبدو. أذكر أنَّني سألتُ والدتي عن معنى هذه الكلمة. فنحن الآن نستخدم كلمة «هربت» فقط.

ما إنْ اختفى الذين كانوا يعيشون في البيت، حتى تغيَّر منظره تمامًا. كان شبه مخيف. لم أرَ في حياتي بيتًا خاليًا من قبل، فلم أكن أعرف كيف تبدو البيوت الخالية العاديَّة، لكنَّني ظننتُ أنَّه سيبدو حزينًا مقهورًا، مثل كلبٍ سائب أو قشرةٍ نَزَعتها عنها حشرةُ السيكادا. لكنَّ بيت مياواكي لم يكن كذلك. لم يبد «مقهورًا» على الإطلاق. فمنذ اللحظة التي اختفتْ فيها الأسرة اكتسى البيت هيئةً لامبالية، كأنَّه يقول «لا أعرف شيئًا، ولم أسمع في حياتي عن شخصٍ يُدعى مياواكي». هكذا بدا لي على الأقلِّ. كان أشبه بالكلب الأحمق ناكر الجميل. فما إنْ رحلوا حتى تحوَّل إلى بيتٍ خالٍ مكتفٍ بذاته، منفصلٍ تمامًا عن سعادة الأسرة. لقد سخطتُ جدًّا من هذا البيت! فالمؤكَّد أنَّه كان سعيدًا مثل بقيَّة أفراد الأسرة حين كانوا هناك. وبالتأكيد، كان يحبّ أن يُنظَّف جيِّدًا ويُعتنى به، بل إنَّه لم يكن ليوجد من الأساس لولا أنَّ السيِّد مياواكي تكرَّم ببنائه. ألا توافقني؟ بصراحة، البيوت لا أمان لها.

وأنتَ تعرف مثلما أعرف كيف كان البيت يبدو بعد ذلك، يا سيِّد طائر الزنبرك. كان مهجورًا، ملطَّخًا بفضلات الطيور وما إلى ذلكَ. وهذا هو المنظر الذي كنت أراه من نافذتي سنواتٍ حين كنت أجلس إلى طاولتي أدرس، أو أتظاهر بالدراسة. كان أمامي دائمًا، في أيَّام الصحو المشمسة، أو أيَّام المطر، أو الثلج أو

الأعاصير، فلم أملك إلَّا أن أراه كلَّما نظرتُ إلى الخارج. والغريب أنَّني بمرور السنوات لم أعد أحاول ألَّا ألاحظه. كنتُ أحيانًا أقضي نصف ساعةٍ كاملة أستند بمرفقيَّ إلى الطاولة، ولا أفعل شيئًا سوى النظر إلى البيت الخالي. يا لهذا البيت الذي كان منذ عهدٍ قريب يضجّ بالضحك، والملابس البيضاء النظيفة ترفرف فيه مع الهواء مثل إعلانٍ لمسحوق غسيل (لا أريد أن أقول إنَّ السيِّدة مياواكي كانت «غريبة الأطوار»، لكنَّها كانت تعشق غسل الملابس، أكثر بكثيرٍ من بقيَّة الناس). وكلّ هذا مضى في غمضة عين. تغطَّى الفِناء بالحشائش، لم يبقَ أحدٌ يتذكَّر أيَّام مياواكي وأسرته السعيدة. بالنسبة إليَّ كان هذا غريبًا جدًّااااااا!

دعني أوضِّح أمرًا. في الحقيقة، لم تكن لي علاقة حميمة بأسرة مياواكي، بل إنَّني نادرًا ما كنت أتحدَّث إلى أحد منهم، سوى أنْ أحيّيهم بـ «مرحبًا» حين أراهم في الشارع. ولكنْ لأنَّني أنفقتُ وقتًا طويلًا وجهدًا كبيرًا وأنا أشاهدهم عبر النافذة كلّ يوم، شعرتُ كما لو أنَّ لحظات سعادتهم أصبحت جزءًا منِّي. هل تعرف كيف تبدو في الصور العائليَّة لمحةٌ لشخصٍ غريب لا علاقة له بالعائلة؟ هكذا كنتُ أشعر أحيانًا بأنَّ جزءًا منِّي «فرَّ» مع أسرة مياواكي واختفى. كم غريبٌ أن تشعر بأنَّ جزءًا منك اختفى لأنَّه «فرَّ» مع أشخاصٍ تكاد لا تعرفهم!

وبما أنَّني بدأتُ أحكي لك عن الأشياء الغريبة، فسوف أحكي لك شيئًا آخر. وهذا بالفعل غريب!

مؤخَّرًا، أصبحت أشعر أنَّني أنا تحوَّلت إلى كوميكو. أنَّني فعلًا السيِّدة طائر الزنبرك، وأنَّني هجرتك لسببٍ من الأسباب،

واختبأتُ هنا في الجبال أعمل في مصنع باروكات. وثمَّة أسبابٌ معقَّدة تضطرُّني إلى الاختفاء وراء اسم «مايو كاساهارا»، ووراء هذا القناع كي أتظاهر بأنَّني لست كوميكو. وأنت هناك تجلس في شرفتك التعيسة، تنتظر عودتي. فعلًا أشعر بهذا.

قل لي يا سيِّد طائر الزنبرك، هل يحدث أن تستحوذ عليك أوهامٌ كهذه؟ ليس شيئًا أفتخر به، لكنَّه يحدث لي. طوال الوقت. في بعض الأحيان، حين تشتدّ عليّ، أقضي نهاري كلّه ملتفَّةً في سحابةٍ من الوهم. أؤدِّي الأعمال البسيطة المطلوبة منِّي بالطبع، فلا يؤثِّر هذا في عملي، لكنَّ الفتيات الأخريات يرمقنني بنظرةٍ غريبة. لا أدري إنْ كنتُ أتفوَّه بأشياءَ مجنونة. أكره هذا، ولكنْ لا فائدة من مقاومته. فالوهم حين يريد أن يأتيك، يأتيك، مثل الدورة الشهريَّة. لا تستطيع أن تفتح له الباب وتقول: «آسف، أنا مشغول اليوم، تعال لاحقًا». على أيّ حال، أرجو ألَّا يزعجك يا سيِّد طائر الزنبرك أن أتظاهر أحيانًا بأنَّني كوميكو. فلستُ أفعل ذلك متعمِّدة.

أشعر بتعبٍ شديدٍ شديدٍ شديد. سأنام الآن ثلاث أو أربع ساعات نومًا عميقًا، ثم أستيقظ وأعمل بجدٍّ من الصباح إلى المساء. سأقضي يومًا مثمرًا أصنع الباروكات مع الفتيات، وأستمع إلى شيءٍ من الموسيقى. لا تقلق عليَّ، فأنا ماهرةٌ في إنجاز أشياءَ كثيرةٍ حتى حين يسكنني الوهم. وها أنا بطريقتي الخاصَّة أدعو لك، وأرجو أن يحالفك التوفيق في كلِّ أمورك، وأن تعود كوميكو كي تعيش مرَّةً أخرى حياةً هادئة هانئة.

وداعًا.

29
ميلادُ بيتٍ خالٍ

دقَّت الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، ثم العاشرة، ولا أثر لقرفة. لم يحدث شيءٌ كهذا من قبل، ولم يفوِّت قرفة يومًا واحدًا منذ أنْ بدأتُ «العمل» في هذا المكان. كانت البوَّابة تنفتح في كلِّ صباح عند التاسعة تمامًا، ويظهر بريق السيَّارة من شِعارها الأمامي. كان هذا الظهور البسيط، والمسرحيّ في الوقت نفسه إيذانًا لي ببداية يومٍ جديد. وقد اعتدت هذا الروتين اليوميّ الثابت كما يعتاد الناس الجاذبيَّة أو الضغط الجوِّي. ثمَّة نوع من الدفء في اطِّراد قرفة وانتظامه، ثمَّة شيء أكبر من مجرَّد القابليَّة الميكانيكيَّة للتنبُّؤ، شيء يضفي عليَّ راحةً وتشجيعًا. لذلك، فاليوم الذي لا يظهر فيه قرفة أشبه بلوحةٍ متقنة الرسم، لكنَّها تفتقر إلى نقطة تركيزٍ محوريَّة.

فقدتُ الأمل في انتظاره، فتركتُ النافذة، وفطرت بتفَّاحةٍ

قشَّرتها. ثم ألقيتُ نظرة على غرفة قرفة، لعلِّي أجد رسالةً على الحاسوب، لكنَّ الشاشة كانت مطفأة كالعادة. كلّ ما كان في وسعي أن أفعله هو أن أحذو حذو قرفة، وأستمع إلى موسيقى الباروك وأنا أغسل الملابس وأكنس الأرضيَّات وأنظِّف النوافذ. ولكي أُزجي الوقت، رحت أنجز كلّ مهمَّة من هذه المهامّ ببطءٍ وعنايةٍ شديدَيْن، إلى حدّ أنَّني نظَّفت الريشات في مروحة المطبخ. لكنَّ الوقت أبى أن ينقضي.

فلمَّا جاءت الساعة الحادية عشرة لم يبقَ لي شيٌ أفعله. تمدَّدتُ على الأريكة في غرفة القياس وسلَّمت نفسي لتيَّار الوقت الكسول. حاولت أن أُقنع نفسي بأنَّ شيئًا ما أخَّر قرفة. ربَّما تعطَّلت سيَّارته أو تعطَّل هو في زحامٍ مروريّ شديد. لكنِّي كنتُ أعرف أنَّ هذا كلّه غير صحيح، وكنتُ أستطيع أن أراهن عليه بكلِّ ما أملك. فسيَّارة قرفة لا تتعطَّل أبدًا، وكان دائمًا ما يحسب حساب الزحام المروريّ. وعلاوةً على ذلك، فقد كان لديه هاتفٌ في السيَّارة ويستطيع أن يتَّصل بي لو تعرَّض لطارئٍ ما. لا لا، قرفة غير موجود لأنَّه قرَّر ألَّا يأتي.

*

اتَّصلت بمكتب جوزة الطيب قبيل الواحدة ظهرًا، فلم يُجبني أحد. حاولت مرَّةً أخرى، من دون فائدة. ثم جرَّبت الاتِّصال بمكتب أوشيكاوا، فجاءتني رسالةٌ بأنَّ الرقم المطلوب لا يمكن توصيله. غريب، فقد اتَّصلت بهذا الرقم قبل يومَيْن فقط. فقدتُ الأمل وعدتُ إلى الأريكة في غرفة القياس. فجأةً، هكذا في اليومَيْن الأخيرَيْن شعرتُ بأنَّ هنالك مؤامرة على التواصل معي.

عدتُ إلى النافذة وتلصَّصتُ من وراء الستارة. كانت طيور الشتاء الصغيرة قد حطَّت على غصنٍ في الفِناء، تنظر أمامها بعينَيْن واسعتَيْن. ثم فجأةً طارت بعيدًا، كأنَّما ضجرتْ من كلٍّ شيء. ليس ثمَّة حركة في أيِّ شيء. والمسكن بدا مثل بيتٍ أصبح الآن خاليًا.

*

لم أعد إلى المسكن في الأيَّام الخمسة التالية. ولسببٍ أو لآخر، شعرت بأنِّي فقدت الرغبة في النزول إلى البئر. وعمَّا قريب سأفقد البئر نفسها. فأطول مدَّةٍ يمكنني الاحتفاظ بالمسكن فيها من دون عميلات كانت شهريْن اثنيْن، لذلك عليَّ أن أستخدم البئر قدر الإمكان قبل أن أفقدها. شعرت بأنِّي مخنوق. هكذا فجأةً، بدا المكان لي فاسدًا، غير طبيعيّ.

مشيتُ بلا هدفٍ من دون الذهاب إلى المسكن. كنتُ في العصر أذهب إلى ساحة شنجوكو الغربيَّة وأجلس على مقعدي المعتاد، أزجي الوقت من دون أن أفعل شيئًا. لكنَّ جوزة الطيب لم تأتِ. ذهبتُ مرَّةً إلى مكتبها في أكاساكا، وقرعتُ الجرس الذي عند المصعد وحدَّقت في كاميرا المراقبة، ولكنْ لم يُجبني أحد. كنت متهيِّئًا لفقدان الأمل. من الواضح، أنَّ جوزة الطيب وقرفة قد قرَّرا قطع كلّ صلةٍ بي. لقد هجرتْ هذه الأمّ الغريبة وابنها السفينةَ الغارقة بحثًا عن مكانٍ آمن. وكم فوجئتُ بحجم الأسى الذي تملَّكني من هذا الأمر. شعرتُ كما لو أنَّ أسرتي قد خانتني في نهاية الأمر.

30

ذيل مالطا كانو

*

بوريس السلّاخ

رأيتُ في حلمي (مع أنّي لم أُدرك أنَّه حلم) أنِّي أجلس إلى طاولةٍ أمام مالطا كانو نشرب الشاي. كان ذلك في غرفةٍ مستطيلة طويلة جدًّا وواسعة فلا يُرى أوَّلها من آخرها، وقد صُفَّت فيها صفوفٌ منتظمة من خمسمئة طاولة مربَّعة أو أكثر. جلسنا إلى طاولةٍ في المنتصف، ولا أحد غيرنا هناك. في السقف المرتفع الذي يُشبه ارتفاع معبدٍ بوذيٍّ، تمتدّ عوارض خشبيَّة لا حصر لها، تتدلَّى منها (مثل نباتات الأصص) أشياء تبدو وكأنَّها باروكات. فلمَّا دقَّقت النظر رأيت أنَّها كانت فَرَوات رؤوسٍ بشريَّة. عرفت ذلك من الدم الأسود على جوانبها. كانت فرواتٍ طازجةً معلَّقة

في العوارض كي تجفّ. كنت قلقًا من احتمال أن يتقطّر الدم (الذي ما يزال طازجًا) في شاينا. كان الدم يتقاطر حولنا مثل المطر، يهتزّ صداه في هذه الغرفة المجوّفة. ويبدو أنَّ الفروات التي كانت فوق طاولتنا هي الوحيدة التي جفَّت، فلم يكن الدم يتقطّر منها.

كان الشاي يغلي من حرارته. وفي صحن كلٍّ منَّا إلى جانب ملعقة الشاي ثلاث قطعٍ من السكَّر الأخضر البشع. وضعتْ مالطا كانو قطعتَيْن في كوبها وحرَّكتهما، لكنَّهما لم تذوبا. وفجأةً، ظهر كلبٌ جلس إلى جانب طاولتنا. وجهه وجه أوشيكاوا. كان كلبًا كبيرًا أسود اللون ضخمًا، لكنَّه من الرقبة فما فوق كان أوشيكاوا، سوى أنَّ فروه الأسود الأشعث الذي يغطّي جسده كان قد نما أيضًا على شعر أوشيكاوا ووجهه. قال الكلب بوجه أوشيكاوا: «يا لها من صدفة، السيِّد أوكادا! هلَّا نظرتَ إلى رأسي الممتلئ بالشعر؟ لقد نما في اللحظة التي تحوَّلتُ فيها إلى كلب. مدهش. ولديَّ الآن خصيتان أكبر من السابق، وبطني لم تعد تؤلمني. انظر: لا ألبس نظَّارة، ولا ملابس! يا لسعادتي! كيف لم تخطر ببالي هذه الفكرة من قبل. ليتني أصبحتُ كلبًا منذ زمن طويل! ماذا عنك سيِّد أوكادا، لِمَ لا تجرِّب؟»

التقطتْ مالطا كانو قطعة السكَّر الأخضر المتبقِّية، وألقتْها إلى الكلب. وقعت القطعةُ على جبهة أوشيكاوا فسال دمٌ أسود على وجه أوشيكاوا. لم يبدُ أنَّه تألَّم على الإطلاق. ظلَّ مبتسمًا، ورفع ذيله وابتعد من دون أن يقول كلمة. كان صادقًا في كلامه؛ فخصيتاه كانتا هائلتَيْن.

كانت مالطا كانو ترتدي معطفًا واقيًا من المطر، طيّات صدره مغلقةٌ بإحكام، لكنَّ الشذى الخفيف لجسمها العاري أوحى إليَّ أنَّها لم تكن ترتدي شيئًا تحته. كانت تعتمر قبّعتها الحمراء طبعًا. رفعتُ كوبي ورشفتُ الشاي، لكنَّه كان بلا طعم. كان ساخنًا، لا أكثر.

قالت مالطا كانو بصوتٍ يبدو عليه الارتياح: «سعيدةٌ بمجيئك». فلمَّا سمعتُ صوتها للمرَّة الأولى منذ مدَّة، خطر لي أنَّه أبهى من السابق. «كنتُ أحاول الاتِّصال بك منذ أيَّام، ولكنْ يبدو أنَّك كنتَ دائمًا خارج البيت. بدأتُ أقلق أن يكون أصابك مكروه. أحمدُ الربَّ على أنَّك بخير. كم ارتحتُ حين سمعتُ صوتك! عمومًا، أعتذر عن انقطاعي طوال الفترة الماضية. لا يمكنني الخوض الآن في تفاصيل ما حدث في حياتي، لا سيَّما على الهاتف هكذا، لذلك سأذكر لك الخلاصة المهمَّة. أهمّ ما في الأمر أنَّني كنتُ مسافرةً طوال الفترة الماضية، وعدتُ قبل أسبوع. سيِّد أوكادا؟ سيِّد أوكادا، هل تسمعني؟»

«نعم، أسمعك»، قلتُها وقد أدركتُ لحظتها فقط أنَّني كنت أضع سمَّاعة هاتف على أذني. مالطا كانو كانت هي الأخرى ممسكةً بسمَّاعة هاتف على الجانب المقابل من الطاولة. بدا صوتها ضعيفًا مثلما يحدث حين يكون الاتِّصال رديئًا في مكالمةٍ دوليَّة.

- «كنتُ خارج اليابان، في جزيرة مالطا على البحر الأبيض المتوسِّط. ذات يوم، خطرت لي فجأةً هذه الفكرة: «نعم، لا بدَّ من أن أعود إلى مالطا فأكون بجوار مائها. لقد آن الأوان!»

حدث هذا بُعيد مكالمتنا الأخيرة. هل تذكر تلك المكالمة سيِّد أوكادا؟ كنت ساعتها أبحث عن كريتا. عمومًا، لم أكن أنوي المكوث طويلًا خارج اليابان. كنت أريد أن أقضي أسبوعَيْن أو نحو ذلك. ولهذا، لم أتواصل معك، بل إنِّي لم أكد أُخبر أحدًا بذهابي، وصعدتُ الطائرة. أكاد لا أحمل شيئًا أكثر من ملابسي التي أرتديها، لكنَّني ما إنْ وصلتُ حتى وجدتُ نفسي غير قادرة على الرحيل. هل زرتَ مالطا من قبل سيِّد أوكادا؟»

قلت إنَّني لم أزرها. تذكَّرتُ أنَّ هذا الحوار نفسه دار بيني وبين مالطا كانو نفسها قبل سنوات.

«سيِّد أوكادا؟ سيِّد أوكادا؟»

«نعم، أسمعك».

بدا لي أنَّ هناك شيئًا كان لا بدَّ من أن أُخبر مالطا كانو به، لكنِّي لم أتذكَّر ما هو. وأخيرًا، تذكَّرته بعد أن قدحتُ ذهني وفكَّرت قليلًا. أمسكتُ السمَّاعة بيدي الأخرى وقلت: «أوه، بالمناسبة، كنت أريد أن أتَّصل بك منذ فترةٍ طويلة لأخبرك بشيء. لقد عاد القطّ».

بعد حوالى أربع ثوان أو خمس من الصمت، قالت مالطا كانو: «عاد القطّ؟»

«نعم. كان البحث عن القطّ هو الذي عرَّفنا ببعض أساسًا، لذلك كان لا بدَّ من أن أخبرك».

«متى عاد القطّ؟»

«في أوائل الربيع. وما يزال معي».

«هل هناك أيّ شيء مختلف في مظهره؟ هل تغيَّر شيءٌ عمَّا كان عليه قبل أن يختفي؟»

تغيَّر؟

«صحيح، شعرتُ بأنَّ شكل ذيْله قد تغيَّر قليلًا. وحين مسَّدتُ القطّ في اليوم الذي عاد فيه بدا لي أنَّ ذيله كان معقوفًا أكثر في السابق. ولكنْ قد أكون مخطئًا. فقد غاب عنِّي قرابة سنة».

«هل أنت متأكِّدٌ من أنَّه القطّ نفسه؟»

«نعم. القطّ معي منذ فترةٍ طويلة جدًّا. وبالتأكيد، سأعرف لو لم يكن هو نفسه».

«أها. بصراحة، يؤسفني قول هذا، لكنَّ الذيل الحقيقيّ معي هنا».

وضعتْ مالطا كانو السمَّاعة على الطاولة، ثم وقفتْ ونزعت معطفها. مثلما توقَّعتُ، فلم تكن تلبس شيئًا تحته. كان حجم ثدييْها وشكل شعر عانتها مثل أختها كريتا كانو تقريبًا. لم تخلع قبَّعتها الحمراء، واستدارت لتريني ظهرها. وهناك، فوق عجيزتها تمامًا، كان ذيل القطّ. كان هذا الذيل في جسدها أكبر من الذيل الأصليّ، لكنَّ شكله يطابق ذيل ماكريل. العقفةُ الحادَّة نفسها في الطرف، لكنَّها أكثر إقناعًا من التي عند ماكريل.

قالت: «انظر جيِّدًا. هذا هو الذيل الحقيقيّ للقطّ الذي اختفى. أمَّا الذيل الذي عند القطّ الآن فهو محض تقليد. قد يشبهه، ولكنَّك إنْ نظرتَ جيِّدًا سترى أنَّه مختلف».

مددتُ يدي ألمس ذيْلها، فحرَّكتْه بعيدًا عن يدي. ثم قفزتْ

فوق إحدى الطاولات، وهي ما تزال عارية. سقطتْ فوق راحتي الممدودة قطرةُ دمٍ من السقف. كانت حُمرتها بلون قبّعة مالطا كانو.

قالت من فوق الطاولة، وذيلها يتلوَّى بحدَّة: «سيِّد أوكادا، طفل كريتا كانو اسمه كورسيكا».

«كورسيكا؟»[1]

جأر الكلب الأسود (أوشيكاوا) فجأةً: ««ما كان ابن آدم جزيرةً معزولة». تلك الكورسيكا».

طفل كريتا كانو؟

استيقظتُ، غارقًا في عَرَقي.

*

مضتْ فترةٌ طويلة جدًّا منذ أنْ رأيتُ حلمًا طويلًا هكذا وموحَّدًا. وغريبًا. ظلَّ قلبي يدقّ بصوتٍ مسموع فترةً بعد استيقاظي. أخذتُ حمَّامًا ساخنًا وارتديتُ منامةً نظيفة. كان الوقت بُعَيْد الواحدة صباحًا، لكنِّي لم أعد أشعر بالنعاس. ولكي أهدِّئ نفسي، أخرجتُ قنِّينة براندي قديمةً من خزانة المطبخ وصببتُ لنفسي كأسًا، ورحتُ أشرب على مهل.

بعدها ذهبت إلى غرفة النوم بحثًا عن ماكريل. كان تحت اللحاف يغطُّ في نومه. سحبت اللحاف، وأمسكت بذيْله كي أتفحَّص شكله. مرَّرتُ أصابعي فوقه، أحاول أن أتذكَّر كيف

(1) جزيرة في البحر الأبيض المتوسِّط. (المترجم).

كانت زاوية الطرف المعقوف، فتمطّى القطّ منزعجًا وعاد إلى نومه. لم أعد متأكِّدًا من أنَّه الذيْل نفسه الذي كان له حين كنَّا نُسمِّيه نوبورو واتايا. كان الذيل الذي على عجيزة مالطا كانو أشبه بذيل نوبورو واتايا بكثير. ما أزال أذكر شكله ولونه في الحلم.

قالت مالطا كانو في الحلم **طفل كريتا كانو اسمه كورسيكا**.

*

في اليوم التالي، لم أبتعد كثيرًا عن البيت. في الصباح، اشتريت مخزونًا من الطعام من السوبرماركت قرب المحطَّة، وأعددتُ الغداء. أطعمتُ القطّ سردينات كبيرات طازجة. وفي العصر، سبحتُ في المسبح العموميّ. لم يكن هناك أشخاصٌ كثر. لعلَّ الناس منشغلون بتجهيزات رأس السنة. تناهت من السمَّاعات موسيقى أعياد الميلاد. أخذتُ أسبح ببطءٍ نحو ألف متر، إلى أن أصابني تشنُّج في مشط قدمي، فقرَّرت التوقُّف. على الجدار المقابل لحوض السباحة زخرفةٌ كبيرة من زخارف أعياد الميلاد.

فلمَّا عدتُ إلى البيت فوجئتُ برسالةٍ وصلتْ في بريدي. يبدو من اكتناز المظروف أنَّها رسالةٌ طويلة. عرفتُ المرسل من دون حتى أن أنظر في العنوان. فالشخص الوحيد الذي كان يكتب بخطٍّ أنيق قديم الطراز هو الملازم ماميا. استهلَّ رسالته باعتذاراتٍ كثيرة لأنَّه لم يرسل رسالةً منذ وقتٍ طويل. كان يصوغ عباراته بأدبٍ جمّ، حتى إنِّي شعرتُ بأنَّني أنا الذي ينبغي له الاعتذار.

منذ مدَّةٍ طويلة تحدوني الرغبة في أن أقصّ عليك طرفًا آخر من حكايتي، وبقيتُ عدَّة أشهر أُفكِّر في الكتابة إليك، غير أنَّ أشياء كثيرةً طرأتْ ولم تمنحني الفرصة لأن أجلس إلى طاولتي وأكتب. فلم أدرك ما فات إلَّا وكاد العام أن ينقضي. لكنَّني أشيخ، وقد أموت في أيِّ لحظة. لذلك، لا ينبغي أن أستمرَّ في هذا التسويف. قد تكون هذه الرسالة طويلة، لكنَّني أرجو ألَّا أشقّ عليك يا سيِّد أوكادا.

فحين سلَّمتك تذكار السيِّد هوندا في الصيف الماضي، قصصتُ عليك حكايةً طويلة عن أيَّامي في منغوليا، لكنَّ الحكاية لم تكن كاملة. وثمَّة أسبابٌ لم تهيّئ لي أن أورد تكملتها حين التقيتك العام الماضي. فأوَّلًا، لو أنِّي حكيتُ الحكاية كلّها لكانت طويلةً جدًّا، ولعلَّك تذكر أنَّه كان عندي عملٌ طارئ. ببساطة، لم يكن لديَّ ما يكفي من الوقت لكي أحكي كلّ شيء. والأهمّ من ذلك ربَّما هو أنَّني لم أكن ساعتها على استعدادٍ نفسيّ كي أقصّ ما تبقَّى من حكايتي لأيِّ أحد، لم أكن متهيِّئًا لأن أسردها كاملةً وبكلِّ صدق.

لكنَّني بعد أن تركتك أدركتُ أنَّه ما كان ينبغي لي السماح لبعض الالتزامات العمليَّة أن تقف حائلًا بيني وبين ذلك. كان عليَّ أن أقصّ عليك كلّ شيءٍ إلى نهايته، من دون أن أُخفي شيئًا.

أصابتني طلقةٌ ناريَّة في المعركة الضارية التي وقعت في 13 آب / أغسطس 1945 م في ضواحي هايلار، فلمَّا سقطتُ على الأرض فقدتُ يدي اليسرى تحت جنزير دبَّابة «تي 34» سوفييتيَّة.

نقلوني فاقد الوعي إلى المستشفى العسكريّ السوفييتيّ في تشيتا، وتمكَّن الجرَّاحون من إنقاذ حياتي. ذكرتُ لك سابقًا أنَّني أُلحقتُ بقوَّات الاستطلاع العسكريّ في الأركان العامَّة لجيش كوانتونغ في شينجينغ، والتي كان من المقرَّر أن تنسحب إلى المؤخِّرة فور أن يعلن الاتِّحاد السوفييتيّ الحربَ على اليابان. لكنَّني كنت مصمِّمًا على الموت، فطلبتُ نقلي إلى وحدة هايلار قرب الحدود، وتطوَّعتُ هناك لتلقيم المدافع، والهجوم على دبَّابةٍ سوفييتيَّة بلغمٍ أحمله على ذراعي. وكما تنبَّأ السيِّد هوندا على ضفاف نهر كالخا، لم أظفر بالموت بهذه السهولة. فقدتُ يدي، لكنِّي لم أفقد حياتي. وأظنّ أنَّ القوَّات التي كانت تحت إمرتي قُتلت كلّها. ربَّما كنَّا نتَّبع الأوامر، لكنَّ الهجوم الذي نفَّذناه كان هجومًا انتحاريًّا أحمق. فماذا عساها تفعل ألغامنا الصغيرة بدبّابات «تي 34» الضخمة؟

أمّا السبب الوحيد الذي حدا بالجيش السوفييتيّ إلى الاعتناء بي فهو أنَّني حين سقطت مغشيًّا عليَّ رحتُ أهذي بالروسيَّة. هكذا أخبروني فيما بعد. كنتُ قد درست أساسيَّات اللغة الروسيَّة كما ذكرتُ لك سابقًا، ثم منحني عملي في الأركان العامَّة وقت فراغٍ كبير لتجويد ما تعلَّمته. هكذا، رحتُ أدرس بجدٍّ، فلمَّا اقتربت الحربُ من نهايتها كنت أستطيع أن أجري محادثةً كاملة بالروسيَّة بطلاقة. كان هناك الكثير من الروس البيض في شينجينغ، وكنت أعرف بضع نادلات روسيَّات، لذلك كان هناك دائمًا من أمارس اللغة معه. ويبدو أنَّ لغتي الروسيَّة خرجت منِّي على نحوٍ عفويّ طبيعيّ حين فقدتُ الوعي.

كان الجيش السوفيتيّ قد قرَّر منذ البداية أن يُرسل أيّ أسيرٍ يابانيٍّ في منشوريا إلى سيبيريا، كي يعملوا في معسكرات العمل كحال الجنود الألمان بعد انتهاء القتال في أوروبا. ربَّما كان السوفييت في الجانب المنتصر من الحرب، لكنَّ اقتصادهم كان يئنّ تحت وطأة الحرب الطويلة، إلى جانب أنَّ شحّ العمَّال كان مشكلةً عامَّة في كلِّ مكان. لذلك، كان الحصول على عمَّال ذكور في شكل أسرى واحدًا من أهمّ أولويَّاتهم. لكنَّهم كانوا في حاجةٍ إلى مترجمين لإنجاز هذا الأمر، وكان عدد هؤلاء محدودًا جدًّا. فلمَّا رأوا أنِّي أتحدَّث الروسيَّة كما يبدو، نقلوني إلى المستشفى بدلًا من أن يتركوني أموت. فلولا أنِّي هذيتُ بالروسيَّة لتُركت هناك أقضي نحبي على ضفاف هايلار، ولدُفنت في قبرٍ غير معلوم. ما أعجبَ الأقدار!

بعد ذلك، أخضعوني لاستجوابٍ قاس، وإعدادٍ أيديولوجيّ عدَّة أشهر، قبل أن يرسلوني لأعمل مترجمًا في منجم فحمٍ في سيبيريا. سأضرب صفحًا عن تفاصيل تلك المرحلة، لكنَّني أودُّ أن أذكر شيئًا يخصّ الإعداد الأيديولوجيّ. كنتُ في سنوات دراستي قبل الحرب قد قرأتُ عدَّة كتبٍ ماركسيَّة ممنوعة، وكنت أحرص على إخفائها عن أعين الشرطة. والصدق أقول، إنَّني كنت أتعاطف قليلًا مع الفكر الشيوعي، لكنَّ الأهوال التي رأيتُها لم تسمح لي بأن أهضم هذا التيَّار هضمًا كاملًا. فبفضل عملي مع المخابرات كنت أعرف جيِّدًا تاريخ الاضطهاد الدمويّ في منغوليا، على يد ستالين وحكَّامه الصوريِّين. فمنذ بداية الثورة، أرسلوا عشرات الكهنة اللاميِّين وأصحاب الأملاك ومعارضين

آخرين إلى معسكرات العمل حيث جرتْ تصفيتهم بوحشيَّة. والأمر نفسه حدث في الاتِّحاد السوفييتيّ. ولو افترضنا أنَّني آمنتُ بالأيديولوجيا الشيوعيَّة، فلم أكن أستطيع أن أؤمن بالأشخاص أو النظام المسؤول عن تطبيق تلك الأيديولوجيا. وهذا ما كنت أشعر به أيضًا حيال ما فعلناه نحن اليابانيِّين في منشوريا. لا يمكنك تخيُّل عدد العمَّال الصينيِّين الذين قُتلوا أثناء بناء القاعدة السرِّيَّة في هايلار. لقد قُتلوا لغرض إخراسهم، حتى لا تتسرَّب مخطَّطات بناء القاعدة.

أضف إلى ذلك، أنَّني شهدت عمليَّة السلخ الوحشيَّة التي نفَّذها الضابط الروسيّ ورجاله المنغوليُّون. وقد ألقوا بي في بئرٍ منغوليَّة؛ وهناك، في ذلك الضوء الغريب الساطع، فقدتُ كلَّ شغفٍ بالحياة. فكيف يمكن لشخصٍ مثلي أن يؤمن بالسياسة والأيديولوجيا؟

هكذا، كنتُ بوصفي مترجمًا حلقةَ وصلٍ بين الأسرى اليابانيِّين في المنجم وسجَّانيهم. لا أدري كيف كان الوضع في معسكرات العمل الأخرى في سيبيريا، لكنَّ الناس كانوا يموتون بالعشرات كلّ يومٍ في المنجم الذي عملت فيه. الأسباب كثيرةٌ جدًّا: سوء التغذيةً، أو الأعمال الشاقَّة، أو انهيارات الحَفْر، أو الفيضانات، أو الأوبئة الناجمة عن الأوضاع غير الصحِّيَّة، أو برد الشتاء الذي لا يُحتمل، أو بطش الحرَّاس، أو القمع الوحشيّ لأدنى شكلٍ من أشكال المقاومة. كانت هناك أيضًا حالاتٌ قَتَل فيها اليابانيُّون زملاءَهم. ففي تلك الظروف، لم يكن الناس يحملون شيئًا حيال بعضهم بعضًا سوى مشاعر

الكراهية والشكّ والخوف وفقدان الأمل.

وكلّما تزايد الموتى إلى الحدِّ الذي تنقص به القوى العاملة كانت تَفِدُ قطاراتٌ جديدة محمَّلة بالأسرى. يأتي هؤلاء في خِرَقٍ بالية، مهزولين، يموت ربعهم في غضون أسابيع إذْ لا يحتملون تلك الأوضاع الصعبة في المنجم. أمَّا من يموت فكان يُلقى به في مهاوي المنجم المهجورة. فمن المستحيل أن تُحفر قبورٌ تكفي الجميع. كانت الأرض هناك متجمِّدةً طوال العام، والمجارف لا تقوى حتى على أن تبعجها. لذلك، كانت المهاوي المهجورة في المنجم مناسبة جدًّا للتخلُّص من الأموات. فقد كانت عميقةً مظلمة، ناهيك عن أنَّ البرد لا يسمح للجثث بالتعفُّن. كنَّا بين فترةٍ وأخرى نحثو الفحم على الجثث، وحين يمتلئ المهوى نسدُّه بالرمل والصخر، وننتقل إلى مهوى آخر.

لم يكن الأموات وحدهم من يُلقى بهم في تلك المهاوي. ففي بعض الأحيان كانوا يُلقون بالأحياء أيضًا، كي يكونوا عبرةً للآخرين. فأيّ جنديّ يابانيّ تصدر عنه علامات المقاومة يأخذه الحرَّاس السوفييت ويدكُّونه دكًّا، فيكسرون ذراعيْه وساقيْه، ثم يقذفون به في قاع الحفرة. ما زلتُ حتى اليوم أسمع صرخاتهم. كان هذا جحيمًا حقيقيًّا.

كان المنجم يُعدُّ مرفقًا استراتيجيًّا مُهمًّا يديرُه أفرادٌ من المكتب السياسيّ بتكليفٍ من اللجنة المركزيَّة للحزب، ويحرسه الجيش تحت إجراءاتٍ أمنيَّةٍ مشدَّدة. ويُقال إنَّ المدير كان من بلدة ستالين، وكان مسؤولًا حزبيًّا باردًا شديدًا، شابًّا مفعمًا بالطموح. كان همُّه الوحيد أن يرفع معدَّلات الإنتاج، أمَّا عدد ما

يُستهلك من عمّال فلم يبالِ به. فما دامت معدّلات الإنتاج ترتفع، سوف تعتبر اللجنة المركزيّة للحزب منجَمه مثالًا يُحتذى، وتكافئه بإرسال المزيد من القوى العاملة. لا يهمّ كم يموت من العمّال، فسيأتي غيرهم. وكان لفرط حرصه على ارتفاع الإنتاج يأمر بحفر قنواتٍ تُعدُّ في الظروف العاديّة شديدة الخطورة. لذلك، كان عدد الحوادث يرتفع أيضًا، لكنَّه لم يأبه بذلك.

ولم يكن وحده الذي تحجَّر قلبه؛ فمعظم الحرّاس في المنجم كانوا مساجين سابقين، غير متعلّمين تفيض نفوسُهم بالقسوة ونزعة الانتقام. لم تبدُ منهم أيّ علامةٍ على التعاطف أو الإشفاق، كأنَّ الحياة في هذا المكان القصيّ من الأرض قد حوَّلتهم بمرور السنوات وهواء سيبيريا القارس إلى كائناتٍ أخرى. كانوا قد ارتكبوا جرائم دخلوا بسببها سجون سيبيريا، لكنَّهم بعد أن أنهوا محكوميّاتهم لم تعد لهم بيوت أو أُسَر يعودون إليها، فاتَّخذوا زوجاتٍ من سيبيريا وأنجبوا منهنَّ، فاستقرّوا في تربة سيبيريا.

لم يكن المنجم حكرًا على الأسرى اليابانيِّين وحدهم. فقد كان هناك مجرمون روس، ومعتقلون سياسيُّون وضبَّاط عسكريُّون تخلَّص منهم ستالين في حملات التطهير. كان العديد من هؤلاء متعلِّمين وعلى قدرٍ من الثقافة. ومن بين هؤلاء الروس بضع نساء وأطفال، لعلَّهم كانوا من بقايا أُسَر المعتقلين السياسيِّين. كانوا يُكلَّفون بجمع القمامة وغسل الملابس وما إلى ذلك من أعمال. أمَّا النساء الشابَّات فغالبًا ما كُنَّ يستخدمن في الدعارة. كانت القطارات تأتي كذلك بالبولنديِّين والمجريِّين وأجانب آخرين،

بعضهم من أصحاب بشرةٍ داكنة (أتصوَّر أنَّهم أرمن أو كُرد). وقد كان المعسكر مقسَّمًا إلى ثلاث مناطق، المنطقة الأكبر التي وُضع فيها اليابانيُّون، ومنطقة للمجرمين والأسرى الآخرين، ومنطقة لغير المجرمين. في هذه المنطقة الأخيرة، كان يسكن عمَّال المنجم العاديُّون والمتخصِّصون في أعمال المناجم والضبَّاط ومواطنون روس عاديُّون وأفراد كتيبة الحرس العسكريّ (بعضهم مع أسرهم). فقد كان هناك مركزٌ عسكريّ كبير قرب المحطَّة. أمَّا الأسرى والمساجين الآخرون فكان محظورًا عليهم أن يغادروا المنطقة المحدَّدة لهم، إذْ كانت المناطق مفصولةً بأسوارٍ كبيرة من الأسلاك الشائكة يحرسها جنودٌ يحملون البنادق الرشَّاشة.

كان عملي في الترجمة وتنسيق التواصل يتطلَّب منِّي أن أزور القيادة كلّ يوم، وكانت لي حرِّيَّة التنقُّل بين مناطق المعسكر بالتصريح الذي أحمله. قرب القيادة كانت محطَّة القطار، وشارعٌ واحد فيه بضعة محالّ رثَّة، وحانة، ونزل للمسؤولين وكبار الضبَّاط الذين يأتون في جولاتٍ تفقُّديَّة. في الساحة، معالف خيول مصفوفة، وعلم أحمر كبير للاتِّحاد السوفييتيّ يرفرف على ساريةٍ في المنتصف. وتحت العلم عربةٌ مدرَّعة عليها رشَّاش، يميل عليها دائمًا جنديٌّ شابٌّ ضجر الملامح بكامل عدَّته العسكريَّة. أمَّا المستشفى العسكريّ المبنيّ حديثًا فيقع في الطرف القصيّ من الساحة، وفي مدخله تمثالٌ كبير لجوزف ستالين.

هناك رجلٌ لا بدَّ أنْ أقصَّ عليك أمرَه الآن. قابلتُه في ربيع عام 1947 م، تقريبًا في أوائل شهر أيَّار / مايو حين ذابت الثلوج أخيرًا. كانت قد انقضتْ سنةٌ ونصف السنة منذ أن

أرسلوني إلى المنجم. حين رأيته، كان يلبس زيًّا موحَّدًا يعطونه لجميع المساجين الروس، وكان يعمل في صيانة المحطَّة مع مجموعةٍ من حوالى عشرة رجال من مواطنيه. كانوا يكسِّرون الصخور بالمطارق الثقيلة، وينشرون كِسر الصخر على سكَّة الحديد. كانت جلجلةُ المطارق تتردَّد في المكان كلّه. كنت ساعتها عائدًا من تسليم تقريرٍ إلى قيادة المنجم فمررتُ بالمحطَّة، فأوقفني ضابطُ الصفّ الذي يوجِّه العمل وطلب منِّي تصريحي. أخرجتُه من جيبي وناولتُه إيَّاه. كان رجلًا ضخم الجثَّة برتبة رقيب، حدَّق في التصريح متشكِّكًا بعض الوقت، ولكنْ كان واضحًا أنَّه لا يعرف القراءة والكتابة. نادى واحدًا من المساجين الذين يعملون في سكَّة الحديد وأمره بقراءة التصريح له. كان هذا السجين تحديدًا مختلفًا عن رفاقه. كانت له نظرة المتعلِّم. كان هو نفسه. حين رأيته طار الدم من وجهي. كنتُ فعليًّا لا أستطيع التنفُّس. شعرتُ كما لو أنَّني تحت الماء، أغرق.

لم يكن هذا السجين المتعلِّم سوى ذلك الضابط الروسيّ الذي أمر الجنود المنغوليّين بسلخ ياماموتو حيًّا على ضفَّة نهر كالخا. كان مهزولًا، شبه أصلع، وقد فقد سنًّا من أسنانه الأماميَّة. ذهب الزيّ العسكريّ البرَّاق، وحلَّت محلّه ملابس سجنٍ قذرة، وذهب الحذاء اللامع، وحلَّ محلّه حذاءٌ قماشيٌّ مليءٌ بالثقوب. عدسات نظَّارته متَّسخة مخدوشة، وإطارها ملتوٍ. لكنَّه هو نفسه، من دون شكٍّ. لم يكن بالإمكان ألَّا أعرفه. وهو بدوره كان يحدِّق فيَّ بعد أن أثارتْ فضولَه نظرتي المصدومة. كنتُ أنا قد شِخت وهزلت في تلك السنوات التِّسع التي انقضت،

لكنَّه عرفني كما يبدو، إذ ارتسمتْ على وجهه نظرةُ اندهاش. لا بدَّ من أنَّه افترض أنِّي تعفَّنتُ في قاع بئرٍ منغوليَّة. وأنا بالطبع لم أكن لأتخيَّل أنِّي سأراه هناك، في معسكر عملٍ في سيبيريا يرتدي زيّ المساجين.

لحظةٌ واحدة فقط كانت كافيةً له كي يستعيد اتِّزانه ويبدأ في قراءة التصريح بنبرةٍ هادئةٍ للرقيب الأُمِّيّ، الذي كان يحمل بندقيَّةً رشَّاشة معلَّقة من رقبته. قرأ اسمي، ووظيفتي (مترجم)، وصلاحيَّتي للتنقُّل بين مناطق المعسكر، وما إلى ذلك. أعاد الرقيب تصريحي لي وأومأ لي بذقنه أن أذهب. مشيتُ قليلًا، ثم استدرت. كان الرجل ينظر إليَّ. يبدو أنَّه كان يبتسم ابتسامةً باهتة، ولكنْ ربَّما يكون ذلك من صنع خيالي. كانت ساقاي ترتعشان، ولم أستطع أن أمشي مشيةً سويَّة. فكلّ الرعب الذي خَبِرتُه قبل تسع سنوات عاد إليَّ في لحظة.

لا بدَّ من أنَّ هذا الرجل قد حلَّ عليه الغضب، فأرسلوه إلى معسكر عملٍ في سيبيريا. لم تكن هذه الأشياء نادرةً على الإطلاق في الاتِّحاد السوفييتيّ آنذاك. فقد كانت تدور صراعاتٌ شرسة داخل الحكومة والحزب والجيش، فيما تلاحق المنحوسين لعنةٌ لا ترحم من لعنات الشكّ المَرَضي عند ستالين. كان هؤلاء بعد أن يُجرَّدون من مناصبهم يُحاكَمون محاكمةً صوريَّة، ففريقٌ منهم يُعدَمون وفريق يُرسلون إلى معسكرات السخرة. أمَّا أيّ الفريقَيْن أوفر حظًّا من الآخر، فهذا من علم الغيب. ذلك أنّ النجاة من الموت لا تفضي إلى شيءٍ بالنسبة إليهم سوى السخرة أو صنوف العذاب. كنَّا نحن الأسرى اليابانيِّين يحدونا أملٌ بالعودة إلى

وطننا ذات يوم إنْ نجوْنا من الموت، أمَّا الروس المنفيُّون فلم يعرفوا هذا الأمل. سوف ينتهي الأمر بهذا الرجل ورفاقه إلى أنْ يتعفَّنوا في تربة سيبيريا.

ما أزعجني في أمره شيءٌ واحد فقط، وهو أنَّه عرف اسمي ومكاني. كنت قبل الحرب قد شاركتُ (من دون أن أعلم طبعًا) في تلك العمليَّة السرِّيَّة مع الجاسوس ياماماتو، حين عبرنا نهر كالخا إلى أرض منغوليا لأغراضٍ تجسُّسيَّة. فلو سرَّب الرجل هذه المعلومة سيصبح وضعي صعبًا جدًّا. لكنَّه لم يبلِّغ عنِّي. لا، بل كان يخطِّط لأشياء أكبر بكثير، كما سأعرف لاحقًا.

لمحتُه بعد أسبوع عند المحطَّة. كان ما يزال مقيَّدًا بالسلاسل، يرتدي الملابس القذرة نفسها ويكسِّر الصخور بمطرقة. نظرتُ إليه، ونظر إليَّ. أنزلَ مطرقته إلى الأرض واستدار نحوي، بطوله واستقامته المعهودة حين كان بالزيِّ العسكريّ. هذه المرَّة، لم يكن لديَّ شكٌّ في أنَّه يبتسم. كانت باهتة، لكنَّها تظلّ ابتسامةً، تحمل شعاعًا من القسوة بثّ في عظامي قشعريرة. كانت هذه نفسها تعابير وجهه وهو يشاهد سلخ ياماموتو حيًّا. لم أقل شيئًا، ومضيت في طريقي.

في ذلك الوقت، كان لديَّ صديقٌ واحد من الضبَّاط في قيادة الجيش السوفييتيّ في المعسكر. كان قد درس الجغرافيا مثلي (في لينينغراد)، وكنَّا من سنٍّ واحدة، وكلانا كان مهتمًّا برسم الخرائط. لذلك، كنَّا نجد الذرائع بين الحين والآخر للخوض في أحاديث العمل. كان مهتمًّا بالخرائط الاستراتيجيَّة التي رسمها جيش كوانتونغ لمنشوريا. بطبيعة الحال، لم نكن نستطيع أن

نتحدَّث هكذا في وجود رؤسائه، فكنَّا نسترق الفرص كي نستمتع بهذه الثرثرة المهنيَّة. كان في بعض الأحيان يعطيني طعامًا أو يُريني صورًا لزوجته وأطفاله الذين تركهم في كييف. كان الروسيَّ الوحيد الذي شعرتُ بالقرب منه طوال الفترة التي قضيتُها أسيرًا في الاتِّحاد السوفييتيّ.

ذات مرَّة، سألتُه هكذا على نحوٍ مُرتَجل عن المساجين الذين يعملون عند المحطَّة. قلتُ له إنَّ من بينهم واحدًا أحسستُ أنَّه مختلف عن المساجين المعتادين، وقد بدا كما لو أنَّه كان في منصبٍ مهمّ سابقًا. وصفتُ له مظهره. قال صديقي الضابط (وكان اسمه نيكولاي) وهو يقطِّب جبينه: «ذاك بوريس السلَّاخ. من الأفضل ألَّا يكون لك أيّ شأنٍ به».

فسألته: «لماذا؟» بدا نيكولاي متردِّدًا، لكنَّه كان يعرف أنَّني أستطيع أن أُقدِّم له بعض الخدمات، فأخبرني على مضضٍ كيف أرسلوا «بوريس السلَّاخ» إلى هذا المنجم. قال محذِّرًا: «لا تقل لأحدٍ أنَّني أخبرتك. هذا الرجل خَطِر. صدِّقني. لا يوجد أسوأ مِن شاكلته. ولو كنتُ مكانك لما لمستُه حتى بعصا طولها عشر أقدام».

هذا ما قاله لي نيكولاي. أمَّا الاسم الحقيقيّ لـ «بوريس السلَّاخ» فكان بوريس غروموف. وقد كان مثلما خمَّنت ضابطًا برتبة رائدٍ في «المفوَّضيَّة الشعبيَّة للشؤون الداخليَّة»[1]. وقد

---

(1) المفوَّضيَّة الشعبيَّة للشؤون الداخليَّة (NKVD): بمثابة وزارة الداخليَّة في الاتِّحاد السوفييتيّ، وقد كانت مسؤولة عن مهامّ الشرطة السرِّيَّة أيضًا، وعُرفت بدورها في القمع السياسيّ وحملات التطهير تحت حكم جوزف ستالين. (المترجم).

أرسلوه إلى أولان باتور مستشارًا عسكريًّا عام 1938 م، في السنة التي تولّى فيها خورلوجين توشيبالسان رئاسة الوزراء في منغوليا. وهناك أشرف على إنشاء الشرطة السرِّيَّة المنغوليَّة على نموذج المفوَّضيَّة الشعبيَّة الذي وضعه لافرينتي بيريا[1]، وصنع لنفسه صيتًا في قمع القوى المناوئة للثورة. كانوا يعتقلون الناس ويقذفون بهم إلى معسكرات العمل ويُذيقونهم صنوف التعذيب، ثم يُصَفُّون منهم أيّ شخص يثير أدنى قدرٍ من الشكوك.

فلمَّا انتهت معركة نومونهان واختفى شبح الأزمة في الشرق الأقصى، استُدعي بوريس إلى موسكو ثم أُرسل إلى شرق بولندا التي كانت آنذاك تحت الاحتلال السوفييتي، وكُلِّف بمهمَّة تطهير الجيش البولنديّ القديم. هناك تحديدًا اكتسب لقب «بوريس السلَّاخ»؛ فقد كانت طريقته الخاصَّة في التعذيب سَلْخ الناس وهم أحياء، بمعاونة رجلٍ يُقال إنَّه أحضره معه من منغوليا. ومن نافل القول إنَّ البولنديّين كانوا يرتعبون منه، وكان أيّ شخصٍ يُجبَر على مشاهدة السلخ يعترف فورًا بكلِّ شيء. وحين اقتحم الجيشُ الألمانيّ الحدودَ واندلعت الحرب مع ألمانيا، عاد بوريس إلى موسكو. في ذلك الوقت، كان يُقبَض على الكثيرين بشبهة التآمر مع هتلر. كان هؤلاء إمَّا يُعدَمون أو يُرسلون إلى معسكرات العمل. وهنا أثبت بوريس كفاءته، فأصبح الذراع اليمنى لبيريا مستخدمًا طريقته الخاصَّة في التعذيب. ولكي يعزِّز ستالين وبيريا مَن موقعهما في السلطة فقد لجأ إلى اختلاق مؤامرةٍ داخليَّة

---

(1) لافرينتي بيريا (Lavrentiy Beria): رئيس المفوَّضيَّة الشعبيَّة للشؤون الداخليَّة في عهد جوزف ستالين. (المترجم).

للتنصُّل من الفشل في توقُّع الغزو الألمانيّ، فراح ضحيَّةَ ذلك كثيرون، تعرَّضوا لتعذيبٍ وحشيٍّ أودى بحياتهم من دون ذنب. يُقال إنَّ بوريس والرجل الذي معه سلخا خمسة أشخاصٍ على الأقلّ في تلك الفترة، ويُشاع إنَّه كان يُعلِّق جلود المسلوخين باعتزازٍ على جدار مكتبه.

كان بوريس قاسيًا، لكنَّه كان شديد الحرص أيضًا، وهذا ما جعله ينجو من جميع المؤامرات وحملات التطهير. وكان بيريا يحبّه حبّ الأب لابنه، وربَّما هذا ما دفعه إلى الإفراط في الثقة بنفسه وتعدِّي حدوده. فالخطأ الذي اقترفه كان قاتلًا؛ إذ اعتقل قائدَ كتيبةٍ بتهمة الشكّ في تواصله سرًّا مع واحدةٍ من كتائب قوَّات الأمن النازيَّة الخاصَّة أثناء معركةٍ في أوكرانيا. وقد قُتل هذا القائد تحت التعذيب، إذْ كانت توضع له أسياخٌ حديديَّة في كلّ فتحات جسمه (أذنيْه، ومنخريْه، وشرجه، وقضيبه، إلخ). وقد تبيَّن أنَّ هذا القائد كان ابن أخٍ لمسؤولٍ كبير في الحزب الشيوعيّ. والأدهى من ذلك أنَّ تحقيق الأركان العامَّة للجيش الأحمر أثبت براءة القائد. استشاط مسؤول الحزب غضبًا بالطبع، وما كان الجيش الأحمر ليتغاضى عن هذه الإهانة وتلطيخ سمعته. وهكذا، لم يكن يمكن لأحدٍ أن يحمي بوريس هذه المرَّة، ولا حتى بيريا. جرَّدوه من رتبته العسكريَّة، وحاكموه، وحكموا عليه هو ومساعده المنغوليّ بالإعدام. غير أنَّ المفوَّضيَّة الشعبيَّة تدخَّلتْ وخفَّفت الحكم إلى الأشغال الشاقَّة في معسكر عمل (مع أنَّ المنغوليَّ أُعدم شنقًا). وقد بعث بيريا برسالةٍ سرِّيَّة إلى بوريس في السجن، ووعده أن يستخدم نفوذه في الجيش والحزب كي يُخرجه

من السجن ويُعيده إلى السلطة بعد أن يقضي سنةً في المعسكر. هذا ما تنامى إلى علم نيكولاي على الأقلّ.

قال لي نيكولاي وهو يحرص على أن يظلَّ صوتُه خفيضًا: «وهكذا يا ماميا، الجميع هنا يعتقد أنَّ بوريس سيعود إلى موسكو ذات يوم، وأنَّ بيريا سيُنقذه قريبًا بالتأكيد. لكنَّ بيريا مضطرٌّ إلى توخِّي الحرص؛ فالحزب والجيش هما اللذان يُديران هذا المعسكر. مع ذلك، فلا يمكن لأحدٍ أن يأمن على نفسه، إذْ يمكن أن يتغيَّر اتِّجاه الريح في أيِّ لحظة. وحين يتغيَّر، فإنَّ أيَّ شخص أساء معاملتَه هنا سيلقى مصيره. قد يكون العالم مليئًا بالأغبياء، ولكنْ لا أحد تبلغ به الحماقة أن يوقِّع على قرار إعدامه. فحين نمرّ من جانبه لا بدَّ من أن نمشي على رؤوس أصابعنا. إنَّه ضيفُ شرفٍ هنا، لا أكثر. بطبيعة الحال، لا يمكننا أن نعطيه خَدَمًا ونعامله كما لو أنَّه نزيل فندق، فمن أجل الحفاظ على المظاهر ينبغي لنا أن نُقيِّده بالسلاسل ونُعطيه بضع صخور يكسِّرها، أمَّا في الواقع فهو يُقيم في غرفةٍ خاصَّة ويحصل على كلّ ما يريده من تبغ وكحول. ولو سألتني عن رأيي، فإنِّي أراه مثل الأفعى السامَّة. الإبقاء على حياته لن يعود بالخير على أحد. لا بدَّ من أن يتسلَّل شخصٌ ما إلى هناك ذات ليلة ويجزّ عنقه».

في يوم آخر، كنتُ أمشي أمام المحطَّة، فأوقفني ذلك الرقيب الضخم مرَّةً أخرى. هممتُ بإخراج تصريحي، لكنَّه هزَّ رأسه وأمرني بالذهاب إلى مكتب مدير المحطَّة. نفَّذتُ ما قاله على الرَّغم من حيرتي، وذهبت إلى المكتب لكنِّي لم أجد مدير المحطَّة، بل بوريس غروموف. كان جالسًا إلى المكتب، يشرب

الشاي في انتظار وصولي. تجمَّدتُ في مكاني. لم تكن الأغلال في ساقيْه هذه المرَّة. أشار لي بيده أن أدخل.

قال بمرحٍ وهو يبتسم ابتسامةً عريضة: «سعيدٌ بلقائك ملازم ماميا. لقد مضت سنوات». عرض عليَّ سيجارةً، لكنَّني هززتُ رأسي.

فأكمل وهو يشعل سيجارته: «بالأحرى، مضت تسع سنوات. أم ثمان؟ على أيِّ حال، يُسعدني أن أراك حيًّا وفي صحَّة جيِّدة. ما أجمل أن يلقى المرء أصدقاءه القدامى! لا سيَّما بعد تلك الحرب الشعواء. أليس كذلك؟ ولكنْ أخبرني، كيف استطعتَ أن تخرج من تلك البئر؟»

لم أحر جوابًا، وبقيتُ هناك واقفًا.

«لا بأس. المهمّ أنَّك خرجت. وبعد ذلك، فقدتَ يدك في حادثٍ ما. ثم تعلَّمتَ أن تتحدَّث الروسيَّة بطلاقة! رائع، رائع. يمكنك تدبُّر أمورك بيدٍ واحدة. المهمّ أنَّك حيّ».

«ليس باختياري».

فأطلق بوريس ضحكةً عالية. «يا لك من شخصيَّةٍ لافتة يا ملازم ماميا. تقول إنَّك فضَّلتَ الموت، ومع ذلك ها أنت هنا حيًّا. أنت فعلًا شخصٌ لافت. لكنَّني لا أُخدع بسهولة. لا يمكن لرجلٍ عاديّ أن يهرب من تلك البئر العميقة بنفسه، ثم يعرف طريق العودة ويعبر النهر إلى منشوريا. ولكنْ لا تقلق. لن أُخبر أحدًا.

«دعنا من أخبارك، واسمع أخباري. ها أنت ترى أنَّني فقدتُ

منصبي السابق، ولستُ الآن سوى سجينٍ في معسكر عمل. لكنَّني لا أنوي البقاء هنا في آخر الدنيا إلى الأبد، أكسِّر الصخور بمطرقة. ما زلتُ صاحب سلطةٍ ونفوذ كما كنتُ في اللجنة المركزيَّة للحزب، وأنا أستخدم تلك السلطة كي أزيد من سلطتي هنا يومًا بعد يوم. لذلك، سأقول لك بكلِّ صراحةٍ إنَّني أودّ الحفاظ على علاقاتٍ طيِّبةٍ معكم أنتم الأسرى اليابانيِّين. فإنتاجيَّة المنجم إنَّما تعتمد عليكم أنتم، على أعدادكم وأشغالكم. ولا نستطيع أن نحقِّق شيئًا لو تجاهلنا قوَّتكم، بما في ذلك قوَّتك أنت الفرديَّة أيُّها الملازم ماميا. أريدك أن تعيرني شيئًا ممَّا لديك. أنت ضابط مخابرات سابق في جيش كوانتونغ، وإنسان شجاع جدًّا. تتحدَّث الروسيَّة بطلاقة. فإنْ وافقتَ على أن تكون حلقةَ وصلٍ لي، خَدَمْتُك أنت ورفاقك. صدِّقني، هذه صفقةٌ جيِّدة».

«لم أكن جاسوسًا في حياتي قطّ، ولن أصبح جاسوسًا».

فقال بوريس كأنَّما يهدِّئني: «ومن طلب منك ذلك؟ كلّ ما قلته هو أنَّني أريد تسهيل الأمور عليك وعلى أصحابك. إنَّني أعرض عليك تحسين العلاقات، وأريد منك أن تكون الوسيط. إنْ عملنا معًا يمكننا أن نطيح بعضو المكتب السياسيّ من كرسيِّه، ذلك الجورجيّ ابن الساقطة. لستَ غبيًّا، وتعرف أنَّني أقدر على ذلك. وأنا واثق من أنَّكم تكرهونه. فإن تخلَّصنا منه سيكون لكم شيءٌ من الاستقلاليَّة. يمكنكم أن تشكِّلوا اللجان وأن تنظِّموا شؤونكم. على الأقلّ عندها ستمنعون الحرَّاس من معاملتكم بوحشيَّةٍ متى شاؤوا. وهذا ما كنتم ترجونه جميعًا، أليس كذلك؟»

كان على حقّ؛ فقد ظللنا فترةً طويلة نقدِّم التماساتٍ إلى

إدارة المعسكر لتحسين أوضاعنا، وفي كلِّ مرَّة لا نحصل على شيء.

سألتُه: «وماذا تريد في مقابل ذلك؟»

قال بابتسامةٍ كبيرة وهو يبسط ذراعيْه: «تقريبًا لا شيء. كلّ ما أسعى إليه هو إقامة علاقات ودِّيَّة قويَّة مع الأسرى اليابانيِّين. أريد التخلُّص من بعض الزملاء في الحزب، بعض الرفاق، أولئك الذين ينعدم التفاهم بيني وبينهم كما يبدو، وأريد تعاونكم لكي أحقِّق ذلك. لدينا مصالح كثيرة مشتركة، فلِمَ لا نتعاون لتحقيقها؟ أو كما يقول الأميركان: «خذ وأعطِ». إنْ تعاونتَ معي فلن أفعل أيّ شيءٍ يضرُّك. ليس في الأمر أيّ ألاعيب أو خديعة. أعرف طبعًا أنَّك لا تحبّني، فقد كان بيننا ما كان. ولكنْ لا تنخدع بالظاهر، فأنا أثمِّن كلمة الشرف، وأفي بوعودي دائمًا. فلماذا لا نترك الماضي وراء ظهورنا؟

«خذ وقتك وفكِّر في الموضوع، وعد لي بجوابٍ واضح. أعتقد أنَّ الأمر يستحقّ المحاولة. لا يوجد لديكم ما تخسرونه، أليس كذلك؟ واحرص على ألَّا تذكر هذا إلَّا لمن تثق به كلّ الثقة. فهناك من بينكم مخبرون يعملون مع عضو المكتب السياسيّ. ينبغي ألَّا يصل هذا الموضوع إليهم، وإلَّا ساءت الأوضاع أكثر. لا تنسَ أنَّ سلطتي هنا ما تزال محدودةً نوعًا ما».

عدتُ إلى منطقتي وانتحيتُ جانبًا برجلٍ كي أناقش معه عرض بوريس. كان هذا الشخص ضابطًا في الجيش برتبة مقدَّم، وكان حازمًا وحادّ الذكاء. كان قائد وحدةٍ تمتْرَستْ في حصن

جبال خنغان، ورفضتْ رفع الراية البيضاء حتى بعد أن استسلمت اليابان، وقد أصبح الآن بمثابة الزعيم غير الرسميّ للأسرى اليابانيِّين، فكان بذلك قوَّةً يحسب لها الروسُ حسابًا. أخفيتُ عنه ما حدث من أمر ياماموتو، وأخبرته أنَّ بوريس كان ضابطًا ذا منصبٍ عالٍ في الشرطة السرِّيَّة، وشرحتُ له عرضَه. راقت للمقدَّم فكرةَ التخلُّص من عضو المكتب السياسيّ، والحصول على بعض الاستقلاليَّة للأسرى اليابانيِّين. لكنِّي نبَّهته على أنَّ بوريس رجلٌ خَطِر ولا يعرف الرحمة، وكان معروفًا بمكره ولا يمكن الوثوق بكلامه. فقال المقدَّم: «ربَّما معك حقّ، لكنَّ هذا ينطبق أيضًا على صاحبنا عضو المكتب السياسيّ. ليس لدينا ما نخسره». قلت في نفسي معه حقّ، ولو حدث أيّ شيء فلن تكون أوضاعنا أسوأ ممَّا هي عليه. ولقد تبيَّن أنَّني كنت أبعدَ ما أكون عن الصواب، فالجحيم ليس له قرار.

استطعتُ بعد بضعة أيَّام أن أرتِّب اجتماعًا بين المقدَّم وبوريس في مكانٍ بعيد عن الأعْيُن، وعملتُ مترجمًا بينهما. دار النقاش بينهما نصف ساعة، وتوصَّلا إلى اتِّفاق سرِّيٍّ، وتصافحا على ذلك. لم تكن لديَّ وسيلةٌ لأعرف ما حدث بالضبط بعد ذلك، فقد تجنَّب الاثنان التواصل المباشر كي لا يُثيرا أيّ شكوك، وأخذا يتبادلان الرسائل المشفَّرة باستخدام وسيلة اتِّصالٍ سرِّيَّة. وهنا انتهى دوري وسيطًا. لم يزعجني ذلك، فقد كنت أريد الابتعاد عن بوريس قدر الإمكان. لكنَّني أدركتُ لاحقًا أنَّ هذا الشيء لم يكن ممكنًا.

تحقَّق وعد بوريس، فبعد شهرٍ تقريبًا أزاحتْ اللجنةُ المركزيَّة

عضوَ المكتب السياسيّ من منصبه، وأرسلتْ عضوًا جديدًا بعد يوميْن. وبعد مرور يوميْن آخريْن، شُنق ثلاثة أسرى يابانيِّين ليلًا. وُجدوا معلَّقِين من عوارض السقف كي يبدو الأمر انتحارًا، ولكن من الواضح أنَّها كانت عمليَّة قتلٍ نفَّذها اليابانيُّون. لا بدَّ من أنَّ الثلاثة كانوا المخبرين الذين ذكرهم بوريس. لم تُجْرَ أيّ تحقيقات حول الحادث. في ذلك الوقت، كان المعسكر قد أصبح في يد بوريس.

31

اختفاء المضرب

*

عودة العقعق السارق

ارتديتُ سترةً ومعطفًا، وقبّعةً صوفيَّة سحبتها إلى عينيّ تقريبًا، ثم تسلَّقتُ الجدار الخلفيّ، ونزلتُ في الزقاق. ما يزال هنالك وقتٌ قبل أن تطلع الشمس، والناس كانوا ما يزالون نائمِين. سرتُ في الزقاق باتِّجاه المسكن.

كان البيت ما يزال على حاله كما تركته قبل ستَّة أيَّام، بصحونه التي ما تزال في المغسلة. لم أجد أيّ رسائل مكتوبة ولا على جهاز الردّ الآليّ. شاشةُ الحاسوب في غرفة قرفة ما تزال باردةً، مطفأة. درجة الحرارة في الداخل طبيعيَّة من أثر التدفئة. نزعتُ معطفي وقفَّازيّ، ثم سخَّنت ماءً وأعددتُ

الشاي. تناولتُ بضع بسكويتات مع الجبن، وغسلتُ الصحون وأعدتها إلى أماكنها. دقَّت الساعة التاسعة، ومرَّةً أخرى لا أثر لقرفة.

*

خرجتُ إلى الفِناء، ونزعتُ الغطاء عن البئر، ثم مِلت أنظرُ في داخله. كانت العتمة الكثيفة نفسها. لقد أصبحتُ أعرف البئر كما لو أنَّها جزءٌ من جسدي. كانت عتمتها، وروائحتها، وهدوؤها أجزاء منِّي. بل إنَّني أصبحتُ أعرف البئر أكثر ممَّا أعرف كوميكو. صحيح أنَّ ذكراها ما تزال طريَّةً في عقلي، ولو أغمضتُ عينيَّ لاستحضرتُ تفاصيل صوتها ووجهها وجسدها والطريقة التي تتحرَّك بها، فقد عشتُ معها في بيتٍ واحد ستّ سنوات، لكنِّي شعرتُ أنَّ ثمَّة أشياءَ فيها لا أستطيع أن أستحضرها بوضوح. أو ربَّما لم أستطع أن أتيقَّن من صحَّة ما أتذكَّره. يُشبه هذا عجزي عن تذكُّر شكل ذيل القطّ حين عاد.

جلستُ على حافَّة البئر، ووضعت يديّ في جيبَيْ معطفي، وأخذت أنظر حولي مرَّةً أخرى. شعرتُ أنَّ مطرًا باردًا أو ثلجًا قد ينهمر. لم تكن ثمَّة ريح، لكنَّ الهواء كان به بردٌ عميق. سربٌ من الطيور الصغيرة تتسابق جيئةً وذهابًا في السماء في خطوطٍ مركَّبة، كما لو أنَّها ترسم حرفًا هيروغليفيًّا، ثم تختفي مسرعة. وما لبثتُ أن سمعتُ هدير طائرةٍ خفيض، لكنَّ الطائرة ظلَّت محجوبةً عن الرؤية فوق طبقةٍ سميكة من السحاب. في مثل هذه الأيَّام التي تكون فيها السماء ملبَّدةً بالغيوم كان

يمكنني أن أنزل في البئر من دون أن أخشى من أشعَّة الشمس أن تؤذي عينيَّ حين أخرج.

لكنِّي ظللتُ جالسًا بعض الوقت، لا أفعل شيئًا. لم أكن في عجلةٍ من أمري، فاليوم لم يكد يبدأ وما يزال هناك وقتٌ قبل الظهيرة. أسلمتُ نفسي للأفكار التي جاءتني من دون ترتيبٍ وأنا أجلس على حافَّة البئر. تُرى إلى أين أخذوا تمثال الطائر الذي كان في هذا الفِناء. أتراه يُزيِّن الآن فِناءً آخر، وما يزال مدفوعًا برغبةٍ دائمة عديمة الجدوى في التحليق في السماء؟ أم أنَّهم تخلَّصوا منه حين هُدم بيت مياواكي في الصيف الماضي؟ تذكَّرتُ التمثال بحنان. شعرت أنَّ الفِناء فقد شيئًا من التوازن الدقيق فيه حين غاب تمثال الطائر.

فلمَّا نضبتْ أفكاري (بعد الحادية عشرة) نزلتُ من السلّم الحديديّ إلى البئر. وضعتُ قدميَّ على قاع البئر وأخذت أنفاسًا عميقةً كعادتي، كي أتفحَّص الهواء. كان هو نفسه برائحة العفن فيه، لكنَّه لا يكدّر التنفُّس. تحسَّست بيدي مكان المضرب حيث تركته عند الجدار. **لم يكن هناك. لم أجده في أيِّ مكان**. لقد اختفى. تمامًا. من دون أدنى أثر.

*

أنزلتُ نفسي إلى أرض البئر، وجلستُ مستندًا إلى الجدار أتِنهَّد.

من الذي قد يأخذ المضرب؟ لا يوجد احتمال غير قرفة. فهو الوحيد الذي كان يعرف بوجود المضرب، وهو الوحيد الذي

قد يُفكِّر في النزول إلى البئر. ولكنْ أيُّ سببٍ يدعوه إلى أخذ المضرب؟ لم أستطع أن أفهم الأمر. كان واحدًا من الأشياء التي لم أستطع أن أفهمها.

لم يبقَ لي خيار سوى أن أكمل من دون المضرب. سيمضي الأمر على ما يرام، فلم يكن المضرب إلَّا نوعًا من الطلسم. فإنْ غاب لن تحدث مشكلة. أوَلَم أتمكَّن من الدخول إلى تلك الغرفة من دونه؟ ما إنْ أقنعتُ نفسي بهذا، حتى سحبتُ الحبل الذي يغلق غطاء البئر. شبكتُ يديَّ فوق ركبتيَّ، وأغمضتُ عينيَّ في العتمة.

مثل المرَّة السابقة، لم أستطع أن أصل إلى ما أردتُه من تركيزٍ ذهنيّ. فقد ظلَّت الأفكار تزحف إلى عقلي وتسدّ الطريق. حاولتُ أن أتخلَّص منها بالتفكير في حوض السباحة، ذلك الحوض الداخليّ الذي كنت أذهب إليه للتمرين. تخيَّلت نفسي أسبح جيئةً وذهابًا في بطء، لا أُفكِّر في السرعة، بل أجذِّف بذراعيَّ بهدوءٍ مرَّةً تلو المرَّة. أُخرج مرفقيّ بأقلِّ قدرٍ من الضوضاء وطرطشة الماء، ثم أدفع يديَّ بلطف، بدءًا من الأصابع. أعبّ فمي بالماء، وأخرجه ببطءٍ كما لو أنِّي أتنفَّس تحت الماء. بعد برهة، أشعر بجسمي ينساب في الماء، كأنَّما يمتطي ريحًا خفيفة. لا صوت أسمعه سوى أنفاسي المنتظمة. إنَّني أطفو على الريح مثل طائرٍ في السماء، أنظر إلى الأرض من علٍ. أرى بلداتٍ بعيدةً وأناسًا صغارًا، وأنهارًا متدفِّقة. حسّ من الهدوء يغلِّفني، شعورٌ أقرب إلى النشوة. السباحة واحدة من أجمل الأشياء في حياتي. صحيح أنَّها لم تحلّ أيّ مشكلة، لكنَّها

لم تضرَّني، ولم يحدث أيُّ شيء يُفسد عليَّ متعتها ـ السباحة.

وعندها، سمعتُ شيئًا.

أدركتُ أنَّني أسمع همهمةً خفيضةً رتيبة في الظلام، مثل طنين حشرة. لكنَّ الصوت لفرط ميكانيكيَّته واصطناعيَّته لم يكن بالإمكان أن يكون صوت حشرة. كانت له ذبذباتٌ رقيقة في تردُّدها، مثل تغيُّر الذبذبات في إرسالٍ إذاعيٍّ. حبستُ أنفاسي وأنصتُّ، أحاول أن أعرف مصدر الصوت. وبدا لي أنَّه يصدُر من نقطةٍ ثابتة في الظلام، وفي الوقت نفسه من داخل رأسي أنا. كان من المستحيل تقريبًا تحديدُ الحدّ الفاصل بين الاثنيْن في تلك العتمة الحالكة.

وفيما كنتُ أركّز انتباهي كلّه على الصوت، غفوت. لم يكن لديَّ وعيٌ بالنعاس قبل أن يحدث هذا. فجأةً نمت، وكأنَّني كنتُ أمشي في ممرٍّ خالي الذهن، فالتقطني أحدٌ فجأةً وسحبني إلى غرفةٍ مجهولة. لا أعرف كم من الوقت غلَّفتني هذه الغيبوبة الكثيفة كالطين. لكنَّها لا يمكن أن تكون طويلة. ربَّما لحظة، لا أكثر. لكنَّني حين عدتُ إلى وعيي أدركتُ أنِّي في عتمةٍ أخرى. كان الهواء غير الهواء، والحرارة غير الحرارة، والعتمة غير العتمة. والظلام يشوبه شيء من الضوء الباهت، ورائحة حادَّة مألوفة من حبوب اللقاح في منخريّ. كنتُ في غرفة الفندق الغريبة.

رفعتُ وجهي، وتفقَّدت ما حولي، وحبستُ أنفاسي.

لقد عبرتُ من الجدار.

كنت هناك جالسًا على الأرضيَّة المفروشة، أسند ظهري إلى جدارٍ مغطًّى بالقماش. يداي ما تزالان مشبوكتَيْن فوق ركبتيَّ. وبقدر ما كان نومي عميقًا قبل لحظة، كان صحوي الآن كاملًا، صافيًا. كانت حدَّة الفرق بينهما شديدةً لدرجة أنَّ صحوي استغرق لحظةً كي يستقرّ. انقباضاتُ قلبي السريعة لها صوتٌ مسموع. لا شكَّ في الأمر، لقد كنت هنا. ها أنا استطعتُ أخيرًا أن أدخل الغرفة.

*

بدتْ لي الغرفةُ كما كانت تمامًا، ظلمة من فوقها ظلمة. لكنَّني حين تكيَّفتْ عيناي مع الظلام بدأتُ ألحظ فروقًا طفيفة. فأوَّلًا، كان الهاتف في مكانٍ مختلف. لقد نُقل من طاولة السرير إلى فوق الوسادة، فأصبح الآن مدفونًا فيها. ثم رأيت أنَّ كمِّيَّة الويسكي في الزجاجة قلَّت. لم يبقَ إلَّا القليل في قعرها. وكلّ الثلج الذي كان في الدلو ذاب، ولم يعد سوى ماءٍ شائب. الكأس جافَّة من الداخل، وحين لمستها أدركتُ أنَّها مغطَّاةٌ بغبارٍ أبيض. اقتربتُ من السرير، ورفعت الهاتف، ووضعت السمَّاعة على أذني. لا صوت على الإطلاق. بدت الغرفة كأنَّها مهجورة، منسيَّةٌ منذ فترةٍ طويلة جدًّا. لا أثر لوجود بشرٍ فيها. لا شيء سوى الأزهار في المزهريَّة احتفظتْ بنضارتها الغريبة.

كانت هناك إشاراتٌ على أنَّ أحدًا كان مستلقيًا على السرير، فالشراشف والبطَّانيَّة والوسائد لم تكن مرتَّبة. سحبتُ البطَّانيَّة لأتحسَّس حرارتها، فلم أجد شيئًا. ولا حتى رائحة عطر تبقَّت. لا بدَّ من أنَّه قد مضى وقتٌ طويل منذ أن ترك الشخص السرير.

جلستُ على طرف السرير وتفحَّصت الغرفة مرَّةً أخرى، وأصختُ السمع، لكنِّي لم أسمع شيئًا. كان المكان أشبه بقبرٍ أثريّ بعد أن سرق اللصوص الجثّة.

※

فجأةً، بدأ الهاتف يرنّ. تجمَّد قلبي مثل قطَّةٍ مفزوعة. ارتدادات الصوت الحادَّة في الهواء أيقظتْ حبوب اللقاح السابحة، فرفعتْ بتلات الأزهار وجوهها في الظلام. كيف يمكن أن يرنّ الهاتف؟ قبل لحظاتٍ كان ميِّتًا مثل صخرة. أبطأتُ أنفاسي، وهدَّأتُ نبضات قلبي، وتأكَّدتُ من أنَّني ما أزال هناك في الغرفة. مددتُ يدي ألمس السمَّاعة، وتردَّدت لحظةً قبل أن أرفعها. كان الهاتف قد رنَّ ثلاث مرَّات أو أربع.

«ألو». وانكتم الهاتف حين رفعتُ السمَّاعة. أحسستُ في يدي بثقل الموت مثل كيسٍ رمليّ. قلتُ مرَّةً أخرى: «ألو»، لكنَّ صوتي الجافّ عاد إليَّ من دون تغيير، كأنَّه ارتدَّ من جدارٍ سميك. وضعتُ السمَّاعة، ثم التقطتها ثانيةً وأنصتُّ. لا صوت. جلستُ على طرف السرير أحاول أن أسيطر على أنفاسي وأنا أنتظر الهاتف يرنّ مرَّةً أخرى. لم يرنّ. رأيتُ حبوب اللقاح في الهواء تعود إلى لاوعيها، وتغرق في الظلام. أعدتُ تشغيل صوت الهاتف في عقلي. لم أكن واثقًا كلّ الثقة أنَّه رنَّ أصلًا. لكنَّني إنْ سمحتُ للشكّ بالزحف إلى داخل عقلي فلن يتوقَّف أبدًا. لا بدَّ من أن أرسم حدًّا فاصلًا في مكانٍ ما، وإلَّا أصبح وجودي نفسه محلّ تشكيك. **الهاتف رنَّ، لا شكَّ في ذلك**. وفي اللحظة التالية انطفأ. تنحنحتُ، لكنَّ ذلك الصوت أيضًا انطفأ في الهواء.

وقفتُ ودرتُ حول الغرفة. تفحَّصتُ الأرضيَّة وحدَّقتُ في السقف، وجلستُ إلى الطاولة، واستندت إلى الجدار، وحاولت أن أدير مقبض الباب، وضغطتُ مفتاح المصباح وصْلًا وفصْلًا. لم يتحرَّك مقبض الباب طبعًا، أمَّا المصباح فلم يكن يعمل. كانت النافذة مغطَّاةً من الخارج بألواحٍ خشبيَّة. أصختُ السمع، لكنَّ الصمت كان مثل جدارٍ ناعمٍ عالٍ. مع ذلك، فقد شعرتُ بحضور شيءٍ يحاول أن يخدعني، كما لو أنَّ الآخرين كانوا يحبسون أنفاسهم، يلتصقون بالجدار، يموِّهون لون بشرتهم كي لا أعرف أنَّهم هناك. تظاهرتُ بأنِّي لم ألاحظ. لقد أجدنا خداع بعضنا بعضًا. تنحنحتُ ثانيةً، ولمست شفتيّ بأصابعي.

قرَّرتُ أن أتفحَّص الغرفة مرَّةً أخرى. جرَّبتُ تشغيل المصباح ثانيةً، لكنَّه لم يصدر أيّ ضوء. فتحتُ زجاجة الويسكي وتشمَّمتُ ما تبقَّى منها. لم تتغيَّر رائحة الكتي سارك. أغلقتُها، وأعدت الزجاجة فوق الطاولة. وضعتُ السمَّاعة مرَّةً أخرى على أذني، لكنَّ الهاتف كان معطَّلًا تمامًا. مشيتُ بضع خطواتٍ بطيئة أتحسَّس السجَّاد تحت حذائي. ألصقتُ أذني بالجدار وركَّزت انتباهي كلّه في محاولةٍ لكي أسمع أيّ أصوات قد تأتي من الخارج، لكنَّني لم أسمع أيّ شيء بالطبع. مشيتُ إلى الباب وأنا أعرف أنَّه لا جدوى من ذلك، وأدرت المقبض. تحرَّك المقبض بسهولةٍ إلى اليمين. مرَّت لحظةٌ لم أستطع أن أصدِّق ما حدث. قبل ذلك كان المقبض جامدًا جدًّا كأنَّه مصنوعٌ من إسمنت. أعدتُ الكرَّة، فرفعتُ يدي عن المقبض، ثم مددتها مرَّةً أخرى وأدرته. كان يتحرَّك بسهولةٍ في يدي. تملَّكني إحساسٌ شديد

الغرابة، كما لو أنَّ لساني ينتفخ داخل فمي.

كان الباب مفتوحًا.

أدرتُ المقبض حتى انفتح الباب بما يكفي لكي تندفع في الغرفة حزمةٌ من ضوءٍ يعمي الأبصار. لو كان عندي المضرب لشعرتُ بثقةٍ أكبر. انسَ المضرب الآن! فتحتُ الباب كلّه. نظرتُ إلى اليسار، ثم إلى اليمين كي أتأكَّد من عدم وجود أحدٍ هناك، وخرجت. كان ممرًّا طويلًا مفروشًا. على مقربةٍ كانت مزهريَّةٌ كبيرة مليئة بالزهور. هي نفسها المزهريَّة التي اختبأتُ وراءها حين كان النادل يقرع هذا الباب. كان الممرّ في ذاكرتي طويلًا، به منعطفات وتفرُّعات. وقد وصلتُ إلى هنا حين صادفتُ النادل الذي يمشي ويصفِّر، فتبعتُه. الرقم المكتوب على الباب يُشير إلى أنَّها الغرفة رقم (208).

مشيتُ بحذرٍ صوب المزهريَّة. كنت أريد أن أعثر على الطريق إلى الردهة التي رأيتُ فيها نوبورو واتايا على التلفاز. كان هناك أناسٌ كثيرون في الردهة يدخلون ويخرجون. لعلِّي أجد علامةً هناك. لكنَّ التجوال في هذا الفندق كان أشبه بالمشي في صحراءَ شاسعة من دون بوصلة. إن لم أستطع أن أجد الردهة، ثم أضعتُ طريق العودة إلى الغرفة (208)، فقد تنغلق عليَّ هذه المتاهة ولا أستطيع العودة إلى العالم الحقيقيّ.

لكنَّه ليس وقت التردُّد، فقد تكون هذه فرصتي الأخيرة. لقد قضيتُ ستَّة أشهر أنتظر في قاع البئر كلَّ يوم، وها هو الباب قد انفتح لي. هذا إلى جانب أنِّي سأفقد البئر قريبًا. لئن فشلتُ الآن

فسوف يذهب وقتي وجهدي سُدًى.

انعطفتُ في عدَّة زوايا. كان حذائي الرياضيّ القذر يتحرَّك من دون صوتٍ فوق الأرضيَّة المفروشة. ولم أسمع أيّ شيء، لا أصوات، لا موسيقى، لا تلفاز، ولا حتى مروحة تهويةٍ أو مصعد. كان الفندق صامتًا كحطام نسيَه الزمن. انعطفتُ كثيرًا ومررتُ بأبوابٍ كثيرة. كان الممرّ يلتوي مرَّةً تلو المرَّة، وكنت دائمًا أنعطف إلى اليمين، مفترضًا أنَّني لو قرَّرتُ العودة سأستطيع إيجاد غرفتي بالانعطاف يسارًا فقط. لكنَّ حسّ الاتِّجاهات عندي كان قد اختفى. فلم أكن أشعر أنَّني أقترب من شيء. الأرقام الموضوعة على الأبواب لم يكن لها نظام معيَّن، وكنتُ أراها لا تنتهي، فلم تسعفني في شيء. كانت تلك الأرقام تتسرَّب من وعيي قبل أن تسجِّلها ذاكرتي. وبين الحين والآخر، كنت أشعر أنَّني مررتُ ببعضٍ من تلك الأبواب من قبل. توقَّفتُ في منتصف الممرّ وحبستُ أنفاسي. أتراني كنتُ أدور في المكان نفسه مرَّةً تلو المرَّة، كما يفعل التائه في الغابة؟

*

بينما أنا واقفٌ هناك حائرًا، سمعتُ صوتًا مألوفًا من بعيد. كان صوتَ النادل الذي يصفِّر. صفيره متقن النغم، ولا أحد يضاهيه في ذلك. كان مثل المرَّة السابقة يصفِّر مقدِّمة **العقعق السارق** لروسيني، وعلى الرَّغم من أنَّها ليست نغمةً سهلة إلَّا أنَّه لم يجد صعوبةً في تصفيرها. مضيتُ في الممرّ في اتِّجاه الصوت، فكان يعلو ويزداد وضوحًا. بدا أنَّ النادل يتَّجه صوبي. وجدتُ عمودًا مناسب الحجم، فاختبأتُ خلفه.

كان النادل مثل المرَّة السابقة يحمل صينيَّةً فضِّيَّة، عليها زجاجة الكتي سارك المعتادة ودلو ثلجٍ وكأسان. مرَّ بي سريعًا وهو ينظر أمامه، مستغرقًا في صفيره. لم ينظر صوبي، فكان لفرط عجلته لا يريد أن يضيِّع لحظة. قلت في نفسي كلّ شيء مثلما كان. شعرتُ أنَّ جسدي يُحمل إلى الماضي.

فلمَّا مرَّ من أمامي تبعتُه. كانت صينيَّته الفضِّيَّة تهتزّ في تناسقٍ بديع مع النغمة التي يصفِّرها، فيما تلتقط بين الفينة والأخرى بريقَ الأضواء من سقف الممرّ. أعاد نغمة العقعق السارق مرَّةً تلو المرَّة، مثل تعويذةٍ سحريَّة. تساءلتُ عن نوع هذه الأوپرا، فكلّ ما كنتُ أعرفه عنها هو النغمة الرتيبة في مقدِّمتها وعنوانها الغامض. كان لدينا في البيت تسجيلٌ للمقدِّمة حين كنتُ صبيًّا، بعزف توسكانيني. وبالمقارنة مع أداء كلاوديو أبادو العصريّ الشبابيّ كان عزف توسكانيني حادًّا يُثير النفس، مثل اختناق عدوٍّ قويّ أُطيح به بعد معركةٍ ضارية. ولكنْ هل كانت أوپرا العقعق السارق بالفعل قصَّةَ عقعقٍ يسرِق؟ بعد أن ينتهي هذا الأمر، سأذهب إلى المكتبة وأبحث عن هذه المعلومة في موسوعةٍ موسيقيَّة. وربَّما أشتري تسجيلًا كاملًا للأوپرا إن وجدتها. أو ربَّما لا. لعلِّي في ذلك الوقت لن أكون مهتمًّا بمعرفة الأجوبة.

مضى النادل يمشي في انتظامٍ ميكانيكيّ كأنَّه روبوت، وأنا أتبعه على مسافةٍ ثابتة. كنتُ أعرفُ مقصده من دون تفكير. كان في طريقه لإيصال زجاجة الكتي سارك والثلج والكأسيْن إلى الغرفة (208). وبالفعل، توقَّف أمام الغرفة. نقل الصينيَّة إلى يده اليسرى، وتأكَّد من رقم الغرفة، ثم اعتدل في وقوفه، وقرع

الباب. ثلاث قرعاتٍ، ثم ثلاثًا.

لم أستطع أن أحدِّد ما إذا جاءه أيّ ردّ. كنتُ أختبئ وراء المزهريَّة، أراقبه. مرَّ الوقت، لكنَّ النادل ظلَّ واقفًا على أهبَّة الاستعداد، كما لو أنَّه يحاول أن يتحدَّى حدود صبره. لم يقرع مرَّةً أخرى، وانتظر أن يُفتح الباب. في النهاية، وكأنَّه استجابةٌ لدعاء، بدأ الباب ينفتح إلى الداخل.

32
أن تجعل الآخرين يستخدمون خيالهم
(تكملة قصَّة بوريس السلَّاخ)

أوفى بوريس بوعده؛ فقد مُنحنا نحن اليابانيِّين استقلاليَّةً جزئيَّة، وسُمح لنا بتشكيل لجنةٍ تمثِّلنا يرأسها المقدَّم. ومنذ ذلك الوقت، تلقَّى الحرَّاس الروس (من مدنيِّين وعسكريِّين) أوامر بالتوقُّف عن سلوكهم العنيف معنا، وأصبحت اللجنةُ مسؤولةً عن حفظ النظام في المعسكر. وما دمنا نلتزم بالحصص الإنتاجيَّة ولا نتسبَّب في أيِّ متاعب، فسوف يتركوننا وشأننا. كانت هذه هي السياسة المعلنة لعضو المكتب السياسيّ الجديد (بمعنى أنَّها سياسة بوريس بالأحرى). كان يُفترض أن تكون هذه الإصلاحات (التي تبدو ديموقراطيَّةً للوهلة الأولى) أنباءً مفرحةً جدًّا لنا نحن الأسرى.

لكنَّ الأشياء لم تكن على ما تبدو من سهولة. فنحن لفرط حماقتنا وترحيبنا بهذه الإصلاحات الجديدة، لم نستطع أن نبصر الفخّ الذي نصبه بوريس لنا.

أصبح بوريس في موقعٍ أقوى من عضو المكتب السياسيّ، مستندًا إلى دعم الشرطة السرِّيَّة، فمضى في تغيير المعسكر والبلدة وفق هواه. وصارت الدسائس والإرهاب قانونًا سائدًا. اختار بوريس من بين المساجين والحرّاس المدنيِّين أكثرَهم قوَّةً وشراسة (ولم يكونوا قِلَّة)، فدرَّبهم واتَّخذهم حُرَّاسًا شخصيِّين له. كانت هذه الفرقة المسلَّحة بالمسدَّسات والسكاكين والعصيّ تتولَّى أمر من يعارض بوريس، فتارةً تُهدِّده وتارةً تعتدي عليه، بل يمكن أن تضربه حتى الموت بأمرٍ من بوريس. ولا أحد يستطيع أن يمسَّهم بسوء. فالجنود القادمون من الوحدات العسكريَّة لحراسة المنجم كانوا يتظاهرون بأنَّهم لا يرون ما يحدث تحت أعيْنهم. وبحلول ذلك الوقت، لم يكن حتى الجيش نفسه قادرًا على إيذاء بوريس. كان الجنود يجلسون في الخلفيَّة يحرسون محطَّة القطار وثكناتهم، لا يبالون بما يحدث في المنجم والمعسكر.

أمَّا أقرب الحرَّاس إلى بوريس فكان سجينًا يُعرف باسم «التتاري»، يُقال إنَّه كان بطلًا منغوليًّا في المصارعة. كان الرجل ملتصقًا ببوريس كظلِّه. على خدِّه الأيمن ندبة حَرقٍ كبيرة، يُقال إنَّها من أثر التعذيب. لم يعد بوريس يرتدي ملابس السجن، وانتقل إلى كوخٍ صغير تعمل على تنظيفه امرأةٌ سجينة.

وفقًا لنيكولاي (الذي كان يزداد امتناعًا عن الكلام في أيِّ شيء)، فإنَّ هناك عدَّة أشخاصٍ روس يعرفهم اختفوا ليلًا.

رسميًّا، سُجِّل هؤلاء بوصفهم مفقودين أو تعرَّضوا لحادث، ولكنْ ما من شكٍّ في أنَّ حرَّاس بوريس قد «تولَّوا أمرهم». كان المرء يعرِّض حياته للخطر إنْ لم ينفِّذ أوامر بوريس أو حتى إنْ لم يعملوا على إرضائه. حاول بضعة رجال أن يشتكوا مباشرةً إلى اللجنة المركزيَّة من الانتهاكات التي تحدث في المعسكر، فلم يرهم أحدٌ بعد ذلك. قال لي نيكولاي بوجهٍ شاحب: «سمعتُ أنَّهم قتلوا طفلًا صغيرًا (في السابعة من عمره) لإرهاب والديْه. ضربوه حتى الموت أمام أعيْنهما».

في بادئ الأمر، لم يُقدِم بوريس على أيِّ شيء بهذه الفجاجة في المنطقة اليابانيَّة، بل ركَّز كلّ طاقاته في اكتساب سيطرةٍ كاملة على الحرَّاس الروس وترسيخ قدميْه فيها. كان يبدو مستعدًّا لأنْ يترك للأسرى اليابانيِّين إدارة شؤونهم بأنفسهم. وهكذا، نعمنا في الأشهر القليلة الأولى بفاصلٍ قصيرٍ من الطمأنينة. كانت تلك أيَّام سكينةٍ بالنسبة إلينا، مرحلةً من الهدوء الحقيقيّ. استطاعت اللجنة أن تقلِّل الأعمال الشاقَّة (وإن بقدرٍ قليل)، ولم نعد مضطرِّين إلى الخوف من عنف الحرَّاس. ولأوَّل مرَّةٍ منذ وصولنا استطعنا أن نشعر بالأمل. كان الأسرى يعتقدون أنَّ الأوضاع تسير إلى الأفضل.

لا يعني هذا أنَّ بوريس كان يهملنا خلال أشهر العسل تلك، بل كان في حقيقة الأمر يُمهلنا، يرتِّب أوراقه في هدوءٍ إلى أن يَتمكَّن منَّا. كان يعمل على أعضاء اللجنة اليابانيَّة فرادى، خلف الكواليس، بالرشاوى تارةً، وبالتهديد تارةً أخرى كي يسيطر عليهم. تجنَّب بوريس العنف المفضوح، وكان يمضي بحرصٍ

شديد، فلم يلاحظ أحد ما كان يفعله. وحين لاحظنا في نهاية المطاف كان الأوان قد فات. ذلك أنَّه تحت ذريعة الاستقلاليَّة التي منحنا إيَّاها كان يُخلِّصنا من حرَّاسنا، لكنَّه في الوقت نفسه يُقيم نظامًا أكثر فاعليَّة للسيطرة. كانت في مخطَّطاته دِقَّة باردة شيطانيَّة. لقد خلَّصنا بوريس ممَّا كنَّا نتعرَّض له من عنفٍ عشوائيٍّ، لا لشيءٍ إلَّا لكي يُذيقنا نوعًا جديدًا من العنف المدروس.

بعد ستَّة أشهر من ترسيخ سلطته، غيَّر اتِّجاهه وبدأ يضغط علينا نحن اليابانيِّين. أمَّا أوَّل ضحاياه فكان الشخص المحوريّ في اللجنة: المقدَّم. فقد تصدَّى هذا لبوريس في عدَّة مواضيع كي يمثِّل مصالح الأسرى اليابانيِّين، فكان نتيجة ذلك تصفيته. بحلول ذلك الوقت، كان المقدَّم وقلَّة من زملائه الأعضاءَ الوحيدين في اللجنة ممَّن ليسوا في جيب بوريس. وذات ليلة، أمسكوه وضغطوا على وجهه بمنشفةٍ مبلَّلةٍ إلى أن قضوا عليه. بطبيعة الحال، لم يحدث هذا إلَّا بأمرٍ من بوريس، لكنَّه لم يلطِّخ يديْه قطّ في قتل اليابانيِّين. كان يكتفي بإصدار الأوامر للَّجنة ويترك التنفيذ لليابانيِّين أنفسهم. أمَّا وفاة المقدَّم فقد سُجِّلت ببساطة على أنَّها مضاعفات مرض. كنَّا جميعًا نعرف من قتله، ولكنْ لم يكن باستطاعة أحد أن يتحدَّث في هذا الأمر، فقد كان لبوريس جواسيس من بيننا، وكان علينا أن نتوخَّى الحذر فيما نقوله أمام أيِّ أحد. وبعد مقتل المقدَّم، صوَّتت اللجنة للمرشَّح الذي اختاره بوريس.

تدهورت أوضاع العمل نتيجةً لذلك التغيير الذي حدث في

تركيب اللجنة، إلى أنْ أصبحت في النهاية أسوأ من أيِّ وقتٍ سابق. ففي مقابل استقلاليَّتنا كنَّا نعقد اتِّفاقات مع بوريس فيما يتعلَّق بحصص الإنتاج، التي صارت تزداد إجهادًا على إجهاد. ولقد ارتفع مقدار الحصَّة الإنتاجيَّة على مراحل، في كلِّ مرَّةٍ تحت ذريعةٍ أو أخرى، إلى أنْ أصبح العمل المفروض علينا أقسى من أيِّ وقت مضى. كما تصاعد عدد الحوادث أيضًا، وأسلم الكثير من اليابانيِّين عظامهم لتربة أرضٍ أجنبيَّة، بعد أن راحوا ضحيَّة ممارسات تعدينٍ متهوِّرة. أمَّا «الاستقلاليَّة» فلم تكن تعني سوى أنَّنا نحن اليابانيِّين أصبحنا نراقب عملنا بدلًا من الروس.

ازداد السخَط بين الأسرى بطبيعة الحال. فقد كان لدينا فيما مضى مجتمعٌ صغير نتشارك فيه عذاباتنا، فحلّ محلَّه شعور بالظلم المشفوع بالشكِّ والكراهية العميقة. فمن يخدم بوريس تخفّ أعماله وتزداد امتيازاته، أمَّا الذين لا يخدمونه فلا يجدون إلَّا الحياة الشاقَّة، هذا إنْ سُمح لهم بالعيش أصلًا. لم يكن باستطاعة أحدٍ أن يرفع صوته بالشكوى، فذلك يعني الموت المحقَّق. قد يُلقى بشخصٍ في سقيفةٍ مجمَّدة فيموت بردًا وجوعًا، أو يُخنق بمنشفةٍ مبلَّلةٍ وهو نائم، أو يُشجُّ رأسه بمعولٍ وهو يعمل في المنجم. في المنجم نفسه، قد يجد المرء نفسه في قعر مهوى. لم يكن أحد يعرف ما يحدث في ظلام المنجم. كان الأشخاص يختفون وحسب.

لم أستطع أن أمنع نفسي من الشعور بالمسؤوليَّة، لأنَّني جمعتُ بوريس بالمقدَّم. بطبيعة الحال، حتى لو لم أفعل ذلك لشقَّ بوريس طريقه بيننا عاجلًا أم آجلًا بوسيلةٍ أخرى، ووصل إلى

النتيجة نفسها، لكنَّ هذه الفكرة لم تكن تخفِّف عنِّي ما أشعر به من ألم. لقد ارتكبت خطأً فادحًا.

استُدعيتُ ذات يوم إلى المبنى الذي كان يستخدمه بوريس مكتبًا له. لم أكن قد رأيته منذ فترةٍ طويلة. كان يجلس إلى الطاولة يشرب الشاي، كما كان يفعل حين رأيته في مكتب مدير المحطَّة. خلفه كان الحارس التتاريّ في وضع الانتباه، وفي حزامه مسدَّس من عيار كبير. فلمَّا دخلتُ الغرفة استدار إلى التتاريّ وأشار له بالانصراف. أصبحنا وحيدَيْن مرَّةً أخرى.

«أرأيت يا ملازم ماميا أنَّني أوفيتُ بوعدي؟»

فأجبته أنْ نعم. فما قاله كان صحيحًا، للأسف. كلّ ما وعد به تحقَّق، وكان ذلك أشبه بصفقةٍ مع الشيطان.

قال مبتسمًا وهو يبسط يديْه أمامه: «لكم استقلاليَّتكم، ولي سُلطتي. لقد حصل كلٌّ منَّا على ما يريد. ازداد إنتاج الفحم، وموسكو سعيدةٌ بذلك. فماذا نريد أكثر من ذلك؟ أشعر بالامتنان لأنَّك عملتَ وسيطًا لي، وأودّ أن أردَّ لك المعروف».

قلتُ له إنَّه ما من داعٍ لذلك.

فقال مبتسمًا: «ولا يوجد أيّ داعٍ لأن تنفر منِّي هكذا أيُّها الملازم. بيننا معرفةٌ قديمة. أريدك أن تعمل معي هنا. أريدك أن تكون مساعدي. لسوء الحظّ، هناك نقصٌ شديد في الأذكياء هنا. صحيحٌ أنَّك بيدٍ واحدة، لكنَّ ذهنك المتَّقد يعوِّض عن ذلك. إنْ عملتَ سكرتيرًا لي، سأكون ممتنًّا لك وسأفعل كلّ ما في وسعي لكي تكون حياتك مريحةً هنا قدر الإمكان. وبهذه الطريقة، سوف

تنجو وتعود إلى اليابان. العمل بالقرب منّي لن يفضي إلَّا إلى مصلحتك».

في الأوضاع العاديَّة، كنتُ سأرفض هذا العرض مباشرةً. فلم أكن لأخون زملائي وأنشد راحتي بالعمل مساعدًا لبوريس. وإنْ كان الرفض سيؤدِّي إلى مقتلي، فلا مانع عندي. لكنَّه حين قدَّم لي هذا العرض ألفيتُ في عقلي خطَّةً تتبلور.

سألتُه: «وما طبيعة العمل الذي تريدني أن أقوم به؟»

لم تكن وظيفةً بسيطة، فالمهامّ التي كانت في انتظار التنفيذ كثيرةٌ جدًّا، أكبرها إدارة أمواله الخاصَّة. فلقد كان بوريس يقتطع لنفسه ما يصل إلى أربعين في المئة من الموادّ الغذائيَّة والملابس والإمدادات الطبِّيَّة التي تصل إلى المعسكر من موسكو ومنظَّمة الصليب الأحمر، فيخزِّنها في مستودعاتٍ سرِّيَّة ويبيعها. كان يصرِّف كذلك كمِّيَّاتٍ هائلةً من الفحم عبر السوق السوداء. كان هناك نقصٌ مزمن في الوقود، والطلب عليه لا ينتهي. لذلك كان يرشي عمَّال السكك الحديديَّة ومدير المحطَّة، فيحرِّك القطارات كما يشاء تقريبًا، ويُديرها لمنفعته. كان المال والطعام كفيلًا بإقناع الجنود الذين يحرسون القطارات أن يغضُّوا الطرف عمَّا كان يفعله. وبفضل هذه الأساليب «التجاريَّة»، استطاع بوريس أن يراكم ثروةً هائلة. قال لي إنَّها مخصَّصةٌ للميزانيَّة التشغيليَّة للشرطة السرِّيَّة. فـ «نشاطنا» كما يُسمِّيه يتطلَّب مبالغ طائلة لا تُدوَّن في السجلَّات الرسميَّة. لذلك كان يعمل على «تحصيل» تلك الأموال السرِّيَّة. غير أنَّ هذا كان محض كذب. ربَّما كان يُرسل بعض المال إلى موسكو، لكنَّني واثق من أنَّ أكثر من نصف الأموال

ينتهي في جيوب بوريس. كان على حدِّ علمي يُرسل الأموال إلى حساباتٍ مصرفيَّة أجنبيَّة، ويشتري الذهب.

كان بوريس فيما يبدو يثق بي ثقةً كاملة لسببٍ غير معلوم. يبدو أنَّه لم يخطر في باله قطّ أنَّني قد أُسرِّب أسراره، وهذا ما أراه الآن غريبًا جدًّا. كان دائمًا ما يتعامل مع مواطنيه الروس والبِيض عمومًا بأعلى درجات الريبة، لكنَّه كان يشعر بثقةٍ كبيرة تجاه المنغوليِّين واليابانيِّين. لعلَّه افترض أنِّي لا أملك أن أضرّه حتى إنْ قرَّرت أن أكشف أسراره. أوَّلًا، لمن تراني أكشف أسراره؟ كلّ من حولي كان إمَّا شريكًا له أو تابعًا، وكلّ واحد منهم لديه نصيب في ثروة بوريس غير المشروعة. أمَّا الوحيدون الذين كانوا يعانون ويدفعون حياتهم ثمنًا لجشع بوريس فهم المساجين، إذ كان يُحوِّل طعامهم وملابسهم ودواءهم لمنافعه الخاصَّة. وثانيًا، كانت رسائل البريد كلّها تخضع للرقابة، وأمَّا التواصل الخارجيّ فكان محظورًا.

وهكذا، أصبحتُ السكرتير الخاصّ النشيط والأمين لبوريس. جدَّدتُ دفاتره وسجلَّات أسهمه بالكامل، واستحدثتُ نظامًا واضحًا للوارد من الأموال والبضائع. بل إنَّني وضعتُ سجلَّاتٍ مصنَّفةً يمكن بها من نظرةٍ واحدة أن يعرف الكمِّيَّات والأماكن لأيِّ بضاعة لديْه، وتغيّر أسعارها. ثم أنشأتُ قائمةً طويلة بالمرتشين، وحسبتُ «المصروفات الضروريَّة» لكلّ واحدٍ منهم. عملتُ بجدٍّ لبوريس، صباح مساء، ونتيجةً لذلك خسرتُ القلَّة الذين كانوا أصدقائي. كنت في نظر الناس (ولا يُلامون على ذلك) إنسانًا حقيرًا ارتضى الخيانة وأصبح المتملِّق الوفيّ لبوريس.

وما يُثير الحزن هو أنَّهم ربَّما ما يزالون ينظرون إليَّ بهذه النظرة. لم يعد نيكولاي يتحدَّث إليَّ، والأسيران اليابانيَّان أو الثلاثة الذين كنت مقرَّبًا منهم أصبحوا يشيحون بوجوههم عنِّي كلَّما رأوني قادمًا. ولكنْ في المقابل، كان هناك من حاول التقرُّب منِّي حين أدركوا أنَّني أصبحت أثيرًا لدى بوريس، غير أنِّي لم أكن أعبأ بهم. وهكذا أصبحتُ شخصًا معزولًا في المعسكر. لم ينقذني من القتل إلَّا دعم بوريس. فلا يمكن أن ينجو بفعلته من يقتل واحدًا من أهمّ ممتلكات بوريس. كان الناس في المعسكر يعرفون قسوة بوريس، فقد وصلتْ سمعته «سلَّاخًا» إلى مستوياتٍ أسطوريَّة، حتى في اليابان.

وكلَّما ازدادت عزلتي ازدادتْ ثقته بي. كان سعيدًا بأسلوبي وتنظيمي في العمل، ولم يكن يبخل عليَّ بالإطراء.

«كم أنت مثيرٌ للإعجاب يا ملازم ماميا. من المؤكَّد أنَّ اليابان سوف تتعافى من بلبلةِ ما بعد الحرب ما دام فيها رجال مثلك. أمَّا بلادي فلا أمل فيها. كانت أفضل تقريبًا في عهد القياصرة. القيصر على الأقلِّ لم يكن مضطرًّا إلى إجهاد رأسه الفارغ بنظريَّاتٍ معقَّدة. لقد أخذ لينين ما يستطيع أن يفهمه من نظريَّة ماركس ثم استخدمه لمصلحته، وأخذ ستالين ما فهمه (ولم يكن كثيرًا) من نظريَّة لينين ثم استخدمه لمصلحته. كلَّما ضاق فِكر المرء في بلادنا زادت السلطة التي يستطيع الحصول عليها. صَدِّقني يا ملازم ماميا، لا توجد إلَّا طريقةٌ واحدة فقط للنجاة هنا. وهي أن تقمع خيالك. فالروسيّ الذي يستخدم خياله يهلك. لذلك لا أستخدم خيالي أبدًا. وظيفتي هي أن أجعل الآخرين

يستخدمون خيالهم. هذا مصدر رزقي. احفظ عنّي هذا الكلام. فما دمتَ هنا على الأقلّ استحضر صورتي حين يعنّ لك أن تتخيّل شيئًا، وقل لنفسك: «لا، لا تتخيّل. فالخيالُ قد يكون قاتلًا». هذه نصيحتي الذهبيَّة لك. اترك الخيال للآخرين».

انقضتْ ستَّة أشهر على هذا النحو، وبدأ خريف العام 1947 م يقترب من نهايته، فيما أصبحتُ أنا شخصًا لا يمكن لبوريس أن يستغني عنه. كنتُ مسؤولًا عن الجانب التجاريّ من أعماله، في حين كان التتاريّ مسؤولًا عن جانب العنف. لم تطلب الشرطة السرِّيَّة من بوريس العودة إلى موسكو بعد، ولكنْ بحلول ذلك الوقت لم يبدُ أنَّ بوريس كان راغبًا في العودة. فقد جعل من المعسكر والمنجم منطقته المحرَّمة، يعيش فيها في راحة، ويراكم ثروةً طائلة، وله جيشه الخاصّ الذي يحميه. وربَّما قرَّر المسؤولون في موسكو أن يتركوه هناك يرسِّخ أقدامهم في سيبيريا. كانت هناك رسائل مستمرَّة بينه وبين موسكو (ولكن ليس عبر البريد بالطبع). كانت تلك الرسائل تصل بالقطار يحملها رُسل سرِّيُّون. كان هؤلاء دائمًا رجالًا طوال القامة ذوي أعين باردة. فما إنْ يدخل أحدهم الغرفة حتى يبدو أنَّ حرارتها تقلّ.

في أثناء ذلك، ظلَّ المساجين الذين يعملون في المنجم يموتون بأعداد كبيرة، فتُقذف جثثهم في المهاوي كالسابق. لقد أجرى بوريس تقييمًا متقنًا لقدرات كلّ سجين، فأخذ يشقّ على الضعاف جسديًا ويقلِّل حصصهم من الطعام كي يقتلهم، فتقلّ الأفواه التي ينبغي إطعامها. وهكذا، ينتقل الطعام من الضعاف إلى الأقوياء فتزداد إنتاجيَّتهم. كانت الكفاءة الإنتاجيَّة هي المعيار

الأساس في المعسكر. كان ذلك قانون الغاب، البقاء للأصلح. وكلَّما قلَّت القوى العاملة أتتْ سيَّارات محمَّلة بالمجرمين، مثل قطيع ماشيةٍ منقول بالقطار. في بعض الأحيان، كان عشرون بالمئة من «الشحنة» يموتون في الطريق، لكنَّ هذا لم يكن يهمّ أحدًا. معظم المجرمين الجدد كانوا من الروس أو من شرق أوروبا. فلحسن حظّ بوريس كانت سياسات ستالين في العنف مستمرَّة هناك.

كانت خطَّتي هي أن أقتل بوريس. كنتُ أعرف بالطبع أنَّ التخلُّص من هذا الرجل وحده لم يكن ضمانًا بأنَّ أوضاعنا سوف تتحسَّن. ستظلّ نوعًا من أنواع الجحيم. لكنَّني لم أستطع أن أسمح لهذا الرجل بأن يظلّ حيًّا في هذا العالم. كان بوريس مثلما وصفه نيكولاي: أفعى سامَّة. لا بدَّ من قطع رأسه.

لم أكن خائفًا من الموت. بل إنَّني كنتُ أودّ لو يقتلني بوريس وأنا أقتله، لولا أنَّه لا يوجد مكانٌ هنا للخطأ. كان عليَّ أن أنتظر اللحظة المناسبة التي أثق فيها ثقةً مطلقة بأنِّي سأنجح في قتله، أنْ أقضي عليه بطلقةٍ واحدة. ظللتُ أمثِّل دور السكرتير الوفيّ وأنا أنتظر الفرصة. ولكنْ كما قلتُ سابقًا، فقد كان بوريس شديد الحرص. كان يحرص على أن يكون التتاريّ معه ليل نهار. وحتى إن افترضنا أنَّني اختليْتُ به بعض الوقت، فكيف عساي أقتله بيدٍ واحدة ومن دون سلاح؟ لكنَّني ظللتُ يقظًا، أنتظر اللحظة المناسبة. كنتُ مؤمنًا بأنَّه لو كان هناك إلهٌ في هذا العالم، فسوف تأتيني الفرصة إلى مكاني.

في أوائل العام 1948، سرتْ شائعةٌ في المعسكر بأنَّ

الأسرى اليابانيِّين سيُسمح لهم أخيرًا بالعودة إلى بلادهم، وأنَّ سفينةً ستصل في فصل الربيع لإعادتهم. سألتُ بوريس عنها.

«نعم صحيح يا ملازم ماميا. الخبر حقيقيّ. سوف تُعادون كلّكم عمَّا قريب. لن نستطيع أن نبقيكم هنا فترةً أطول، ويعود جزءٌ من الفضل في هذا للرأي العالميّ. لكنَّني أحمل عرضًا لك أيُّها الملازم. ما رأيك أن تبقى في هذه البلاد، لا أسيرًا بل مواطنًا سوفييتيًّا حرًّا؟ لقد تفانيتَ في خدمتي، وسيكون من الصعب جدًّا عليَّ أن أجد بديلًا لك. ناهيك عن أنَّ بقاءك هنا سيكون أفضل لك من العودة وتحمُّل الصعاب والفقر في اليابان. قيل لي إنَّ الناس تموت جوعًا هناك. أمَّا هنا فلديك المال والنساء والسلطة.. كلّ شيء».

كان جادًّا تمامًا في عرضه هذا. فقد كان يُدرك خطورة أن يسمح لي بالذهاب وأنا أعرف أسراره. فإنُ رفضتُ عرضه قد يصفِّيني كي لا أتكلَّم. لكنِّي لم أكن خائفًا. شكرته على عرضه الكريم، وقلتُ له إنَّني أفضِّل العودة إلى اليابان، والاطمئنان على والديَّ وأختي. هزَّ بوريس كتفيْه ولم يقل شيئًا.

جاءت الفرصة المثلى لقتله ذات ليلةٍ في شهر آذار / مارس، مع اقتراب موعد عودتنا. كان التتاريّ قد خرج من الغرفة وتركني مع بوريس قبيل الساعة التاسعة مساء. كنت آنذاك أعمل على الدفاتر والسجلَّات كالعادة، وكان بوريس على مكتبه يكتب رسالة. لم يكن من المعتاد أن نبقى في المكتب لهذا الوقت المتأخِّر. كان يرشف البراندي بين الفينة والأخرى وهو يخطّ رسالته. على المشجب، معطف بوريس الجلدي، وقبّعته،

ومسدَّسه في الحزام الجلديّ. لم يكن مسدّسه من تلك المسدَّسات الروسيَّة المعتادة، بل مسدَّس «وولتر» ألمانيّ الصنع. ومن المفترض أنَّه حصل عليه من مقدَّم في قوَّات الأمن النازيَّة الخاصَّة سقط أسيرًا في معركة عبور الدانوب. كان المسدَّس موشّى بعلامة «SS» في مقبضه، وكان على الدوام نظيفًا صقيلًا. كنتُ كثيرًا ما أراقب بوريس وهو يعالج المسدَّس، وكنت أعرف أنَّه محشوٌّ دائمًا، بثماني طلقات في مخزنه.

كان من الغريب جدًّا أن يترك المسدَّس في المشجب. فلقد كان يحرص على أن يُبقي مسدَّسه إلى جانبه حين يعمل، يخفيه في الدرج الأيمن لمكتبه. لكنَّه في تلك الليلة كان في مزاجٍ سعيد منطلق، وربَّما لهذا السبب لم يتَّخذ إجراءاته الاحترازيَّة المعتادة. كانت هذه فرصةً لن أحصل على مثلها أبدًا. كثيرًا ما راجعتُ في عقلي كيف سأحرِّر صمَّام الأمان بيدي الواحدة ثم أدفع الخرطوشة الأولى. فلمَّا اتَّخذت القرار، وقفتُ ومشيت من أمام المشجب أتظاهر بأنِّي أُحضر استمارة. كان بوريس مستغرقًا في كتابة الرسالة، فلم ينظر صوبي. وعندما مررتُ بالمشجب استرقتُ المسدَّس من الحزام. كان صغير الحجم يناسب قبضة يدي، وصَنْعَته المتقنة واضحةٌ من وزنه وتركيبه. وقفتُ أمام بوريس وحرَّرت صمَّام الأمان. ثم أمسكتُ بالمسدَّس بين ركبتيّ، وسحبتُ المزلقة لتدخل الخرطوشة في المخزن. وبإبهامي سحبتُ الطارق إلى الخلف. فلمَّا سمع بوريس ذلك الصوت الخفيف رفع عينيْه، فوجدني أُصوِّب المسدَّس إلى وجهه.

هزَّ رأسه وتنهَّد.

قال بعد أن وضع الغطاء على قلمه: «لسوء حظِّك أيُّها الملازم، المسدَّس غير محشوّ. يمكنك أن تعرف ذلك من وزنه. هزّه قليلًا. خرطوشة الثمانية 7,65 مليمتر تزن ثمانين غرامًا».

لم أصدِّقه. ومن دون تردُّد صوَّبتُ فوَّهة المسدَّس على جبهته، وضغطت الزناد. لا صوت إلَّا طقطقةٌ خفيفة. كان على حقّ؛ فلم يكن المسدَّس محشوًّا. أنزلتُ المسدَّس وعضضتُ شفتيّ، عاجزًا عن التفكير. فتح بوريس درج مكتبه وأخرج منه حفنة رصاصات، أراني إيَّاها في يده. لقد أوقع بي. كان كلّ ذلك فخًّا.

قال بهدوء: «كنتُ أعرف منذ فترةٍ طويلة أنَّك تريد قتلي. لقد تخيَّلتَ نفسك تقتلني، تصوَّرتَ ذلك في رأسك مرَّات عديدة، أليس كذلك؟ وأذكر أنَّني نصحتُك قبل فترةٍ طويلة ألَّا تستخدم خيالك أبدًا. فقد يكلِّفك حياتك. لا بأس. عمومًا، أنت لا تستطيع أن تقتلني أبدًا».

أخذ بوريس رصاصتَيْن من راحة يده وألقاهما عند قدميّ، فقرقعتا على الأرض بالقرب منِّي.

«تلك رصاصتان. ليس في الأمر خدعة. ضعهما في المسدَّس وأطلق النار عليَّ. ستكون هذه فرصتك الأخيرة. إن كنت فعلًا تريد قتلي، فعليك أن تُصوِّب جيِّدًا. ولكنْ إنْ أخطأتَ فعليك أن تعدني بألَّا تكشف أسراري أبدًا. عليك ألَّا تُخبر أحدًا في هذا العالم بما أفعله هنا. ما رأيك بهذه الصفقة؟»

أومأتُ له. ووعدته.

وضعتُ المسدَّس بين ركبتيَّ مرَّةً أخرى، وضغطتُ على زرّ الإفلات، وأخرجتُ المخزن، وحشوته بالرصاصتَيْن. لم تكن مهمَّةً سهلةً بيدٍ واحدة، لا سيَّما وهي ترتعش. راقب بوريس حركاتي بملامح هادئة. بل إنَّني لمحتُ طيف ابتسامةٍ في وجهه. فلمَّا نجحتُ في إرجاع المخزن إلى المقبض، صوَّبتُ المسدَّس بين عينَيْه، وأجبرتُ يدي على الكفّ عن رعشتها، ثم ضغطتُ الزناد. اهتزَّت الغرفة بصوت الطلق الناريّ، لكنَّ الطلقة عبرتْ من جانب أذن بوريس واخترقت الجدار. طار جصّ أبيض في كلِّ اتِّجاه. لقد أخفقتُ وأنا على بعد ستّ أقدام لا أكثر. لم أكن سيِّئًا في الرماية. فحين عملت في شينجينغ كنتُ أتدرَّب على الرماية بقدرٍ كبيرٍ من الحماس. وعلى الرَّغم من أنَّه لم تبق لي سوى يدي اليمنى، إلَّا أنَّها أقوى من أيادي معظم الناس، كما أنَّ مسدَّس وولتر مصمَّمٌ بتوازنٍ متقن يسهِّل التصويب. لم أُصدِّق أنَّني أخطأت الهدف. سحبتُ الطارق مرَّةً أخرى، وصوَّبت. أخذت نَفَسًا عميقًا وقلت لنفسي: «لا بدَّ من أن تقتل هذا الرجل». فإن قتلتُه، أصبحَ لحياتي التي عشتها معنى.

قال بوريس وهو ما يزال مبتسمًا: «صوِّب جيِّدًا، ملازم ماميا. إنَّها رصاصتك الأخيرة».

في تلك اللحظة، جاء التتاريّ يجري في الغرفة شاهرًا مسدَّسه.

فصاح به بوريس: «لا تتدخَّل. دع ماميا يطلق النار عليّ. فإنْ استطاع أن يقتلني، افعل ما تشاء».

أومأ التتاريّ وصوَّب فوَّهة مسدَّسه نحوي.

قبضتُ على مسدَّس الوولتر بيدي اليمنى، وصوَّبتُ على منتصف ابتسامة بوريس الواثقة الهازئة، وضغطت الزناد بهدوء. ارتجَّ المسدَّس لكنِّي أمسكت به بقوَّة. كانت طلقةً متقنة. لكنَّ الرصاصة عبرت من جانب رأس بوريس مرَّةً أخرى، فهشَّمت ساعة الحائط خلفه إلى ألف قطعة. أمَّا بوريس، فلم يهتزّ له جفنٌ واحد. عاد بظهره إلى الكرسيّ، وراح يحدِّق فيَّ بعينَيْه الأفعوانيَّتَيْن. وسقط المسدَّس على الأرض.

مرَّت لحظةٌ لم يتحرَّك فيها أحدٌ أو يتكلَّم. ولكنْ ما لبث بوريس أن نهض من كرسيِّه وانحنى يلتقط المسدَّس من المكان الذي أسقطتُه فيه. وبعد نظرةٍ طويلة متأمِّلةٍ إلى المسدَّس في يده، أعاده إلى حزامه على المشجب. ثم ربَّت على ذراعي مرَّتيْن، كأنَّما يخفِّف عنِّي.

«أوَلم أقل لك إنَّك لا تستطيع قتلي؟» أخرجَ من جيبه علبة سجائر «كامِل»، ووضع سيجارةً بين شفتَيْه ثم أشعلها بولَّاعته. «لم يكن هناك خطأ في تصويبك. المسألة وما فيها أنَّك لا تستطيع قتلي. لستَ مؤهَّلًا لقتلي. هذا هو السبب الوحيد الذي جعلك تضيِّع فرصتك. أمَّا الآن، فلسوء حظِّك ينبغي عليك أن تحمل لعنتي معك إلى بلادك. اسمع، لن تنعم بالسعادة أينما كنت. لن تحبّ أحدًا أو يحبّك أيّ أحد. هذه لعنتي. لن أقتلك. لكنَّني لن أبقيك حيًّا مودَّةً منِّي. لقد قتلتُ في حياتي الكثير، وسأقتل الكثير. لكنَّني لا أقتل أبدًا من لا حاجة بي إلى قتله. وداعًا أيُّها الملازم ماميا. بعد أسبوعٍ من الآن، ستغادر هذا

المكان إلى ميناء ناخودكا. رحلة سعيدة. ولن نلتقي مرَّةً أخرى أبدًا».

كانت تلك آخر مرَّة أرى فيها بوريس السلَّاخ. فبعد أسبوعٍ، غادرتُ المعسكر وأُرسلت بالقطار إلى ناخودكا. وبعد عذاباتٍ كثيرة هناك، وصلت أخيرًا إلى اليابان مع بداية العام التالي.

أُصْدِقُك القول إنَّني لا أعرف ما قد تعنيه قصَّتي الطويلة الغريبة هذه بالنسبة إليك، سيِّد أوكادا. لعلَّها ليست أكثر من غمغمات رجلٍ عجوز. لكنَّني أردت أن أحكي لك قصَّتي، وكان لا بدَّ من أن أحكيها. وكما تُدرك الآن بعد قراءة الرسالة، فإنَّني عشتُ حياتي في هزيمةٍ كاملة. لقد خسرت. وأصبحت تائهًا. لا أُحسن شيئًا. وبسببٍ من تلك اللعنة، لستُ أحبّ أحدًا ولا يوجد من يحبّني. إنَّني مثل قشرةٍ تمشي على الأرض، لن تلبث أن تختفي في الظلام. فبعد أن استطعتُ أخيرًا أن أروي لك قصَّتي يا سيِّد أوكادا، يمكنني الآن أن أختفي وفي قلبي شيءٌ من الرضا.

أرجو لك حياةً طيِّبة، لا تعرف الندم.

33

مكانٌ خَطِر

*

الناس الذين يشاهدون التلفاز

*

الرجل الأجوف

بدأ الباب ينفتح. حمل النادل الصينيَّة بيدَيْه، وانحنى قليلًا ثم دخل. بقيتُ في مكاني خلف المزهريَّة، أنتظر النادل يخرج وأتساءل عمَّا سأفعله حين يخرج. يمكنني أن أدخل عندما يخرج. من المؤكَّد أنَّ هناك شخصًا ما في الغرفة (208). فلو ظلَّت الأشياء تتطوَّر كما حدث سابقًا (وهذا ما كان يحدث الآن)، لا بدَّ من أن يكون الباب غير موصد. ولكنْ من الناحية الأخرى، كان يمكنني أن أنسى أمر الغرفة الآن وأتبع النادل. فبهذه الطريقة

قد أجد طريقي إلى المكان الذي ينتمي إليه.

تذبذبتُ بين الخيارَيْن، لكنَّني في النهاية قرَّرتُ أن أتبع النادل. كان هناك شيءٌ خطر يلوح في الغرفة (208)، شيءٌ قد تكون له تبعاتٌ قاتلة. فما تزال لديَّ ذكرى واضحة جدًّا للقرع الحادّ في الظلام والبريق الأبيض العنيف لشيءٍ يشبه السكِّين. كان عليَّ أن أتوخَّى الحذر. قرَّرتُ أن أرى أوَّلًا إلى أين يقودني النادل، ويمكنني بعد ذلك أن أعود إلى الغرفة. ولكنْ كيف لي أن أفعل ذلك؟ وضعتُ يديَّ في جيبيَّ، فوجدتُ فيهما قلمًا صغيرًا بالإضافة إلى محفظتي وبعض الفكَّة ومنديل. سحبت غطاء القلم، ورسمتُ خطًّا على يدي كي يكون عليها حبر. يمكنني أن أُعلِّم الجدران بالحبر وأنا أتبع النادل. ولاحقًا أستطيع أن أتبع العلامات وصولًا إلى الغرفة.

فُتح الباب وخرج النادل خاليَ اليديْن. لقد ترك كلّ شيء في الغرفة، بما في ذلك الصينيَّة. أغلق الباب، ثم استوى في وقفته وبدأ يصفِّر **العقعق السارق** وهو يمضي في الطريق الذي قاده إلى هنا. خرجتُ من وراء المزهريَّة وتبعته. فكلَّما انعطف الممرّ وضعتُ علامة (x) على الجدار. لم ينظر النادل خلفه ولا مرَّة واحدة. وكان هناك شيءٌ مميَّز في مشيته. يمكنه أن يشارك في «المسابقة العالميَّة لمشية النادل الفندقيّ». فقد كانت مشيته تقول «هكذا ينبغي لنادل الفندق أن يمشي. مرفوع الرأس، مشرئبّ، منتصب الظهر، وذراعاه تتأرجحان على نغمة **العقعق السارق**، يمشي بخطوات طويلة في الممرِّ». انعطف في زوايا كثيرة، وصعد ونزل سلالم كثيرة، في أماكن كانت الإضاءة فيها

أشدّ أو أخفّ، ومرًّ من تجاويف على الجدران تعكس أطيافًا عديدة. حافظتُ على مسافةٍ معقولة بيني وبينه كي لا يُلاحظني، لكنَّ ملاحقته لم تكن صعبة. قد يختفي لحظةً حين ينعطف، ولكنْ لم يكن هناك خوفٌ من أن أفقده، والفضل في ذلك لتصفيره الرنّان.

ومثل السَلَمون المهاجر الذي يسبح ضدَّ التيَّار فيصل في نهاية المطاف إلى المياه العذبة، خرج النادل من آخر الممرِّ إلى ردهة الفندق، تلك الردهة المزدحمة التي رأيتُ فيها نوبورو واتايا على التلفاز. لكنَّ الردهة هذه المرَّة كانت هادئة، لا يوجد بها سوى بضعة أشخاص يجلسون أمام تلفازٍ كبير يشاهدون نشرة الأخبار من محطَّة «أن أتش كيه». كان النادل قد توقَّف عن التصفير حين اقترب من الردهة لئلَّا يزعج الناس، وشقَّ طريقه عبر الردهة، ثم اختفى خلف باب كُتب عليه «للموظَّفين فقط».

تظاهرتُ بأنِّي أحاول تزجية الوقت، فأخذت أمشي على مهلٍ في الردهة، وأجلس فوق أريكةٍ ثم أخرى، أنظر في السقف، وأتحسَّس سُمك السجَّاد تحت قدميّ. بعد ذلك، سرتُ إلى هاتفٍ عموميّ وأدخلتُ فيه عملةً معدنيَّة. كان الهاتف معطَّلًا مثل هاتف الغرفة. فلجأتُ إلى هاتف الفندق نفسه وضغطت على رقم (208)، لكنَّ الهاتف كان معطَّلًا هو الآخر.

مشيتُ إلى كرسيٍّ بعيدٍ عن الناس الذين يشاهدون التلفاز، وجلست فيه كي أراقبهم من دون أن يلاحظوا. كانوا اثني عشر شخصًا، تسعة رجال وثلاث نساء، غالبًا في الثلاثينيَّات والأربعينيَّات من العمر، ولعلَّ اثنين منهم في أوائل الخمسينيَّات.

أمَّا الرجال فكانوا يرتدون بذلاتٍ أو معاطفَ رياضيَّة، وربطات عنق رسميَّة، وأحذية جلديَّة. لا تبدو في ملامحهم أيّ علامات تميِّزهم عن بعضهم بعضًا لولا اختلاف أطوالهم وأوزانهم. وأمَّا النساء الثلاث فكنَّ في أوائل الثلاثينيَّات، متأنِّقات متزيِّنات. من يراهنَّ يبدو له أنَّهنَّ عائدات من حفل التقاءٍ يجمع زملاء الدراسة بعد مرور السنوات، لولا أنَّهنَّ يجلسنَ منفصلات، ولا يبدو أنَّ إحداهنَّ تعرف الأخرى. في واقع الأمر، كان هذا حال المجموعة كلّها، فكلُّهم كانوا يبدون مجرَّد أغراب تصادف أن جذبتْ انتباهَهم شاشةُ التلفاز. فما كانوا يتبادلون الحديث، ولا الإيماءات، ولا النظرات.

جلستُ أشاهد الأخبار من مكاني. لم أجد فيها شيئًا يُثير اهتمامي. حاكمٌ يقصّ الشريط في حفل افتتاح شارعٍ جديد. اكتشاف مادَّةٍ ضارَّة في ألوانٍ للأطفال. سائق شاحنة تُوفِّي بعد أن صدمتْه حافلةٌ سياحيَّة في أساهيكاوا بسبب الثلوج وانعدام الرؤية الواضحة أثناء عاصفةٍ ثلجيَّة كبيرة، أُصيب على إثرها عددٌ من السيَّاح الذين كانوا في طريقهم إلى منتجع مياهٍ ساخنة. كان المذيع يقرأ كلّ خبرٍ في نبرة متحفِّظة، كمن يوزِّع أوراقًا ذات أرقام صغيرة في لعبة ورق. خطر لي التلفاز في بيت السيِّد هونداً، إذْ كان دائمًا ما يشاهد قنوات «أن أتش كيه».

كانت تلك الصور التي تنقلها الأخبار على الهواء واقعيَّة جدًّا بالنسبة إليَّ، وفي الوقت نفسه غير واقعيَّة تمامًا. شعرتُ بالأسف لسائق الشاحنة الذي تُوفِّي في الحادث عن عمر السابعة والثلاثين. مُفجعٌ أن يموت الإنسان وقد تمزَّقت أحشاؤه في

عاصفةٍ ثلجيَّة في أساهيكاوا. لكنَّني لم أكن أعرف السائق، ولم يكن يعرفني. فتعاطفي معه ليس شخصيًّا. كنتُ أشعر فقط بتعاطفٍ عامّ مع إنسانٍ تعرَّض لميتةٍ مفاجئة قاسية. تلك العاطفة العامَّة في حدّ ذاتها واقعيَّةٌ جدًّا وغير واقعيَّة بالنسبة إليَّ. حوَّلتُ نظري عن شاشة التلفاز، ورحتُ أنظر في الردهة الكبيرة الفارغة مرَّةً أخرى. لم أجد شيئًا أمعن في النظر إليه. لم يكن هناك موظَّفون، والبار الصغير لم يُفتح بعد. أمَّا الجدار، فلم يكن عليه سوى لوحةٍ زيتيَّة كبيرة لجبل.

حين عدتُ بنظري إلى شاشة التلفاز، رأيتُ لقطةً مقرَّبة لوجهٍ مألوف. وجه نوبورو واتايا. نهضتُ واقفًا، وركَّزت انتباهي في كلام المذيع. ثمَّة شيء حدث لنوبورو واتايا، لكنَّني لم أسمع بداية الخبر. وسرعان ما اختفت الصورة وظهر المذيع على الشاشة. كان يرتدي بذلةً ومعطفًا طويلًا، يقف في مدخل بنايةٍ كبيرة وفي يده ميكروفون.

«... وقد أُسرع به إلى مستشفى الجامعة الطبِّيَّة للإناث في طوكيو، حيث ما يزال في العناية المركَّزة، ولكنَّ كلّ ما نعرفه حتى الآن هو أنَّه لم يستعد وعيه منذ تعرُّضه لاعتداءٍ من مجهولٍ شجَّ رأسه. وقد رفضتْ إدارة المستشفى التعليق على ما إذا كان هناك خطرٌ على حياته، ونحن في انتظار تقريرٍ مفصَّل يصدر لاحقًا عن حالته. مراسلكم من مدخل مستشفى الجامعة الطبِّيَّة للإناث في طوكيو...».

وعاد البثّ إلى الأستديو، فبدأ المذيع يقرأ خبرًا تسلَّمه للتوّ. «وفقًا للتقارير التي وصلتنا الآن، فقد تعرَّض النائب نوبورو واتايا

لإصاباتٍ بالغة في الرأس في ما يبدو أنَّها محاولة لقتله. وقد اقتحم شابٌّ مكتبه في منطقة ميناتو بطوكيو عند الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم حين كان النائب واتايا مجتمعًا بعدَّة أشخاص، فهوى على رأسه بعدَّة ضربات قويَّة بمضرب بيسبول، ما أسفر عن إصاباتٍ بالغة».

وظهرتْ على الشاشة صورةٌ للمبنى الذي يحوي مكتب نوبورو واتايا.

«تظاهر الرجل بأنَّه زائرٌ يودّ لقاء النائب واتايا، وقد أخفى المضرب في علبةٍ بريديَّة طويلة. يقول شهود عيان إنَّ الرجل أخرج المضرب من العلبة وهجم على السيِّد واتايا من دون أيِّ إنذار».

ثم ظهرت على الشاشة صورة للمكتب الذي وقعت فيه الجريمة. كانت المقاعد مبعثرة على الأرض، وعلى مقربة منها بركةٌ من الدم الأسود.

«كان الهجوم مفاجئًا، فلم يجد النائب واتايا ولا الآخرون فرصةً للمقاومة. وبعد أن تأكَّد المعتدي أنَّ النائب واتايا قد فقد الوعي، غادر المكان وهو ما يزال يمسك بالمضرب. يقول الشهود إنَّ الرجل في الثلاثينيَّات من عمره تقريبًا، يرتدي سترةً زرقاء، وقبَّعةً صوفيَّة زرقاء، ونظَّارة شمسيَّة داكنة. يصل طوله إلى حوالى (175) سم، وعلى خدِّه الأيمن علامةٌ تُشبه الكدمة. ما تزال الشرطة تبحث عن المتَّهم الذي تمكَّن من الفرار والتخفِّي في الزحام من دون أن يترك أثرًا».

ثم ظهرتْ على الشاشة صورٌ للشرطة في مسرح الجريمة، ثم مشهدٌ للشارع في أكاساكا.

مضرب بيسبول؟ علامة على الوجه؟ عضضتُ شفتي.

«كان نوبورو واتايا نجمًا صاعدًا بين المحلِّلين السياسيِّين والاقتصاديِّين، ثم ورث في هذا الربيع تركة عمِّه عضو البرلمان المخضرم يوشيتاكا واتايا، فانتُخب عضوًا في مجلس النوَّاب. يُعدُّ نوبورو واتايا سياسيًّا ومناظرًا شابًّا مؤثِّرًا يُتوقَّع منه الكثير. وقد صرَّحت الشرطة بأنَّها تُجري تحقيقًا في الجريمة على محورَيْن، بافتراض أنَّها ناجمةٌ عن دافع سياسيّ، أو عن رغبةٍ في الانتقام الشخصيّ. كان هذا إذن خبرنا العاجل. تعرَّض النائب البارز في مجلس النوَّاب نوبورو واتايا لاعتداءٍ من مجهول هذا الصباح نُقل على إثره إلى المستشفى بعد تعرُّضه لإصاباتٍ بالغة في الرأس. وما تزال التفاصيل عن حالته غير معروفة. أمَّا الآن، فإلى خبر آخر ـ».

يبدو أنَّ أحدًا أطفأ التلفاز في تلك اللحظة، فقد كُتم صوت المذيع، وحلَّ الصمت في الردهة. بدأ الناس يرتخون في جلستهم. من الواضح، أنَّهم تجمَّعوا أمام التلفاز كي يسمعوا خبر نوبورو واتايا. لم يتحرَّك أحدٌ بعد إطفاء التلفاز. ولم ينبس أحدٌ بشيء.

من تُراه ضرب نوبورو واتايا؟ أوصاف المعتدي تنطبق عليّ تمامًا: السترة الزرقاء، والقبّعة الزرقاء، والنظَّارة الشمسيَّة، والعلامة، والطول، والسنّ، ومضرب البيسبول. كنت أحتفظ

بمضربي منذ ستَّة أشهر في قاع البئر، لكنَّه اختفى. لو كان هو نفسه المضرب الذي استُخدم لشجّ رأس نوبورو واتايا، فلا بدَّ من أنَّ أحدًا ما أخذه لهذا الغرض خصِّيصًا.

عندها وجَّهتْ امرأةٌ من النساء الثلاث نظرها إليَّ. كانت نحيلة، كالسمكة، بفكَّيْن بارزَيْن، ترتدي قرطَيْن أبيضَيْن في منتصف شحمة أذنها. استدارت في مقعدها وظلَّت على تلك الوضعيَّة فترةً طويلة تنظر إليَّ، لا تحوِّل عينَيْها ولا تغيِّر تعبير وجهها. ثم نظر الرجلُ الأصلع الذي كان بجانبها إلى حيث تنظر، فاستدار ونظر إليّ. كان في طوله وبنيته يشبه صاحب المغسلة التي عند المحطَّة. استدار الآخرون نحوي واحدًا تلو الآخر، كأنَّهم لم يدركوا وجودي بينهم إلَّا في تلك اللحظة. وبسبب تحديقهم المستمرّ، لم أملك إلَّا أن أتحسَّس بعقلي سترتي الزرقاء، وقبّعتي وطولي وسنِّي وعلامة خدِّي. بل شعرتُ أنَّ هؤلاء الناس يعرفون أنَّني صهر نوبورو واتايا، وأنَّني لا أنفر منه فحسب بل أكرهه فعلًا. رأيتُ ذلك في أعينهم. شدَّدت قبضتي على مرفق المقعد، أُفكِّر فيما ينبغي لي فعله. لم أضرب نوبورو واتايا بمضرب بيسبول. فلستُ من هذا النوع، إلى جانب أنَّ المضرب لم يكن معي أساسًا. لكنَّهم لن يصدِّقوني بالطبع. كانوا يصدِّقون ما يرونه في التلفاز فقط.

أرخيت قبضتي، وانطلقتُ صوب الممرّ الذي جئتُ منه. كان عليَّ أن أغادر هذا المكان بأسرع وقتٍ ممكن. لم أبتعد أكثر من خطواتٍ قليلة، فلمَّا استدرتُ رأيتُ أنَّهم قد تركوا مقاعدهم وتحرَّكوا في اتِّجاهي. أسرعتُ في طريقي إلى الممر. لا بدَّ أن

أجد طريق العودة إلى الغرفة (208). جفَّ حلقي.

وصلتُ أخيرًا إلى الممرّ، فلمَّا خطوتُ خطوتي الأولى فيه انطفأتْ أضواء الفندق كلّها فجأة. انسدلتْ ستارةٌ من السواد في غمضة عيْن. صاح أحدهم خلفي، وكان الصوت أقرب ممَّا توقَّعت، ينضح بكراهية شديدة.

مضيتُ في الظلام أتلمَّس طريقي بحذر. كان عليَّ أن أهرب منهم. لكنَّني اصطدمت بطاولةٍ صغيرة، فوقعَ منها شيءٌ في الظلام. ربَّما كانت مزهريَّة، دارت وقرقعت على الأرض. وقعتُ أنا أيضًا على الأرض المفروشة، فنهضتُ سريعًا وواصلتُ المشي أتلمَّس طريقي. عندها شُدَّ طرف معطفي بحدَّة، وكأنَّه علق بمسمار. لم أُدرك إلَّا بعد لحظةٍ حقيقة الأمر، فقد كان هناك شخص يشدّ سترتي. ومن دون أدنى تردُّد، انسللتُ من السترة وانطلقتُ في الظلام. تلمَّست طريقي عند زاوية، وصعدتُ سلّمًا، ثم انعطفتُ في زاويةٍ أخرى، فيما يصطدم رأسي وكتفاي بأشياء كثيرة طوال الوقت. بل إنَّني في مكانٍ ما أخطأت في النزول على درجات السلّم واصطدمت بالجدار، لكنَّني لم أشعر بألم. مجرَّد وخزةٍ بين عينيَّ. لا يمكن أن أدعهم يمسكون بي.

لم يكن هنالك أيّ ضوء، ولا حتى أضواء الطوارئ التي من المفترض أن تشتغل في الفنادق في حال انقطاع التيَّار الكهربائيّ. توقَّفتُ بعد أن شققتُ طريقي في هذه العتمة الكاملة، أحاول أن ألتقط أنفاسي وأنصت لأيّ أصواتٍ من خلفي. لم أسمع شيئًا سوى قرع قلبي. جثوتُ لحظةً لأرتاح. لا بدَّ من أنَّهم توقَّفوا عن مطاردتي. وإن سِرتُ أكثر في الظلام ربَّما أتوه في ثنايا هذه

المتاهة. قرَّرتُ أن أبقى في مكاني، فاستندتُ إلى الجدار وحاولت أن أُهدِّئ نفسي.

من تُراه أطفأ الأضواء؟ لم أصدِّق أنَّها كانت صدفة. لقد حدث ذلك في اللحظة التي دخلتُ فيها الممرّ فيما أولئك الناس يطاردونني. على الأرجح، أطفأها شخصٌ ما لكي ينقذني. نزعتُ قبّعتي الصوفيَّة ومسحتُ العرق عن وجهي بمنديلي، ثم ارتديتُها ثانية. بدأتُ ألحظ ألمًا في عدَّة أجزاء من جسدي، ولكنْ لم تكن هناك إصابات. نظرتُ في عقارب ساعتي المضيئة في الظلام، لكنِّي تذكَّرتُ أنَّ الساعة توقَّفت عند الحادية عشرة والنصف. كان هذا هو الوقت الذي نزلتُ فيه إلى البئر، وهو الوقت نفسه الذي تعرَّض فيه نوبورو واتايا للضرب بمضرب بيسبول.

أتُراني أنا الذي فعلتها؟

بدا لي هذا السؤال في هذه العتمة احتمالًا نظريًّا آخر. ربَّما هناك، في العالم الحقيقيّ، ضربتُه بالمضرب وتسبَّبت له في إصاباتٍ بالغة، لكنَّني الوحيد الذي لا يعرف. لعلَّ الكراهية الشديدة التي في داخلي بادرتْ بالمشي إلى هناك من دون علمي وضربتْه. مهلًا، هل قلتُ **المشي**؟ لكي أصل إلى أكاساكا كان عليَّ أن أركبَ قطار أوداكيو إلى شنجوكو ثم أحوّل إلى المترو من هناك. فهل كنتُ سأفعل هذا من دون إدراك منِّي؟ لا، بالتأكيد لا. إلَّا إذا كانت هناك «أنا» أخرى.

«سيِّد أوكادا». صوتٌ جاءني في الظلام.

قفز قلبي إلى حلقي. لم أعرف من أين أتى الصوت. توتَّرتْ

عضلاتُ جسمي وأنا أُفتِّش في الظلام، لكنَّني لم أَرَ شيئًا بالطبع.

جاء الصوتُ ثانيةً، وكان صوتًا خفيضًا. صوت رجل. «سيِّد أوكادا. لا تقلق يا سيِّد أوكادا. أنا في صفِّك. لقد تقابلنا هنا من قبل. ألا تذكر؟»

تذكَّرت. كنت أعرف هذا الصوت. صوت الرجل الذي بلا وجه. ولكنْ كان عليَّ أن أتوخَّى الحذر. لم أكن مستعدًّا للإجابة.

«عليك أن تغادر هذا المكان بأسرع ما يمكن، سيِّد أوكادا. سوف يعثرون عليك حين تعود الأضواء. اتبعني، أعرف طريقًا مختصرًا».

أشعل الرجل مصباح قلم صغير. كان شعاعُه صغيرًا جدًّا، لكنَّه كان يكفي لكي أعرف أين أضع خطواتي. حثَّني الرجل قائلًا: «من هنا». نهضتُ على قدميّ وهرعتُ خلفه.

سألته من خلفه: «لا بدَّ أنَّك أنتَ الذي أطفأتَ الأضواء من أجلي، أليس كذلك؟»

لم يُجب، لكنَّه لم ينكر.

«شكرًا لك. كانوا على وشك الإمساك بي».

«هؤلاء خطرون جدًّا. أكثر خطرًا ممَّا تعتقد».

«هل تعرَّض نوبورو واتايا للضرب فعلًا؟»

أجاب الرجل وهو يختار كلماته بعناية: «هذا ما قالته نشرة الأخبار».

«لكنّي لست الفاعل. كنتُ ساعتها في البئر، بمفردي».

قال الرجل بنبرة تسليم: «ما دمتَ تقول هذا، فأنا واثق من أنَّك محقّ». فتح بابًا ثم وجَّه الضوء إلى قدمَيْه وبدأ يصعد سلّمًا. كان سلّمًا طويلًا، فحين وصلنا إلى منتصف الطريق لم أعد أعرف ما إذا كنَّا نصعد أم ننزل. بل إنَّني لم أكن متأكِّدًا من أنَّه كان سلّمًا.

سألني الرجل من دون أن يلتفت: «هل من أحدٍ يستطيع أن يقسم على أنَّك كنت في البئر في ذلك الوقت؟»

لم أقل شيئًا. لا يوجد أيّ أحد.

«في هذه الحالة، من الحكمة أن تهرب. فقد قرَّروا أنَّك أنت الفاعل».

«مَن هم الذين قرَّروا؟»

حين وصل الرجل إلى نهاية السلّم استدار إلى اليمين، وبعد مسافةٍ قصيرة فتح بابًا وخرج إلى ممرّ. وهناك توقَّف وأصاخ السمع. «علينا أن نسرع. تمسَّك بسترتي».

أمسكتُ بطرف سترته كما قال.

ثم قال الرجل الذي لا وجه له: «أولئك الناس لا يتحرّكون من أمام التلفاز أبدًا. ولهذا السبب، أنت مكروه جدًّا هنا. ذلك أنَّهم معجبون كلّ الإعجاب بشقيق زوجتك».

«هل تعرف من أكون؟»

«طبعًا أعرف».

«إذن، هل تعرف أين كوميكو الآن؟»

لم يقل الرجل شيئًا. ظللتُ ممسكًا بطرف سترته، كما لو أنَّنا نلعب لعبةً في الظلام، نمضي سريعًا في زاوية، ثم ننزل من سلّم، وندخل في بابٍ سرِّيٍّ صغير، ثم نسير في ممرٍّ خفيٍّ خفيض السقف، فندخل في ممرٍّ آخر. هذا الطريق الغريب الذي يتبعه عديم الوجه يبدو مثل رحلةٍ لانهائيَّة في أحشاء تمثالٍ برونزيٍّ ضخم.

«اسمع سيِّد أوكادا. أنا لا أعرف كلّ ما يدور هنا. إنَّه مكان كبير، والمكان الذي يقع تحت مسؤوليَّتي هو الردهة. هناك الكثير ممَّا لا أعرف أيّ شيء عنه».

«هل تعرف عن النادل الذي يصفِّر؟»

«لا. **لا يوجد** أيُّ نادل هنا، سواء أكان يصفِّر أم لا. وإنْ رأيتَ نادلًا هنا فاعلم أنَّه ليس في الحقيقة نادلًا. لا بدَّ من أنَّه كان **شيئًا ما** يتظاهر أنَّه نادل. نسيتُ أن أسألك، أنت تريد الذهاب إلى الغرفة (208)، أليس كذلك؟»

«هذا صحيح. من المفترض أن ألتقي امرأةً هناك».

لم يقل شيئًا، ولم يسأل عن أيّ تفاصيل تتعلَّق بالمرأة أو ما أريده منها. مضى في طريقه في الممرِّ بخطوةٍ واثقة، خطوة شخصٍ يعرف المكان جيِّدًا، يسحبني خلفه مثل قاطرةٍ تسحب سفينةً في مسارٍ صعب.

وفي نهاية المطاف توقَّف فجأةً أمام باب. اصطدمتُ به من الخلف، فكدتُ أطيح به. بدا جسمه خفيفًا جدًّا، وكأنِّي

اصطدمتُ بقشرة سيكادا فارغة. سرعان ما اعتدل في وقفته ووجَّه المصباح إلى الرقم المكتوب على باب الغرفة: (208).

قال الرجل: «الباب غير موصد. خذ هذا المصباح معك، فأنا أستطيع أن أعود في الظلام. أوصد الباب خلفك بعد أن تدخل، ولا تفتحه لأيِّ شخص. أيًا ما كان العمل الذي تريد فعله، لا بدَّ من أن تنتهي منه بسرعة وتعود من حيث جئت. هذا المكان خطر، وأنت دخيل عليه، ولا يوجد أحدٌ في صفِّك سواي. لا تنسَ ذلك».

«من أنت؟»

ناولني المصباح وكأنَّه يناولني هراوة. «أنا الرجل الأجوف». انتظر أن أقول شيئًا وهو يواجهني بلا وجه، لكنَّني لم أجد ما أقوله. في النهاية اختفى فجأة. كان أمامي، ثم ابتلعه الظلام في لحظة. صوَّبتُ المصباح في اتِّجاهه، لكنِّي لم أرَ إلَّا الجدار الأبيض.

*

صَدَق الرجل، فباب الغرفة (208) لم يكن موصدًا. تحرَّك مقبض الباب في يدي من دون صوت. أطفأتُ المصباح احترازًا، ثم دخلتُ بهدوءٍ شديد. كانت الغرفة صامتة، كالسابق، ولم أشعر بوجود أيّ شيء يتحرَّك. لا شيء سوى صوتِ تكسُّر الثلج وهو يذوب في الدلو. أشعلتُ المصباح واستدرتُ لأوصد الباب. أصدر صوتُ القفل المعدنيّ دويًا غير طبيعيّ في الغرفة. على الطاولة زجاجة الكتي سارك الجديدة، وكأسان نظيفان، ودلو

الثلج الممتلئ. الصينيَّةُ الفضِّيَّة قرب المزهريَّة التقطتْ شعاع المصباح فأرجعتْه ببريقٍ حميميّ، كأنَّها كانت تنتظرني زمنًا طويلًا. للحظةٍ اشتدَّت رائحة اللقاح كما لو أنَّها تستجيب لذلك البريق. تكثَّف الهواء من حولي، وشعرتُ أنَّ قوَّة الجاذبيَّة تزداد. ظهري مستند إلى الباب، أنظر إلى الحركة من حولي في شعاع المصباح.

هذا المكان خطر، وأنت دخيل عليه، ولا يوجد أحدٌ في صفِّك سواي. لا تنسَ ذلك.

«لا توجِّه المصباح عليَّ». كان صوتَ امرأةٍ من الغرفة الداخليَّة. «هل تعدني ألَّا توجِّه المصباح عليَّ؟»

«أعدك».

34

ضوءُ اليراعة

*

كسرُ التعويذة

*

عالمٌ ترنّ فيه المنبِّهات صباحًا

«أعدك». لكنَّ صوتي كان به شيءٌ مصطنع، مثلما يحدث حين يسمع المرء تسجيلًا لصوته.

«أريد أن أسمعها منك. أنَّك لن توجِّه الضوء عليَّ».

«لن أوجِّه الضوء عليك. أعدك».

«تعدني فعلًا؟ لا تخدعني؟»

«لا أخدعك. ولن أخلف وعدي».

«طيِّب. ما أريده منك فعلًا إنْ لم يكن لديك مانع هو أن تصبّ كأسيْن من الويسكي مع الثلج وتحضرهما هنا. ثلج كثير من فضلك».

كان في كلامها لمحةٌ بسيطة من لثغةٍ بنَّاتيَّة لعوب، لكنَّ الصوت نفسه كان صوت امرأةٍ ناضجةٍ مثيرة. وجَّهتُ مصباح القلم على الطاولة، وعلى ضوئه هممتُ بصبِّ الكأسيْن، لكنَّني قبل ذلك وقفتُ لحظةً أهدِّئ أنفاسي. فضضتُ زجاجة الكتي سارك، ووضعتُ الثلج بملقطٍ في الكأسَيْن، ثم صببتُ الويسكي على الثلج. كان عليَّ أن أُفكِّر في كلِّ مهمَّةٍ تؤدِّيها يداي. كانت ظلالٌ كبيرة تتراقص على الجدار مع كلِّ حركة.

مشيتُ إلى الغرفة الداخليَّة، أحمل الكأسَيْن في يدي اليمنى، وأُضيء طريقي بالمصباح في يدي اليسرى. كان الهواء أبرد ممَّا كان. لا بدَّ من أنَّني تعرَّقت وأنا أمشي في الظلام، ثم بدأتُ الآن أشعر بالبرد. تذكَّرتُ أنِّي تركتُ سترتي في الممرِّ.

وكما وعدتها، فقد أطفأتُ المصباح ووضعتُه في جيبي. ثم وضعتُ وأنا أتلمَّس المكان كأسًا على الطاولة الجانبيَّة، وأخذتُ الكأس الأخرى معي إلى الكرسيِّ عند السرير. كنتُ أذكر ترتيبَ الغرفة جيِّدًا على الرَّغم من الظلام التامّ.

شعرتُ أنِّي أسمع حركة الشراشف. كانت تجلس الآن في السرير وتسند ظهرها، وقد أخذت الكأس من على الطاولة. هزَّت الكأس قليلًا كي تحرِّك الثلج، ورشفتْ من الويسكي. كانت هذه الأصوات كلّها تبدو في الظلام مثل مؤثِّراتٍ صوتيَّة في تمثيليَّة

إذاعيَّة. استنشقتُ رائحة الويسكي الذي في يدي، لكنَّني لم أشرب.

قلتُ وقد بدا صوتي أقرب إلى حقيقته: «مضى زمنٌ طويل».

«حقًّا؟ لا أفهم معنى ذلك. «الزمن» أو «زمن طويل»».

«بحسب ما أذكر، مضت سنةٌ وخمسة أشهر بالضبط».

فقالت لامبالية: «طيِّب. لا أستطيع أن أتذكَّر... بالضبط».

أنزلتُ كأسي على الأرض ووضعتُ ساقًا فوق الأخرى. «لم تكوني هنا حين جئتُ آخر مرَّة. أليس كذلك؟»

«بل كنتُ هنا. في مكاني. على السرير. أنا دائمًا هنا».

«لكنِّي متأكِّدٌ أنَّني كنت في الغرفة رقم 208. هذه هي الغرفة 208، أليس كذلك؟»

حرَّكت الثلج في كأسها وضحكتْ. «وأنا متأكِّدةٌ من أنَّك لم تكن متأكِّدًا جدًّا. لقد كنتَ في غرفة 208 أخرى، بالتأكيد».

كان في صوتها اهتزازٌ أربكني. لا بدَّ من أنَّه من تأثير الكحول. نزعتُ قبّعتي الصوفيَّة ووضعتها على ركبتي.

قلتُ لها: «كان الهاتف معطَّلًا».

فقالتْ وفي صوتها شيءٌ من التسليم: «نعم، أعرف. لقد قطعوه. كانوا يعرفون أنِّي أحبّ إجراء الاتِّصالات».

«هل هم من وضعوكِ هنا؟»

قالت بضحكةٍ خفيفة: «همم، ربَّما. فعلًا لا أدري». كان صوتُها يختلج من اضطراب الهواء.

قلتُ وأنا أنظر صوبها: «منذ فترةٍ طويلة أُفكِّر فيكِ. منذ آخر مرَّةٍ كنتُ فيها هنا. أُفكِّر في من تكونين وماذا تفعلين هنا».

«يبدو هذا ممتعًا».

«تخيَّلتُ كلّ الاحتمالات، لكنِّي لستُ متأكِّدًا من شيءٍ بعد. ما زلتُ في مرحلة التخيُّل».

قالت، وكأنَّ ما قلتُه راقها: «طيِّب. إذن فأنت لست متأكِّدًا من شيءٍ بعد، ما تزال في مرحلة التخيُّل».

«نعم. وهناك شيءٌ آخر. أظنُّ أنَّكِ كوميكو. لم أُدرك هذا في البداية، لكنَّ قناعتي تزداد مع الوقت».

فقالتْ بعد لحظة صمتٍ بصوت اندهاش: «أوه، صحيح؟ إذن فأنا كوميكو؟»

للحظةٍ فقدتُ إحساسي بالمكان، كما لو أنَّ كلّ شيءٍ فعلتُه كان خطأً. لقد جئتُ إلى المكان الخطأ، وقلت الأشياء الخطأ، للشخص الخطأ. كان كلّ ذلك مضيعةً للوقت، انعطافةً لا معنى لها. لكنَّني استطعتُ أن أوضِّح الأمور لنفسي في الظلام. ولكي أتأكَّد من الواقع، أحكمتُ يديّ على قبّعتي وهي في حضني.

«نعم، أعتقد أنَّكِ كوميكو. بهذا فقط تترابط خيوط القصَّة. كنتُ تتَّصلين بي من هنا، تحاولين أن تكشفي لي سرًّا ما. سرًّا عن كوميكو. سرًّا لا تستطيع كوميكو الحقيقيَّة في العالم الحقيقيّ أن تُخبرني به. لذلك لا بدَّ من أنَّكِ كنتِ تفعلين ذلك بدلًا منها. بكلماتٍ أشبه بالشيفرة السرِّيَّة».

سكتتْ برهةً. ثم رفعتْ كأسها ترشف منه مرَّةً أخرى،

وقالت: «لا أدري. ولكنْ إن كان هذا ما تعتقده، فقد يكون صحيحًا. ربَّما أكون فعلًا كوميكو. لكنَّني لست متأكِّدةً بعد. فإن كان هذا صحيحًا. . . إنْ كنتُ أنا فعلًا كوميكو. . . فلا بدَّ من أن أستطيع أن أتحدَّث إليك هنا بصوتها. أليس كذلك؟ يعقِّد هذا الأمور قليلًا، ولكن هل لديك مانع؟»

«لا، لا أُمانع». مرَّةً أخرى، بدا أنَّ صوتي فقد شيئًا من هدوئه وواقعيَّته.

تنحنحتْ في الظلام. «لا أدري إنْ كان ذلك سيحصل». وضحكتْ قليلًا. «ليس سهلًا. هل أنت مستعجل؟ هل تستطيع البقاء هنا فترة؟»

«حقيقةً، لستُ أدري».

«انتظر دقيقة فقط. آسفة. إحم. . . سأكون جاهزةً خلال دقيقة».

انتظرتُ.

«إذن، فقد جئتَ إلى هنا بحثًا عنِّي. أردتَ أن تراني. هل هذا هو السبب؟» تردَّد صدى صوتها في الظلام. صوت كوميكو الحقيقيّ.

لم أكن قد سمعتُ صوت كوميكو منذ ذلك الصباح حين أغلقتُ سحَّاب فستانها. كانت قد رشَّت كولونيا جديدةً خلف أذنها، كولونيا من شخصٍ آخر. غادرت البيت في ذلك اليوم ولم تعد قطّ. لقد أعادني صوتها إلى ذلك الصباح، سواء أكان الصوت الذي أسمعه في الظلام حقيقيًّا أم مزيَّفًا. كان بإمكاني أن

أشمّ الكولونيا وأرى بشرتها البيضاء. كانت الذكرى كثيفةً وثقيلة في الظلام، وربَّما أكثر كثافةً وثقلًا ممَّا هي في الواقع. أحكمتُ قبضتي على القَبّعة.

«إنْ شئنا الدقَّة، فلم آتِ إلى هنا كي أراكِ. بل أتيت لكي أُعيدك».

أطلقتْ تنهيدةً صغيرةً في الظلام. «ولماذا تريد أن تُعيدني؟»

«لأنَّني أحبُّك. وأعرف أنَّكِ تحبِّينني وتريدينني».

فقالت كوميكو (أو صوت كوميكو): «تبدو واثقًا من نفسك». لم يكن في نبرتها شيءٌ من تهكُّم. ولا شيءٌ من الدفء أيضًا.

سمعتُ الثلج في الدلو يتحرَّك.

قلتُ لها: «ولكنْ كي أُعيدكِ ينبغي عليَّ أن أُحلَّ بعض الألغاز».

«أولم يَفُت الأوان على ذلك؟ ظننتُ أنَّه لم يبقَ لديك وقتٌ طويل».

معها حقّ. لم يكن لديَّ وقت طويل، فيما لديَّ الكثير لأُفكِّر فيه. مسحتُ العرق من حاجبي بظاهر يدي. ربَّما كانت هذه فرصتي الأخيرة. عليَّ أن أُفكِّر.

«أريدكِ أن تساعديني».

فقال صوت كوميكو: «لا أدري. ربَّما لا أستطيع مساعدتك. لكنَّني مستعدَّة للمحاولة».

«السؤال الأول هو لماذا تركتِني. أريد أن أعرف السبب

الحقيقيّ. أعرف ما جاء في رسالتك، أنَّكِ ارتبطتِ برجلٍ آخر. قرأتُ الرسالة طبعًا. وقرأتها وقرأتها وقرأتها. صحيحٌ أنَّها تحتوي على شيءٍ من التفسير، لكنَّني لا أُصدِّق أنَّه السبب الحقيقيّ. هناك شيءٌ لا يصحّ فيه. لا أقول إنَّه كذب، ولكن لديَّ إحساسٌ قويّ بأنَّه ليس سوى نوعٍ من المجاز».

بَدَتْ مصدومةً، وقالت: «مجاز؟ لعلِّي لا أفهمه. ولكنْ إنْ كانت مضاجعةُ الرجال الآخرين مجازًا لشيءٍ ما، أخبرني من فضلك».

«ما أقصده هو أنَّه يبدو لي تفسيرًا من أجلِ التفسير لا أكثر. فلا يقود إلى أيِّ مكان. يمسّ السطح فقط. فكلَّما قرأتُ رسالتك ازداد لديَّ هذا الشعور. لا بدَّ من أنَّ هناك سببًا آخر. سببًا أساسيًّا أكثر، **حقيقيًّا** أكثر. وأكاد أجزم أنَّه متعلِّق بنوبورو واتايا».

كنتُ أشعر بعينيْها مركّزتيْن عليَّ في الظلام، فجفلتُ من فكرة أنَّها ربَّما تستطيع رؤيتي.

«متعلِّق بنوبورو واتايا؟ كيف؟»

«الأحداثُ التي مررتُ بها معقَّدةٌ جدًّا. شخصيَّاتٌ كثيرة برزت في المشهد، وأشياءُ غريبةٌ حدثتْ واحدًا تلو الآخر، لدرجة أنَّني إنْ حاولت أن أرتِّبها أتوه. لكنَّني إنْ نظرتُ إليها من بعدٍ وجدتُ الخيط الذي يربطها واضحًا. فخلاصةُ الأمر أنَّكِ خرجتِ مَن عالمي إلى عالم نوبورو واتايا. وهذا التحوُّل هو المهمّ. وحتى إنْ مارستِ الجنس مع رجلٍ آخر أو رجالٍ آخرين، فهذا شأنٌ ثانويّ. مجرَّد واجهة. هذا ما أقصده».

أمالت كأسها في الظلام. حدَّقتُ بقوَّة في مصدر الصوت، وشعرتُ كما لو أنَّني أستطيع أن أرى شيئًا من حركاتها، لكنَّه محض وهم.

قالت: «الناس لا يرسلون الرسائل كي يقولوا الحقيقة دائمًا، سيِّد أوكادا». لم يعد الصوت صوت كوميكو. ولا هو الصوت البنَّاتيّ الأصليّ. كان صوتًا جديدًا، صوت شخصٍ آخر. له رنين اتِّزانٍ وذكاء. «... مثلما أنَّ الناس لا يلتقون الآخرين كي يكشفوا عن حقيقتهم دائمًا. هل فهمتَ قصدي سيِّد أوكادا؟»

«لكنَّ كوميكو كانت تحاول أن توصل لي **شيئًا**. سواء أكانت الحقيقة أم غير ذلك، لكنَّها لجأتْ إليَّ من أجل **شيءٍ ما**، **وذلك الشيء** هو الحقيقة بالنسبة إليَّ».

شعرتُ بأنَّ الظلام يزداد كثافةً من حولي، مثلما يكتمل مدُّ المساء من دون صوت. كان عليَّ أن أُسرع. لم يبقَ لديَّ وقتٌ كثير. فقد يأتون إلى هنا بحثًا عنِّي إنْ عادت الأضواء. قرَّرت أن أخاطر بقول الأفكار التي كانت تتشكَّل شيئًا فشيئًا في عقلي.

«ما سأقوله إنَّما هو محض خياليّ، لكنَّني أُخمِّن وجودَ نزعةٍ موروثة في عائلة واتايا. لستُ متأكِّدًا من طبيعة هذه النزعة، لكنَّها نزعةٌ ما. شيءٌ كنتِ تخافين منه. ولهذا السبب كنتِ تخافين الإنجاب. حين حملتِ ارتبكتِ لأنَّكِ كنتِ قلقةً من أن تظهر تلك النزعةُ في طفلك. لكنَّكِ لم تستطيعي أن تبوحي لي بالسرِّ. والقصَّةُ كلُّها بدأتْ من هناك».

لم تقل شيئًا، لكنَّها وضعتْ كأسها على الطاولة. فأكملتُ:

«أمَّا شقيقتُك فأنا واثقٌ من أنَّها لم تمت مِن تسمُّمٍ غذائيّ. لم يكن موتًا عاديًا. وأمَّا المسؤول عن موتها فكان نوبورو واتايا، وأنتِ تعرفين هذا. ربَّما قالت لكِ أختكِ شيئًا قبل موتها، كنوعٍ من التحذير. كانت لدى نوبورو واتايا قوَّةٌ خاصَّة، وكان يعرف كيف يجد الناس الذين يستجيبون لتلك القوَّة ويحصل على شيءٍ منهم. لا بدَّ من أنَّه استخدم تلك القوَّة استخدامًا عنيفًا مع كريتا كانو. لقد استطاعتْ بطريقةٍ أو بأخرى أن تتعافى، أمَّا أختك فلم تستطع. فقد كانت تعيش في البيت نفسه، ولم يكن لديها مكانٌ تهرب إليه. لم تستطع أن تحتمل الأمر فاختارت الموت. أمَّا أبواكِ فقد تكتَّما على هذا السرِّ. أليس هذا صحيحًا؟»

لا جواب. ظلَّت المرأة صامتةً، في محاولةٍ لأن تخفي وجودها في الظلام.

«لا أعرف كيف فعل ذلك وفي أيِّ مناسبة، لكنَّ نوبورو واتايا زاد من قوَّته العنيفة أضعافًا. فعبر التلفاز ووسائل الإعلام الأخرى، استطاع أن يمارس قوَّته الكبيرة على المجتمع بأكمله. وهو الآن يحاول أن يحصل على شيءٍ تُخبِّئه جموع الناس في ظلماتِ لاوعيهم. يريد أن يستخدم ذلك لمصلحته السياسيَّة. شيءٌ خطير جدًّا هذا الذي يحاول أن يستخرجه منهم. ملطَّخٌ بالعنف والدم، وله ارتباطٌ مباشر بأشدِّ أعماق التاريخ سوادًا، ذلك أنَّ نتيجته النهائيَّة تدميرُ الناس وإبادتهم على نطاقٍ واسع».

تنهَّدتْ في الظلام. ثم سألتْني بلطف: «هل لي أن أطلب منك كأسَ ويسكي آخر؟»

مشيتُ إلى الطاولة الجانبيَّة وأخذت الكأس الفارغة. كنتُ أستطيع أن أفعل ذلك في الظلام بسهولة. ذهبتُ إلى الغرفة الأخرى، وصببتُ ويسكي مع الثلج على ضوء المصباح.

«ما قلتَه الآن محض خيالك، أليس كذلك؟»

«بلى. حاولتُ أن أربط بعض الأفكار ببعض. لا أملك وسيلةً لإثبات شيءٍ منها. ولا يوجد لديَّ أساسٌ أستند إليه كي أدَّعي أنَّ ما قلته صحيح».

«مع ذلك، أودّ أن أسمع منك البقيَّة. إن كان لديك شيءٌ آخر تقوله».

عدتُ إلى الغرفة الداخليَّة ووضعتُ الكأس على الطاولة الجانبيَّة. ثم أطفأتُ المصباح وعدتُ إلى الكرسيّ. ركَّزتُ انتباهي على سرد قصَّتي.

«أنتِ لم تعرفي ما حدث لأختك بالضبط، سوى أنَّها حذَّرتكِ من شيءٍ ما قبل موتها. كنتِ صغيرةً جدًّا آنذاك على أن تستوعبي الأمر. لكنَّكِ استوعبتِ، على نحوٍ غامض. كنتِ تعرفين أنَّ نوبورو واتايا انتهك أختك وآذاها. ثم أحسستِ بوجود سرٍّ مخيف، شيءٍ لا يمكن أن تغضِّي الطرف عنه. وهكذا ظللتِ في ذلك البيت وحيدةً دائمًا، متوتِّرةً دائمًا، تصارعين كي تعيشي مع قلقٍ ساكنٍ يستعصي على التعريف، مثل واحدٍ من قناديل البحر التي رأيناها في حديقة الأسماك.

«بعد أن تخرَّجتِ في الكلِّيَّة تزوَّجنا (بعد كلّ تلك المشكلات مع أسرتك) وغادرتِ منزل واتايا. كانت حياتنا هادئةً مطمئنَّة،

فاستطعتِ يومًا بعد يوم أن تنسي ذلك القلق المخيف في داخلك. خرجتِ إلى المجتمع إنسانةً جديدة، وواصلتِ رحلة التعافي. لفترةٍ من الوقت بدا أنَّ كلّ شيء كان يسير على ما يرام في حياتك. ولكنْ للأسف لم يكن الأمر بهذه البساطة. فقد لاحظتِ في مرحلةٍ ما أنَّكِ تُجرِّين رغمًا عنك إلى تلك القوَّة الشرِّيرة التي اعتقدتِ أنَّك تركتِها خلفَك. وحين أدركتِ ما يحدث ازدادتْ حيرتك. لم تعرفي كيف تتصرَّفين، وهذا ما دعاكِ إلى الحديث مع نوبورو واتايا، رجاءَ أن تعرفي الحقيقة. ولجأتِ أيضًا إلى مالطا كانو، على أمل أن تساعدك. كنتُ أنا الوحيد الذي لم تستطيعي أن تصارحيه.

«أعتقد أنَّ هذا كلّه بدأ بعد أنْ حملتِ. متأكِّدٌ أنَّها كانت نقطة التحوُّل. لهذا السبب، ربَّما تلقَّيتُ أوَّل تحذير لي من عازف القيثارة في ساپورو، في الليلة نفسها التي أجهضتِ فيها. ربَّما أيقظ الحملُ ذلك الشيء الذي في داخلك. وهذا بالتحديد ما كان ينتظره نوبورو واتايا. ربَّما لا يمكن لنوبورو واتايا أن يرتبط جنسيًّا بامرأةٍ إلَّا بهذه الطريقة. لهذا كان مصمِّمًا على جرّك من جهتي إلى جهته، ما إنْ بدأتْ تلك النزعةُ تظهر فيك. كان مدفوعًا إلى أن يحصل عليكِ. لقد احتاج إليكِ نوبورو واتايا كي تؤدِّي له الدور الذي أدَّته أختك فيما مضى».

فلمَّا انتهيتُ من الكلام، حلَّ صمتٌ عميق يملأ الفراغ. لقد قلتُ كلّ ما أفرزه خيالي عن كوميكو. كانت في جزءٍ منها نتيجة أفكارٍ سابقة غامضة، أمَّا بقيَّتها فقد تشكَّل في عقلي وأنا أتحدَّث في الظلام. لعلَّ قوَّة الظلام ملأت تلك المساحات الفارغة في

خيالي. أو ربَّما ساعدني وجود هذه المرأة. أيًّا ما كان، فلم يكن هناك من أساسٍ راسخ لما تخيَّلته.

قالت: «قصَّة لافتة جدًّا جدًّا». ومرَّةً أخرى، أصبح في صوتها تلك اللثغة البنَّاتيَّة. بدا لي أنَّ السرعة التي كان يتغيَّر صوتها بها تزداد. «حسنًا حسنًا. إذن، فقد تركتُك كي أختبئ بجسدي المنتهَك. مثل جسر ووترلو في الضباب، أولد لانغ ساين، روبرت تيلر وڤيڤيان ليه ـ»[1].

قاطعتُها: «سأخرجكِ من هنا. سأُعيدك إلى البيت، إلى العالم الذي تنتمين إليه، حيث تعيش القطط ذوات الذيول المعقوفة، وحيث الأفنية الصغيرة، وحيث ترنّ المنبِّهات في الصباح».

«وكيف ستفعل ذلك؟ كيف ستُخرجني من هنا سيِّد أوكادا؟»

«مثلما يحدث في الحكايات. بكسرِ التعويذة».

فقال الصوت: «أهاا. ولكن انتظر لحظةً سيِّد أوكادا. أنت تعتقد بأنَّني كوميكو. وتريد أن تُعيدني إلى البيت على أساس أنَّني كوميكو. ولكن ماذا لو لم أكن كوميكو؟ ماذا ستفعل عندئذٍ؟ فكِّر قبل أن تأخذ شخصًا آخر تمامًا. هل أنت واثقٌ ممَّا تفعله. ألا يجدر بك التفكير في الأمر مرَّةً أخرى؟»

---

(1) جسر ووترلو (Waterloo Bridge): فيلم سينمائيّ من إنتاج عام 1940 م، حقَّق نجاحًا كبيرًا في اليابان بعد الحرب العالميَّة الثانية. أمَّا روبرت تيلر وڤيڤيان ليه فهما بطلا الفيلم. وأمَّا أولد لانغ ساين، فهي الأغنية الشهيرة في الفيلم. (المترجم).

كوَّرت قبضتي على المصباح في جيبي. لا يمكن أن تكون هذه المرأة إلَّا كوميكو. ولكنْ لم تكن لديَّ وسيلةٌ لإثبات ذلك. لم يكن ذلك في نهاية الأمر سوى فرضيَّة. تفصَّد العرق من يدي في جيبي.

قلتُ ثانيةً بصوتٍ جافّ: «سآخذك إلى البيت. هذا ما جئتُ من أجله».

سمعتُ حفيف الشراشف. لا بدَّ من أنَّها كانت تُغيِّر جلستها في السرير.

«هل أنت واثق من ذلك؟ من دون شكّ؟»

«نعم، أنا واثق من ذلك. سآخذك إلى البيت».

«لستَ متردِّدًا؟»

«لا. لقد اتَّخذت قراري».

أتبعتْ ذلك بصمتٍ طويل، وكأنَّها تتحقَّق من شيء. ثم أطلقتْ نفَسًا طويلًا، لتُشير إلى نهاية هذا الجزء من حوارنا.

قالت: «سأُعطيك هديَّة. ليست هديَّةً كبيرة، لكنَّها قد تُفيدك. لا تشعل المصباح، ومُدَّ يدك هنا، ببطءٍ شديد، شديد، إلى الطاولة الجانبيَّة».

نهضتْ عن الكرسيّ، وأنا أتحسَّس مدى الفراغ، فمددتُ يدي في الظلام. كنتُ أشعر بأشواكِ الهواء على أطراف أصابعي. ثُم لمستُ الشيء. حين أدركتُ ما هو، شعرتُ بالهواء يجثم على حلقي. فلم تكن «الهديَّة» سوى مضرب بيسبول.

أمسكتُ بالمقبض وحملت المضرب عاليًا. كان هو نفسه

المضرب الذي أخذتُه من الرجل صاحب علبة القيثارة. القبضة نفسها، والوزن نفسه. لا بدَّ من أنَّه هو. لكنَّني حين تلمَّسته أكثر وجدتُ فيه شيئًا من الفتات العالق فيه. بدا مثل شعر بشر. أمسكته بين أطراف أصابعي. من سُمكه وقوَّته، لا بدَّ أن يكون شعر إنسان حقيقيٌّ. كانت هناك عدَّة شعرات عالقة بالمضرب، ممزوجةً بما يبدو دمًا متخثِّرًا. لا بدَّ من أنَّ شخصًا ما استخدم المضرب لتهشيم رأس شخصٍ آخر (ربَّما نوبورو واتايا). جاهدتُ كي أُخرج الهواء العالق بحلقي.

«هذا مضربك، أليس كذلك؟»

قلتُ وأنا أُصارع كي أبقى هادئًا: «أعتقد ذلك». كان صوتي قد بدأ يتَّخذ نبرةً مختلفة في تلك العتمة، كما لو أنَّ شخصًا آخر كان رابضًا هناك يتحدَّث بدلًا منِّي. تنحنحتُ، ثم تأكَّدتُ من أنَّ المتحدِّث أنا الحقيقيّ، وقلت: «ولكن يبدو أنَّ شخصًا استخدمه كي يضرب شخصًا ما».

لم تنبس ببنت شفة. جلستُ ووضعتُ المضرب بين ساقيّ. «لا شكَّ أنَّك تعرفين ما يحدث. لقد استخدم شخصٌ ما هذا المضرب ليُهشِّم رأس نوبورو واتايا. الأخبار التي رأيتها على التلفاز كانت حقيقيَّةً إذن. نوبورو واتايا يرقد في المستشفى في حالةٍ خطرة. وقد يموت».

«لن يموت». قالتها من دون أيّ عاطفة، وكأنَّها تقرأ حقيقةً تاريخيَّة من كتاب. «لكنَّه قد لا يستعيد وعيه. ربَّما يظلّ يطوف في الظلام، ولكنْ لا أحد يعلم أيّ نوع من الظلام».

تحسَّستُ موضع الكأس عند قدميَّ والتقطته. صببتُ ما فيه

في فمي وازدردتُه من دون تفكير. عَبَر ذلك السائل عديم الطعم من حلقي إلى المريء. شعرتُ بقشعريرةٍ لا أعلم سببها، ثم بإحساسٍ غير مريح وكأنَّ شيئًا بعيدًا يقترب باتِّجاهي شيئًا فشيئًا عبر ظلمةٍ طويلة. بدأتْ نبضاتُ قلبي تتسارع، وكنتُ أعرف أنَّ هذا سيحدث.

قلت: «لا وقت لدينا. أجيبيني عن هذا فقط إن استطعتِ: أين نحن؟»

«لقد جئتَ إلى هنا من قبل، ووجدتَ الطريق إلى المجيء حيًّا ولم يمسسك سوء. من المفترض أن تعرف **أنت** أين نحن. وعلى أيِّ حال، لم يعد هذا مهمًّا. المهمّ هو ـ».

عندها قُرِع الباب. كان الصوت قويًّا جافًّا، وكأنَّ شخصًا يدقّ مسمارًا في الجدار. قرعتان قويَّتان، ثم اثنتان. هو القرع نفسه الذي سمعته من قبل. شهقت المرأة.

قالت بصوتٍ كان صوت كوميكو بلا شكّ: «عليك أن تخرج من هنا. لو خرجتَ الآن فقد تستطيع العبور من الجدار».

لم أعرف ما إذا كان تفكيرًا سليمًا أم خاطئًا، لكنَّني أدركتُ أنِّي ما دمتُ هنا فلا بدَّ أن أهزم هذا الشيء. كانت هذه هي الحرب التي عليَّ أن أخوضها.

قلتُ لكوميكو: «لن أهرب هذه المرَّة. سآخذك معي إلى البيت».

وضعتُ كأسي على الأرض، وارتديتُ قبّعتي، وأخذتُ المضرب من بين ركبتيَّ. ثم مشيت ببطءٍ نحو الباب.

35
مجرَّد سكِّين حقيقيَّة

*

النبوءة

مشيتُ نحو الباب على ضوء المصباح، أحرص على أن لا تُصدر خطواتي أيّ صوت. كان المضرب في يدي اليمنى. قُرِع الباب مرَّةً أخرى وأنا أمشي. اثنتان، ثم اثنتان، لكنَّها كانت هذه المرَّة أقوى، وأعنف. التصقتُ بالجدار كي أختبئ وراء الباب حين يُفتح. وهناك انتظرتُ، أعدّ أنفاسي.

فلمَّا تلاشى الصوت، خيَّم الصمتُ على كلِّ شيء مرَّةً أخرى، وكأنّ شيئًا لم يحدث. لكنَّني شعرت بوجود شخصٍ ما في الخارج. كان هذا الشخص واقفًا مثلي، يعدّ أنفاسه ويصيخ السمع، يحاول أن يسمع صوت الأنفاس أو دقَّات القلب، أو

يقرأ الأفكار. حاولت أن أمنع أنفاسي من إثارة الهواء المحيط. قلت لنفسي **أنا لست هنا**. أنا لستُ هنا. أنا لستُ في أيِّ مكان.

دار المفتاح في القفل. كان يفعل كلّ شيءٍ بحذر شديد، يطيل الزمن الذي يستغرقه كلّ فعلٍ كيما يفصل الأصوات عن بعضها بعضًا، فتفقد معناها. دار المقبض، ثم جاء صوت المفاصل وهي تدور، يكاد لا يُسمع. بدأتْ دقّات قلبي تتسارع. حاولتُ أن أُسكت صوتها، بلا جدوى.

دخل شخصٌ ما إلى الغرفة، فاندفعتْ دوائرُ في الهواء. بذلتُ جهدًا كي أشحذ حواسّي الخمس، فالتقطتُ رائحةَ جسدٍ غريب. مزيجٌ غريبٌ من الملابس الثقيلة، والأنفاس المكتومة، والأعصاب المشدودة في الصمت. هل كانت السكّين في يده؟ كان عليَّ أن أفترض ذلك. تذكّرتُ بريقها الواضح. حبستُ أنفاسي، وتخفّيْت، وأحكمتُ قبضتي على المضرب.

فلمّا دخل الشخص الغرفة أغلق الباب وأوصده. ثم وقف هناك وظهره إلى الباب، يراقب وينتظر. تخضّلت يداي بالعرق فوق المضرب. كنتُ أودّ لو أمسح راحتيَّ في بنطالي، لكنَّ أقلّ حركةٍ يمكن أن تفضي إلى نتائج قاتلة. استحضرتُ في عقلي صورة التمثال الذي كان في حديقة بيت مياواكي. توحّدتُ في صورة الطائر كي أُخفي وجودي هنا. هناك في الحديقة التي تسفعها الشمس كنتُ تمثال الطائر، متجمّدًا في مكاني، أُحدّق في السماء.

لقد أحضر الشخصُ مصباحَه معه. أشعله، فشقَّ شعاعُه الضيِّق طريقه في الظلام. لم يكن الضوء قويًا. كان من مصباح قلمٍ مثل الذي كنت أحمله. انتظرتُ أن يتجاوز الشعاع مكاني فيما هو يمشي في الغرفة، لكنَّه لم يتحرَّك. بدأ الضوء يلتقط الأشياء في الغرفة، واحدًا تلو الآخر: أزهار المزهريَّة، والصينيَّة الفضِّيَّة (ببريقها الحميميّ)، والأريكة، والمصباح... وانتقل من أمام أنفي فاستقرّ على الأرض أمام حذائي، يلعق كلّ زاويةٍ من الغرفة مثل لسان أفعى. انتظرتُ، وطال الانتظار كأنَّه لن ينتهي. فنشب الخوف والتوتُّر أظفارهما في وعيي بألمٍ شديد.

قلت لنفسي **لا تُفكِّر. ممنوع أن تُفكِّر. ممنوع أن تستخدم خيالك**. هذا ما قاله الملازم ماميا في رسالته. **تخيُّل الأشياء هنا قد يكون مميتًا.**

أخيرًا، بدأ الشعاع يتحرَّك ببطء، ببطءٍ شديد. من الواضح، أنَّ الرجل كان يتوجَّه نحو الغرفة الداخليَّة. أحكمتُ قبضتي على المضرب. وعندها لاحظتُ أنَّ العرق في يديَّ قد جفَّ، بل لقد جفَّت يداي أكثر ممَّا ينبغي.

تقدَّم الرجل خطوةً واحدة بطيئة، وتوقَّف. ثم أخرى. يبدو أنَّه كان يتحقَّق من خطواته. أصبح الآن أقرب منِّي. أخذتُ نفَسًا وحبسته. خطوتان أخريان وسوف يكون في الموضع الذي أريده. خطوتان أخريان، وسوف أتمكَّن من وضع حدٍّ لهذا الكابوس. وعندها، اختفى الضوء فجأة. ابتلع الظلامُ كلّ شيءٍ مرَّةً أخرى. أطفأ الرجل مصباحه. حاولتُ أن أدفع عقلي إلى التفكير بسرعةٍ

في الظلام، لكنَّه لم يستجب. سَرَتْ في بدني قشعريرةٌ غير مألوفة. لقد أدرك أنَّني موجود.

قلت لنفسي **تحرَّك. لا تقف هكذا**. حاولتُ أن أحيد بسرعةٍ إلى اليسار، لكنَّ ساقيَّ لم تتحرَّكا. كانت قدماي ملتصقتَيْن بالأرضيَّة، مثل قدمَي تمثال الطائر. انحنيْتُ ولم أكد أستطيع أن أميل جسدي المتخِّشب إلى اليسار. عندها، اصطدم شيءٌ في كتفي الأيمن، وما هي إلَّا طعنةٌ حتى العظم من شيءٍ صلبٍ وباردٍ كحبَّات مطرٍ متجمِّدة.

يبدو أنَّ الضربة أنعشَتْني، فاختفى الشلل من ساقيَّ. قفزتُ إلى اليسار وزحفتُ في الظلام محاولًا أن أتلمَّس مكان خصمي. تفجَّر الدم من جسمي، وكلّ عضلة وخليَّة تصرخ في حاجةٍ إلى الأوكسجين. تخدَّر كتفي الأيمن، لكنَّني لم أشعر بالألم. سيأتي الألم لاحقًا. بقيتُ ساكنًا تمامًا، وهو كذلك. كنَّا نواجه بعضنا بعضًا في الظلام، نحبس أنفاسنا. لا شيء نراه، لا شيء نسمعه.

مرَّةً أخرى، جاءت السكِّين فجأةً من دون إنذار. مرَّت من جانب وجهي مثل نحلة، فخدش طَرَفُها خدِّي الأيمن في مكان العلامة. شعرتُ بجلدي يتمزَّق. بالتأكيد لم يكن يراني. فلو كان يراني لقضى عليَّ. رفعتُ المضرب في الظلام، وصوَّبت نحو المكان الذي جاءت السكِّين منه، لكنَّ المضرب هوى في الهواء من دون أن يضرب شيئًا. غير أنَّ الضربة كانت جيِّدة، وقد ساعد صوتها في ارتخاء أعصابي. كنَّا ما نزال خصمَيْن متكافئَيْن. صحيح أنَّه شقَّ جسمي بالسكِّين مرَّتيْن، لكنَّ الإصابة لم تكن

خطرة. لم يكن أحدٌ يرى الآخر. وعلى الرَّغم من أنَّه يحمل سكِّينًا، إلَّا أنَّني أنا أيضًا أحمل مضربًا.

مرَّةً أخرى في هذا العمى المشترك بيننا، وعدّ الأنفاس، كان كلٌّ منَّا يترصَّد الآخر، في انتظار أدنى حركة. شعرتُ بالدم يتقطَّر من وجهي، لكنِّي لم أكن خائفًا. قلتُ لنفسي **إنَّها مجرَّد سكِّين. إنَّه مجرَّد جرح**. انتظرت. انتظرتُ أن تأتي السكِّين مرَّة أخرى. بدا لي أنَّني سأنتظر إلى الأبد. شهقتُ وزفرتُ من دون صوت. قلت له في عقلي **هيَّا! تحرَّك**. أنتظر منك أن تتحرَّك. اطعنِّي إن شئت. لستُ خائفًا.

وجاءت السكِّين مرَّةً أخرى. شقَّتْ ياقتي. شعرتُ بطرف السكِّين يمرّ أمام حلقي، لكنَّه لم يلمس جلدي. التففتُ وقفزتُ جانبًا، وما عدتُ أطيق الانتظار حتى أستقيم، فهويتُ عليه بالمضرب. جاءته الضربة قرب عظم ترقوته. لم تكن كافيةً للإطاحة به أو كسر عظامه، لكنَّني كنتُ متأكِّدًا من أنَّه تألَّم. شعرتُ به يرتدّ من أثر الضربة، وسمعتُ شهقةً عالية. أعدتُ المضرب إلى الخلف، وهويتُ عليه مرَّةً أخرى، في الاتِّجاه نفسه ولكنْ بزاويةٍ أعلى قليلًا، في المكان الذي سمعتُ منه شهيقه.

كانت ضربةً متقنة؛ فقد أصابته في رقبته. سمعتُ صوت عظم ينكسر. وجاءت الضربة الثالثة، في الرأس، فطوَّحَتْه. أطلق صوتًا غريبًا، وهوى على الأرض. ظلَّ هناك يشهق، ثم ما لبثتْ شهقاته أن توقَّفت. أغمضتُ عينيَّ، ومن دون أن أُفكِّر صوَّبتُ ضربةً أخيرة في اتِّجاه الصوت. لم أكن أُريد أن أفعل ذلك، ولكنْ لا

خيار لديَّ. كنتُ مضطرًّا إلى القضاء عليه، لا عن كراهية أو خوف، لكنَّه كان شيئًا لا بدَّ من أن يُنجز. سمعتُ شيئًا ينفلق في الظلام مثل ثمرة، مثل بطِّيخة. وقفتُ في مكاني ساكنًا، وأنا أقبض على المضرب. ثم أدركتُ أنِّي كنت أرتعش. كلّ جسمي يرتعش. ولم أكن أستطيع أن أوقفه. عدتُ خطوةً إلى الوراء وأخرجتُ المصباح من جيبي.

«لا!». جاءني صوت في الظلام. «لا تنظر إليه!». كان صوت كوميكو يناديني من الغرفة الداخليَّة، تحاول أن تمنعني من النظر. ولكنْ كان عليَّ أن أنظر. كان عليَّ أن أراه. كان عليَّ أن أعرف ما هو ذلك الشيء الذي هشَّمته في الظلام. جزءٌ منِّي كان يفهم ما تريد كوميكو أن تمنعني من فعله. كانت محقَّة. لا يجدر بي أنْ أنظر إليه. لكنَّ المصباح كان في يدي الآن، وتلك اليد كانت تتحرَّك وفقًا لمشيئتها.

صرختْ فيَّ: «أرجوك. أتوسَّل إليك أن تتوقَّف! لا تنظر إليه إنْ أردتَ أن تُعيدني إلى البيت ثانية».

كززتُ أسناني، ثم أطلقتُ الهواء العالق في رئتيَّ. لكنَّ ارتعاشي لم يتوقَّف. دارت في الهواء رائحةٌ كريهة، رائحة مخٍّ، وعنف، وموت. لقد فعلتُ هذا. أنا الذي جعلتُ رائحة المكان هكذا. وجدتُ الأريكة فانهرتُ فوقها. ظللتُ فترةً أُصارع الغثيان الذي تصاعد في جوفي، لكنَّ الغثيان انتصر. أفرغتُ كلّ ما في جوفي على الأرضيَّة، فلمَّا انتهى أفرغتُ سوائل معدتي، ثم الهواء، ثم اللعاب. وحين كنتُ أتقيَّأ ألقيتُ بالمضرب أرضًا،

فسمعتُه يتقلَّب على الأرض في الظلام.

حين بدأتْ تشنُّجات جوفي تختفي، أردتُ أن أُخرج منديلي لأمسح فمي، لكنَّني لم أستطع أن أحرِّك يدي. لم أستطع أن أنهض من فوق الأريكة. قلتُ موجِّهًا كلامي إلى الظلام في الغرفة الداخليَّة: «لنعد إلى البيت. لقد انتهى الأمر. هيَّا بنا».

لم تجبني.

لم يعد هناك أحد. دفنتُ وجهي في الأريكة، وأغمضتُ عينيَّ.

كنتُ أشعر بالقوَّة تتسرَّب منِّي، من أصابعي، وكتفيَّ، ورقبتي، وساقيَّ... بدأ الألم في جروحي يتلاشى أيضًا. كان جسمي يفقد كلّ إحساسه بالكتلة والمادَّة. لكنّ هذا لم يبعث في داخلي أيّ قلق، أو خوف. أسلمتُ نفسي، من دون أيّ مقاومة، أسلمتُ جسدي لشيءٍ دافئ كبير جاء يضمّني. أدركتُ حينها أنِّي كنتُ أعبر من الجدار الهلامي. كلّ ما عليَّ فعله هو أن أسلِّم نفسي للتدفُّق الخفيف. قلتُ لنفسي وأنا أتحرَّك في الجدار **لن أعود إلى هنا أبدًا**. لقد انتهى كلّ شيء. **ولكن أين كوميكو؟ أين ذهبت؟** كان من المفترض أن أُعيدها من الغرفة. لهذا السبب قتلتُ الرجل. لهذا السبب، فلقتُ رأسَه مثل حبَّة بطِّيخ. لهذا السبب... لكنِّي لم أعد قادرًا على التفكير. فقد غُيِّب عقلي في حوضٍ عميقٍ من الفراغ.

*

فلمَّا عدتُ، كنتُ أجلس في الظلام مرَّةً أخرى. ظهري إلى الجدار، كالعادة. لقد عدتُ إلى قاع البئر.

لكنَّه لم يكن قاع البئر المعتاد. ثمَّة شيءٌ جديد هنا، شيء غير مألوف. حاولت أن أستجمع مداركي كي أستوعب ما يحدث. ما الذي تغيَّر؟ لكنَّ حواسِّي كانت ما تزال في حالةٍ تُقارب الشلل. كان لديَّ حسٌّ جزئيٌّ بما حولي. شعرتُ كما لو أنَّني وُضعت في حاويةٍ أخرى بالخطأ. لكنَّني بعد قليلٍ من الوقت بدأتُ أُدرك الأمر.

الماء. كنتُ مُحاطًا بالماء.

لم تعد البئر جافَّة. كنتُ أجلس والماء يصل إلى خصري. أخذتُ عدَّة أنفاسٍ عميقة كي أُهدِّئ نفسي. كيف حدث هذا؟ كان الماء يتفجَّر من البئر، لكنَّه لم يكن ماءً باردًا. بل كان أقرب إلى الدفء. شعرتُ بأنِّي جالسٌ في حوضٍ مدفَّأ. خطر لي آنذاك أن أتفقَّد جيبي. كنتُ أريد أن أعرف ما إذا كان المصباح ما يزال في جيبي. هل أحضرته معي من العالم الآخر؟ هل هناك أيّ رابط بين ما حدث هناك وهذا الواقع؟ لكنِّي لم أستطع أن أحرِّك يدي. لم أستطع حتى أن أحرِّك أصابعي. لقد فاضت كلّ قوَّةٍ من ذراعيّ وساقيّ. كان من المستحيل أن أستطيع النهوض.

بدأتُ أُقيِّم وضعي في هدوء. أوَّلًا، كان الماء قد وصل إلى خصري فقط، فلا داعي لأن أخشى الغرق. صحيحٌ أنَّني لم أكن قادرًا على الحركة، ولكنْ قد يكون مردّ هذا أنَّني استخدمتُ كلّ

ما أملك من طاقة. بمرور ما يكفي من الوقت ستعود قوَّتي إليَّ. لم تكن جروحُ السكِّين عميقةً جدًّا، كما أنَّ الشلل الذي أصابني أنقذني على الأقلِّ من الشعور بالألم. ويبدو أنَّ النزيف توقَّف من خدِّي.

أسندتُ ظهري إلى الجدار، وقلت لنفسي **لا تقلق**. لقد انتهى كلّ شيء. وكلّ ما عليَّ فعله هو أن أرتاح قليلًا، ثم أعود إلى عالمي الأصليّ، العالم فوق الأرض، حيث تزخر الدنيا بضوء الشمس... ولكنْ لماذا نَبَع الماء من هذه البئر فجأةً؟ كانت البئر جافَّةً تمامًا فترةً طويلة، فكيف عادت إلى الحياة؟ هل لهذا أيُّ علاقة بما فعلتُه **هناك**؟ ربَّما نعم. لا بدَّ من أنَّ شيئًا حدث هناك فأزال الشيء الذي كان يُعيق الوريد المائيّ.

*

بُعيد ذلك، أدركتُ حقيقةً مشؤومة. حاولت بادئ الأمر ألَّا أقبلها كحقيقة. فقد راح عقلي يورد احتمالاتٍ كثيرة من أجل ذلك. حاولت أن أُقنع نفسي بأنَّها محضُ هلوسةٍ من أثر الظلام والإرهاق. لكنَّني اضطُررت في النهاية إلى الاعتراف بالحقيقة. فمهما حاولت أن أخدع نفسي، لن تختفي تلك الحقيقة.

كان مستوى الماء يرتفع.

وصل الماء إلى باطن ركبتيَّ المطويَّتيْن. كان هذا يحدث في بطء، لكنَّه يحدث. حاولتُ مرَّةً أخرى أن أتحرَّك. وبجهدٍ جهيد حاولت أن أستخرج أيّ قوَّة في داخلي، بلا جدوى. أقصى ما

كان في وسعي هو أن أحني رقبتي قليلًا. نظرتُ فوقي. كان غطاء البئر ما يزال في مكانه. حاولتُ أن أنظر في ساعتي على معصمي الأيسر، فلم أفلح.

كان الماء يدخل من فتحةٍ، يتدفَّق بسرعةٍ تزداد مع الوقت. ففي حين كان يتسرَّب في أوَّل الأمر، أصبح الآن ينبثق. كنتُ أسمعه. سرعان ما وصل الماء إلى صدري. إلى أيِّ عمق تُراه يصل؟

كان السيِّد هوندا قد قال لي: **احذر الماء**. لم أُولِ نبوءته أيّ اهتمامٍ من قبل. صحيح أنَّني لم أنسَ تحذيره، (فالمرء لا ينسى كلامًا غريبًا كهذا) لكنَّني لم أتعامل معه بجدِّيَّة. لم يكن السيِّد هوندا بالنسبة إليَّ وإلى كوميكو أكثر من مرحلةٍ وديعة لا ضرر منها. كنتُ أكرِّر كلامه على سبيل المزاح بين الفينة والأخرى كلَّما جاءت مناسبة: «احذروا الماء». وكنَّا نضحك. كنَّا صغارًا، ولا حاجة بنا إلى النبوءات. فالعيش في حدِّ ذاته كان نبوءة. لكنَّ السيِّد هوندا كان على حقّ. كدتُ أطلق ضحكةً عالية. كان الماء يصعد، وأنا في ورطة.

لاحت لي مايو كاساهارا. استخدمتُ خيالي كي أتصوَّرها ترفع غطاء البئر. تخيَّلتها بواقعيَّةٍ ووضوح كاملَيْن. كانت الصورة لفرط وضوحها وواقعيَّتها تدفعني إلى أن أدخل فيها. لم أكن أستطيع أن أُحرِّك جسدي، لكنَّ خيالي ما يزال يعمل. وماذا أملك أن أفعل غير هذا؟

قالت مايو كاساهارا: «مرحبًا سيِّد طائر الزنبرك». تردَّد صدى صوتها في أسطوانة البئر. ولم أكن أدرك أنَّ الصدى يرتدّ في البئر المملوءة بالماء أكثر منه في البئر الفارغة. «ماذا تفعل هناك؟ تُفكِّر مرَّة أخرى؟»

«لا أفعل شيئًا بعيْنه. لا وقت لديَّ الآن للشرح، لكنَّني لا أستطيع أن أُحرِّك جسدي، والماء يرتفع هنا. لم تعد هذه البئر جافَّة. قد أغرق».

«مسكين سيِّد طائر الزنبرك. لقد فرَّغتَ طاقتك كلّها وأنت تحاول جاهدًا أن تنقذ كوميكو. ولعلَّك أنقذتها **فعلًا**. صحيح؟ كما أنَّك في أثناء ذلك أنقذتَ أناسًا كثيرين. لكنَّك لم تستطع أن تُنقذ نفسك. ولا أحد يمكنه أن ينقذك. لقد استنفدتَ قواك وقَدَرك في إنقاذ الآخرين. لقد غرست كلّ بذورك في مكانٍ آخر، وما عاد شيءٌ في كيسك. هل سمعتَ من قبل بشيءٍ أكثر ظلمًا من هذا؟ أشفق عليك يا سيِّد طائر الزنبرك، من أعماق قلبي. ولكنْ في نهاية المطاف كان هذا هو الخيار الذي اخترته أنت لنفسك. هل فهمت قصدي؟»

«نعم». شعرت بنبضٍ في كتفي الأيمن. قلتُ لنفسي إذن فقد حدث ذلك حقيقةً. لقد قطعتْني السكِّين. قطعتني كسكِّين حقيقيَّة.

سألتني مايو كاساهارا: «خائفٌ من الموت، سيِّد طائر الزنبرك؟»

«نعم بالطبع». سمعتُ تردُّد صوتي في البئر. كان صوتي،

وفي الوقت نفسه لم يكن صوتي. «بالطبع أخاف حين أُفكِّر بأنِّي سأموت هنا في بئرٍ مظلمة».

«وداعًا إذن أيُّها المسكين سيِّد طائر الزنبرك. سامحني، لا أستطيع أن أفعل لك شيئًا. أنا بعيدةٌ، بعيدةٌ جدًّا».

«وداعًا مايو كاساهارا. كنتِ جميلةً جدًّا بالبيكيني».

كان صوت مايو كاساهارا خفيضًا جدًّا وهي تقول: «وداعًا أيُّها المسكين سيِّد طائر الزنبرك».

وأُغلق غطاء البئر مرَّةً أخرى. تلاشت الصورة. لكنَّ شيئًا لم يحدث. لم تكن الصورة مرتبطةً بأيِّ شيء. صرختُ باتِّجاه رأس البئر: «**مايو كاساهارا، تُرى أين ذهبتِ في الوقت الذي احتجتُ إليكِ؟**»

*

وصل الماءُ إلى حلقي. كان يُحيط برقبتي الآن مثل الأنشوطة. في ذلك الترقُّب، شعرتُ بصعوبةٍ في التنفُّس. كان قلبي الذي أصبح تحت الماء يجاهد كي يعدّ الوقت المتبقِّي له. إن استمرّ هذا المنوال فليس أمامي سوى خمس دقائق أو نحو ذلك حتى يغطِّي الماء فمي وأنفي ويبدأ في ملء رئتيَّ. لا أمل لديَّ في النجاة. لقد أعدتُ هذه البئر إلى الحياة، وسوف أموت شاهدًا على إحيائها. قلتُ لنفسي ليست مِيتة سيِّئة. العالم مليء بطرقٍ للموت أسوأ من هذه بكثير.

أغمضتُ عينيَّ، وحاولتُ أن أتقبَّل موتي الوشيك بأقصى ما

يمكنني من هدوء. جاهدتُ كي أتغلَّبَ على خوفي. لقد استطعتُ أن أترك خلفي بضعة أشياء على الأقلِّ. كان هذا عزائي الوحيد. حاولت أن أبتسم، ولم أفلح. همستُ لنفسي «لكنِّي خائفٌ فعلًا من الموت». كانت هذه كما يبدو كلماتي الأخيرة. لم تكن كلماتٍ عظيمة، لكنَّ الأوان قد فات لتغييرها. وصل الماء إلى فوق فمي الآن. ثم وصل إلى أنفي. توقَّفتُ عن التنفُّس. حاولتْ رئتاي أن تسحبا هواءً جديدًا، ولكن لم يبقَ أيّ هواء. لا شيء سوى الماء الفاتر.

كنتُ أموت. مثل كلّ الناس الذين يعيشون في هذا العالم.

36
قصَّة الناس البطّ

*

ظِلال ودموع

*

(مايو كاساهارا تتحدَّث: 6)

مرحبًا مرَّةً أخرى، سيِّد طائر الزنبرك.

أخبرني، هل تصلك رسائلي؟

أرسلتُ لك عشرات الرسائل، وبدأتُ أتساءل الآن ما إذا كانت تصلك أصلًا. العنوان الذي أستخدمه «شبه» عنوان، ولا أكتب عنوان المرسل على المظروف، فربَّما تكون رسائلي على رفٍّ «الرسائل المفقودة» في مكتبٍ بريديٍّ، غير مقروءة يُغطِّيها الغبار. كنتُ أقول لنفسي حتى الآن: إنْ لم تصل، فهي لم

تصل، ما المشكلة؟ كنتُ أخطّ هذه الرسائل بصعوبة، لكنَّ المهمّ هو أنَّني كنتُ أضع أفكاري على الورق. يسهل عليَّ أن أكتب حين أفكِّر في أنَّني أكتب إليك أنت سيِّد طائر الزنبرك، ولا أدري لماذا. ما رأيك، ما السبب؟

لكنَّ هذه الرسالة تحديدًا أُريدك أن تقرأها. أرجو وأدعو أن تصلك.

سأكتب لك الآن عن الناس البطّ. نعم، أعرف أنَّها أوَّل مرَّة آتي على ذكرهم. قلتُ لك من قبل إنَّ المصنع الذي أعمل فيه يمتلك أرضًا هائلة بها غابةٌ وبركةٌ وأشياءُ. أرض ممتازة للمشي. البركة كبيرة، وفيها يعيش البطّ، ربَّما اثنتا عشرة بطَّة. لا أعرف تركيبها العائليّ. أتصوَّر أنَّ لديها ترتيبًا معيَّنًا، فالبعض منها ينسجم مع البعض ولا ينسجم مع البعض الآخر. لكنَّني لم أرها تتشاجر قطّ.

نحن في شهر كانون الأوَّل / ديسمبر الآن، وقد بدأ الجليد يتشكَّل فوق البركة، مع أنَّه ليس سميكًا. وحتى حين يكون الجوّ باردًا، يظلّ هناك ماءٌ كافٍ للبطّ كي تسبح فيه. سمعتُ أنَّه حين يتشكَّل الجليد السميك تذهب بعض الفتيات للتزلُّج هناك. وعندها يُضطرّ الناس البطّ (نعم، أعرف أنَّه تعبير غريب، لكنَّني اعتدت استخدامه، وهو على لساني)، يُضطرُّون إلى الذهاب إلى مكانٍ آخر. أنا لا أحبّ التزلُّج على الجليد، لذلك أرجو ألَّا يتشكَّل الجليد، لكنِّي لا أظنّ أنَّ هذا سيفيد. أقصد أنَّ الجوّ يصبح باردًا جدًّا في هذا المكان، لذلك فما دام الناس البطّ يعيشون هنا لا بدَّ من أن يسلِّموا أمرهم له.

في هذه الفترة، أجيء إلى هذا المكان في كلِّ عطلةٍ أسبوعيَّة، أُزجي الوقت بمشاهدة الناس البطّ. تنقضي ساعتان أو ثلاث ولا أشعر بها. أخرج في هذا الجوِّ البارد متدرِّعة من رأسي حتى قدميَّ، مثل صيَّاد دببةٍ قطبيَّة. ألبس جوارب، وقبَّعة، ووشاحًا، وحذاءً طويلًا، ومعطفًا مشذَّب الفرو. ثم أقضي الساعات أجلس فوق صخرةٍ وحدي، أتجمَّد من البرد، وأنظر إلى الناس البطّ. في بعض الأحيان أطعمهم خبزًا. بالطبع، لا يوجد أحدٌ آخر هنا يملك الوقت لفعل أشياءَ مجنونةٍ كهذه.

ربَّما لا تعرف هذا يا سيِّد طائر الزنبرك، لكنَّ البطّ أُناسٌ لطيفون جدًّا ومن الممتع قضاء الوقت معهم. لا أملّ أبدًا من مشاهدتهم. ولا أفهم أبدًا لماذا يتجشَّم الجميع عناء الذهاب إلى مكانٍ بعيد ويدفعون المال كي يشاهدوا فيلمًا سخيفًا بدلًا من مشاهدة هؤلاء الناس. ففي بعض الأحيان، يصفِّقون بأجنحتهم في الهواء ويحطُّون على الجليد، لكنَّ أقدامهم تنزلق فيسقطون. شيء يشبه المسلسلات الكوميديَّة! يضحكونني حتى وأنا أجلس هناك بمفردي. بطبيعة الحال لا يهرِّجون في محاولةٍ لإضحاكي. إنَّهم يبذلون كلّ ما في وسعهم لكي يعيشوا حياةً جادَّة جدًّا، ولكنْ يحدث أن يسقطوا في بعض الأحيان. برأيي هذا شيءٌ جميل.

للناس البطّ أقدامٌ مسطَّحة برتقاليَّة لطيفة حقًّا، وكأنَّهم يرتدون أحذيةَ مطرٍ صغيرة، لكنَّهم غير مخلوقين للمشي فوق الجليد، كما أَعتقد، لأنِّي أراهم ينزلقون فوقه، وبعضهم يسقطون على عجيزاتهم. لا بدَّ من أنَّهم لا يملكون مَداساتٍ مقاومة للانزلاق. لذلك لا يُعدّ فصلُ الشتاء فصلًا ممتعًا للناس البطّ. تُرى بماذا

يُفكِّرون في دواخلهم عن الجليد وهكذا؟ أراهن أنَّهم لا يكرهونه كثيرًا. إنَّما يبدو الأمر لي أنا هكذا من مشاهدتهم. يبدو عليهم أنَّهم يعيشون حياةً سعيدة على الرَّغم من الشتاء، وربَّما يتذمَّرون لأنفسهم: «أوه، الجليد مرَّةً أخرى؟ حسنًا...». وهذا أمرٌ آخر أحبّه في الناس البطّ.

تقع البركة في منتصف الغابة، بعيدةً عن كلِّ شيء. لا أحد (إلَّا أنا طبعًا) يأبه بالمشي إلى هنا في هذا الوقت من السنة، إلَّا في الأيَّام الدافئة. أمشي في الطريق عبر الغابة، فيطحن حذائي الجليدَ المتبقِّي من آخر مرَّةٍ تساقط فيها الثلج. وأرى طيورًا كثيرة هنا. حين أرفع ياقتي وألفّ وشاحي لفَّةً تلو الأخرى تحت ذقني، وتُطلق أنفاسي سُحُبًا بيضاء في الهواء، وأحمل معي فتات خبزٍ في جيبي، وأمشي في طريق الغابة أُفكِّر في الناس البطّ، يتملَّكني شعورٌ سعيدٌ دافئ، فأتذكَّر أنَّني لم أشعر بسعادةٍ مثل هذه منذ زمنٍ طويلٍ طويل.

حسنًا، يكفي هذا عن الناس البطّ.

أُصارحك بأنِّي استيقظتُ قبل ساعة من حلم عنك أنت يا سيِّد طائر الزنبرك، ومنذ ذلك الوقت وأنا على طاولتي أكتب إليك هذه الرسالة. الساعة الآن (أنظر إلى ساعتي) الثانية وثماني عشرة دقيقة صباحًا. ذهبتُ إلى سريري قُبَيل العاشرة كالعادة، وقلت «تصبحون على خير» للناس البطّ، ورحتُ في نوم عميق. لكنِّي قبل قليل استيقظت.. فجأةً! لا أدري إنْ كان حلمًا. أقصد أنَّني لا أذكر أيّ شيء ممَّا كنت أحلم به. ربَّما لم أكن أحلم. ولكن أيًّا ما كان، فقد سمعتُ صوتك قرب أذني تمامًا. كنتَ تُناديني

مرَّةً بعد مرَّة بصوتٍ عالٍ جدًّا. هذا ما أيقظني من النوم مفزوعة.

لم تكن الغرفة مظلمةً حين فتحتُ عينيَّ. كان نور القمر يتسرَّب من النافذة. ذلك البدر الكبير مثل صينيَّةٍ فولاذيَّة كان رابضًا فوق التلَّة. كان كبيرًا جدًّا، فشعرتُ أنَّه بمقدوري أن أمدّ يدي وأكتب شيئًا عليه. أمَّا النور الذي تسرَّب من النافذة فكان أشبه ببركةٍ بيضاء كبيرة. جلستُ في سريري، أُفكِّر مليًّا، أحاول أن أستوعب ما جرى. لماذا كنتَ تنادي باسمي بذلك الصوت الحادّ الواضح؟ ظلَّ قلبي يدقّ فترةً طويلة. لو أنَّني كنتُ في بيتي لارتديتُ ملابسي (حتى وإنْ كنتُ في منتصف الليل) وركضتُ عبر الزقاق إلى منزلك يا سيِّد طائر الزنبرك. لكنَّني لم أستطع أن أركض إلى أيِّ مكان وأنا بعيدةٌ هنا على بعد آلاف الأميال.

أتعرف ماذا فعلت؟

تعرَّيْت. إحم. لا تسألني لماذا. أنا نفسي لا أدري. لذا، اسكت واسمعني فقط. المهمّ، خلعتُ كلّ ما عليَّ من ملابس وخرجتُ من سريري. جثوتُ على ركبتيَّ في نور القمر. كان جهاز التدفئة مطفأً، ولا بدَّ من أنَّ الغرفة كانت باردة، لكنِّي لم أشعر بالبرد. كان هناك شيءٌ مميَّز في نور القمر القادم عبر النافذة، وكان يلفّ جسدي بغشاءٍ رفيع محكم. على الأقلِّ هذا ما شعرت به. ظللتُ عاريةً في مكاني برهةً، ثم أخذتُ أمدّ أجزاء مختلفةً من جسدي كي تستحمّ بنور القمر. لا أدري، لكنِّي شَعرت بأنَّ ما أفعله طبيعيٌّ جدًّا. كان نور القمر آيةً في الجمال لدرجة أنِّي لم أستطع إلَّا أن أفعل ذلك. غطَّست رأسي، وكتفيَّ، وذراعيَّ، ونهديَّ، وبطني، وساقيَّ، وعجيزتي، و.. ذلك

المكان، غطّستها كلّها في نور القمر واحدًا بعد الآخر كأنّي أستحمّ.

لو أنَّ شخصًا رآني من الخارج لاستغرب تصرُّفي هذا جدًّا. لا بدَّ من أنَّني بدوتُ مثل منحرفةٍ يُثيرها البدر فيُجنّ جنونها تحت نوره. ولكنْ لم يرني أحدٌ طبعًا. مع ذلك، فربَّما ذلك الصبيّ على الدرَّاجة الناريَّة كان في مكانٍ ما ينظر إليَّ. لا بأس. إنَّه ميِّت. لو أراد أن ينظر، وكان يرضيه ذلك، فلا مانع عندي من أن يراني.

ولكنْ عمومًا، لم يكن أحد ينظر إليَّ. كنتُ أفعل ما أفعله وحيدةً تحت نور القمر. وبين لحظةٍ وأخرى، كنت أغمض عينيَّ وأُفكِّر في الناس البطّ، الذين ربَّما كانوا نائمين قرب البركة في مكانٍ ما. كنت أُفكِّر في الشعور السعيد الدافئ الذي أنشأناه أنا والناس البطّ معًا في النهار. فأخيرًا، أصبح الناس البطّ بالنسبة إليَّ شيئًا يُشبه ما يشبه سحرَ التميمة الحامية.

بقيتُ جاثيةً هناك فترةً طويلة بعدها، وحدي، عاريةً، في نور القمر. أضفى النور على جسدي لونًا سحريًّا، وألقى بظلٍّ أسودَ حادٍّ لجسدي على الأرضيَّة، يصل إلى الجدار. لم يبدُ مثل ظلّ جسمي أنا، بل ظلّ امرأةٍ أكثر نضجًا بكثير. لم تكن عذراء مثلي، لم تكن لها زواياي وتقاطيعي لكنَّها كانت أكثر امتلاءً واستدارة، بثديَيْن وحلمتَيْن أكبر بكثير. لكنَّه كان الظلّ الذي أصنعه أنا، إنَّما ممتدٌّ أكثر وله شكلٌ مختلف. كان يتحرَّك حين أتحرَّك. لبرهةٍ، حاولت أن أتحرَّك بطرقٍ مختلفة وأراقب بحرصٍ كي أرى الرابط بيني وبين ظلِّي، أحاول أن أعرف لماذا يبدو مختلفًا هكذا. لكنِّي

لم أعرف السبب. وكلَّما نظرتُ إليه ازداد غرابة.

وصلنا الآن إلى الجزء الأصعب فعلًا يا سيِّد طائر الزنبرك. لا أدري إن كنتُ سأستطيع الكلام، لكنِّي سأحاول.

باختصار، انفجرتُ باكيةً فجأةً، هكذا. لو كان الأمر في نصٍّ مسرحيَّةٍ مثلًا لكان هكذا: «مايو كاساهارا: هنا، فجأةً، تُغطِّي وجهها بيديْها، تنوح بصوتٍ عالٍ، وتنهار باكية». لا تستغرب. كنتُ أُخبِّئ عنك هذا الأمر طوال الوقت، لكنِّي في الحقيقة أكبر بكَّاءة في العالم. أبكي من دون سبب. هذه نقطة ضعفي التي لا يعرفها أحد. لذلك، فالبكاء من دون سببٍ لم يكن مفاجئًا بالنسبة إليَّ. لكنَّني في العادة أبكي قليلًا ثم أقول لنفسي يكفي. أبكي بسهولة، لكنَّني أتوقَّف بسهولةٍ أيضًا. أمَّا اليوم، فلم أستطع أن أتوقَّف. مثل زجاجةٍ طارت سدَّادتها. لم أعرف السبب الذي دفعني إلى البكاء، لذلك لم أعرف كيف أوقف نفسي. كانت الدموع تنهمر مثل دمٍ يتفجَّر من جرح عميق. اندهشتُ من كمِّيَّة الدموع التي بكيتُها. وبدأتُ أخشى فعلًا أن أُصاب بالجفاف، وأتحوَّل إلى مومياء لو استمرَّ هذا البكاء.

كنتُ فعليًّا أرى وأسمع دموعي تتقاطر على البركة البيضاء من نور القمر، فتغيب فيها من فورها كأنَّها جزءٌ من ذلك النور. كانت دموعي حين تسقط تلتقط نور القمر فتلتمع مثل بلُّوراتٍ جميلة. بعد ذلك، لاحظتُ أنَّ ظلِّي كان يبكي أيضًا، يذرف دموعًا ظِلِّيَّة واضِحة. هل سبق أن رأيت ظلَّ الدموع يا سيِّد طائر الزنبرك؟ ليس فيها ما يُشبه الظلال العاديَّة أبدًا. لا شيء على الإطلاق. فهي من عالمٍ آخر بعيد، لا سيَّما عن قلوبنا. أو ربَّما لا. خطر

لي حينها أنَّ الدموع التي كان يذرفها ظلِّي ربَّما تكون هي الحقيقيَّة، أمَّا التي أذرفها أنا فلم تكن سوى ظلالٍ لها. أعرف أنَّك لا تفهم ذلك سيِّد طائر الزنبرك. حين تذرف فتاةٌ عارية في السابعة عشرة من عمرها دموعًا في نور القمر، يصبح كلّ شيء ممكنًا. صدِّقني.

هذا ما حدث في الغرفة قبل ساعةٍ من الآن. أمَّا الآن، فأنا أجلس إلى طاولتي أكتب إليك بقلم رصاص يا سيِّد طائر الزنبرك (بملابسي طبعًا!)

وداعًا سيِّد طائر الزنبرك. لا أعرف كيف أُعبِّر عن ذلك، لكنَّ الناس البطّ وأنا ندعو لك بالسعادة والدفء. وإن حصل لك أيُّ شيء، فلا تتردَّد في أن تناديني مرَّةً أخرى.

تصبح على خير.

37
نوعان مختلفان من الأخبار

*

الشيء الذي اختفى

قالت جوزة الطيب: «قرفة هو الذي حملك إلى هنا».

أوَّل ما وجدتُه حين استيقظتُ كان الألم، في أشكالٍ مختلفة ملتوية. كان جرح السكِّين يؤلمني، ومفاصلي وعظامي وعضلاتي كلّها تؤلمني. لا بدَّ من أنَّ أجزاءً مختلفةً من جسدي اصطدمت بأشياءَ حين كنتُ أهرب في الظلام. مع ذلك، فإنَّ كلّ واحدٍ من هذه الآلام له شكلٌ غريب. كانت في منطقةٍ تقترب من الألم، لكنَّها ليست ألمًا بالضبط.

بعد ذلك، أدركتُ أنِّي كنتُ ممدَّدًا على أريكةِ غرفة القياس، أرتدي منامةً زرقاء لم أرها من قبل، وفوقي بطَّانيَّة. كانت الستائر

مفتوحة، فانطلقتْ شمسُ الصباح الساطعة من خلال النافذة. خمَّنت أنَّ الساعة كانت قرب العاشرة. ثمَّة هواءٌ نظيف هنا، وزمن يتحرَّك، لكنَّني لم أفهم سبب وجودهما.

قالت جوزة الطيب: «قرفة أحضرك إلى هنا».

«جروحك ليستْ خطيرة. الجرح الذي على كتفك عميق، لكنَّه لم يُتلف أوردةً دمويَّة لحسن الحظّ. أمَّا الجروح التي على وجهك فليست سوى كشطات. وقد خاط قرفة بقيَّة الجروح كي لا تظهر لك ندوب. إنَّه ماهر في هذا الأمر. وبعد بضعة أيَّامٍ، يمكنك أن تُزيل الغُرز بنفسك أو عند الطبيب».

حاولتُ أن أتحدَّث، لكنِّي لم أستطع دفع صوتي للظهور. كلّ ما استطعت فعله هو أن أتنفَّس ثم أزفر الهواء.

قالت جوزة الطيب: «من الأفضل ألَّا تتكلَّم أو تتحرَّك الآن». كانت تجلس على كرسيٍّ قريب تضع ساقًا فوق الأخرى. «يقول قرفة إنَّك ظللتَ في البئر فترةً طويلة. كاد يفوت الأوان. ولكنْ لا تسألني عمَّا حدث، فأنا لا أعرف شيئًا. تلقَّيتُ اتِّصالًا في منتصف الليل، فطلبتُ سيَّارة أجرةٍ وهُرعت إلى هنا. أمَّا تفاصيل ما حدث قبل ذلك فلا أعرفها. كانت ملابسك مبتلَّةً تمامًا بالماء وملطَّخةً بالدم. فألقينا بها في المهملات».

ملابس جوزة الطيب أبسط من المعتاد، وكأنَّها اضطُرَّت إلى الإسراع في الخروج من المنزل. كانت ترتدي سترةً من الكشمير ذي اللون القشديّ فوق قميص رجَّاليٍّ مخطَّط، وتنُّورةً صوفيَّة زيتونيَّة اللون. لم تكن ترتدي أيّ مجوهرات، وشعرها مربوط إلى

الخلف. بدت مرهقةً قليلًا، لكنَّها مع ذلك كانت تصلح لأنْ تكون صورةً في كتالوج. وضعتْ سيجارةً بين شفتَيْها وأشعلتها بولَّاعتها الذهبيَّة، بذلك الصوت المعتاد، ثم مجَّت سيجارتها وقد ضيَّقت عينَيْها. لم أمُت إذن، قلتُ لنفسي حين سمعتُ صوت الولَّاعة. لا بدَّ من أنَّ قرفة أخرجني من البئر في اللحظة الأخيرة.

«قرفة يفهم الأشياء بطريقةٍ خاصَّة. على عكسك أنت أو أنا، فهو دائمًا ما يمعن في التفكير في إمكانيَّة أن تحدث الأشياء. ولكنْ حتى قرفة نفسه لم يخطر في باله قطّ أنَّ الماء قد يعود إلى البئر فجأةً هكذا. لم يكن هذا من بين الاحتمالات العديدة التي توقَّعها. ولهذا السبب كدتَ تفقد حياتك. كانت هذه أوَّل مرَّة أراه فيها مذعورًا».

ابتسمتْ قليلًا وهي تقول ذلك.

قالت: «لا بدَّ من أنَّه يحبّك جدًّا».

لم أسمع ما قالته بعد ذلك. شعرتُ بألم عميق بين عينيّ، وثقُلت أجفاني. تركتُها تنغلق، وغبتُ في الظلام كأنِّي في مصعد.

*

مضى يومان كاملان حتى تعافى جسدي. ظلَّت جوزة الطيب معي طوال الوقت. فلم أكنْ أستطيع النهوض وحدي، لم أستطع أَن أتكلَّم، وأكاد لا أتناول الطعام. أقصى ما كان في وسعي هو أنْ أشرب قليلًا من عصير البرتقال وبضع قطعٍ من الخوخ المعلَّب. كانت جوزة الطيب تعود إلى بيتها ليلًا، ثم تأتي في

الصباح. ولم أجد مشكلةً في ذلك، فقد كنتُ أغيب في النوم طوال الليل، ومعظم النهار أيضًا. من الواضح، أنَّ أكثر ما كنتُ في حاجةٍ إليه لكي أتعافى هو النوم.

لم أر قرفة. ويبدو أنَّه كان يتجنَّبني. كنتُ أسمع صوت سيَّارته تدخل من البوَّابة كلَّما أوصل جوزة الطيب أو أتى يأخذها أو أوصل ملابس أو طعام. كنتُ أسمع هدير محرِّك الپورشه، إذْ لم يعد قرفة يستخدم المرسيدس. لكنَّه لم يكن يدخل البيت. كان يُسلِّم الأغراض لجوزة الطيب عند الباب، ثم يغادر.

قالت لي جوزة الطيب: «سنتخلَّص من هذا البيت قريبًا. وسأُضطرّ إلى الاعتناء بالنساء بنفسي مرَّةً أخرى. لا بأس. يبدو أنَّه قَدَري. سأستمرّ إلى أن أُستنفد تمامًا، وأصبح فارغة. أمَّا أنت، فربَّما لن تكون لك أيّ علاقةٍ بنا بعد الآن. حين ينتهي هذا الأمر وتعود إليك صحَّتك، سيكون من الأفضل أن تنسى أمرنا بأسرع ما يمكن. والسبب... أوه، نعم، نسيت أن أُخبرك. عن صهرك. نوبورو واتايا».

أحضرتْ جوزة الطيب صحيفةً من الغرفة المجاورة وفتحتْها على الطاولة. «أحضرَها قرفة قبل قليل. لقد سقط صهرك فاقد الوعي الليلة الماضية في ناغازاكي، وأخذوه إلى المستشفى هناك. وما يزال فاقد الوعي حتى الآن. لا يدرون ما إذا كان سيتعافى».

ناغازاكي؟ كنت لا أكاد أستوعب ما تقوله. أردت أن أتحدَّث، لكنَّ الكلمات لم تخرج من فمي. المفروض أن يسقط نوبورو واتايا في أكاساكا وليس ناغازاكي. لماذا ناغازاكي؟

تابعتْ جوزة الطيب: «كان في ناغازاكي لإلقاء خطاب، ثم جلس مع المنظِّمين لتناول العشاء، وفجأةً فقد توازنه. فحملوه إلى مستشفى قريب. يقولون إنَّها قد تكون سكتةً دماغيَّة. ربَّما ضعف وراثيّ في وريدٍ في الدماغ. تقول الصحيفة إنَّه سيبقى طريح الفراش فترةً من الزمن، وأنَّه حتى لو استفاق فقد لا يتمكَّن من الكلام، وبذلك تكون حياته السياسيَّة قد انتهت. مؤسف، فقد كان في ريعان الشباب. سأترك لك الصحيفة هنا. يمكنك أن تقرأها حين تشعر بتحسُّن».

استغرق منِّي الأمر بعض الوقت حتى أستوعب تلك الحقائق. كانت الصور التي رأيتها في التلفاز في ردهة الفندق ما تزال واضحةً جدًّا في عقلي. مكتب نوبورو واتايا في أكاساكا، والشرطة في كلِّ مكان، ومدخل المستشفى، والمراسل المتجهِّم وصوته المتوتِّر. لكنَّني شيئًا فشيئًا تمكَّنتُ من إقناع نفسي بأنَّ ما رأيتُه لا يوجد إلَّا في العالم الآخر. ففي الحقيقة، في هذا العالم، لم أضرب نوبورو واتايا بمضرب بيسبول. وفي الحقيقة لن تحقِّق معي الشرطة أو تقبض عليَّ. لقد تعرَّض لسكتةٍ أمام الناس. لا توجد جريمة، ولا احتمال جريمة. شعرتُ بارتياحٍ كبير. فقد كانت مواصفات المتَّهم التي أذاعوها في التلفاز تكاد تنطبق عليَّ، ولم يكن لديَّ شاهد إثبات.

لا بدَّ من وجود رابطٍ بين قتلي ذلك الشخص في العالم الآخر وسقوط نوبورو واتايا. من الواضح، أنَّني قتلت شيئًا في داخله، أو شيئًا شديد الارتباط به. ربَّما أحسّ بقدومي. لكنَّ الذي فعلتُه لم يقضِ على حياة نوبورو واتايا، فها هو قد نجا من

حافَّة الموت. كان ينبغي أن أسقطه من تلك الحافَّة. ماذا عن كوميكو؟ ما الذي سيحدث لها الآن؟ ألن تستطيع الهروب وهو ما يزال على قيد الحياة؟ هل سيستمرّ سحرُه عليها وهو فاقد الوعي؟

كان هذا آخر حدٍّ أوصلتني إليه أفكاري. وبدأ وعيي يتسرَّب شيئًا فشيئًا إلى أن أسلمتُ نفسي للنوم. رأيت منامًا مقلقًا، متشظِّيًا. كانت كريتا كانو تحمل طفلًا عند صدرها. لم أر وجه الطفل. كان شعر كريتا قصيرًا، ووجهها خاليًا من أيّ تجميل. قالت لي إنَّ اسم الطفل كورسيكا، وإنَّني نصف والده، أمَّا النصف الثاني فكان الملازم ماميا. قالت إنَّها لم تذهب إلى كريت بل ظلَّت في اليابان لتضع طفلها وتربِّيه. لم تستطع أن تجد اسمًا جديدًا للطفل إلَّا قبل فترةٍ وجيزة، وهي الآن تعيش حياةً هانئة تزرع الخضروات في تلال هيروشيما مع الملازم ماميا. لم يفاجئني أيّ شيءٍ ممَّا قالته. كنتُ قد تكهَّنت بكلٍّ هذا، في الحلم على الأقلّ.

سألتُها: «كيف حال مالطا كانو منذ أن رأيتها آخر مرَّة؟»

لم تُجبني كريتا كانو. اكتفت بنظرةٍ حزينة، ثم اختفت.

*

في صباح اليوم الثالث استطعتُ أخيرًا أن أنهض بنفسي. كان المشي ما يزال صعبًا عليَّ، لكنَّني استعدت القدرة على الكلام شيئًا فشيئًا. أعدَّت لي جوزة الطيب عصيدة رزّ. أكلتُها مع قليلٍ من الفواكه.

سألتُها: «كيف حال القطّ؟» كنتُ مشغول البال به.

«لا تقلق. قرفة يعتني به. يذهب إلى بيتك كلّ يومٍ ليطعمه ويغيِّر له الماء. لا شيء يتطلَّب قلقك الآن إلَّا أنت».

«متى ستبيعان البيت؟»

«في أقرب وقتٍ ممكن. ربَّما الشهر القادم. أظنّ أنَّك ستحصل على بعض المال أيضًا. ربَّما سنضطرّ إلى بيعه بثمنٍ أقلّ ممَّا دفعناه، لذلك لن تحصل على مالٍ كثير، لكنَّ حصَّتك ستكون نسبةً جيِّدة ممَّا دفعتَه للقرض. سيكفيك هذا لفترة، فلا تقلق بشأن المال. في كلِّ الأحوال أنت تستحقّ هذا المبلغ، فقد عملتَ بجدٍّ هنا».

«هل سيُهدم البيت؟»

«ربَّما نعم. وسوف يردمون البئر. خسارةٌ أن يردموها بعد أن أصبحت تُخرج الماء مرَّةً أخرى، لكنَّ الناس في هذه الأيَّام لا يريدون بئرًا كبيرة كهذه على الطراز القديم. في العادة، يمدُّون أنبوبًا ومضخَّةً كهربائيَّة. هذا أنسب وأوفر في المساحة».

«أظنّ أنَّ البيت لم يعد منحوسًا. سيكون مجرَّد بيتٍ عاديٍّ، وليس «بيت الشنق»».

فقالت: «ربَّما نعم». تردَّدتْ قليلًا ثم عضَّت شفتها. «لكنَّ هذا لم يعد يعنيني أو يعنيك. صحيح؟ في كلِّ الأحوال، المهمّ الآن هو أن ترتاح ولا تشغل بالك بأمورٍ لا تهمّ. تحتاج إلى وقتٍ كي تتعافى تمامًا».

أرتْني جوزة الطيب الخبرَ المنشور عن نوبورو واتايا في صحيفة الصباح التي أحضرتْها معها. كان خبرًا قصيرًا. ما يزال

نوبورو واتايا فاقد الوعي، وقد نُقل من ناغازاكي إلى مستشفى جامعيٍّ كبير في طوكيو، حيث ما يزال في العناية المركَّزة، لم تتطوَّر حالته. لا يذكر الخبر شيئًا أكثر من ذلك. لكنَّ كوميكو هي التي خطرتْ ببالي بالطبع. ترى أين هي؟ لا بدَّ من أن أعود إلى البيت. لكنِّي ما زلتُ لا أقوى على مشي تلك المسافة.

في الصباح التالي، استطعتُ أن أصل إلى مغسلة الحمَّام، فنظرتُ إلى نفسي في المرآة لأوَّل مرَّةٍ منذ ثلاثة أيَّام. كان منظري مروِّعًا. كنتُ أقرب إلى جثَّةٍ محفوظة. وكما قالت جوزة الطيب، فقد خِيط جرح خدِّي بغرزاتٍ تبدو متقنةً تمامًا. كان طول الجرح سنتيمتريْن ونصف على الأقلِّ لكنَّه لم يكن عميقًا. كانت الخِياطة تتمدَّد إن شددتُ وجهي، ولكنْ من دون ألم. نظَّفتُ أسناني وحلقت ذقني بآلة حلاقة. فلم أكن أثق بقدرتي على التحكُّم بشفرة حلاقة. فلمَّا تساقط شعر خدِّي لم أكد أصدِّق ما أراه في المرآة. وضعتُ الآلة جانبًا وأمعنتُ في النظر. اختفتْ العلامة. لقد قطع الرجل خدِّي الأيمن، في المكان نفسه الذي كانت فيه العلامة. كان القطع موجودًا، أمَّا العلامة فقد اختفت. تبخَّرت هكذا من دون أدنى أثر.

*

في ليلة اليوم الخامس، تناهى إلى مسمعي صوتُ أجراس الزلَّاجات مرَّةً أخرى. كانت الساعة بُعَيْد الثانية صباحًا. نهضتُ من الأريكة، وارتديتُ سترةً خفيفة فوق منامتي، وخرجت من غرفة القياس. عبرت من المطبخ إلى مكتب قرفة، ونظرت في الداخل. كان قرفة يناديني مرَّةً أخرى من داخل الحاسوب.

جلستُ إلى الطاولة، وقرأتُ الرسالة التي ظهرت على الشاشة.

يمكنك الدخول الآن إلى برنامج «يوميَّات طائر الزنبرك».
يُرجى اختيار ملفّ من 1 إلى 17.

نقرتُ على الرقم 17، فانفتح الملفّ أمامي.

38

يوميَّات طائر الزنبرك رقم 17

(رسالة كوميكو)

ثمَّة أشياء كثيرة أودُّ أن أُخبرك بها، غير أنَّها شرحٌ يطول. فربَّما استغرقتْ سنوات. كان الأجدر بي أن أصارحك قبل فترةٍ طويلة، أن أعترف لك بكلٍّ شيء، لكنَّني للأسف لم أملك ما يكفي من الشجاعة. كما أنَّني كنتُ أتشبَّث بالأمل في أن لا تؤول الأمور إلى هذه النهاية السيِّئة. وكان نتيجة ذلك هذا الكابوس الذي نعيشه نحن الاثنيْن. أنا السبب في كلِّ هذا، لكنَّ الأوان قد فات على الشرح والتبرير. ولا نملك الآن ما يكفي من الوقت. لذلك فما أُريد أن أفعله هنا هو أن أبدأ بأهمِّ شيء.

ألا وهو أنَّني لا بدَّ من أن أقتل أخي، نوبورو واتايا.

سأذهب الآن إلى غرفته في المستشفى، وأُطفئ الأجهزة التي

تُبقيه على قيد الحياة. سوف يسمحون لي بالمبيت معه لأنَّني أخته. ولن يكتشفوا أنَّ الأجهزة مفصولةٌ إلَّا بعد فوات الأوان. طلبتُ من الطبيب بالأمس أن يشرح لي كيف تعمل الأجهزة. سوف أنتظر إلى أنْ أتأكَّد من وفاته، ثم أُسلِّم نفسي للشرطة. سأقول لهم إنَّني فعلتُ ما رأيته صوابًا، من دون أن أُقدِّم أيّ تفسير. غالبًا، سيعتقلونني فورًا ثم يحاكمونني بتهمة القتل. وسوف تتدخَّل وسائل الإعلام ويكتب الناس آراءهم حول قضيَّة القتل الرحيم والموت بكرامة، وما إلى ذلك. لكنَّني سألزم الصمت. لن أقدِّم أيّ شرح أو دفاع. ثمَّة حقيقةٌ واحدة في كلّ هذا، ألا وهي أنِّي أردت أن أُنهي حياةَ إنسانٍ واحد، نوبورو واتايا. سوف أُسجن، لكنَّني لستُ خائفةً من هذا. فقد مررتُ بما هو أسوأ.

*

لولاك أنت لفقدتُ عقلي منذ زمنٍ طويل. كنتُ سأسْلم نفسي، فارغةً، لشخصٍ آخر، وأسقط في لجَّةٍ لا أمل في العودة منها. لقد فعل أخي نوبورو واتايا هذا الشيء نفسه مع أختي قبل سنواتٍ عديدة، فانتهى بها الأمر أن انتحرتْ. لقد انتهكَنا. وإنْ شئنا الدقَّة، فهو لم ينتهك جسدَيْنا. لكنَّ الذي فعله أسوأ من ذلك.

لقد سُلبَتْ منِّي حرِّيَّتي في فعل أيّ شيء، فأغلقتُ على نفسي فيَ غرفةٍ مظلمة. لم يُقيِّدني أحد أو يضع سجَّانًا يراقبني، لكنِّي لم أكن أستطيع الهروب. كان أخي يُقيِّدني بأغلال وسجَّانين أقوى بكثير، إذْ لم تكن الأغلال والسجَّانون إلَّا أنا. كنتُ أنا الأغلال

التي تقيِّد كاحلي، وأنا السجّان الوحشيّ الذي لا ينام. كانت في داخلي بالطبع نفسٌ تودّ الهرب، ونفسٌ أخرى جبانة فاسدة فقدتْ كلّ أملٍ في القدرة على الهرب، غير أنَّ النفس الأولى لم تستطع قطّ أن تسيطر على النفس الثانية، لأنِّي كنتُ منتَهكة جدًّا في عقلي وفي جسدي. كنتُ قد فقدتُ الحقّ في العودة إليك، لا لأنَّ أخي انتهكني، بل لأنَّني من قبل ذلك انتهكتُ نفسي انتهاكًا لا يمكن إصلاحه.

قلتُ لك في رسالتي إنَّني ضاجعتُ رجلًا آخر، لكنَّني لم أكن صادقةً في تلك الرسالة. وعليَّ أن أعترف لك بالحقيقة هنا. لم أضاجع رجلًا واحدًا فقط، بل رجالًا كثرًا. أكثر من أن أحصيهم. لستُ أدري ما الذي دفعني إلى فعل شيءٍ كهذا. وحين أُفكِّر في الأمر الآن، أردّ ذلك إلى تأثير أخي. فربَّما فتح شيئًا يشبه الدُّرْج في داخلي، وأخرج منه شيئًا غامضًا، فجعلني أسلِّم نفسي لرجلٍ تلو الآخر. كان أخي يمتلك تلك القوَّة، وعلى الرَّغم من أنِّي أكره الاعتراف بذلك إلَّا أنَّنا كنَّا بالتأكيد مرتبطَيْن ارتباطًا وثيقًا في منطقةٍ خفيَّة سوداء.

على أيِّ حال، حين جاءني أخي كنتُ قد انتهكتُ نفسي ولم يعد بالإمكان أن أطهِّرها. بل إنَّني في نهاية الأمر أُصبتُ بمرضٍ جنسيّ. ولكنْ على الرَّغم من هذا كلّه (كما ذكرتُ في رسالتي)، لم أستطع أن أشعر وقتها بأنَّني أُسيء لك على الإطلاق. لقد بدا لي أنَّ ما أفعله كان طبيعيًّا تمامًا، لكنِّي أتصوَّر أنَّ التي كانت تشعر بذلك لم تكن أنا الحقيقيَّة. ولكنْ هل يمكن أن يكون هذا صحيحًا؟ هل الجواب بهذه البساطة؟ وإنْ كان كذلك، فمن هي

أنا الحقيقيَّة؟ هل أملك أيّ أساسٍ قويّ للقول بأنَّ الأنا التي تكتب الرسالة الآن هي «أنا الحقيقيَّة»؟ لم أكن في يومٍ من الأيَّام قادرةً على أن أؤمن إيمانًا قويًّا بـ «نفسي»، وما زلتُ لا أقدر.

*

كثيرًا ما رأيتك في المنام. كانت أحلامًا واضحةً ذات قِصص واضحة. كنتَ في تلك الأحلام مستميتًا في البحث عنّي. كنّا في مكانٍ يشبه المتاهة، فكنتَ تكادُ تصل إلى المكان الذي أقف فيه. أردت أن أصرخ لك: «خطوةً أخرى فقط! أنا هنا!». فلو أنَّك وجدتَني وأخذتني بين ذراعيْك لانتهى الكابوس وعاد كلّ شيء إلى ما كان عليه. لكنَّني لم أستطع أن أُطلق الصرخة. كنتَ تمرّ من أمامي في الظلام ولا تراني، ثم تختفي. كان الأمر دائمًا على هذا المنوال. ومع ذلك، كانت هذه الأحلام تساعدني وتشجّعني. كنتُ أعرف على الأقلّ أنَّني ما زلت أقوى على الحلم. لم يستطع أخي أن يسلبني ذلك. كنتُ أستطيع أن أحسّ بأنَّك تفعل كلّ ما في وسعك لكي تقترب منّي. لعلَّك تعثر عليّ في يومٍ ما، وتحتضنني، وتخلِّصني من القذر العالق بي، وتُخرجني من ذلك المكان إلى الأبد. ربَّما تكسر السحر وتضع ختمًا جديدًا يمنع أنا الحقيقيَّة من الرحيل مرَّةً أخرى. هكذا، كنتُ أستطيع أن أحافظ على شعلة أملٍ صغيرة في ذلك المكان البارد المظلم الذي لا مخرج منه. هكذا، كنت أستطيع أن أحافظ على البقيَّة الباقية من صوتي.

حصلتُ عصر اليوم على الكلمة السرِّيَّة لدخول هذا الحاسوب. أرسله لي شخصٌ ما بالبريد الخاصّ. وها أنا أرسل

إليك هذه الرسالة من الحاسوب الذي في مكتب أخي. أرجو أن تصلك.

*

لم يعد لديَّ وقت. سيَّارة الأجرة تنتظرني في الخارج. عليَّ أن أذهب إلى المستشفى الآن، كي أقتل أخي وألقى جزائي. الغريب أنِّي لم أعد أكره أخي. وأجد نفسي أتصالح مع فكرة أنِّي سأمحو حياته من هذا العالم. عليَّ أن أفعل ذلك من أجله هو أيضًا. ولكي أُضفي معنى لحياتي. اعتنِ بالقطّ. لا تتخيَّل سعادتي بعودته. تقول إنَّ اسمه ماكريل؟ يروقني الاسم. كان القطّ دائمًا رمزًا لشيءٍ طيِّبٍ يكبر بيننا. ما كان ينبغي أن نفقده.

*

لا أستطيع أن أكتب أكثر الآن. وداعًا.

39
الوداع

«أنا آسفة جدًّا يا سيِّد طائر الزنبرك، لأنَّني لم أستطع أن أُريك الناس البطّ».

بدتْ مايو كاساهارا آسفةً فعلًا.

كنَّا نجلس أنا وهي عند البركة، ننظر إلى غطائها الجليديّ. كانت بركةً كبيرة بها آلاف الشقوق الصغيرة على سطحها من أثر أحذية التزلُّج. طلبتْ مايو كاساهار إجازةً في صباح يوم الإثنين هذا خصِّيصًا من أجلي. كنتُ أريد أن أزورها يوم الأحد، لكنَّ حادث قطارات أخَّرني يومًا واحدًا. لفَّت مايو كاساهارا نفسها بمعطفٍ من الفرو. في قبَّعتها الصوفيَّة الزرقاء زخرفةٌ بيضاء مغزَولة، وفوقها مدفع صغير. لقد خاطت تلك القبّعة بنفسها، وقالت إنَّها ستخيط واحدةً مثلها لي للشتاء القادم. كانت وجنتاها محمرَّتَيْن من أثر البرد، وعيناها برَّاقتَيْن صافيتَيْن مثل الهواء

المحيط بنا، فأسعدني ذلك جدًّا. كانت في السابعة عشرة من عمرها، فلا حدود تقريبًا لإمكانات التغيُّر فيها.

«لقد انتقل الناس البطّ إلى مكانٍ آخر بعد أن تجمَّدت البركة. متأكِّدةٌ أنَّها كانت ستعجبك. هلَّا عدت في فصل الربيع؟ سأعرِّفك إليها».

ابتسمتُ لها. كنتُ أرتدي معطفًا صوفيًا، لكنَّه لم يكن دافئًا بما يكفي، ألفّ وشاحًا يصل إلى وجنتيَّ، واضعًا يديَّ في جيبيَّ. بردٌ شديد يعبر الغابة، والثلج الصلب يغطِّي الأرضيَّة. حذائي الرياضيّ ينزلق في كلِّ مكان. كان يجدر بي أن أُحضر حذاءً مقاومًا للانزلاق.

سألتُها: «إذن هل ستظلِّين هنا فترةً أطول؟»

«أظنُّ ذلك. ربَّما أودُّ العودة إلى المدرسة بعد مرور الوقت. وربَّما لا. لا أعرف. ربَّما أتزوَّج.. لا، لا، أمزح». ابتسمتْ فخرجتْ من فمها سحابةٌ بيضاء. «ولكن عمومًا، سأبقى هنا فترة. أحتاج إلى وقتٍ أطول كي أُفكِّر. في ما أريد أن أفعله، وإلى أين أريد الذهاب. أريد أن آخذ وقتي في التفكير في هذه الأشياء».

هززتُ رأسي. «ربَّما هذا فعلًا ما ينبغي عليكِ فعله».

«قل لي يا سيِّد طائر الزنبرك، هل كنت تُفكِّر في هذه الأمور حين كنت في مثل سنِّي؟»

«همم. ربَّما لا. لا بدَّ من أنَّني فكَّرت فيها قليلًا، لكنَّني لا أذكر أنَّني كنتُ أُفكِّر فيها بجدِّيَّةٍ مثلك. ربَّما قلت في نفسي إنَّني لو واصلت حياتي بالطريقة المعتادة سيكون كلّ شيء على ما

يرام. لكنَّ الأمر لم يحدث هكذا، أليس كذلك؟ للأسف».

نظرتْ مايو كاساهارا في عينيَّ مباشرةً، وعلى وجهها تعبيرٌ هادئ. ثم وضعتْ يديْها على حجرها، واحدةً فوق الأخرى.

سألتْني: «في نهاية المطاف إذن لن يُخرجوا كوميكو من السجن؟»

«رفضت الخروج. أدركتْ أنَّ الجموع الغاضبة قد تنتقم منها. الأفضل لها أن تبقى في السجن، في هدوءٍ وسلام. إنَّها ترفض حتى رؤيتي. لا تريد أن ترى أيّ أحدٍ إلى أن تنتهي القضيَّة».

«متى تبدأ المحاكمة؟»

«في فصل الربيع. لقد اعترفتْ كوميكو، وسوف تقبل حكمَ المحكمة أيًّا ما يكون. لن تكون محاكمةً طويلة، وهناك احتمالٌ بأن يصدر الحكم مع وقف التنفيذ، أو في أسوأ الأحوال سيكون حكمًا مخفَّفًا».

التقطتْ مايو كاساهارا حَجرًا من عند قدمَيْها، وألقت به في وسط البركة. قعقع الحجرُ فوق الجليد وهو يتقلَّب إلى أن وصل إلى الناحية الأخرى.

«ماذا عنك يا سيِّد طائر الزنبرك؟ هل ستبقى في البيت في انتظار كوميكو مرَّةً أخرى؟»

أومأتُ.

«جيِّد. أم أنَّه ليس كذلك؟»

أطلقتُ أنا سحابةً بيضاء كبيرة. «لا أدري. أظنُّ أنَّها الطريقة

التي سوَّيْنا بها الأمر بيننا».

قلتُ لنفسي كان يمكن أن ينتهي الأمر نهايةً أسوأ بكثير.

في مكان بعيد في الغابة التي تحيط بالبركة، صاح طائر. نظرتُ عاليًا أتفقَّد المكان، ولكنْ لم يكن هناك صوتٌ آخر أسمعه. لم يكن هناك شيءٌ أراه. لا شيء سوى صوت نقَّار الخشب يحفر حفرةً في جذع شجرة.

قلت: «إن أنجبنا أنا وكوميكو طفلًا، أُفكِّر في أن أسمِّيه كورسيكا».

«اسم رائع!»

*

وفيما كنَّا نمشي جنبًا إلى جنب عبر الغابة، خلعتْ مايو كاساهارا قفَّازها الأيمن ووضعت يدها في جيبي. ذكَّرني هذا بكوميكو. كانت تفعل ذلك حين نمشي معًا في الشتاء، فنشترك في جيبٍ واحد في يوم بارد. أمسكتُ بيد مايو كاساهارا في جيبي. كانت يدها صغيرة، دافئةً مثل روحٍ منعزلة.

«أتدري يا سيِّد طائر الزنبرك، سيظنّ الجميع أنَّنا حبيبان».

«معك حقّ».

«قل لي، هل قرأتَ رسائلي كلّها؟»

«رسائلك؟». لم أعرف عمَّ تتحدَّث. «المعذرة، لم أتلقَّ أيّ رسالةٍ منكِ. وحصلتُ على عنوانك ورقم هاتفك من والدتك. لم يكن هذا سهلًا، فكان عليَّ أن ألوي الحقائق قليلًا».

«أوه، لا! أين ذهبتْ الرسائل إذن؟ لقد كتبتُ لك ربَّما خمسمئة رسالة!». رفعتْ مايو كاساهارا عينَيْها إلى السماء.

*

في وقتٍ متأخِّر من عصر ذلك اليوم، أوصلتْني مايو كاساهارا إلى المحطَّة. ركبنا حافلةً إلى البلدة، وتناولنا بيتزا في مطعمٍ قرب المحطَّة، ثم جلسنا ننتظر قطار الديزل الصغير الذي وصلَ أخيرًا. كان هناك شخصان أو ثلاثة يقفون أمام موقدٍ متوهِّج في غرفة الانتظار، أمَّا أنا ومايو كاساهارا، فقد بقينا على رصيف المحطَّة ننتظر في البرد. كان هناك قمرٌ شتائيٌّ صافٍ حادّ الأطراف معلَّق في السماء. كان هلالًا، حادّ القوس مثل سيفٍ صينيّ. تحت ذلك القمر، وقفتْ مايو كاساهارا على أطراف أصابعها، وطبعتْ قبلةً على خدِّي. أحسستُ بشفتَيْها الباردتَيْن الرفيعتَيْن تلمسان المكان الذي كانت فيه العلامة.

تمتمتْ: «وداعًا سيِّد طائر الزنبرك. شكرًا لأنَّك تجشَّمت كلّ هذا العناء من أجل زيارتي».

نظرتُ في عينَيْها ويداي في جيبيّ. لم أعرف ماذا أقول.

حين وصل القطار نزعتْ قبّعتها، وعادت خطوةً إلى الوراء، وقالت لي: «لو حدث لك أيّ شيء يا سيِّد طائر الزنبرك، نادني بصوتٍ عال. نادني أنا والناس البطّ».

«وداعًا مايو كاساهارا».

*

ظلَّ الهلالُ معلَّقًا فوق رأسي فترةً بعد أن غادر القطار

المحطَّة، يُطلُّ ويختفي كلَّما مال القطار. سرَّحتُ نظري في القمر، فإنْ غاب نظرتُ إلى أضواء البلدات الصغيرة وهي تمرّ بي من أمام النافذة. لاحت لي آنذاك مايو كاساهارا، بقبّعتها الصوفيَّة الزرقاء، وحيدةً في الحافلة تعود أدراجَها إلى المصنع، هناك فوق التلال. ثم استحضرتُ صورة الناس البطّ، يهجعون في ظِلالٍ مُعشبة في مكانٍ ما. ثم فكَّرتُ أخيرًا في العالم الذي كنتُ عائدًا إليه.

قلتُ «وداعًا مايو كاساهارا». وداعًا مايو كاساهارا، عسى أن يكون هناك دائمًا ما يرعاك ويحرسك.

أغمضتُ عينيَّ، أستجدي النوم، لكنَّه تمنَّع طويلًا. في مكانٍ بعيد عن أيٍّ إنسانٍ وأيّ مكان، غفوتُ لحظة.

المراجع

Alvin D. *Coox, Nomonhan: Japan Against Russia*, 1939, 2 vols (Stanford: Stanford University Press, 1985); Iwasaki Toshio, Yoshimoto Shin'ichirõ, trans., *Nomonhan: s?gen no Nisso-sen, 1939*, 2 vols (Tokyo: Asahi shinbun sha, 1989).

Ezawa Akira, *Manshukoku no shuto-keikaku: Tokyo no genzai to mirai o tou* (Tokyo: Nihon Keizai Hyoron sha, 1988).

Ito Keiichi, Shizuka *na Nomonhan* (Tokyo: Kodansha bunko, 1986).

Amy Knight, *Beria, Stalin's First Lieutenant* (Princeton: Princeton University Press, 1993).

Kojima Jo, *Manshu teikoku*, 3 vols (Tokyo: Bunshun bunko, 1983).

Onda Juho, *Nomonhan sen: ningen no kiroku* (Tokyo: Gendaishi shuppan kai, Tokuma shoten, 1977).

حكايةٌ تبدو للوهلة الأولى قصةً بوليسيَّة، أو روايةً عن علاقةٍ زوجيَّة تتمزَّق، أو تنقيبًا عن أسرارٍ دفينة من خبايا الحرب العالميَّة الثانية.

تورو أوكادا: شابٌّ يابانيّ يبحث عن قطّ زوجته المفقود. غير أنّه سرعان ما يَجِدُ نفسه في رحلة بحثٍ عن زوجته نفسها في عالمٍ آخر خفيّ. يتقاطع بحثُه عن القطّ مع بحثه عن الزوجة، فيلتقي زمرةً غريبةً من الأصدقاء والأعداء الذين يأتي كلّ واحد منهم ومعه حكاية: بدءًا من الفتاة المرحة، والسياسيّ الحقود، وانتهاءً بمقاتل انقلبتْ حياتُه بعد ما رآه أثناء الحملة اليابانيّة على منشوريا.

روايةٌ أخّاذة يمتزجُ فيها الهزلُ بالشرّ. عملٌ عبقريٌّ يضاهي في ميدانه روائعَ يوكيو ميشيما.

"من المستحيل أن تتوقَّف عن قراءتها".

DAILY TELEGRAPH

"قطعةٌ أدبيَّة مذهلة... لا شبيه لها".

NEW YORK OBSERVER

تصميم الغلاف نجاح طاهر

ISBN: 978-9953-89-722-6



دار الآداب